

اخترتنا بلك ١٠

فنه



داخل أوروبا

اليوم

JOHN GUNTHER

INSIDE
EUROPE
TODAY

and new book about Europe
in any way a revision of
author's classic "Inside
at a totally new work,
des vividly the per-
ems and tensions
the new, ex-
pe of today.

How Europe
Has Changed

Adenauer

U. S. Army
on the Rhine

Crisis
in Berlin

De Gaulle

Tragic Conflict
in Algeria

Italy—
What's Going On

Macmillan & the
Establishment

Struggle in NATO

Common Market
at Sixes and
Sevens

Khrushchev

بقلم جون جنتر

فی
رافیل اور روبا ایوم

تألیف
جون جنتر

الكتاب والمؤلف

لقد اشتهر الكاتب الأمريكي جون جنتر بطريقته في تقديم أجزاء عديدة من العالم للقارى بطريقة فريدة تنسم بالحوية والسهولة . وهو يجمع بين التاريخ والأحداث المعاصرة ، ويجعل المشاكل الهامة والشخصيات السياسية العالمية حية ومألوفة .

ويمكننا أن نتبين النجاح الباهر والشهرة التى تتمتع بها مؤلفاته من أن ما يباع من هذه المؤلفات فى العالم أجمع يقدر بعدة ملايين نسخة من كل كتاب ، وقد ترجمت كتبه إلى سبع وعشرين لغة .

وفى عام ١٩٣٦ كتب المؤلف تحفته الخالدة « فى داخل أوروبا » عالج فيه الأحداث التى كانت تدور فى أوروبا فى ذلك الحين ، أى قبل الحرب العالمية الثانية .

وقد كتب جون جنتر عدة كتب فى هذه السلسلة منها: « فى داخل آسيا » ، « فى داخل أفريقيا » ، « فى داخل أمريكا اللاتينية » ، « فى داخل الولايات المتحدة الأمريكية » ، « فى داخل روسيا اليوم » .

* * *

والكتاب الذى بين أيدينا — فى داخل أوروبا اليوم — يحوى

نخبة من الحقائق الشائقة التي حللها المؤلف تحليلاً شاملاً ، كاملاً كما يحوى عدداً من الشخصيات التي تعد جديدة بالنسبة لكثير منا ، والأحداث الهامة التي لم يكن في استطاعتنا متابعتها في مجال سياسة الدفاع الأوروبية والحركة الفردية من جانب بريطانيا ، والنزعات التي ترمى إلى توحيد أوروبا . وهو ينتقل بنا بين ألمانيا . ومشكلة برلين ، وفرنسا ، وإيطاليا وأسبانيا ، والبرتغال ، واليونان ، وتركيا ، والنمسا ، وإنجلترا ، ثم يعرض للأحداث التي تدور في الجزائر . ومن بين الشخصيات التي يعرض لها المؤلف : أديناور ، وخروشوف وديجول ، وما كميلان .

وهو يبدأ بألمانيا ويحلل شخصية المستشار أديناور ، ويناقش تقسيم ألمانيا بين شطريها الغربي والشرقي ، ويلقي الضوء على مشكلة برلين التي تعد محوراً دائماً للأزمة . .

ثم ينتقل إلى إيطاليا بمشا كلها الجديدة المعقدة ، ثم إلى أسبانيا ، والبرتغال ، وتركيا . وهو في كل ذلك يعرض الحقائق ويحلل الأحداث والشخصيات .

مقدمة

منذ خمس وعشرين سنة مضت ألفت كتاباً بعنوان «في داخل أوروبا»
راستعرضت فيه عالم أوروبا المعذب في أواخر الثلاثينيات ، وهو على
أبواب الحرب العالمية الثانية ، عندما كانت القارة تخضع لسيطرة ثلاثة
من الطغاة الكبار - هتلر ، وموسوليني ، وستالين . والآن ، وبعد
أن انقضى ربع قرن على ذلك ، أصبحت الارتفاعات والانخفاضات
المباشرة التي سببتها الحرب العظمى في التاريخ وراء ظهورنا ، ويعتبر
الوقت ملائماً لأن نلقي نظرة جديدة على أوروبا - شخصيتها المعاصرة ،
وقضاياها - والقوى التي تعمل فيها ، والمشاكل التي تعاني منها فكيف
يمكننا أن نقارن أوروبا اليوم بأوروبا في عام ١٩٣٦ ؟ وماذا حدث
في ربع قرن ؟ وما هي التغيرات الشاملة الجوهرية ؟

يمكننا أن نرى بعض المعالم الواضحة ، وأن نسجلها مباشرة فقد
اختفى الثلاثة الكبار العتاة - كما اختفى صغار الحكام المستبدون .
أمثال بلسودسكي وهورثي ، وميتاكساس ، وكال اتاتورك ، وكثير
من ملوك البلقان الكبار ، وملوكها الصغار كما أن الرايخ الثالث ، الذي
كان متدراً له أن يبقى ألف سنة ، قد طواه جوف التاريخ القبيح الذي
كان ينتمي إليه . واختفت المملكة الإيطالية كما اختفت كل من

الجمهورية الثالثة والجمهورية الرابعة في فرنسا ولكن انجلترا أعيدت إليها الحياة .

وفي عام ١٩٣٩ عندما نشبت الحرب لم يكن هناك غير ألمانيا واحدة فقط ، أما الآن فقد قسمت ألمانيا إلى دولتين .

وفي عام ١٩٢٦ لم يكن أي فرد قد سمع عبارة « الستار الحديدي » ، أو « التعايش السلمي » ، أما اليوم فنحن نعرف هذه العبارات حق المعرفة ولم يكن أي إنسان — فيما عدا حفنة من العلماء — قد فكر في استخدام الطاقة الذرية كوسيلة من وسائل الحرب ، ولم يكن اسم هيروشيا قد سمع إلا شخص واحد بين كل مائون شخص .

ولكن لنترك ذلك الآن وننتقل إلى عناصر أخرى .

إن أهم أوجه الاختلاف بين أوروبا في عام ١٩٣٦ وأوروبا في عام ١٩٦١ هو أن وقوع حرب شاملة في المستقبل القريب يعد أمراً بعيداً عن الاحتمال .

وحتى إذا كان هناك عدو عنيد مثل الاتحاد السوفيتي فإن خروشوف — على حد قول المستشار اديناور — لا ينوي إشعال حرب في الوقت الحاضر ولكن في عام ١٩٣٦ ، كان كل فرد على قدر ضئيل جداً من عمق النظر يعرف أن هتلر لا بد وأن يشعل حرباً .

فقد كان هتلر يريد الحرب ، ولا شيء دونها ولم يكن جبن مستر تشامرلين رددعه عن ذلك .

وكان الصراع المحيى وتهديده العنيف — ذلك الصراع الذى يهدد الانتشار فى العالم بأكمه على يد مجرم لا يمكن اقناعه بأية وسيلة من وسائل المنطق — يخيم على كل وجه كظل أسود مشئوم .

واليوم وليس هناك أى تهديد يشبه ذلك. فمع أن مستر خروشوف يمكن أن يكون شرسا ، وخشنا ، وغير مقبول ، كما يمكن أن يفقد أعصابه ، إلا أنه ليس بالرجل المجنون .

وإذا نحينا هذه العوامل الشخصية جانبا ، نجد أن هتلر لم يكن فى إمكانه أن يحصل على ما يريد إلا بالاعتداء المباشر على الحدود وبالحرب المكشوفة .

أما خروشوف فهو على العكس تماما من ذلك ، إذ لا يمكنه أن يحصل على ما يريد إلا بالاستفادة من فترات السلم من أجل أغراضه الخاصة . فتمد كان هتلر يتوق إلى إشعال الحرب — حتى فى مونيخ ، أما خروشوف فيتوق إلى تخفيف التوتر الدولى — طبقا لشروطه بالطبع .

وهناك نقطة هامة أخرى . فقد كان فى استطاعة هتلر أن يشن أشنع الحروب فى التاريخ وأكثرها دماء وتدميرا ، ولكن لم يكن بوسعه أن يحرق العالم بأجمعه بأن يضع أصبعه على أحد الأزرار . وإذا قدر للحرب أن تدور رحاها فى الوقت الحاضر — عن طريق خطأ استراتيجى فى التقدير ، أو نتيجة لخطأ أحق ظاهرا — فإن

الحضارة لن تبقى لها باقية . ولم يحدث في سابق التاريخ أن واجهت البشرية احتمال وقوع مثل هذه الكارثة الشاملة . ولذا ، فأمامنا عاملان هامين يجب أن نأخذهما في الاعتبار ، وهما يكملان بعضهما البعض إلى حد ما . أولهما ، ليس هناك أى فرد يسعى إلى إشعال الحرب (ربما كان ذلك باستثناء الصينيين) ، ومع أن الموقف العالمى متوتر ومزعج فلا يحتمل وقوع حرب ساخنة مكشوفة !

ثانياً : ولكن إذا قدر للحرب الشاملة أن تقع فسوف تكون هذه الحرب أشد خطراً من أى حرب مضت ، وهذا يرجع إلى حقيقة هامة وهي أننا دخلنا في عصر الصواريخ .

وعلى ذلك ، لماذا لا يشعر الأوروبيون بخوف أكثر عما يشعرون به اليوم ، إذا نظروا إلى القنابل التى تقدر بمئات الأطنان ؟ ولماذا يمضى غرب أوروبا فى ازدهاره ورخائه ولماذا يشعر بالثقة ؟ إن أحد أسباب ذلك هو التفاؤل فى فترة من فترات الثراء — فالناس لا يريدون أن يواجهوا الحقائق الآلئمة . وهناك سبب آخر هو الوضع الذرى المخرج . إن أمامنا اليوم عالماً منقسماً إلى مجموعتين متضاربتين ، نحن الشيوعيين، والحقيقة هى أن كلا منا يتمتع بقدره سريعة على التمسك على قوة الجانب الآخر أو النيل منها بدرجة بالغة ، وهذه الحقيقة تعد قوة تدعو إلى السلام . إذ أن أحد الجانبين لا يجرؤ على مهاجمة الآخر . ولكن هذا أيضاً يودى إلى التنافس الدبلوماسى العنيف الذى يمتد اليوم إلى قطاعات مثل لاوس وكوبا فى المجال الغربى ، وإلى أجزاء كبيرة

من أفريقيا التي كانت بعيدة تماما عن الصراع الرئيسي من أجل السلطة
في عام ١٩٢٦ .

وهناك اختلاف جوهري آخر بين أوروبا فيما قبل الحرب
وفما بعدها ، وهذا بالطبع ، هو قيام حلف الاطمانطي الذي يترتب عليه
وجود جزء كبير من قوات الولايات المتحدة الحربية والجوية والبحرية
في أوروبا وهذا - كما يجب أن يكون معروفا لدينا جميعا - يعد تطورا
لم يكن يدخل في حسابان الأمريكيين على الاطلاق خلال فترة العزلة
التي مرت في تاريخنا ، أي منذ عهد قريب جداً .

وقد كان لمشروع مارشال و « إدارة التعاون الاقتصادي » ، الأثر
في جعل غرب أوروبا ينهض على قدميه ، ثم ظهر حلف شمال الاطمانطي
إلى الوجود ، واستمرت المساعدات الحربية . وإذا كانت أوروبا اليوم
تختلف اختلافا بينا عى أوروبا قبل الحرب ، فإن جانباً هاماً من هذا
الاختلاف هو اتساع الحدود الأمريكية شرقاً . ففي عام ١٩٢٦ كان
لأوروبا سور مسامي يعرف « بخط ماجينو » ، أما اليوم ، فالقواعد
الأمريكية تنتشر فوق منطقة واسعة من أوروبا (وسواء أكان هذا
الوضع حكماً أو العكس فإنه يعد مسألة أخرى) ، كما أن جيش أمريكا
يتمف على نهر الراين .

وأخيراً ، تواجهنا حقيقة أخرى في مجال الاعتبارات العامة الواسعة
وهي أن فرنسا ، وألمانيا الغربية ، وإيطاليا ، والمملكة المتحدة -
هي الأخرى - لم تعد في عداد الدول الكبرى وهذا تطور في الأهمية
أدى إلى انتقال كثير من مسئولية القيادة الغربية إلى الولايات المتحدة

التي لم تثبت على الدوام أنها بلغت من النضج ما يجعلها تقبل مثل هذه المسؤوليات . ومنذ عام ١٩٤٩ عندما أنتجت روسيا قنباتها الذرية الأولى ، انقسم العالم إلى قوتين . وربما تصبح أوروبا نفسها بمرور الوقت (غرب أوروبا طبعا) قوة كبرى جديدة هذا إذا استمرت التطورات مثل السوق الأوروبية المشتركة وسارت نحو القوة والاندماج ولكن هذا الأمر بعيد منا في الوقت الحاضر . وكذلك هناك الصين ، وربما تصبح الصين توا ... لسوء الحظ - إحدى الدول الكبرى من طبقة روسيا والولايات المتحدة . ولكن العالم في الوقت الحاضر منقسم بين قطبين هما واشنطن وموسكو ، وأن أهم المشاكل العاجلة التي تواجهنا هي المحافظة على استقرار العلاقات بين هذين القطبين . وفي عام ١٩٣٦ كان العالم منقسما إلى مجموعة من الدول المتسارعية في قوتها تقريبا ، أما اليوم في عام ١٩٦١ فالعالم ينقسم إلى شطرين متوازيين - أحدهما لنا والآخر لهم ، بين عدوين هما الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، ولا تعد هذه قوى أوروبية في جوهرها على الإطلاق .

بعض التفاصيل — أوروبا الجديدة

ونسوق هنا بعض التفاصيل السياسية وغير السياسية التي تلقى الضوء على الاختلافات الأخرى بين أوروبا فيما قبل الحرب وأوروبا اليوم . وقليلًا ما نجد أن ربع قرن من الزمان تتخلله مثل هذه التغيرات الكبيرة . وإنتى أضع هذه النقاط دون اعتبار لترتيب أهميتها :

فتمد اختفت ثلاثة من الدول الصغيرة ، تلك هي دول البلطيق الثلاث : استونيا ، لاتفيا ، ليتوانيا ، وضمت جميعها للاتحاد السوفيتي في عام ١٩٤٠ . وكذلك أغار الروس على مساحات هامة من فنلندا وبولندا ورومانيا كما استولوا على جزء من شرقي بروسيا .. وأن إحدى نتائج تغلغل الروس في بولندا أن أصبحت حدود الاتحاد السوفيتي والمجر اليوم حدوداً مشتركة وقد تسبب ذلك في تسهيل مهمة الاتحاد السوفيتي عندما قضى الجيش الأحمر على ثورة الشعب المجرى في أكتوبر عام ١٩٥٦ قضاء وحشياً .

كما ظهرت دولة جديدة تلك هي جمهورية قبرص .

كما أصبحت كل من ألمانيا الشرقية وبولندا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمجر ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وألبانيا دولاً تابعة للاتحاد السوفيتي تدور في فلكه مع أن درجة تبعيتها تختلف ، وأن كتلة الدول التي تسيطر عليها روسيا تمتد من بحر البلطيق إلى البحر الأسود كما تمتد في داخل شرق أوروبا من نهر الدانوب حتى جبال الألب .. وقد فقد

ما يقرب من ١١٥ مليون نسمة من هذه الشعوب حريتهم ويعد هذا من بين أسوأ المآسي التي واجهت الحرب الحديثة .

أما يوغوسلافيا تحت حكم الماريشال تيتوفهي حالة خاصة ، إنها دولة شيوعية ولكنها ليست تابعة للاتحاد السوفيتي إذ أن تيتو شيوعي وطني .

كما أن النمسا التي ضمها هتلر إلى الرايخ بالنمسة في عام ١٩٣٨ أصبحت دولة حرة وهي الآن محايدة . وقد انسحب الروس من منطقة احتلالهم في النمسا في عام ١٩٥٥ ، وبهذه الحركة شق خروشوف طريقه إلى مؤتمر النمعة الأول في جنيف .

وقبل الحرب كان المحكام المطلقون ذوو الألوان المختلفة يحكمون ألمانيا (التي كانت تضم النمسا بعد عام ١٩٣٨ وتشيكوسلوفاكيا في غضون عام ١٩٣٨ - ١٩٣٩) وإيطاليا وأسبانيا ، والبرتغال ، والمجر ، واليونان ، وتركيا ، والاتحاد السوفيتي ، وبولندا ، ومعظم دول البلقان . ومن هذه الدول أصبحت ألمانيا (غرب الألب) وإيطاليا ، واليونان دولاً ديمقراطية في الوقت الحاضر . كما أن تركيا أطاحت بعدنان مندريس الذي كان يشبه الديكتاتور في عام ١٩٦٠ .

لم يبق من هذه الدول تحت سيطرة حكامها الذين حكموها في الثلاثينيات إلا ثلاث فقط هي أسبانيا والبرتغال وإيرلندا التي أصبحت جمهورية في عام ١٩٣٩ وانفصلت عن الكومنولث البريطاني . فقد أفلح فرانكو في القبض على زمام الأمور بصفة دائمة من عام ١٩٣٦ في أسبانيا ، كما أن سالازار يسيطر على البرتغال منذ عام ١٩٣٢ ،

ولكن دى فاليرا فى ايرلنده مر بفترات داخل الحكم وخارجها . .
ومن الغريب أن كلا من أسبانيا والبرتغال وايرلنده دول كاثوليكية
وتقع على الأطراف الخارجية من غرب أوروبا .

ومن بين الأنظمة النيلية التى بقيت دون مساس منذ الحرب هى
الأسرة المالكة فى بريطانيا وكذلك دولة الفاتيكان وكذلك الحزب
الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى، على أن هذا الأخير قد تغير بدرجة بالغة
منذ عهد ستالين . .

أما عن الأحداث السياسية الخاصة التى تخص دولاً أوروبية
بمفردها فإن أهم هذه الأحداث منذ الحرب كان الصلح بين فرنسا وألمانيا،
كما أن أهم قضية فى المستقبل هى قضية نزع السلاح .

كذلك فإن قتل هتلر لستة ملايين من اليهود بجرمة بشعة فى التاريخ
الإنسانى أدى إلى ظهور كلمة جديدة كريهة — افناء جنس بأكمله —
فى القاموس العالمى .

كذلك فقد اختفت عصبة الأمم القديمة فى جنيف . . وأصبحت
الأمم المتحدة فى نيويورك أكثر قوة وحيوية . . وأصبحت يوماً بعد
يوم تلعب دوراً هاماً فى الشؤون العالمية ، وبدون شك فهى أكثر قوة
من عصبة الأمم القديمة ، وهذا يرجع إلى أن الولايات المتحدة عضو
فى جمعية الأمم المتحدة كما يرجع إلى حماسة وقوة سكرتير الأمم المتحدة
الحالى داج همرشولد . ولكن لا جدال فى أن هذه المنظمة تختلف تماماً
 عما كان فى أذهان أولئك الذين وضعوا ميثاقها فى سان فرانسيسكو

عام ١٩٤٥ إذ يبلغ أعضاؤها اليوم ٩٩ دولة مقابل إحدى وخمسين دولة في اجتماعها الأول .

وقد بما كانت هذه المنظمة تخضع للدول الديمقراطية الغربية ولكن هذه الدول في الوقت الحاضر ليس لها إلا أغلبية طفيفة . إذ أن ٤٢ دولة من بين أعضائها ينتمون إلى الكتلة الآسيوية الأفريقية كما أن ٣٥ دولة من بين أعضائها يمثلون شعوبا سوداء أو ملونة .

كذلك فإن القوى الاستعمارية الأوروبية - بريطانيا وفرنسا ، وبلجيكا وهولندا - قد فقدت معظم مستعمراتها الشاسعة وستفقد الباقي فيما بعد . فقد تنازلت بريطانيا عن الهند ، وباكستان ، وبورما وسيلان ، والملايو ، والسودان ، ونيجيريا ، وغانا ، ودول كثيرة أخرى ، وفقدت فرنسا سوريا ، ولبنان ، والهند الصينية ، ومراكش وتونس كذلك فتمت سلبت بلجيكا للكونغو ، وما زالت نتائج هذا الاستقلال حامية في أنباء العالم ، وقد فقدت هولندا أندونيسيا ، وقد أصبح ما لا يقل عن ١٣ دولة في آسيا و ٢٢ دولة في أفريقيا على حريتهم ، وقد دخل ١٨ دولة أفريقية جديدة الأمم المتحدة في عام ١٩٦٠ وسيزداد هذا العدد فيما بعد ، ولو قار ذلك أحدهم في الثلاثينيات لاتهم على الفور بالجنون . تذكر المناقشات الحادة العديدة القيمة في البرلمان الانجليزي قبل الحرب عن المشكلة الهندية ، وكان مستر نهرو ما زال في السجن في أوائل الأربعينيات . ولا جدال في أن ظهور النوميات الآسيوية الأفريقية تطور جوهري عميق ، وانطوى عصر الاستعمار . فماذا يمكن أن يقول شبح كدشنر الآن ؟ ... أو شبح هنري مورتون ستانلي

أو الملك ليوبولد أو شبح دودس أو ليتي ؟ وقد قال مستر تشرشل مرة إنه لم يأت ليشرّف على توزيع الأمبراطورية البريطانية : ولكن هذا ما حدث بالضبط خلال ثمانية عشر عاما .

ويبدو أن الشيوعية مركزة في الاتحاد السوفيتي وفي الدول التابعة له ، ولكنها اختفت تقريبا على أنها قوة داخلية خطيرة في غرب أوروبا وهذا يعد تغيرا هاما منذ الحرب عند ما كانت إمكانية تقدم الشيوعيين واستيلائهم على السلطة في كل من فرنسا وإيطاليا أمرا محتملا ، ومن ناحية أخرى بعد الحزب الشيوعي في إيطاليا ثاني حزب من ناحية النمو كما أنه له أتباع كثيرون في فرنسا ، وكذلك فإن الشيوعيين يسيطرون على أكبر حزب في فنلندا وثاني حزب في اليونان .

كما أن القوى الاشتراكية إذا تحدا ثنا عنها من الناحية السياسية فإنها تعد ضعيفة في غرب أوروبا عما كانت عليه قبل الحرب مع أن السويد والنرويج لا زال بها حكومات اشتراكية أو عمالية كما أن الحزب العمالي يتمود الحكومة الائتلافية في الدانيمرك ، والنمسا تحكمها حكومة ائتلافية يشترك فيها الاشتراكيون الديمقراطيون بالتساوي ويعتبر الاشتراكيون الحزب الثاني في كل من بلجيكا وهولندا ، كما أنهم يتولون الزعامة في سويسرا .

ولكن حزب العمال في بريطانيا خسر الانتخابات العامة ثلاث مرات متوالية وكذلك حزب الديمقراطيين في ألمانيا .

ويبدو أن الاشتراكية في طريقها إلى التدهور من الناحية السياسية

في معظم دول أوروبا الصناعية ، كما أن اليساريين غير الشيوعيين قد فقدوا معظم حماسهم الاصلاحى وهذا يرجع إلى الرخاء وإلى أن المحافظين في كل مكان (وخصوصاً في إنجلترا) قد سرقوا معظم حماس الاشتراكيين

وربما تكون الاشتراكية في طريق الهبوط كقوة سياسية ، غير أن التغيرات الاشتراكية تسير في طريق التقدم ، إذ أن معظم الدول الأوروبية (فيما عدا الدول المتخلفة منها مثل أسبانيا والبرتغال) تعمل على تحقيق دولة الخدمات العامة في حدود نظام المشروعات الحرة ، ومن الواضح أن هذا يرجع إلى أن الفرصة تكون ضيقة أمام الحكومة لإعادة انتخابها مرة أخرى ما لم تأخذ على عاتقها مسئولية المواطنين بدرجة أو بأخرى في الخدمات الصحية ، والمساعدات الطبية ، ومعاشات المسنين ، والمساعدات التي تعطى في حالة عدم التشغيل الكامل والاشكال الأخرى من أشكال التأمين الاجتماعى ، ومن البديهي أن هذا ليس بالشئ الجديد إذ أن الدول الاسكندنافية أخذت بنظام دول الخدمات العامة منذ جيل أو أكثر كما أن اصطلاحات الجهة الشعبية بفرنسا بدأت في عام ١٩٣٦ كما أن ألمانيا أخذت بنظام الضمان الاجتماعى منذ عهد بسمارك .

ولكن حركة توسيع الخدمات الاجتماعية ازدادت بدرجة كبيرة منذ الحرب وأصبح العالم يقبل الفكرة القائلة بأن كل المواطنين يجب أن يشتركوا في عوائد الدخل القومى .

وإن ألمانيا الغربية تنفق مالا يقل عن ٣٠٪ من ميزانيتها على الخدمات الاجتماعية (بما في ذلك الاسكان ، كما تنفق إيطاليا ٧٪).

كما أن أوروبا الغربية تتمتع (منذ هذه اللحظة على الأقل) بازدهار كبير ، فلم تتمتع كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا بحالة أفضل مما هي عليه اليوم ، فيبدو أن الناس في كل مكان يملكون المال وهذا يساعدهم على الحركة والنشاط ، ولذا فإن المنظر يختلف تماماً عما كان عليه في الثلاثينيات عندما كان الاقتصاد راكداً

وقد اختفت الحاجة إلى مساعدات الولايات المتحدة الاقتصادية والمالية ، ويعد هذا تطوراً جوهرياً يحدد نهاية فترة ما قبل الحرب في تاريخ أوروبا كما يقول بعض المعقبين ، وفي الواقع أن الولايات المتحدة تبحث عن مساعدة أوروبا ، وليس العكس ، إذ أنها تعاني من نقص في رصيد الذهب في عامي ١٩٦٠ - ١٩٦١ ، وأن الإنتاج القومي الكلي في غرب أوروبا في الوقت الحاضر يزيد عن إنتاج الولايات المتحدة الكلي بمقدار ١٠٪ ومن المتوقع أنه في عام ١٩٧٠ سيصبح الدخل القومي الكلي في أوروبا الغربية ٨٠٠ بليون دولار مقابل ٧٤٠ بليون دولار ولم تعد أوروبا (طفل) أمريكا الذي يجب أن تتولاه بالعناية بل على العكس يصبح غرب أوروبا ككل بمرور الزمن منافساً لأمريكا في مجال التجارة .

إن أوروبا تشعر بالثقة وإمتها تمضي في طريق التقدم ، وهناك نقطة هامة أخرى يجب أن ندينها فالناس ينفقون المال ببذخ ، كما أن أوروبا

بها طبقة ثرية ولكننا إذا قارنا هذا الوضع بما كان عليه في عام ١٩٣٠ نجد أن الامتيازات قد قلت كما نجد أن ثورة اجتماعية كبيرة قد حدثت وهذا هو العالم الجديد لأن الغالبية العظمى من المواطنين المعدمين أمامهم اليوم فرصة لم يسبق لها مثيل لنيل قسطهم من التعليم والعمل المريح والشعور بالأمن في حالة كبر السن ..

ولا جدال في أن الملايين من الناس مازالوا فقراء ، ولننظر مثلاً إلى أسبانيا أو اليونان .

ولكن الفقر في معظم دول غرب أوروبا لم يعد مرتبطاً بالطبقة ، فقد اصطبغ المجتمع بالصبغة الديمقراطية .

فنظام الضرائب وخصوصاً في إنجلترا قد قضى على إمكان امتلاك الفرد لثروة باهظة عن طريق الميراث . كما أن الطبقة الأرستقراطية لا تزال قائمة في إنجلترا وغيرها كما أن قدراً كبيراً من الاقطاع لا يزال قائماً في أسبانيا وإيطاليا ..

ولكن معظم أوروبا اليوم يخضع لسيطرة الطبقة المتوسطة .. وبمرور الوقت ، وموت الجيل القديم ستنتفضي هذه الامتيازات .

ولكن فلنرجع إلى العناصر الأكثر أهمية ، إن أوروبا قد تغيرت بدرجة لا يدرك مداها .

ولكن هناك شيء واحد لم يصبه التغيير فعندما ألفت كتابي الأول بعنوان « في داخل أوروبا » منذ ربع قرن من الزمان بدأت بألمانيا

ذلك لأن ألمانيا - قلب أوروبا المتأرجح - كانت مفتاحاً لكل شيء،
ولا زالت ألمانيا كذلك.

ولكن ألمانيا اليوم منقسمة إلى شطرين ولن يستقر السلام في
أوروبا، ولن نصل إلى حلم دائم، إلا إذا وصلنا إلى تسوية لمشكلة
ألمانيا تلك المشكلة الدائمة الصعبة التي تثير السخط، ولذا فنحن نبدأ
رحلتنا في أوروبا مرة أخرى بألمانيا باعتبارها أول بقعة هامة، ولنبدأ
من النقطة التي عبر منها يوليوس قيصر والفرقة المسحة التاسعة من
جيش أمريكا نهر الراين.

رجل عجوز على ضفاف نهر الراين

حينما رأيت دكتور كونراد أديناور في أوائل عام ١٩٦٠ ، كنت أعتقد أنه يبدو في الخامسة والخمسين مع أنه كان يبلغ الرابعة والثمانين إن الشيخوخة لا تعرف طريقها إليه مثل الحكام الصينيين التمداء ..

وفي الواقع أن ملامح وجهه تميل قليلا إلى الشكل الصينى ، فعظام وجنتيه عريضة ، وجلده عاجى جميل ، وحواجبه مخفية تقريبا ، وأنفه طويل مندفع إلى الداخل عند طرفه مثل « التابير » ، تقريبا .. وأنه يبدو جميلا — نسيئا — لدرجة أن انتشرت الأسطورة الغربية التي تقول إنه مر بعملية تجميل بوجهه ..

ولا جدال في أن هذا غير حقيقى ولكنه كان يعاني من جروح شديدة في الوجه من جراء حادثة سيارة منذ سنين طويلة ، أوجبت إجراء عملية جراحية ، هي السبب — بين أشياء أخرى — في ميل عينيه اللامعتين الصغيرتين إلى الطابع الشرقى

على أية حال يبدو أن الدكتور أديناور غير قابل للفناء .. ولد هذا الرجل المتناسك في عام ١٨٧٤ ، حينما كان يوليوس س . جرانت رئيساً للولايات المتحدة ، وحينما كانت الملكة فيكتوريا في منتصف

حكمها ، وحينما كان الكسندر الثانى يحكم روسيا . وما زالت قوة إبصار الدكتور أديناور جيدة ، وسمعه أيضاً ، وما زال يعمل يوماً حيوياً شاقاً ، ولكنه يأخذ أغفائة طويلة بعد الأكل .. وإذا كان مسافراً إلى الخارج ، وعليه أن يحضر اجتماعاً عاماً .. فكثيراً ما يطلب وضع سرير له بالقرب من المكان الذى سينخطب فيه حتى يستطيع أن يستريح قليلاً قبل أن يظهر أمام الجمهور .

ودكتور أديناور - الذى لم تبدأ أعظم أيام حياته إلا حين بلغ الثانية والسبعين - لا يعيش فى بون نفسها ، عاصمة جمهورية ألمانيا الاتحادية - كما تسمى ألمانيا الغربية رسمياً - وإنما يعيش فى ريندروف ، وهى ضاحية على بعد أميال قليلة عبر الراين حيث يعيش هناك منذ سنين عدة ، وحيث توصل أربع وخمسون درجة من الشارع إلى بوابة فيلته ، وهى التى يصعد بها يومياً ، ليس بخفة الطفل ، ولكنه يصعد بها أحياناً أسرع من زائريه .. أما إذا كان اليوم متعباً ، فإن جولة بين الأزهار أو زجاجة من نبيذ الراين المعتق تعيد إليه نشاطه .. وهو يحب أن يلعب لعبة البوكى - وهى تشبه لعبة كرة إيطالية - وعنده ملاعب خاصة لها فى كل من بيته ودار المستشارية ، وهى قصر اسكبيرج فى بون . أن الدكتور أديناور ظاهرة طبيعية مذهلة .. بيد أن سلوكه ما زال حاداً ، وصريحاً ، وجريئاً . وإن الناس يتحدثون بلا انقطاع عما سيحدث فى ألمانيا حينما يموت أديناور ، كما لو كان هذا سيحدث غداً ، ولكن من الجائز أن يعيش سنين طويلة .

والمصادر الرئيسية لقوة أديناور عديدة :

أولاً — حقيقة عمره نفسه . فإنه قد أصبح نوعاً من « صورة جد » . . . وهو ليس محبوباً بالضرورة ، فإنه لا يثير كثيراً من الحب ، نظراً لأنه قاس جداً ، وعنيد جداً ، ومتحكم جداً ، وما كر جداً . . . « إنه جدنا الذى يحكى لنا القصص الخيالية » . . . هكذا قال أحد معارضي السياسيين . . . وقال آخر « إنه ليس صورة للجد ، إنه صورة شبح » . . . فليكن ما يكون . . . ولكن دكتور أديناور ، حتى لو لم يكن محبوباً . فإنهم يحترمونه جميعاً تقريباً ويعجبون به . . . إنه يملك جاذبية روحية قوية . . . وأكثر من ذلك فإن شيخوخته مظهر خادع ، درع واق له من كل هجوم .

ولقد قال لى معارض من أكبر معارضي السياسيين ، ديمقراطى اشتراكى إنه لم يعد يشعر بالحرية فى الضغط عليه بشدة فى أى هجوم سياسى ، فإنه ليس من الرياضة أن تسدد الرمح بشدة ، مع أن المستشار قادر على حماية نفسه تماماً فى أية مناقشة . . . وأخيراً ، فإن التجربة ميزة للعمر — أو هكذا يجب أن تكون — وإن الدكتور أديناور يتمتع بكنز لا يبارى من الخبرة السياسية .

وثانياً — نجاحه . . . فلا جدال فى أنه قد ارتكب أخطاء ، ولكنه حول ألمانيا — فى الإحدى عشرة سنة من حكمه المستمر — من حطام تام إلى أعظم دولة قوية وموسرة ، وواثقة من نفسها فى القارة كلها . . . هذه الدولة التى نهضت من ألفافة والعوز الكامل فى عام ١٩٤٦ ، والى وصل مجموع إنتاجها القومى ٧٠ مليون دولار عام ١٩٦٠ ، ووصل احتياطها من الذهب إلى ١٢٩ مليار ٢ مليون دولار ، وتعتبر ثانياً

كبر دولة في العالم، ويصل مجموع احتياطيها من الذهب والعملات
لأجنبية إلى حوالي ٧ بلايين دولار، وقد زاد إنتاجها الصناعي ٨٥٪
منذ عام ١٩٥٣ .

ثالثاً — تأييد أمريكا . .

رابعاً — لا يوجد أحد في ألمانيا يؤيده كحكتك للإدارة السياسية
فهناك كثير من السياسيين الألمان المحنكين، ولكن أديناور يغطي
عليهم جميعاً، سواء كانوا من أعضاء حزبه أو من المعارضة . . ان
أديناور . . . ولنضع ذلك في الاعتبار — ليس فقط الرئيس الإداري
للحكومة، ولكنه أيضاً قائد مشرع، وإن مهارته في كلا الناحيتين
لا تبارى . . وقد تحدث تغيرات سياسية هامة في ألمانيا، بعد وقت قصير،
ويصبح ويلبراندت عمدة برلين الغربية، منافساً قوياً للمستشار
في الانتخابات المقرر إجراؤها هذا العام.

خامساً — إن أديناور يناضل من أجل ما يبدو أن سكان ألمانيا
الغربية يطالبون به اليوم: السلام، والاستقرار والتودد لفرنسا،
والتكافل مع أوروبا . . وغنى عن القول، أن هذه الشروط مقبولة
خاصة بعد عدم كفاية جمهورية فيمر، وبعد اثنتي عشرة سنة من
الوحشية العسكرية تحت حكم هتلر، وبعد كارثة الحرب العالمية الثانية.
وقد قال لي أحد الألمان الموقرين «أنا لا أحب أديناور ولكنه
أنهى النزاع المحزن عبر نهر الراين، وسأشعر بالضيق بعد أن يموت . .
والميزة الرئيسية للمستشار أديناور، بجانب مناته وقوة تحمله.

وشجاعته وحكمته السياسية، هي قدرته على تبسيط الأشياء ، وهي ميزة غير عادية نوعاً بين الألمان . .

ولكن هتلر (الذى لا يمثله أديناور فى أية ناحية أخرى) كان يمتاز بها أيضاً . . فإن هتلر بنى كل حملاته الوحشية تقريباً على بعض نقاط قليلة ، معروضة ، ببساطة وتفهم بسهولة : مجال حيوى ضد السامية إلغاء معاهدة فرساي ، القوة الحربية . . وبعض المفاهيم مثل الامبراطورية الشعب ، الزعيم . .

وأديناور أيضاً من أصحاب الأفكار القليلة نسبياً ، ولكنه يتمتع بموهبة فذة فى جعلها مفهومة للشعب على نطاق واسع . . وهو يحب أن يشرح سياساته فى أسلوب سهل ، وهو رجل منطقي يستطيع أن يجعل من الجمل الطويلة جملاً قصيرة (وهذه ميزة أخرى غير عادية بين الألمان) وأحد أفكاره المحببة هي « إذا كنت معقداً فإنك تصبح على الفور عميقاً وعديم التأثير » .

ومن ناحية أخرى ، فإنه يتمتع بما يوصف بالعقل « الأسود » . . وهذا لا يرجع فقط إلى محافظته العميقة ، ولكن أيضاً إلى شكله ، أى حساسيته المفرطة نحو الخطط الخيالية والمؤامرات والخداع .

و ذات مرة كتب دكتور أديناور مقالا قصيرا لمجلة (ودرزديجست) قال فيه : إنه تعلم أنه حينما يتعب يمكنه أن يستعيد نشاطه بسرعة بوضع قدميه فى إناء به ماء مثليج ليدفع الدم إلى رأسه . . وهناك سمة أخرى لطيفة ، وهي أنه يملك أسنانا جميلة ، وأنه خلال اجتماعات مجلس

الوزراء الطويلة يتسلى بقطع الشيكولاته .. ولكن لا يجب أن نخدع بهذه التفاهات ، فإنه رجل قوى ، عزيمته لا تنثنى ، وغير متردد ، ولا تم ملاح وجهه عما يعتمل بداخله .

وقصة حياة أديناور معروفة جداً ، ولسنا بحاجة إلى أن نحكيها من جديد . . فهناك ثلاث قوى ساعدت على تشكيله — الطبقة ، الدين ، الجغرافيا — وهذه القوى هامة جداً ، فقد جاء من والدين ينتميان للطبقة المتوسطة (كان أحد أجداده خبازاً) ذات الجذور العميقة في البروقراطية . . ولا جدال في أنه مخلص للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، يجب أن يعتقد أن الله بجانبه ، وأن الله من المحافظين .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن أديناور ينتمى إلى حركة أرض الراين الانفصالية ، أى أنه ألماني يستطيع أن ينظر إلى الورا إلى سكان أوروبا الأغنياء وأيضاً إلى التراث التيتونى . . وأن الأقوال الإسمية تنكر ذلك دائماً ، ولكن هناك كثير من الأسباب تدعو إلى الاعتقاد بأنه انضم إلى حركة أرض الراين الانفصالية بعد الحرب العالمية الأولى ، أى أنه كان مستعداً للتنازل لفرنسا عن ألمانيا . .

أما عن آرائه نحو بروسيا وألمانيا الشرقية — اللذين يناقضان حركة أرض الراين — فقد حكيت عنه قصة لطيفة ، ذلك أنه عندما كان يأخذ القطار إلى برلين . فى الأيام الماضية ، ويعبر جبال الألب ، كان يتمم « لقد دخلنا آسيا الآن ، . . ولكنه لم يذهب إلى حد أن يعتقد أن بروسيا وبوميرانيا وبراندنبرج ومثيلاتها ، كان يسكنها البدو

والمغول ، ولكنه كان يعتبر جبال الالب كما هي في الحقيقة اليوم . .
حدوداً لألمانيا .

وحينما استولى الأمريكيون على كولونيا قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية بقليل ، استدعى أديناور من التقاعد وعين من جديد في منصبه القديم كعمدة لكولونيا . . كان هذا في عام ١٩٤٥ ، وكان أديناور في ذلك الوقت في التاسعة والستين ، وكان الحلفاء في حاجة ملحة لإداريين « نظاف » لم يتعاملوا من قبل مع النازي ، وكان من الصعب الحصول على رجال الخبرة والمهارة في ذلك الوقت ، وقد كان اختيار أديناور موفقاً ، مع أنهم كانوا يعتقدون أنه كبير في السن بعض الشيء . . ولكن الأمور لم تسر على ما يرام بعد أن خضعت منطقة كولونيا للاحتلال البريطاني ، فقد أطلق عليه أحد الضباط الانجليز في عام ١٩٤٧ النار « لعدم كفاءته » . . ومعنى ذلك أنه كان متحكماً جداً بالنسبة للذوق الانجليزي المحلي .

وقد قرر أديناور أن يدخل ميدان السياسة القومية ، وبدأ في تأسيس حزب الوحدة الديمقراطي المركزي . . ذلك الحزب الذي ما زال يتزعمه إلى اليوم . . وقد أصبح مستشاراً في عام ١٩٤٩ ، كممثل لائتلاف حصل على أغلبية اثنين فقط في البندستاج . وقد كسب الانتخابات العامة مرتين في عامي ١٩٤٣ و ١٩٥٧ ، وكانت الانتخابات الأخيرة تسمى « استفتاء أديناور » . . وارتفع عدد الأصوات التي حصل عليها من ٤٥٪ في عام ١٩٥٣ إلى ٥٠٪ ، وهي أغلبية طفيفة ولكنها كافية . وقد كان في نفس الوقت وزيراً للخارجية من عام

١٩٤٩ إلى عام ١٩٥٥ وفي الحقيقة أنه مازال كذلك ، حتى بعد أن تولى شخص آخر ، وهو دكتور برينتانو ذلك الرجل القدير ، ولكنه مختلف دائماً، فهو في هذا المنصب بصفة إسمية .

وأن أديناور يفكر دائماً بعقله المنطقي ، ولكنه متحذلق ببعض الشيء . . . فقد حاول أولاً توحيد المناطق الثلاث التي يحتلها الحلفاء في ألمانيا الغربية ليملأها قنطرة للحرية من السيطرة الأجنبية ، وثانياً حاول أن يثبت من وضع الجمهورية الاتحادية الجديدة حينما أصبحت دولة ذات سيادة في ٥ مايو عام ١٩٥٥ ، وثالثاً حاول أن يحصل على احترام المنتصرين في الحرب العالمية الثانية ويصبح حليفهم الثابت ، رابعاً حاول إعادة تسليح ألمانيا الغربية وضمها إلى حلف الأطلسي .

وقد حقق كل ذلك . . أما الخامس العظيم — وهو توحيد شطري ألمانيا — فلم يتم بعد .

وبلا جدال فإن دكتور أديناور له عيوب وقيود . . وحكمه شخصي تقريباً بلا منازع ، وهو يرسل القانون إلى مجلس الوزراء في أسلوب مؤكد وكل شيء يعتمد كثيراً على رغبة — أو هوى — المستشار لدرجة أنه ليس هناك أحد يتجرأ على إبراز سلطة كبيرة غيره ، وإذا كانت هناك مشكلة ذات أهمية كبيرة فإنها تسمى « مشكلة المستشار » ولا يسمح لأي شخص أن يلمسها إلا أديناور نفسه . ونتيجة لذلك فإن الحكومة — كما سمعت أحد الدبلوماسيين الكبار

وفى بون يصفها - (متداعية) نوعاً ما . الرأس قوية ولكن الأرجل ضعيفة ، وبذلك يكون الاتصال خاطئاً ، وتكون إحدى الوزارات جاهلة كل الجهل بما تقوم به وزارة أخرى فى الشؤون العامة .

وهذه خاصة من خواص الدكتور اديناور وذلك أنه لا يميل إلى الاقتصاديات ، التى غالباً ما تعتمد عليها السياسة ومنذ وقت قصير همس أحد مساعدى المستشار فى أذن مساعد آخر وقال : « يجب على أحد منا أن يذهب إلى المستشار ويبين له ما هى التعريفات الجمركية ، ولكن عدم اهتمامه بالاقتصاديات فى معناها المجرى لم يمنعه من أن يكون داعياً متحمساً للوحدة الاقتصادية الأوروبية أو للسوق الأوروبية المشتركة ، حتى بعد أن أدى ذلك إلى صراع عنيف بينه وبين الدكتور ايزهارد ، وزير اقتصاده ، ذلك الرجل المتشدد الذى يعارض سمات معينة للسوق المشتركة لأن العنصرية معناها أن ألمانيا سوف ترفع من تعريفاتها الجمركية . ويعتقد دكتور ايزهارد أن ذلك سيضر بالصناعة الألمانية ، ولكن دكتور اديناور سيطر عليه وجعله يرضخ لهذا القرار . وأحد أصدقاء المستشار المقربين دكتور وولتر هالستين وهو موظف سابق فى وزارة الخارجية ، يشغل الآن وظيفة رئيس اللجنة التنفيذية للسوق المشتركة فى بروكسل وقد ساعده اديناور فى تعيينه فى هذا المنصب ويعتبر اديناور السوق المشتركة ، وسيلة هامة وسامية لتعزيد رغبته الغالبة ، التكامل السياسى لألمانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، ودول البينيلوكس . وقد قال لصديق له منذ وقت قصير « لآتى أريد أن أعيش

فترة أطول لسبب واحد — وهو أن أرى ولايات أوروبية متحدة في عهدى .

وكان يمكن لهذه الجملة أن تتمشى أكثر مع عقيدة دكتور اديناور الداخلية إذا كان قال «ولايات متحدة لأوروبا الغربية» ، وكما هو معروف فإن عداوة المستشار للاتحاد السوفيتى ثابتة لا تتغير ولا تتبدل . . . وهناك نقطة صغيرة وذلك أن اسمه فى الحقيقة جون فوستر اديناور (أى نسبة إلى جون فوستر دالاس عدو روسيا اللدود) ويبدو لأصحاب العقول المتحررة أن أراءه نحو روسيا مظلمة وقديمة . إن عنده مفاهيم قليلة للقوى الجديدة التى تهب على العالم ، فإن عتمه — على حد قول ناقديه — ليس فقط مقفولاً بل أيضاً مجذب وعقيم . إذ يبدو أنه لم يشعر بعد بأن ثلث العالم شيوعى ، وأنه فى المدى الطويل سيكون البديل الوحيد للحرب نوعاً من التسوية مع الاتحاد السوفيتى ، بصرف النظر عن سياسته الوحشية والأخلاقية ويعتقد كل من ديجول فى فرنسا وما كميلان فى إنجلترا أن تخفيف التوتر مع روسيا طبقاً لشروط معقولة — أمر هام جداً ، وحتى بعد انهيار مؤتمر القمة فى مايو عام ١٩٦٠ يجب العمل بكل قوة على الوصول إلى هذه التسوية ولكن اديناور لا يعتقد ذلك أبداً فالرجل العجوز ثابت لا يتحرك مثل غابات دزاشينفيلز التى تقع بالقرب من منزله .

ومهما يكن من أمر ذلك ، فإن ما قام به اديناور فى سنوات حكمه الحادية عشرة عظيم جداً وهائل . فإنه هو ، وهو ما زال يتمتع بالقوة فى أواخر السبعينيات من عمره ، الذى جعل فى الامكان هذا التغير

المنتظم من نظام النازى إلى حكومة برلمانية . وهو الذى أخرج ألمانيا من نيران الدكتاتورية الشريرة ، ومن الهزيمة ، ومن الفوضى الحارقة إلى أحضان العالم الديمقراطى ، وكان لابد أن تكون هناك قنطرة ، ولقد بناها اديناور ، وعلاوة على كل ذلك فقد استطاع أن يجعل التودد الفرنسى الألمانى حقيقة دائمة لأول مرة بعد أكثر من ثلاثمائة عام ، وارتفع بألمانيا الغربية إلى مجتمع الأمم المتحضرة ، وأنه يريد بأية طريقة وبأى ثمن أن يحافظ على وطنه من الضياع والانهيار ثانياً .

الأصدقاء والخلافة

واديناور ، وهو ألوف واجتماعى مثل العصفير ، له مئات من الأصدقاء . ومن بينهم (وهذا شيء غير عادى إلا فى إنجلترا) كثير من أعدائه السياسيين مثل ويلي براندت . والدائرة الداخلية تتكون من مجموعة صغيرة من الأشخاص معظمهم من كبار السن . الأغنياء ، وبالتأكيد فى جانب المحافظين أحدهم هيرمان ابس وهو من أقوى رجال المال فى ألمانيا ، وآخر هو دكتور هينرك كرون المتحدث البرلمانى باسم الاتحاد الديمقراطى المسيحى . - ويقول بعض المراقبين إنه المستشار السياسى المقرب من المستشار . وأيضاً هناك دكتور هانز جلويك . وهربرت بلانكينهورن وفيلكس فون كاروت وآخرون . وغنى عن القول أن أحداً من هؤلاء الرجال لن يستطيع أن يصبح خليفة لاديناور ، ولكن المرشح المباشر الظاهر الذى سينخلف اديناور - هذا إذا بقى الاتحاد الديمقراطى المسيحى فى الحكم -

هو دكتور ايرهارد ، برغم الخلافات المتكررة فى الرأى بينه وبين المستشار . وبعد ايرهارد يمكن أن يخلفه الشاب القوى فرانز جوزيف ستراوس وزير الدفاع . وهناك حصان أسود هام هو يوجين جير ستينماير ، الرئيس المتحدث باسم البوندستاج . وهو شخصية قوية فى الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، وقد اشترك فى مؤامرة عسكرية فاشلة لقتل هتلر فى يوليو عام ١٩٤٤ . وبهذا الشك فيمن يخلف دكتور اديناور ، نشعر بقدر كبير من القلق عندما نتذكر أن اديناور قد بلغ من العمر الخامسة والثمانين .

بون . . قرية ذات طابع خاص

ولا يمكننا أن نتبين الاختلاف الشديد بين ألمانيا ما قبل الحرب إلا بعمل مقارنة بين بون ، العاصمة الحالية وبين برلين تلك المدينة التى تشبه مدن سدوم وعمورة . ولا يمكننا أن نفهم اديناور تماماً بدون أن نتذوق جو بون . (من الناحية الفنية ، ما زالت برلين «عاصمة» ألمانيا وليست بون إلا العاصمة «البديلة» و «مقر حكومة» الجمهورية الاتحادية . ولكن بون ستظل فى وضعها الحالى لفترة طويلة) . وتعتبر بون أقوى قرية فى العالم ، حتى الألمان يسمونها قرية . بسخرية أحيانا وبمحببة أحيانا أخرى ، وقد اتسعت بون عما كانت عليه فى عام ١٩٤٩ ويبلغ عدد سكانها ١٣٨٠٠٠٠ نسمة .

من الذى يحكم الجمهورية الاتحادية ؟

١ — أديناور والاتحاد الديمقراطى المسيحى اللذان يسيطران على ٢٧١ مقعداً من ٤٩٧ فى البندستاج وللديمقراطيين الاشتراكيين ١٦٩ مقعداً . وهم الحزب المعارض الهام .

٢ — رجال الصناعة الكبار فى أرض الراين - منطقة الروهر - وهم يعضدون الاتحاد الديمقراطى المسيحى بقوة ، ولهم أغلبية كبيرة فى البندستاج ، فمن المعتقد أن ما يقرب من سبعين نائباً يمثلون الصناعات الضخمة مباشرة . ولكن لا داعى إلى الاعتقاد بأن المستشار تحت سيطرة رجال الصناعة هؤلاء . إنهم فى جيبه وليس العكس ، فلا يوجد أحد فى ألمانيا يتحدث لا ديناور عما يجب أن يفعله ، حتى ولا الفريد كروب نفسه .

٣ — المقاطعات أو الولايات التى تتكون منها الجمهورية الاتحادية . هناك عشر منها وهى ممثلة فى مجلس البرلمان الأعلى أو البندسرات . وهى مثل الولايات الأمريكية فى أنها تتمتع بشخصية محلية معتمولة ولها نفوذ أيضاً ، وهى مستقلة فى شئون كثيرة مثل التعليم . وهناك ثلاث مقاطعات تحكم حكومات ديمقراطية اشتراكية فى الوقت الحالى . ويقول ليجند : إن الولايات أعطيت مثل هذه السلطة الكبيرة حينما أنشئت ألمانيا الغربية وذلك لسببين :

الأول : أن الفرنسيين اعتقدوا فى ذلك الوقت أن زيادة حقوق

الولايات سيضعف من قوة الحكومة المركزية ، وكانوا يريدون أن تظل ألمانيا ضعيفة .

والثاني : هو أن الجنرال لوكيس كلاي ، الذي لعب دوراً كبيراً في هذا التطور ، هو نفسه من الجنوب واذلك فمن الطبيعي أن ينضم إلى جانب حقوق الولايات . وإنه لمن المهم أن نذكر هنا ونحن نتكلم عن المقاطعات ، أن بروسيا التي حكمت ألمانيا ما يقرب من مائتي عام ، قد انهارت ولم تعد موجودة حتى ولا على الخريطة .

٤ - الكنيستان - الكاثوليكية والإنجيلية (البروتستانت) -
فأحياناً يقول بعض الناس : إنه بما أن أديناور كاثوليكى فإن الاتحاد الديمقراطى المسيحى حزب كاثوليكى نتيجة لذلك ، مثل الحزب الديمقراطى المسيحى فى إيطاليا ، ولكن هذا ليس صحيحاً ، فحينما أسس أديناور الحزب فإنه اختار . عن عمد ، ألا يتبع نظام الحزب الكاثوليكى الخالص القديم ، بل إنه عمل كل ما فى وسعه للحصول على تأييد البروتستانت أيضاً ، فإنه كان يعرف إن عليه أن يحصل على تأييد البروتستانت الذين يكونون ١٥ ٪ من الأمة .

وفى هذه الأيام - وهى ظاهرة تدعو للاهتمام - هناك جهود تبذل فى الدوائر الحكومية العليا للحفاظ على موازنة بين الكاثوليك والبروتستانت ، فإذا كان (ا) فى وزارة معينة كاثولوكى فإن السيد (ب) - الذى يأتى بعده فى الترتيب - لابد وأن يكون بروتستانيا ثم يأتى السيد (ج) فيكون كاثوايكيا وبعده السيد (د) بروتستانيا وهكذا

حتى آخر القائمة . وهناك تقليد يفترض أن رئيس الجمهورية والمستشار يجب أن يكونا من عقيدتين مختلفتين ، وهذا حقيقى طالما أن دكتور تيودور هيس ، رئيس الجمهورية ، بروستاتى وخليفته دكتور هنريك لوبيك كاثوليكي — أما فى وقتنا الحالى فإن كلا من رئيس الجمهورية والمستشار كاثولوكيان .

٥ — الاتحادات التجارية ، التى تمثل صورة مختلفة ، والأصوات الزراعية وهى محافظة تماماً . ويبلغ عدد الفلاحين ١٢ ٪ من مجموع سكان ألمانيا الغربية .

٦ — « المواطنون الكبار ، — أى الطبقة المتقاعدة مع مئات الآلاف الآخرين من هؤلاء والذين يتمتعون بالضمان الاجتماعى ، .. ومعظم هؤلاء ريصون على حماية حقوقهم ومكاسبهم العظيمة . وعليها أن نتكلم قليلا عن الصحابة ، وهى تعتبر قوة عظيمة لاستمرار المبادئ الديمقراطية الجديدة . وفى ألمانيا الغربية ما يزيد على سبعة آلاف نشرة و (يبلغ التوزيع الإجمالى حوالى ٥٢٠٥ مليون نسخة) . وفى هذا العدد ما لا يقل عن ١٥ ألف صحيفة .

وبما لا جدال فيه أنه يصعب علينا أن نحصى كل القوى التى تعمل فى ألمانيا المعاصرة .. ولا يحق لأى فرد منا أن يكون منحازاً ، وأحد الأسباب الهامة لذلك هى حقيقة مدهشة ، وهو أن واحداً بين كل أربعة أفراد من سكان ألمانيا الغربية يكون إما لاجئاً أو هارباً ، ولم يندمج بعد كثير من القادمين الجدد فى الحياة الألمانية .. ومن بين

مجموع السكان البالغ عددهم ٥٣ مليوناً .. نجد أن حوالي ١٣ مليوناً منهم لم يعيشوا في ألمانيا الغربية قبل الحرب . وقد اضطر بعض هاربين إلى الخروج من تلك المناطق التي كانت ألمانية ذات يوم، والتي تقع شرق خط أودر - نيس ، والتي وضع الروس وحلفاؤهم أيديهم عليها في نهاية الحرب ، وقد استوصل سكان هذه المناطق من الألمان من آخرهم وطردها خارجها بالقوة . أما الباقون فهم يمثلون تيار لاجئين الذين يهربون من النظام الشيوعي في ألمانيا الشرقية اليوم . من الواضح أن جمهورية ألمانيا الاتحادية بما يتدفق عليها من مهاجرين هاربين بلغ عددهم ما لا يقل عن ١٣ مليوناً ، تعتبر في حالة صهر - جسماني وعاطفي - يتبخر معه كل تطور . وأن ألمانيا الغربية اليوم بلد جديد .

٣ — التيارات المختلفة في الجمهورية الاتحادية

لقد تغير وجه ألمانيا في الربع قرن الماضي أكثر من أي دولة أوروبية أخرى ، فانظر إلى خريطة الرايخ المتسعة أيام هتلر، ثم احسب الانكماش الذي طرأ على ألمانيا في الوقت الحاضر ، فقد كانت مملكة هتلر في أوج عظمتها تمتد من طرف النرويج الشمالي إلى جبال البرانس، من أعقاب موسكو والقاهرة إلى جبال القوقاز .. وقد سحقت جيوش

النازي أو ردت على أعقابها ، وأصبحت النمسا اليوم حرة ، وعادت
السوديت إلى تشيكوسلوفاكيا ، وفقدت أراضي شاسعة في الشرق ..
وعلاوة على ذلك فإن الأمة الألمانية قد قاست مصيراً محتوماً قاسياً ،
ذلك هو التقسيم . فهناك اليوم دولتان ألمانيتان أو ثلاثة (إذا أخذنا
في اعتبارنا المناطق الشرقية التي دخلت اليوم في بولندا والاتحاد
السوفييتي) .. ويمكننا من ناحية أخرى أن نذكر تفاصيل كثيرة
مثل اختفاء بروسيا التي تحركت نحو الشرق ، إذا جاز لنا أن نقول ..
ولكننا إذا سلمنا بكل ذلك تبقى أمامنا أسئلة خطيرة ، فهل تغيرت
ألمانيا — وأعني بذلك ألمانيا التي تخضع لحكم اديناور وتتبع الغرب —
هل تغيرت ألمانيا هذه ؟ .. وهل يمكن لأية دولة أن تتغير في الواقع ؟
ربما يكون الجواب بالإيجاب .. إذا كانت الصدمة عنيفة ..
فلا جدال أن روسيا اليوم تختلف عن روسيا في عهد القيصرية .

وحيثما ذهبت في ألمانيا اعتدت أن أسأل سلسلة من الأسئلة
المتراصة .. فهل ما زال الشعب الألماني يحترم السلطة ؟ وهل وجدت
الديمقراطية الجديدة لتبقى ؟ .. وما هو تفكير الرجل الألماني العادي
عن هتلر في الوقت الحاضر ؟ .. وهل هناك أي احتمال لإحياء حركة
النازي من جديد ؟ .. وكيف تعد ألمانيا الجديدة قومية ؟ .. وهل
في الإمكان أن يشن الشعب الألماني حرباً أخرى ؟ .. وكل ذلك يرتفع
بنا بالطبع إلى نفس السؤال الهام وهو : هل تعلم الشعب الألماني من

الدرس الذى مر به ؟.. وهل ما زال الشعب الالماني يعاني من نفس النزعة العدوانية التى لا يمكن إصلاحها ، والروح العسكرية والنزعة التوسعية ؟ أو هل أصلحته مأساة الحرب العالمية الثانية أخيراً وروضته ؟

هذه أسئلة صعبة ، ولكنى سأبذل جهدى لكى أعطي مائخصاً وافياً للإجابات التى حصت عليها .

هل ما زال الشعب الالماني يحترم السلطة ؟ .

نعم ، فالمستشار اديناور نوع من الحاكم المطلق بنزعاته الطبيعية .. ومعظم الشعب الالماني — بكل احترامهم الطبيعى للقيادة والسلطة — يحترمه لهذا السبب .. ومن ناحية أخرى ، فإنه ليس دكتاتوراً تماماً من الناحية الدستورية ، وأقل كثيراً من شخصية هتلر .. ومن ناحية أخرى فإن المعارضة القوية الساهرة — تبعاً للإجراءات والمبادئ الديمقراطية — تراقب كل خطوة وقفزة له .

أما الجواب عما إذا كانت الديمقراطية ستثبت أقدامها فى ألمانيا أم لا ، فإن ذلك يعتمد إلى حد كبير على العوامل الاقتصادية .. فإذا ما انهار الحاضر -- بكل ازدهاره — وأتى الانكماش والركود العنيف ، فإن أى شىء يمكن أن يحدث .. ولحسن الحظ فإن الديمقراطية والحالة الاقتصادية المزدهرة تسير جنباً إلى جنب .

وهناك عامل أدى إلى انهيار جمهورية فيمار ، بجانب الصعوبات الاقتصادية والتضخم المالى ، ذلك هو زيادة عدد الأحزاب المتنازعة

التي كانت عبئاً على الديمقراطية ، وعامل آخر هو اساءة استعمال سلطات رئيس الجمهورية . . . واليوم لا توجد مثل هذه الظروف ، فألمانيا الغربية تتمتع بنظام الحزبين السليم (نظام الحزبين الوحيد في أى بلد أوروبى هام ما عدا إنجلترا) . . . ورئيس الجمهورية شخصية هامة ، وقد نال الحزب الديمقراطي المسيحي الذى يرأسه أديناور ٥٠٪ من عدد أصوات الناخبين مع البافاريين المؤيدين له ، وقد نال الاشتراكيون الديمقراطيون حوالى ٣٥٪ من عدد أصوات الناخبين .

وبمعنى آخر نجد أن اثنين من الأحزاب الكبيرة جداً المنظمة المترابطة تسيطر على أكثر من أربعة أخماس الناخبين فى الدولة . . . ولكن الحزبين الآخرين الممثلين فى البوندستاج أحزاب غير ذات شأن . . . الديمقراطيون الأحرار لهم ٤٢ مقعداً تحت رئاسة أحد البرلمانيين الممتازين يدعى اريك ميند والحزب الألماني الذى كان شريكاً فى الائتلاف مع أديناور وهو الائتلاف الذى انقسم فى الوقت الحاضر ، وهناك منظمة أخرى معقدة . ذات تاريخ عاصف ، وهى حزب اللاجئيين الذى يعرف أحياناً بجمهة المبعدين ، وضحايا الظلم ، وقد نال هذا الحزب ٩٠٪ من أصوات الناخبين فى عام ١٩٥٧ ، ولكنه لم يفز بالتمثيل فى المجلس التشريعى . . . وهناك حزب آخر ليس ممثلاً فى المجلس التشريعى وهو حزب يمينى متطرف ، يشبه الحزب النازى ، وهو حزب الرايخ الألماني الذى حصل على أقل من ١٪ من مجموع الأصوات فى عام ١٩٥٧ ، وقد حصل الشيوعيون على ٢٠٪ من الأصوات فى عام ١٩٥٣ ، ولكنهم لم يستمروا حتى عام ١٩٥٧ لأنهم استبعدوا باعتبار حزبهم حزباً غير دستورى .

وقصارى القول ، فالمواطنون الألمان ليس لهم أى اختيار سياسى فى الوقت الحاضر إلا بين الأحزاب المشكلة بطريقة ديموقراطية .

ماهو تفكير الرجل الألماني العادى عن هتلر ؟...

ان أغلبية الشعب الألماني - إذا كنت قد أفلحت فى قياس الرأى العام بطريقة صحيحة - تعتقد أن هتلر كان مجرماً أو مجنوناً أو كليهما وهناك آخرون يتحاشون ذلك السؤال ولا يحاولون الاجابة عليه ... وهناك أيضاً بعض الذين يمتدحونه على أعماله الباهرة ، مثل إخراج الفرنسيين من أراضى الراين وانهاء نصوص نزع السلاح التى وردت فى معاهدة فرساي ، وبناء الطرق ذات الاتجاهين .. ولا جدال فى أن هناك آخرون لم يكن بوسعهم أن يدينوه اليوم إذا كان قد انتصر فى الحرب وأن الكراهية التى تلحق به لا ترجع إلى شروره الفظيعة فحسب بل لأنه تسبب فى الفشل وفى حدوث المأساة . ويقول الناس إنه ، فقد توازنه .

إن للسنة وان للعمر حكماً فى هذا السؤال فالمواطنون الذين كانوا فى ثلاثينياتهم وأربعينياتهم فى عام ١٩٣٣ . عندما تولى هتلر زمام الأمور قد ازداد عمرهم اليوم ثمانية وعشرون عاماً ... ومن الواضح أنهم يكونون جيلاً راحلاً . فقد كان مئات الآلاف منهم يتولون مناصب تحت حكم النازى ، سواء أكانوا أعضاء حقيقيين فى الحرب النازى أو العكس ، وكثير منهم لا يزالون فى هذه المناصب - كفضاة أوبروقراطيين وهكذا - مع أن المفروض أن عملية تطهير النازيين قد

أطاحت بكل أولئك الذين يمثلون إلى النزعات الضارة ... ولكن الأستاذ ثيودور أوبرليندر وزير اللاجئين في وزارة أديناور اضطر إلى الاستقالة في برلين عام ١٩٦٠ في ظروف كريهة ، لأنه اتهم بأنه عندما كان أحد كبار موظفي النازي بأمر عملية ذبح عدد من الروس والبولنديين واليهود في عام ١٩٤١ ، وهناك على الأقل واحد من الأعضاء البارزين في وزارة أديناور كان أحد النازيين المبرزين ، واسكن النازيين الذين لا يزالون على قيد الحياة يمثلون جيلا راحلا كما سبق أن قلنا .

وان شباب الدولة أهم من ذلك كله ... أولئك الذين كانوا أطفالا أثناء السنوات التي سيطر فيها هتلر على زمام الأمور أو الذين كانوا لم يولدوا بعد . أو بمعنى آخر الناجين الذين ستكون لهم الكلمة العليا في السنوات التالية ... ويبدو أن هؤلاء يشعرون بشعور عميق ضد النازية ... ولقد شهد شباب الوقت الحاضر في المناسبات أفلاما عن فظائع النازي . ودعوا إلى الاصغاء إلى تسجيلات لخطب هتلر الرنانة وهم يخرجون من هذه الأفلام وقد ألبسهم الرعب . ولا يكادون يصدقون ما رأوا .. كما أن هذه الخطب تجعلهم يضحكون . ولا يكادون يصدقون آذانهم .

ولقد طمس عهد هتلر في جميع الكتب المدرسية والكتيبات الرسمية ومستندات الدولة وما إلى ذلك ، وإن كتب التاريخ الرسمية تتلافى هذه الأعمال المكروهة التي لاحد لها .. مثل قتل مئات الألوف من الأطفال الأبرياء في حجرات الغاز وتعبر عنها بعبارات مثل ، لقد

بدأ حكم اشتراكي قومي يسوده العنف عندما أصبح أدولف هتلر
مستشاراً في عام ١٩٣٣ .

ونتيجة لذلك يجد كثير من الشباب صعوبة في الوصول إلى الحقائق
بطريقة مباشرة .. وإذا سأل هؤلاء مدرسيهم عما فعلوه في عهد هتلر
فإن المدرسين - إذا كانوا من الكبر بحيث إنهم تولوا مناصبهم في عهد
هتلر (وهناك آلاف من هؤلاء) تخرجوا في الإدلاء بأية إجابة
مقنعة ، وعلى ذلك فإنهم يميلون إلى أن يطلبوا من تلاميذهم أن يذهبوا
إلى آبائهم طلباً لهذه المعرفة ، ولكن الآباء أيضاً ، وقد أخرجتهم تلك
الأسئلة ، غالباً ما يتحاشون الإجابة المباشرة عن ذلك .

وبالاختصار .. يشعر بعض الألمان بشعور حاد حقيق بالذنب والعار
من هتلر ، ولكن الآخرين يحتمون بالجهل .. فأتى أعرف شاباً كان
يعيش على مسافة عشرين ميلاً من معسكرات الإبادة في أوسوتز ،
عندما كان في سن المراهقة وهو يقسم أنه لم يكن يعرف بوجود هذه
المعسكرات ، ولقد أخبرني دكتور كارلو شميد أحد الزعماء الديمقراطيين
الاشتراكيين المعروفين اليوم ، والذي كان يتولى منصباً إدارياً هاماً
في بلجيكا المحتلة أثناء الحرب ، والذي يعد رجلاً مستثيراً ، أخبرني
أنه قد سمع ، بمعسكرات الاعتقال في عهد النازي ، ولكنه ادعى
أن مجموع نزلاء السجون لم يكن يتعدى العشرين ألفاً تقريباً .. وعندما
علم أخيراً بتفاصيل ما كان يقع في واشو وبوشنولدر ، قال : لم نفعل
ذلك ، . . الروس هم الذين يمكنهم أن يرتكبوا مثل هذه الأشياء .

هل هناك أى احتمال لاهياء حركة النازى ؟ . .

الجواب عن ذلك هو أن هناك احتمالا ضئيلا جداً إذ ربما تمر ألمانيا بفترة رد فعل ، ولكن ليس من المحتمل أن تأخذ طابعا هتلريا مكشوقا .

إن الفاشية ، على حد تعريفها التقليدى تأتى إلى أى دولة كنتيجة لتفاعل عدة ظروف منها : إفقار الطبقة المتوسطة ، والتضخم ، وضعف الكيان الديمقراطى والضعف التى ترجع إلى الهزيمة العسكرية والشعور المتطرف بالقومية ، وظهور زعيم مهرج قوى ، والخوف من الشيوعية المحيطة ، ولا جدال فى أن الرايخ قد لقي الهزيمة فى عام ١٩٤٥ ، وفى أن الخوف من روسيا ومن الشيوعية ينتشر بين الألمان ، ولكن الظروف الأخرى لا تنطبق على ألمانيا . . ومن الناحية الأخرى فإن تقسيم ألمانيا إلى شطرين يعد تهديداً دائماً ، ويمكن أن يستغله أحد المهرجين السياسيين القوميين استغلالاً سيئاً ، هذا إذا تأجل توحيد ألمانيا إلى أجل غير مسمى .

كيف تعد ألمانيا الجديدة قومية ؟ . . وهل يمكن أن تشن ألمانيا حزباً جديدة . . ؟

يمكننا أن نجيب على هذا السؤال بشيء من التأكيد ، فليس هناك أى شخص من ألمانيا يريد الحرب . . ربما كان ذلك باستثناء قليل من النخبولين الذين يميلون إلى أقصى اليمين ، فلقد كلفتهم الحرب الأخيرة الكثير ، إذ خسرت ألمانيا سبعة ملايين من أبنائها . وعلاوة على ذلك

فان الحقيقة أنهم عانوا من الهزيمة على يد الروس ، وكذلك على يد الحلفاء الغربيين ، كما أنهم تعرضوا لخسائر فادحة في روسيا، هذه الحقيقة لها وضع خاص عليهم ، إذ أن الحروب التي خسرها في شتاء روسيا القارس ، لاتدعو ذكراها إلى السرور . وعلاوة على ذلك فان ألمانيا بشقيها الغربي والشرقي تعيش في العالم الحديث وتذكر كما يدرك البريطانيون، والروس والأمريكيون أن العالم يعيش في عصر الصواريخ ، وأن نشوب حرب ذرية ربما يؤدي إلى فناء المدنية ، وليس هناك أى بلد تعرض لمثل هذه العلةقة — بالأسلحة التقليدية — من الجو كما تعرضت ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وكفانا أن ننظر إلى برلين حتى في الوقت الحاضر ، لنرى مدى الدمار الذي لحق بألمانيا كلها . ثم نضع في اعتبارنا أن قنبلة هيدروجينية واحدة تحمل من قوى الدمار ما يماثل مجموع القنابل التي أسقطت على ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية كلها . والمواطنون الألمان متعلمون وعلى علم تام بهذه الحقائق المريعة .

وقد اتفق على إعادة تسليح الجمهورية الاتحادية بعد نزاع دولي عنيف، ولكن مشروع القرار الخاص بتسكين جيش لألمانيا الغربية لم يوافق عليه البرلمان إلا بعد صراع عنيف ، وبعد أن تعرض لمعارضة عنيفة من جانب الديمقراطيين الاشتراكيين ، ويبدو أن معظم الشباب الصغار لا يشعرون إلا بشعور قومي ضئيل وبعضهم مسلم تقريباً . ومعظمهم يمرون بالخدمة العسكرية — ومدتها سنة — كرهين ولم يكن في الإمكان حتى اليوم بناء قوة جوية فعالة ، ذلك لأن قليلا جداً من الشباب هم فقط الذين يرغبون في التطوع للعمل كطيارين .

وعلى أية حال ، فلا بد من ذكر بعض التحفظات حول كل ذلك
فلا جدال في أنه ليس هناك أى شخص في ألمانيا له أى خطط توسعية نحو
الشمال أو الغرب أو الجنوب وليس هناك من يفكر في الاعتداء على
بلجيكا أو فرنسا ، أو القيام بأية محاولة لاستعادة أراضي السودان ..
وعلى أية حال فإن شرق ألمانيا يعتبر مسألة أخرى ، فليس من المحتمل ،
وعلى أقصى الفروض أن تحول ألمانيا الغربية تحقيق الاتحاد مع ألمانيا
الشرقية عن طريق احراز نصر عسكري ذلك لأن هذا - يدفع روسيا
بكل تأكيد الى التدخل . وربما يتسبب في اثاره حرب كبرى .

وهناك نقطة أخيرة وهي أن جمهورية ألمانيا الاتحادية تعتبر من الناحية
النظرية رسمياً ، أن المناطق التى تقع شرق خط أودر - نيس ، والتي تدخل
الآن ضمن بولندا والاتحاد السوفيتى لازالت جزءاً من ألمانيا .

وان الخرائط الألمانية تؤكد دائماً ان هذه المناطق المفقودة مناطق
(ألمانية) وانها تخضع فقط (لادارة) البولنديين والروس بصفة مؤقتة.
ومن الممكن من الناحية النظرية أن تندفع ألمانيا الغربية الى استعادة
الجزء الشرقى المحتجز خلف ألمانيا الشرقية ولكن من الناحية العملية
لا يعتبر هذا الأمر ممكناً ، ذلك لأن ألمانيا الشرقية قبل أن تستطيع
استرجاع هذه المناطق .. وان السلطات فى بـ سـون لا تصرح بذلك
جهاراً ، ولكن خط أودر - نيس لم يعد قضية هامة ويعد هذا تغيراً
ملاحظاً منذ عام ١٩٤٥ ، وفى الواقع تعد المقاطعات الشرقية التى جردت
اليوم من سكانها الالمان مفقودة ..

بين الزعماء

لقد التقيت بعدد من الرجال الذين يعملون تحت رئاسة أديناور وأعتقد أن أهمهم هو دكتور لودفيج إيرهارد . نائب المستشار ووزير اقتصادية ألمانيا الغربية ، الذي ألف المعجزة الاقتصادية ، أي انتعاش ألمانيا ويبلغ إيرهاد من العمر واحدا وستين عاما ، ولقد سأله ذات مرة عن كيفية انخراطه في السياسة ، فأجابني بمرح : ان عربة جيب أمريكية صعدت الى شقته في ميونخ ذات صباح في عام ١٩٤٥ . وحملته دون ابداء أى تفسير ، كان إيرهارد أستاذا للعلوم الاقتصادية وقد اعتقد أنه قد قبض عليه لأسباب غامضة ولكن ذلك لم يحدث . . .

فقد كان الامريكيون قد سمعوا أنه أحد رجال الاقتصاد المتخصصين القلائل في الدولة ، والذين لا يحملون أى أثر للنازية ، وكانوا يرشحونه في حكومة بافاريا الجديدة ، كانوا بصدد تأليفها .

ويعتبر إيرهارد من الوجهة الاقتصادية تاجرا حرا من الطابع القديم ، وهو يؤمن إيمانا عميقا بمذهب دعه يعمل ، والشئ الذي يعمل على اقامته في ألمانيا الغربية هو اقتصاد حر ذو صبغة اشتراكية ويعتبر إيرهارد - على الوضع الحالي للأمور - أقوى منافس لتولى منصب المستشارية ، إذا تقاعد دكتور أديناور ، مع أنهما كثيرا ما يختلفان . ولم يكن الاختيار يقع على إيرهارد ليكون خليفة للمستشار بل كان الاختيار ينحصر في وزير المالية فرانز اترل ، لأن المفروض أنه أكثر ميلا لأوروبا عن إيرهارد ، وبذلك يكون أكثر ملاءمة لنوق

المستشار العالمى ، ولكن إنزل لا يمكنه أن يبدأ فى منافسة إيرهارد فى الحصول على الأصوات كما أنه لم يعد فى الصورة .. وغالبا ما يذكر رجل آخر وهو إيرنست ليمر ، وزير شئون عموم ألمانيا .

ولكن ما سبب تلك المعجزة الاقتصادية التى نجح إيرهارد فى تحقيقها ... ؟

١ - لقد عرف عن الشعب الألمانى أنه شعب دؤوب ، انهم يعملون بجهد ، وهم شعب مدبر وقد سيطر اليأس على الأمة فى عام ١٩٤٦ ، و: يكن العمل الجاد مجرد شئ. نتوقعه من كل مواطن ، بل إنه طريق الخلاص - أى طريق للخروج من زقاق مظلم محير .

٢ - لقد تدمرت معظم مصانع ألمانيا التى كانت قائمة فيما قبل الحرب بقبائل الحلفاء ، أو أنها تعرضت للتخريب على يد الفرنسيين والبريطانيين بعد الحرب ، ومن هنا نجد أن معظم المصانع الألمانية جديدة نسبياً ، وهى مصانع حديثة وقوية

٣ - وقد تدفق ما يقرب من ثلاثة ملايين دولار كمساعدة لألمانيا طبقا لمشروع مارشال .

٤ - وقد ساعد التيار الجارف من اللاجئين الذين ينزحون من ألمانيا الشرقية ، والأشخاص الذين طردوا بما وراء خط أودر-نيس على توفير سوق لا تنضب تقريبا من اليد العاملة . وأن البطالة اليوم لا وجود لها فى ألمانيا ، بل فى الواقع تعاني ألمانيا من نقص حاد فى اليد العاملة ..

هـ - - وقد كانت ألمانيا حتى وقت قريب جداً دولة منزوعة السلاح ولم يكن عليها - مثلها في ذلك مثل اليابان - أن تخصص نسبة كبيرة من ميزانيتها لأغراض التسليح

ولد نرانتز جوزيف استراوس وزير الدفاع في ميونخ في عام ١٩١٥ من أب يعمل جزاراً.. واستراوس بافارى ، وزوجته بنت أحد صانعي النليذ ، وهو ضخيم الجثة مثل اير هارد ، وقد قال عنه أعداؤه إنه هو الشخص الوحيد في ألمانيا الذي يزن مائتي رطل، ولكن سجله لا يعد خالياً من المآثر ، فهو الرجل الذي بنى جيش ألمانيا من لا شيء والذي يحمل مسؤولية تعاونه مع القوات الأمريكية ، وقوات حلف شمال الاطلنطى على أرض ألمانيا ، وإن استراوس أيضاً هو صاحب فكرة إقامة قواعد في أسبانيا وذلك لعدم توفر المسكان في ألمانيا الاتحادية ، ولكن هذه الفكرة دحرت ، ويدور كثير من النقاش حول شخصه، وإن اديناور يحبه ولكنه يميل إلى الاعتقاد بأنه مازال يافعا ولا يمكنه أن يخلفه في منصب المستشارية في الوقت الحاضر . كما أنه مشير للضجة ، ويميل إلى تأييد البافاريين . .

وإذا طلب منى أن ألخص شخصية مستر استراوس لقلت إنه رجل مرح ، وواقعى ولا تخدعه المظاهر ، وماهر ، كما أنه طموح . ووجهه أشقر ولكنه يملك ذقنا تشبه قطعة صغيرة مستديرة من الصخر وعيناه زرقاوان لامعتان ونظراته ثابتة . وأن ولاءه للمستشار متطرف ، وهو يتحدث بتبجيل واحترام عما د عمله ، المستشار للشعب الألماني ويشعر استراوس شعورا عميقا بأن جميع الدول ، إذا أرادت أن تبقى

بلا بد وأن تتنازل عن فكرة وجود جيوش قومية صرفة وأن أهم ما يشغل باله هو تنظيم مساهمة ألمانيا في حلف شمال الأطلسي ، كذلك جعل جيش ألمانيا الجديد قوة محاربة مدربة وقوية ، وأن أحد الأشياء التي يفخر بها استراوس بدرجة كبيرة هو أن الكتائب الألمانية في زيتها الرسمي الكامل قد قامت بمناورات ناجحة على أرض فرنسا أخيراً ، دون حدوث أية حادثة ، وبأن ألمانيا سيكون لها قواعد في كل من فرنسا (كورسيكا) وإيطاليا (سردينيا) .

كلمة عن الجانب الاشتراكي

إن كورت شهاخير أحد عظماء الرجال في ألمانيا الحديثة وهو زعيم اشتراكي مات في أغسطس ١٩٥٢ ، ولم يأخذ أي فرد مكانه غير ديلي براندت عمدة برلين الغربية الشهير الذي سنلتقي به في الفصل التالي ، ويعتبر أريك أولنهور زعيم الحزب الديمقراطي الاشتراكي من الناحية العملية ولكنه شخصية باهتة ، ولم يعقب شهاخير إلا بطريق الأقدمية ، ولكن أولنهور أعان أنه لن يرشح نفسه لمنصب المستشارية في الانتخابات التالية . . والشخص الذي شيرشح نفسه هو براندت ، وجدير بالذكر أن الاشتراكيين الديمقراطيين لم يتولوا السلطة منذ حكومة هيرمان مولر في عام ١٩٣٠ .

ويعتبر دكتور كارل - وهو شخصية جذابة - زعيم الجناح اليميني في الحزب ، كما يعتبر الشخص الثاني بعد براندت ، ومع أن شميد اشتراكي

فانه يميل إلى الماركسية مثل ما يميل سناتور جولدوترا وأسقف يورك .
 وأن شميد نصف فرنسي إذ ولد في بيرينان ، من أم فرنسية وقد كان
 أستاذاً ألمانيا يقوم بالتدريس هناك ، كما كان شميد نفسه مدرساً لعدة
 سنوات ؛ وفي الواقع فإنه لا يزال يلقي محاضرات في العلوم السياسية
 في فرانكفورت ويعتبر شميد خطيباً بيزنطياً ؛ مرحاً ؛ وذكياً ؛ ومؤثراً .
 وهو من الناحية الجسدية واحد من الرجال الأقوياء الذين يزنون مائتي
 رطل مثل منافسيه السياسيين : إيرهارد ؛ واستراوس . وإذا كسب
 الاشتراكيون الانتخابات ؛ فمن المفروض أنه سيصبح وزيراً للخارجية .
 وقد سأله ذات مرة عن كيفية دخوله الحياة العامة ، فأجاب إنه ،
 كما لو كان « يكفر عن سيئات هتلر » . . فقد سأل نفسه بعد الحرب ،
 من هو الشخص الذي يعد مسئولاً عن ظهور هتلر ، إنه بالتأكيد ليست
 جماهير الشعب التي لم تكن تفهم معنى كتاب « كفاحي » الذي ألفه هتلر ،
 وقد قرر شميد أن المسئولية تقع على عاتق هؤلاء الذين فهموا المقصود
 من (كفاحي) ولكنهم لم يتجرأوا على معارضة هتلر رغم فهمهم ذلك ،
 ولذا انضم دكتور شميد إلى الاشتراكيين الديمقراطيين لكي يصلح ما تلف
 وقد حاول منذ الحرب أن يهب نفسه للصالح العام . .

وهناك زعيم آخر من الاشتراكيين الديمقراطيين يأتي في الترتيب
 بعد هؤلاء وهو يقف في الوسط تقريباً . ذلك هو بارون ولديمارفون
 كنورنجن أحد الارستقراطيين البافاريين ، وفي الجانب اليساري يقف
 هيربرت فهر نائب رئيس الحزب ، وهو أحد الشيوعيين السابقين
 الذين يكرهون الشيوعيين في الوقت الحاضر ، كما يحدث مع أي شيوعي سابق

رقد عاش فترة في الاتحاد السوفيتي ، وحول كثيراً من شباب ألمانيا إلى شيوعيين ، عمل بعد ذلك في الحركة السرية المعادية للنازي وهناك أحد الزعماء الاشتراكيين الآخرين وهو فريتز إيرلر ، وقد كان يعمل ناظراً لأحدى المدارس في منتصف أربعينياته ، وإذا قدر أن يفوز حزبه في الانتخابات ، فانه سوف يصبح وزيراً للدفاع وهو رجل قدير وجذاب ، انه رجل يستحق الاهتمام .

ومن البديهي أن المشكلة العويصة التي تواجه الاشتراكيين الديمقراطيين ، هي إيجاد السبل التي تزيد من الأصوات التي يحصلون عليها أكثر من نسبة ٣٥٪ التي يتمتعون بها الآن ، ولكن هذا ليس بالعمل السهل ، فإذا انتمى الحزب إلى اليسار أبعد من ذلك فإنه سيثير عداوة المواطنين الذين يتفنون في منتصف الطريق ، والذين يجب عليه أن يكسب ولائهم ، أما إذا انتمى الحزب نحو اليمين ، فإن يكون في الامكان تميزه عن المحافظين أتباع أديناور ، وأن إحدى الصعوبات التي تواجه الاشتراكيين هي أن الانتعاش الاقتصادي في ظل نظام «دعه يعمل» أضعف من قوة الاشتراكيين ، وأن الحزب يحاول أن يطرح بقايا الماركسية جانبا ، ولكن يجب عليه أن يقوم بذلك ببطء وذلك لتقاليد اليسارية العميقة الأثر ، وعلى أية حال فإنه قد تخلى عن أمله الذي طالما تمسك به وهو تأمين الصناعة ، والذي طالب به في مؤتمر الحزب في عام ١٩٥٩ ، واتجه نحو مركز متوسط في عام ١٩٦٠ والاتجاه الحالي يميل إلى الاعتراف بضرورة التغيير وانتهاج نظام يجمع بين الاشتراكية والاقتصاد الحر وهو يشبه في ذلك الجناح الذي

يتزعمه مستر جيتسكل في حزب العمال البريطانى. وقد عدل الاشتراكيون الديمقراطيون فى ألمانيا موقفهم التقليدى المسالم فى مؤتمر ١٩٦٠ الذى عقد فى هانوفر ، فهم لا يريدون ألمانيا أن تكون فى حوزتها أسلحة ذرية (وتلك مشكلة كبيرة) ، ولكنهم يطالبون بولاء ألمانيا لحلف شمال الاطلسى وللتحالف الغربى .

ولا جدال فى أن أعظم مشكلة فى ألمانيا ، هى مشكلة توحيد شطرى ألمانيا ، أى توحيد شرق وغرب ألمانيا فى دولة واحدة .

وتنقسم ألمانيا فى الوقت الحاضر إلى قسمين يضم القسم الغربى منها ٣٠ مليوناً من الشعب الألمانى ، ويضم الشرقى ١٧ مليوناً ، ويفصل هذين الشطرين ٨٢٥ ميلاً من الأسلاك الشائكة تشق قلب الدولة كحدود بين شطريها ، ولا يعد هذا مجرد اغتصاب جغرافى وسياسى أو أنه خروج على حدود اللياقة فحسب . بل إنه يتعدى شروط التقسيم التقليدى ، ويترتب على ذلك أن الذى يتعرض للخطر هو حقاً أولئك الملايين السبعة عشر الذين يمثلون شعب ألمانيا الشرقية ليس فى انضمامهم لوطنهم فحسب بل أيضاً إلى العالم المتمدين ، وعلاوة على ذلك فإن التوحيد قد ينهى هذا الموقف الشاذ الذى جعل برلين - العاصمة الحقيقية لألمانيا - ليس فقط مقسمة ، ولكنها أيضاً تقع فى المنطقة الشرقية خلف الحدود بحوالى ١١٠ أميال كجزيرة محاصرة ومحاطة تماماً ببحر من الشيوعية ، ولنتصور ما الذى كان يعتقد الأمريكيون إذا كانت

الولايات المتحدة قد قسمت مثل ألمانيا ، وأصبح ربع الدولة - فننقل ساحل الاطلنطي وجزءا من الساحل الغربي الأوسط - في يد الشيوعيين تسيطر عليه موسكو ، ولنتصور أيضاً واشنطن وقد قسمت إلى قطاع شيوعي وقطاع غير شيوعي ومفصولة عن دنفر وأوها ما بحزام من أرض سوفيتية لا يمكن عبورها الا بتحفظات شديدة .

وقد أجرى احصاء للرأى العام مندسين قليلة عن أهم مشكلة في ألمانيا وقد أجاب ٤٥٪ أن أهم مشكلة هي إعادة البناء ، وأجاب ١٥٪ بأنها التوحيد . ولكن الآن ، وبعد أن تم إعادة البناء ، فإن الأرقام تغيرت وفي كل مكان ذهبت إليه في ألمانيا رأيت الرجال والنساء يعلقون شارة معدنية صغيرة في ستراتهم ، وهذا معناه العضوية في منظمة « ألمانيا الموحدة » - وهي منظمة تعدت كل الخطوط السياسية التقليدية ، وأصبحت أكبر جماعة لها نفوذ في ألمانيا . فمازال لمئات الآلاف من سكان ألمانيا الغربية أقارب في ألمانيا الشرقية وهذا شرط هام في العضوية لهذه الجماعة

وبعد أن تحدثنا عن كل ذلك فمن الواجب أن نضيف - وهذا سمعته يقال - أن الوحدة ، مع أنها مشكلة خطيرة ، فإنه يبدو أنها ليست مشكلة حية . فإن المواطنين يعطونها حقها من الكلام ولكن قليلا من العمل . . . والفكرة العامة هي أنه بما أن التوجيه لا بد وأن يأتي في الوقت المناسب ، إذن فلماذا لا ننتظر ونأمل في حدوث الأحسن ، ويقولون إنه بطريقة ما في يوم ما غير محدد ، سينتهى هذا الموقف السخيف ؟

ولكن إذا سألت أى سياسى فى ألمانيا الغربية . أو أى إنسان إذا كان صحيحاً أن عهد اديناور أصبح ينظر لمشكلة التوحيد بفتور يجيبك على الفور بحدة « ليس هذا صحيحاً » ، لقد سمعت هذه الإجابة مرات عديدة . وتعتبر الحكومة الاتحادية نفسها السلطة المعنية بأمر جميع الألمان ، وخصوصاً هؤلاء الذين فى المنفى ، مثلاً تفعل اسرائيل باعتبار نفسها مسئولة عن جميع اليهود ، وهذا تشابه غريب نهى إليه كثير من الألمان ، ولكن ، بصراحة تامة ، هناك كثير من المواطنين الألمان الذين — حتى وإن لم يجرؤوا على معارضة التوحيد جهاراً — يتساءلون بالحاح ماذا سيكون الثمن ، فهناك شىء يعرفه الجميع وهو أن روسيا قد تحارب ، لماذا حاولت ألمانيا الغربية ابتلاع الشرق بالقوة ، وليس هناك من يريد الحرب .

ثم نأخذ فى الاعتبار الحقيقة التى يعرفها الكاثوليكيون البافاريون وحركة أرض الراين فى أن التوحيد سيغير كثيراً من توازن القوى الدينية فى الدولة حيث إن ٨١.٣٪ بروتستانت فى ألمانيا الشرقية ، وأيضاً فإن المحافظين عامة ورجال الصناعة فى منطقة الروهر خاصة لا يستسيغون فكرة امتزاج سبعة عشر مليوناً فى ألمانيا الغربية . حتى لو كان معظمهم يكره النظام الشيوعى فإنهم قد أمضوا خمسة عشر عاماً بين التعاليم الاشتراكية ، والذين من المحتمل أن يتخذوا موقفاً يسارياً قوياً فى دولة ألمانيا لفترة معينة على الأقل ، وإن التوحيد

سيحتاج إلى مال ، إلى كثير من المال ، وسيقلب المعجزة الاقتصادية (التي حتمتها ايرهارد) رأساً على عقب .

وبما أنهم يتعمون في قلب أوروبا الغربية ، والذي أخذ في الاعتبار الأفكار الأجنبية . . . فإن ألمانيا المتحدة قد تقطع بقوة التكامل بين ألمانيا الغربية وأوروبا الغربية ، والذي قد يحزن كثيراً من الألمان . فلا يريد الألمان اليوم أن يسيثوا لا إلى البريطانيين ولا إلى الفرنسيين وأنهم يعرفون أن البريطانيين خاصة يخافون دولة ألمانية متحدة — قوتها سبعون مليوناً — قد تكون منافساً قوياً في الميدان التجاري ، والفرنسيون لا يريدون أن يروا سبعين مليوناً متحدتين كقوة عسكرية ، وعلاوة على ذلك — مجرد خيالات — فإن دولة ألمانية متحدة بها جناح يسارى قوى قد تصبح حليفاً للاتحاد السوفيتى .

والتوحيد هو المشكلة الرئيسية بين الأحزاب في داخل ألمانيا نفسها .

فالاشتراكيون الديمقراطيون يجذبونها بقوة لنفس السبب الذى جعل بعض أعضاء حزب اديناور المحافظ يميلون إلى الحذر منها ، وهذا السبب هو أنها تستغیر الاطار الدينى للبلد فى صالح البروتستانت وتساعد على زيادة قوة اليساريين وربما تساعد على تحويل ألمانيا إلى الاشتراكية .

وفى نفس الوقت . فإن جيلاً جديداً ينمو فى كل من ألمانيا الغربية والشرقية . وبالتدریج سیتثبت الوضع فى الدولتين الألمانيةيتين على أنهما

دولتان منفصلتان . فإن مئات الألوف من الشباب الصغير اليوم يعتبرون الشرق دولة أجنبية . في الوقت نفسه فإن السلطات الشيوعية في الشرق تضغط على الناس بقوة سنة بعد أخرى ، وتعمل كل صلة ما في وسعها لقطع كل صلة بالغرب ، ويعتقد كثير من الألمان أنه قبل مضي مدة طويلة ستصبح مشكلة التوحيد شيئاً غير واقعي مثل مسألة استعادة المقاطعات خلف خط أودر - نيس ، وبالاختصار فإن الوضع الحالي سيدوم . وعلى العالم الغربي أن يكيف نفسه على الحقيقة في أنه سيكون هالك دولتان ألمانيتان لمدة طويلة مع ما فيها من مآسى للبلايين المحرومة التي تعيش في ألمانيا الشرقية . وهذا هو الثمن الذي يدفعه الألمان اليوم لقيامهم بالحرب العالمية الثانية وانهزامهم فيها ، التقسيم هو الثمن الذي جعلهم هتلر يدفعونه وسيظلون يدفعونه لمدة طويلة . .

سؤالان يترددان

لماذا لا تقدم الولايات المتحدة على عقد معاهدة صانع مع جمهورية ألمانيا الاتحادية ! . .

إن عدم وجود مثل هذه المعاهدة من الناحية العملية - مع أن العلاقات الدبلوماسية قد أخذت شكلها العادي منذ عام ١٩٥١ - يسدو شاذاً . . ومن الواضح أن السبب الرئيسي لذلك هو أن

ألمانيا مقسمة ، وأن توقيع مثل هذه المعاهدة اليوم سيكون اعترافاً رسمياً بالوضع الراهن ، ويجعل من المستحيل بالنسبة للألمان أن يتقدموا نحو توحيد ألمانيا ، وأن إحدى النتائج التي تترتب على ذلك هي أن ألمانيا الغربية ليست عضواً في الأمم المتحدة حتى الآن . . إنها دولة مستقلة ذات سيادة ، وبناء على ذلك انضمت إلى حلف شمال الأطلسي ، ومجلس أوروبا ، واتحاد غرب أوروبا ، والرابطة الأوروبية للحديد والصلب ، وصندوق النقد الدولي والسوق الأوروبية المشتركة ، وهيئة اليونسكو . . ولكنها ما زالت مستبعدة من الأمم المتحدة . . وهنا دول مثل سلفادور ومالي وجابون أعضاء في الأمم المتحدة . ، ولكن ألمانيا الغربية ليست عضواً فيها .

وإذا كانت الولايات المتحدة قد اعترفت بالدول التابعة للاتحاد السوفيتي مثل بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وغيرها . . فلماذا تصر على عدم الاعتراف بألمانيا الشرقية ؟ . .

إن الإجابة على ذلك هي نفس الإجابة . . فالاعتراف بالنظام الشيوعي يعني أننا نوافق على وجوده ، وهو الشيء الذي لا نعترف به من الناحية العملية . كما أن ذلك يحتمل أن يقضي على كل أمل في توحيد ألمانيا في المستقبل القريب ، وأن سياسة الولايات المتحدة ما زالت تقوم على هدف نهائي هو تحقيق وحدة ألمانيا . . ولكننا نعرف جيداً أن الشروط التي نضعها لذلك لن يقبلها الشيوعيون .

٤ — برلين .. نقطة حراسة ومحور

لقد طرت أنا وزوجتي من فرانكفورت إلى برلين على طائرة أمريكية فوق المنطقة الشيوعية لمسافة ١٠ أميال ، مستخدمين واحداً من الممرات الجوية الثلاثة التي تخضع لإشراف دقيق جداً، والتي تعطى العالم الغربي مَدْخَلاً إلى المدينة بطريق الجو . . . وهذه الرحلة في الوقت الحاضر تحف بها المخاطر . مثلاً تحف بالرحلة من ميلووكي إلى ديترويت . . . وفي المرة الأخيرة قطعت هذه الرحلة في ظروف مختلفة تماماً ، فتمد جاسنا فوق ٤٠ ألف رطل من الفحم أثناء حركة المواصلات في عام ١٩٤٨ .

وبرلين نفسها تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه منذ اثنتي عشرة سنة .

وهنا أيضاً كما في الروهر — تصل المعجزة الألمانية إلى ذروتها فبرلين التي ما زالت تعد أكبر مدينة صناعية في ألمانيا تنبض بالحركة والضجيج ، كما أنها تبرق . . . وفي المرة الأخيرة التي طفت فيها كورفيرستندام وقعت عيناى على أناس جياع يقفون في صف من أجل الحصول على قدر قليل من الطعام ، وكان في إمكانك أن تشتري أى فتاة مقابل سيجارة واحدة . . . ولكن اليوم ، هناك في المنطقة الحديثة من برلين محلات فاخرة تمتلئ بالبضائع التي جاءت من أطراف الأرض ، كما أن هناك مطاعم حسنة الزخرف ويندر أن تتمع عينيك على أحد التاكسيات ليس من ماركة مرسيدس — بنز .

ورغم كل ذلك فآثار الحرب ما زالت كثيرة . . فما زالت هناك آثار للدمار والقسوة ، فقد حطمت قنابل الحلفاء ٦٠٪ من المدينة ، ولم يتم بناء كل ذلك مرة أخرى .

وإذا سرت عشر دقائق في برلين لرأيت السبب الذي يجعل معظم الألمان يشعرون بالسخط والخوف من التفكير في حرب أخرى ، إذ أن المدينة لم تطرح أكفان الحرب الماضية . . وفي الواقع ، لم يوافق المواطنون من أهل برلين على اقتراح بإعادة بناء الكنيسة التذكارية . . إنهم يريدون الإبقاء على هذا الأثر من آثار الرعب كما هو إلى الأبد ، ليكون نصباً تذكاريًا يمثل الآلام التي مرت بها برلين ، ويذكر أهلها بالمحنة القاسية التي مرت بها بلدهم .

وبرلين مدينة مقسمة — كما يعرف كل منا — ويعيش في النطاق الغربي منها حوالي ٢٢ مليون أما في النطاق الشرقي فيعيش حوالي المليون أو أكثر بتمثيل . . وقد كان عدد سكانها قبل الحرب ٥ مليون نسمة ، ويغطي النطاق الغربي مساحة قدرها ١٨٥ ميلاً مربعاً ، أما النطاق الشرقي فيغطي مساحة قدرها ١٥٥ ميلاً مربعاً . . وتبلغ المساحة الكلية لبرلين قدر مساحة واشنطن ثلاث مرات ونصف المرة . . وما زال النطاق الغربي مقسماً إلى قطاع انجلايزي ، وقطاع فرنسي ، وقطاع أمريكي (النطاق الأمريكي تبلغ مساحته ٨١ ميلاً مربعاً ، ويعتبر أكبر من باريس) . . ولكن الحدود بين هذه القطاعات غير ذات أهمية ، فتستطيع أن تمر من قطاع إلى قطاع دون أن تشعر بذلك . . وما زالت السلطة الحاكمة المشتركة بين الحلفاء

موجودة إلى الآن ، لأن المدينة ما زالت - نظريا - تحكم بواسطة
تصريح برلين المزعوم ، الذي أصدرته القوات الأربع المنتصرة
(الولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتي ، بريطانيا ، فرنسا) في ٥ يونية
عام ١٩٤٥ .

ولكن في واقع الأمر ، فإن برلين الغربية تتكون من القطاعات
الأمريكية والانجليزية والفرنسية ، وبرلين الشرقية تتكون من القطاع
الروسي ، ولكل منها حكومة تختلف اختلافا جوهريا عن الأخرى . .
ومن الناحية العملية فإن برلين الغربية ليست جزءا من ألمانيا الغربية ،
مع أنها متحدة معها تماما في الشؤون الاقتصادية والعملة . وما إلى ذلك ،
ولكن برلين الشرقية ضمت إلى ألمانيا الشرقية . . وأحيانا يطلق على
قيادتها اسم حكومة دبانكو ، حيث إن رئيس الوزراء يعيش في دائرة
انتخابية في شرق برلين اسمها بانكو . . أما برلين الغربية فإنها ترسل ٢٢
نائبا إلى بون ، لهم الحق أن يتكلموا ولكن لا صوت لهم . . وحكومة
(بون) الاتحادية تحتفظ بما لا يقل عن ٥٤ وكالة في برلين ، ولها
موظفون هنا أكثر من بون نفسها ، ومساعدات بون تساند برلين ،
وهي تصل إلى ما لا يقل عن ٥٠٠ مليون دولار سنويا ، ومع ذلك فإن
برلين الغربية ليست في ألمانيا الغربية . . لا من الناحية الجغرافية
ولا من أي ناحية أخرى .

ولم يبق من حكومة القوات الأربع إلا أربعة آثار :

١ - سجن سباندو حيث ما زال ثلاثة من أشهر مجرمي الحرب
النازيين محبوسين هناك : رودلف هيس ، بالدور فون شيراك ،

والبرت سبير . . . وتبادل قوات الاحتلال، حراسته مرة كل شهر ..
وسجن سباندو ذو تكاليف كبيرة لدرجة أنه من الصعوبة الاحتفاظ
به ، ولكن الروس لا يريدون التنازل عنه .

٢ — مركز الحلفاء للرقابة الجوية ، الذى ينظم المواصلات
في عمّرات جوية عرضها ٣٣٣ ميلا ، والتي تؤدي إلى برلين من ناحية
الغرب .

٣ — مكتب جمر ك على الحدود بين المنطقتين :

٤ — مكتب سفريات على الحدود بين المنطقتين .

إن هناك شيئاً يستحق النظر، وهو أن برلين تعتبر المدينة الوحيدة
في ألمانيا حيث يمكن لكل من الحزب الشيوعى (الحزب الشيوعى
في ألمانيا الشرقية) والحزب الاشتراكى الديمقراطى في ألمانيا الغربية)
من التصويت . . . وفي آخر انتخابات (عام ١٩٥٨) حصل الشيوعيون
على ١٩٪ - وقد حصلوا في عام ١٩٤٦ على ١٩٪ - ويحكم
الاشتراكيون - تحت رئاسة ويلى براندت - برلين عن طريق ائتلاف
يناسب اغراضهم ، مع أن لهم الاغلبية المطلقة (٧٨ مقابل ٥٥) في
مجلس المدينة . . . وتتكون المعارضة من حزب أديناور المحافظ ، وان
فرانز امريهن نائب العمدة ، وهو السلطة الحقيقية في الحكومة من
الحزب الديمقراطى المسيحى .

ويحتفظ الحلفاء في برلين الغربية بحوالى ١١ ألف جندي : ٥٠٠٠
أمريكي، ٣٥٠٠ فرنسي، ٢٥٠٠ بريطاني .. أما الروس فانهم يؤكدون

أنه ليس لهم أى قوات فى برلين الشرقية ، ولكن هناك ما لا يقل عن ٢٢ فصيلة روسية تعسكر بالقرب من ألمانيا الشرقية (ولا جدال فى أن قوات حلف الاطلنطى - ومعظمها من الامريكىين والبريطانيين تعسكر فى ألمانيا الغربية ، ولكنها مفصولة عن برلين الغربية بحزام صلب من الارض الشيوعية ، بينا ألمانيا الشرقية وبرلين الشرقية متحدتان تحت حكم حكومة بانكو ومن هنا فان القوات الروسية تستطيع الوصول بسرعة الى برلين الشرقية) .

وبرلين مدينة مقسمة ، لا ريب فى ذلك . . ماذا يكون حال لندن اذا فصلت وست منستر مثلاً عن شيلسى بفاصل يفصل بين نظامين مختلفين للحكومة ، وللمجتمع ، وللقيم الانسانية ، وشديدى العداء لبعضهما ؟

وانه لمن المستحيل فى برلين - الا فى حالة اتصالات على أعلى مستوى أن تتصل من القطاع الغربى بالقطاع الشرقى تليفونيا أو بالعكس ، وان اتصالاً بين بعض الناس على بعد ميل واحد لا بد وأن يكون عن طريق فرانكفورت وليبزج عبر أكثر من ألف ميل من الاسلاك ، وحتى امتدادات المياه منفصلة عن بعضها .

ومع أن برلين مدينة مقسمة ، فهى ليست مقسمة تماماً ، فهناك ثلاثة مرافق عامة تخدم المدينة كلها . . أولاً شبكة المجارى التى يديرها الشرق ، يدفع فيها الغرب ١٠٠.٠٠٠ مارك (. . ٢٥٠ دولار) نصيبه فى المحافظة عليها فى حالة سليمة . . ثانياً السكك الحديدية المعلقة التى تدار أيضاً بواسطة الشرق . . وثالثاً خطوط المواصلات التى تسير

تحت الأرض ، وهى تدار بواسطة الغرب مع أن الشرق يملك فيها . ١٤
 عربية ، ويدفع الغرب مبلغاً من المال سنوياً للشرق نظير استئجاره لها .
 والاتوبيسات والسيارات العادية تقف عند الحدود . . وعلى المسافر
 أن يركب مركبة أخرى ، ولكن المواصلات فى الخطوط المعلقة التى
 تحت الأرض (فى الحالات العادية) تسير مباشرة الى هناك وعلى
 ما يبدو فى هذا من غرابة ، فان حوالى . ٤ ألفاً من أهل برلين الشرقية
 يعملون فى الغرب ، ويرجعون يومياً الى برلين الشرقية . . كما يوجد
 حوالى ٧ آلاف من أهل برلين الغربية يعملون فى الشرق . . وعلى ذلك
 فان حوالى . ٥ ألف مواطن يعبرون الحدود يومياً . . ونقطة غريبة
 أخرى ، هى أن اثنين من الاثنيين والعشرين من نواب برلين الغربية فى
 بون يعيشون فى الشرق ، ومن بينهم أرنست لير أحد أعضاء حكومة
 أديناور ، وأيضاً ستة أعضاء من حكومة برلين الغربية . . والسبب
 واضح ، وهو أنهم كانوا يعيشون فى القطاع الشرقى من المدينة ، أو لهم
 فيها أملاك قبل التقسيم بزمان طويل ، ولا يريدون تركها الآن .

وكثير من سكان برلين الغربية يعبرون الحدود الى برلين الشرقية
 ليستمتعوا بالمسارح والاونبرات ، لأن مسارح ألمانيا الشرقية رخيصة
 وجيدة . . كما أن كثيراً من سكان برلين يأتون الى برلين الغربية ليستمتعوا
 بمشاهدة الأفلام ودخول مكتبة مركز الاستعلامات الأمريكى ليقرأوا
 الصحف الغربية ، ويأتى اليه حوالى . . . ٥٠٠ . ٤ شخص من سكان ألمانيا
 الشرقية سنوياً . . والناحية الثقافية هى كل ما تهتم به الولايات المتحدة
 الآن لتقديمه لأهل برلين ، بعد أن أصبحت المعونة المالية غير ضرورية

فهناك معهد هام مثل (الراديو في القطاع الامريكى) الذى أسس عام ١٩٤٥ / ١٩٤٧ وهو أقدم محطة إذاعة فى برلين .. وهو يقدم لهم الدروس المختلفة ، ويمثل حرية التعبير والرغبة فى الحياة .

ولذلك ، فإن برلين تعتبر النقطة الوحيدة على الحدود بين العالم السوفيتى والعالم الغربى التى نستطيع أن نقول عنها : إنها مفتوحة .

ولا جدال فى أن كثيرين يوافقوننى على أن مركز اللاجئين هو الظاهرة التى تستحق الاهتمام فى ألمانيا .. لى لا أناقش الآن الأشياء العارضة ، مثل سكان برلين الذين يذهبون ويرجعون عبر الحدود بطريقة روتينية عادية . ولكننى أتكلم عن اللاجئين الحقيقيين .. فقد هرب حوالى ٣٥٠.٠٠٠ شخص من المقيمين فى المنطقة السوفيتية (ألمانيا الشرقية) إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية منذ عام ١٩٤٥ (ويجب ألا نخلط بين هؤلاء وبين « المبعدين » ، ويصل عددهم من تسعة إلى عشرة ملايين ، وهم الذين طردوا من المناطق التى كانت يوما ما ألمانية ، وأصبحت الآن بولندية وروسية ، وراء الحدود الشرقية لألمانيا الشرقية) .

وعدد اللاجئين الذين يعبرون الحدود من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية يختلف حسب سياق الحوادث ، فقد وصل عددهم فى عام ١٩٥٨ إلى ٢٠٤.٠٠٠ شخص ، وفى عام ١٩٥٩ وصل إلى ٤٣.٠٠٠ شخص ويرجع الهبوط الذى حدث فى عام ١٩٥٩ إلى التحسن الملبوس فى الحالة الاقتصادية فى المنطقة الشرقية ، بما أدى إلى شعور قليل من الناس بضرورة الهرب .. وارتفع الرقم من جديد فى عام ١٩٦٠ ، فقد عبر الحدود فى شهر مايو من هذا العام حوالى ٢٠ ألف لاجئ ، أى بمعدل

... ٢٤ ر. شخص سنويا .. والسبب في هذا الارتفاع الكبير اقتصادى أيضاً ، فقد أقام حكام ألمانيا الشرقية نظام المزارع الجماعية .. وقد سبب هذا كثيراً من البؤس والاستياء واليأس .

وقد هرب ما يقرب من ٨ ٪ من اللاجئين إلى الغرب عن طريق برلين ، وذلك لأن الهروب من هذه النقطة أسهل بكثير من أى مكان آخر على الحدود .. والجمهورية الاتحادية ترحب بهم رسمياً ، ولكنها تجرى عليهم اختبارات دقيقة في مركز الاستقبال في مارينفيلد وفي أماكن أخرى حتى تستأصل منهم الجواسيس ودعاة الشعب الذين يحتمل أن يكونوا مهندسين بينهم .. وبعد هذا التطهير تقوم الحكومة بنقلهم بالطائرات (وهى الطريقة الوحيدة لنقلهم) إلى هانوفر . وبعد ذلك يكملون رحلتهم بالسكك الحديدية أو بالطريق البرى إلى معسكر من المعسكرات الأربعين المعدة لهم في أماكن متفرقة من ألمانيا الغربية ثم بعد ذلك ينزلون إلى المجتمع وتوفر لهم الحكومة الأعمال ، وكذلك الاسكان إذا أمكن .. وهذه العملية كثيرة التكاليف ، فبعض اللاجئين يصلون إلى مارينفيلد وليس معهم إلا ملابسهم فوق ظهورهم .

ونصف مجموع اللاجئين في السنة الماضية كان من الشباب تحت سن الخامسة والعشرين ، وبعضهم كان يحاول الهرب من الخدمة العسكرية في ألمانيا الشرقية .. وتقوم شركة طيران إيرفرانس ، الخطوط الأوربية البريطانية وشركة بان الأمريكية بعمليات النقل الجوى من برلين (والغريب في الأمر أن خطوط الطيران الألمانية غير مسموح لها

ويوجد بين اللاجئيين فوق سن الخامسة والعشرين كثيرون من المثقفين ، من بينهم مدرسين وأطباء ومهندسين معماريين ، وكثير من المهن الأخرى . . في الواقع أن م الصفوة المختارة في الأمة . . واقد سمعت رقما يدعو إل الدهشة ، من سلطات رسمية لدرجة أتى لا أكاد أصدقه وهو أن ٨٠ ٪ من هيئة التدريس العليا في جامعة ليزج ، وهي إحدى المعاهد التعليمية العظيمة في العالم ، من خريجي هذه المعسكرات (معسكرات الاستقبال) .

وكثير من اللاجئين يتركون ديارهم في ألمانيا الشرقية بقلوب مثقلة
فإنهم لا يتركون أحبائهم وأقرباءهم فحسب . بل إنهم أيضاً يحرمون
شعبهم -- الذى خنقه النظام الشيوعى -- من خدماتهم . فبعض
الجهات فى ألمانيا الشرقية لم يعد لديها أى طبيب أو طبيب أسنان أو
مهرة المهندسين . ولاقـد وصل أخيراً إلى مارينفيلد طبيب فى منتصف
العمر . . قال : « لقد تركت أربعة آلاف نسمة فى قريتى بدون عناية
طبية . إنها مأساة ولكن كان على أن أخرج أنا وعائلتى لأن المدرسين
الشيوعيين لقنوا ابنى البالغ من العمر الحادية عشرة درساً فى ألا يعتنـد
فى الله . »

وبالرغم من أن المانيا الغربية لا ترفض أى لاجىء فإنها أحيانا
ترجو سكان ألمانيا الشرقية أن يظلوا كما هم وتقود الكنيسة الانجيلية
هذه الحملة . والسبب ليس فى أن ألمانيا الغربية ليست قادرة على

استيعاب .زيد من اللاجئين . ولكن لأن المسئولين في ألمانيا الغربية وعينهم على الوحدة القادمة ، لا يريدون أن تخلو ألمانيا الشرقية من المواطنين البورجوازيين تماما ، الذين يحملون شعورا وديا نحو الغرب وأيضا ، من الناحية الإنسانية حيث إن خسارة ألمانيا الشرقية من الأطباء والمدرسين وما إلى ذلك ، ينظر إليها بكثير من الخوف والهلع .

لماذا تسمح حكومة ألمانيا الشرقية بهذا التسرب الخطير في السكان ؟ لماذا لا توقفه بإغلاق الحدود بين ألمانيا الشرقية من حيث يأتي معظم اللاجئين ، وبين برلين الشرقية ؟ وسبب ذلك هو أن هذا يعني أن حكومة بانكو تحجز مواطنيها عن عاصمتهم ، وهذه استحالة سياسية . وإذا قبض على أحد مواطني ألمانيا الشرقية وهو يحاول الهرب فإنه يحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، ويحكم على أمه — إذا كانت موجودة — بمدة أقل ، ولكن لا يقبض على عائلات اللاجئين الذين تم هربهم . وأن ٩٩ ٪ ممن يحاولون الهرب ينجحون في ذلك ، فإنه إذا وصل اللاجئ إلى برلين الشرقية فالباقى سهل . فما عاينه إلا أن يأخذ المواصلات المعتادة أو التي تمت الأرض ليصل إلى القطاع الغربي . ولكن لماذا لا توقف حكومة برلين الشرقية الخط المعلق أو على الأقل تنظمه ؟ من الواضح أنه يمكن أن تفعل ذلك ، ولكن الاستمرار فيه سيكون صعبا وغالى التكاليف ويجعل من المستحيل على عمال ألمانيا الشرقية أن يذهبوا إلى أعمالهم ويعودون ..

إنه بالرغم من أن ذلك شيء عجيب إلا أن ذلك يحدث فعلا وأن حوالى ٥٠٠.٠٠٠ مواطن من ألمانيا الغربية يهربون إلى ألمانيا الشرقية سنويا . ويتكلم عن الأسباب التي تدفعهم إلى ذلك فيقول : إن هناك أسبابا عائلية تدعوهم إلى ذلك ، وأحيانا لا يجدون العمل المناسب في ألمانيا الغربية فيهربون إلى هناك وأن معظم هؤلاء يكونون من اللاجئين السابقين إلى ألمانيا الغربية . ولما لم يجدوا العمل الذي يريدونه أو لأنهم يريدون أن يروا ديارهم القديمة فيهربون إلى هناك .

ويلي براندت وأزمة برلين

ويعتبر ويلي براندت عمدة برلين الغربية (في الحقيقة رئيس وزارة حكومة برلين الغربية) من أحسن الرجال الجذابين الذين قابلتهم في الحياة العامة . وهو شخص لطيف المعشر . ويدعو إلى الثقة والصفاء وهو ليس بالشخص المخادع ، وهذه لعنة كثير من السياسيين ، وهو شخص سريع البديهة ، فصيح وشريف .

وبراندت ، كما ذكرت من قبل ، مرشح الحزب الاشتراكي الديمقراطي ضد مرشح الحزب الديمقراطي المسيحي في انتخابات عام ١٩٦١ . وهو يقف في الجناح الأيمن المعتدل من الحزب ، وموقفه بالتقريب مثل موقف جيوسيب سيراغات في إيطاليا أو إلى حد ما ، هيو جيتسكل في بريطانيا وهو ليس مهتما بالنظرية مثل اهتمامه بالسلطة . فليستول الحزب الاشتراكي الديمقراطي المنصب أ لا . ثم بعد ذلك يحىء الوقت

في الكلام على الآراء المتعارضة في النظرية الاشتراكية . ومصادر قوة براندت ومميزاته عديدة ، مثل قوته الشابة (فهو ما زال في السادسة والأربعين) وطريقته في الحصول على أصوات الطبقة المتوسطة غير الاشتراكية ، وعلاوة على ذلك ، فهو الرجل الذي يقف على خط النار ، الرجل الذي يقف على المدفع في برلين ، مدينة المتاعب المستمرة ، وقلب أخطر أزمة تهدد العالم .

وقد ولد براندت في لوبك ، وقد هرب من ألمانيا بعد ظهور هتلر ، وعلى عكس معظم زملائه من الاشتراكيين الديمقراطيين الذين هربوا إلى الجنوب وإلى الشرق ذهب إلى الشمال في طريقه إلى النرويج . وقد عمل صحفياً ، وتجنس بالجنسية النرويجية ، وانضم إلى حركة المقاومة النرويجية ، ووصل إلى رتبة ماجور ، وبعد الحرب عاد إلى برلين (في زي نرويجي ، وزوجه نرويجية حسنة) . ثم استرد جنسيته الألمانية وعمل في رافوس وأصبح تحت حماية أرنست رويتر الذي كان عمدة لبرلين الغربية في عام ١٩٤٨ . وهو لا يختلف كثيراً في معظم تصريحاته في السياسة الخارجية عن سياسة اديناور . وقد هزم براندت في محاولته الأولى لشغل منصب الجمهورية في برلين ، ولكنه كسب المحاولة الثانية

أما عن مركز براندت كعمدة برلين فإنه يدعو إلى التفاؤل . وهو لا يعتقد في أن الروس سيتجراؤون على فرض حصار رسمي آخر لأن « حتى خروشرف لا بد وأن يكون له مستشارون في العلاقات العامة . ولأن استخدام سلاح التجويع ضد مدينة مالن يكون عملاً يكسبه

لأصدقاء ، — وهو لا يريد أن يصبح الاتحاد السوفيتي أكثر عزلة عما هو عليه الآن . وعلى أية حال فإنه إذا حدث حصار جديد . فإن العمدة يؤكد بكل ثقة أن برلين مستعدة كل الاستعداد لمقابلته ، فلا توجد مدينة في العالم عندها احتياطي في الفحم أو الطعام مثل برلين . أما عن ألمانيا عامة فإنه أعرب عن أمله في إمكانية نزع السلاح . وإن المشكلة الألمانية ومشكلة السلام مرتبطتان ببعضهما تماماً . فإذا ما استطاع الروس والغرب أن يحققا اتفاقية لنزع السلاح ، فسيقل ذلك من الضرورة التي يشعر بها كلا الجانبين في احتفاظهما بقوات فوق الأراضى الألمانية .

إن الباعث على « مشكلة » برلين هو نيات الاتحاد السوفيتي ، فمن الواضح أن نظام البانكو في برلين الشرقية يعتبر عظمة في حلق الغرب وكذلك فإن الغرب عظمة في حلق الشرق . ومن الصعب القضاء على سبب قيام هذه المشكلة ذلك لأن في جعبة كلا الطرفين الكثير وإن برلين في حد ذاتها جائزة ضخمة ، وأيضاً فإن الشيوعيين لا يستطيعون أن يسيطروا تماماً على ألمانيا الشرقية ، التي تعتبر حيوية وهامة لموسكو مثل أوكرانيا ، طالما أن برلين لها قطاع غربي يمثل الفجوة التي يستطيع أن يخرج منها سكان ألمانيا الشرقية وطالما وجدت برلين الغربية فإن النظام الشيوعي في أوروبا يظل مهددا دائماً . والنظام السوفيتي لم يكمل بعد .

ومن ناحية أخرى فإن أهمية برلين للعالم الغربي واضحة جداً فإذا ما سقطت برلين . فإن ألمانيا الغربية كلها ستسقط هي الأخرى . وقد

سمعت هذه الجملة يقال : إذا ما تراخينا وسمحنا لأنفسنا بأن نجلو عن برلين فإننا سنفقد كل أوروبا ، . إنه ليس مجرد الشرف ذلك الذى دعا أمريكا وبريطانيا وفرنسا إلى ذلك بل إنه لضمان سلامة أنفسهم فإن فقد برلين سيكون ضربة قاضية للعالم الديمقراطى بأكمله .

ولكن المشكلة تبقى ، فكيف تنوى تلك الدول الاحتفاظ ببرلين إلى ما لانهاية ؟ .. وكيف يمكن الدفاع عنها ؟ ..

كيف يمكن للغرب أن يحتفظ بمثل هذه المدينة الصناعية الكبيرة التى يعيش فى القطاع الغربى منها مليونان وربع مليون نسمة . فى الوقت الذى تعتبر فيه المدينة منفصلة من الناحية الجغرافية عن الغرب بل فى الواقع يحاصرها الشرق تماماً ؟ .. وهل تستحق برلين الخوض فى حرب عالمية جديدة ؟ .. وهل سيحارب الفرنسيون ؟ .. وهل سيحارب البريطانيون ؟ .. وهل سنحارب نحن الأمريكيين ؟ ..

لقد تأزمت هذه المشاكل فى ٢٧ نوفمبر ١٩٤٨ ، عندما خرج خروشوف عن بروتوكول الدول الأربع الذى يحدد إدارة الحلفاء لبرلين، وأصدر إنذاراً مدته ستة أشهر يطلب فيه وضعاً جديداً لبرلين كمدينة حرة منزوعة السلاح ... وإذا قدر لهذا الوضع أن يقوم فإنه سوف ينهى حكم الدول الأربع لبرلين ، وينقضى قانون الاحتلال ويجعل الموقف بأكمله مفتوحاً ، وعندئذ يسيطر سكان ألمانيا الشرقية على الدخول إلى برلين ، ويدعون بأن الحلفاء الغربيين لم يتخذوا مركزهم فى المدينة بمقتضى اتفاق دولي .

ومن البديهي أن مواطني ألمانيا الشرقية الشيوعيين سوف يكونون تحت إشراف الروس طوال الوقت ، ولكن الروس سوف يتظاهرون بعكس ذلك ، وسوف يكون في استطاعة سكان ألمانيا الشرقية أن يعزلوا برلين ويعرضوا عليها حصاراً في أية وقت ، مؤكدين أن هذه المشكلة قد أصبحت مشكلة ألمانية داخلية تماماً ، وأن الدول الغربية ليس لها الحق في التدخل في المسألة ، أوليس لها الحق في الوجود في برلين على الإطلاق .

وترتب على ذلك أزمة كبيرة ، ولكن الحلفاء صمدوا ، ولم يستطع خروشوف تنفيذ إنذاره بل في الواقع ألغى خروشوف إنذاره ، وقد فعل خروشوف ذلك جزئياً لأنه يخاف الحرب ، وجزئياً لأنه غير تكتيكاته ، جاهداً في محاولة عتد مؤتمر للقمة ، وقرر أن يلتزم جانب الاعتدال .. واننا نألف مثل هذا التآرجح السوفيتي .. وأعقب ذلك زيارة خروشوف للولايات المتحدة ومحادثاته مع الرئيس السابق أيزنهاور في كامب ديفيد ، وان ما قيل في هذه المحادثات لا يزال محلاً للنقاش ومختلف التفسيرات .

ولم تمض ثمانية أشهر حتى تسببت حادثة الطائرة ى - ٢ الأمريكية في تحطيم مؤتمر القمة في باريس في مايو عام ١٩٦٠ ، وتوقع العالم بعد ذلك أن خروشوف - في غضبه الجنوني - سوف يطلق زمام مواطني ألمانيا الشرقية ويعيد فرض الضغط على برلين الغربية .. وبدلاً من ذلك تحدث خروشوف في شرق برلين بعد فشل مؤتمر القمة مباشرة ، والزم جانب الاعتدال .. وهذه هي المشكلة ، فمن الواضح أن خروشوف

لا زال يأمل في إجراء مفاوضات تؤدي إلى تعديل وضع بولن في صالحه دون المغامرة بالدخول في حرب .. وعلى أية حال فلا بد أن نضع أمام أعيننا احتمال وجود تأرجح جديد في السياسة السوفيتية واشتداد الأزمة في برلين مرة أخرى .

ومسألة أخرى تستحق الذكر .. فمع أن ألمانيا الشرقية (المنطقة الروسية) دولة تابعة للسوفييت ، وأن الاتحاد السوفيتي يعترف بها كدولة ذات سيادة ، فإن لروس لم يوقعوا معاهدة صلح مع ألمانيا الشرقية .. كما أن الحلفاء الغربيين لم يوقعوا معاهدة صلح مع ألمانيا الغربية ، والسبب الرئيسي لذلك هو أن الروس - الذين يحاولون كسب الوقت ويضعون أمام أعينهم هدفا بعيد المدى - يحرصون على الفوز بألمانيا كلها أكثر من حرصهم على ألمانيا الشرقية فقط . ومن البديهي أن عتد معاهدة صلح مع ألمانيا الشرقية سوف يعطى الصفة الرسمية لوضع ألمانيا في الوقت الحاضر، ويجعل تقسيمها أمراً دائماً ومن الواضح أن الروس يريدون ألمانيا شيوعية موحدة .

أما الحلفاء - من الجانب الآخر - فهم ينظرون بامتنعاض وخوف إلى إمكانيات عتد معاهدة بين الكرملين وألمانيا الشرقية ، وذلك لعدة أسباب أهمها: أن ذلك سوف يقضى على إمكانية توحيد ألمانيا في المستقبل التريب على الإطلاق .. وعلاوة على ذلك ، فإن عتد معاهدة مع ألمانيا الشرقية ربما تؤوله كثير من الدول المحايدة وغير المنحازة على أنه انتصار للدبلوماسية السوفيتية ، وربما يعقب ذلك اعتراف عدد من هذه الدول بألمانيا الشرقية ، ولكن يجب على خروشوف أن يمعن التفكير في ذلك

كله ، إذ أن اعتراف السوفييت بالنظام القائم في ألمانيا الشرقية له مساوئه ومزاياه ، إذ ربما يخسر الاتحاد السوفيتي - كما قال برندت أخيراً لأحد الصحفيين - الاتصال المباشر بألمانيا الغربية .. ولكن برندت يعتقد أن عقد معاهدة صلح بين الكرملين وألمانيا الشرقية لن يحدث قريباً وأنه إذا حدث ذلك ، فانه لن يغير من الوضع القائم كثيراً .

وبجب علينا الآن أن نتقل في الحديث عن الشرق أى عن المنطقة السوفيتية أو القطاع السوفيتي .

هـ - القطاع السوفيتي أو المنطقة السوفيتية

وعبرنا بوابة براند نيورجر تور . وهي أغرب منفذ في الحدود بين برلين الشرقية وبرلين الغربية ودلفنا في القطاع السوفيتي على طول أونتردن ليندن والأشجار هنا - كما في تيرجارتن (حديقة الحيوان) قطعت لاستخدامها كوقود أثناء الشتاء القارس الذي تخلل الحرب . ثم أعيدت زراعتها ووصلت إلى ارتفاع ملحوظ في الوقت الحاضر ولكنها تبدو نحيلة

وكنا كلما تقدمنا خطوة ازداد إحساسنا بالتناقض الشديد بين برلين الغربية وبرلين الشرقية . إن السيارات قليلة في برلين الشرقية عنها في الغربية .. وكذلك فالمحلات فارغة وليست فاخرة ، وليست هناك مطاعم فاخرة أو مقاه على جانبي الشوارع .. ولكن أهم عناصر التناقض هي أن الزائر يشعر - مباشرة تقريباً - بنوع من الركود

النفسى الشامل الذى يدعو إلى الغرابة . . فهناك تشابه كئيب لا يشرح الصدر يصبغ المدينة بأكمامها باللون الرمادى . . هذه هى روسيا ، بل وأسوأ من ذلك ، هذه هى ألمانيا الروسية . . وإن وجود الاثنين أمر خائق لا يطاق .

والدمار هنا أكثر بكثير مما هو فى برلين الغربية ، فالمبانى ماهى إلا أشلاء وهياكل . . ولا زالت الميادين الكبيرة تكتظ بالأنقاض ، وإن أحد الأسباب التى حدث بالذين يسيطرون على برلين ألا يحضوا شعبهم على إزالة هذه الاشلاء ، هى أنهم ازادوا أن يلقنهم درساً -- أى أن يحتفظوا بذكرىات الحرب خية لكى تذكر الشعب الألمانى بما جلبته عليه الحرب . . والروس لا يثقون بالألمان على الإطلاق . . ومن بين التفاصيل التى تدعو إلى الغرابة هو أن أهم عيد قومى فى ألمانيا الشرقية اليوم هو يوم " مايو من كل عام ، وهو اليوم الذى سلط فيه ألمانيا دون أى شروط . . ولنتصور أمة تحتفل بيوم هزيمتها !

ومن بين لأحاسيس التى يحتمل أن يشعر بها معظم الزوار الذين يفدون من الغرب ، والذين ينظرون إلى برلين الشرقية نظرة سطحية هى أن تفوق نظام المشروعات الحرة على الاقتصاد الشيوعى يتضح فى برلين الشرقية بدرجة كبيرة . . وهنا يرى الزائر جزءين قريبين من مدينة واحدة . أحدهما نابض يكتظ بالحركة والحياة والحياة ، والآخريه -- دو راكداً مهملاً قدراً . . ولكن من الحق أن نبنى مقارنة صحيحة على هذه الشواهد .

فأولاً : نجد أن برلين الغربية قد تمتعت بفوائد مشروع مارشال...
وهي فوائد كبيرة لم تتمتع بها برلين الشرقية .

وثانياً : لا تعتبر برلين الشرقية - في بعض النواحي - رمزاً لألمانيا
الشرقية بأكملها ، إذ أن ليبزج وبعض المدن الأخرى مدن غنية .

وثالثاً : لا يعير الشيوعيون - عادة - اهتماماً كبيراً بمظهر المحلات،
وصيانة المباني ، وما شابه ذلك .. ولكنهم يركزون اهتمامهم - بدلاً
من ذلك - على أشياء غير مرئية ، أهمها بناء صناعة ثقيلة .

ورأينا المكان الذي كانت به مدينة الملاهي في الماضي (وهو اليوم
ميدان - ماركس - انجلز .. وجبنا في مساحة من الانقراض الأرضية
في الطرف النهائي من أوتر دن ليندن ، واشترينا بعض الأشياء من إحدى
المحلات الكبيرة التي تملكها الدولة وهو كتيب جداً ولكنه يضم كثيراً
من البضائع المعروضة للبيع .. ورأينا الأعلام الضخمة ذات اللون
الأحمر والذهبي ترفرف في كل مكان .. وأحياناً ترفرف على مناطق
مدمرة خربة تماماً ، وقد كتب على هذه الأعلام عبارات تقول ..
التخطيط المشترك . العمل المشترك ، الحكومة المشتركة ، أو من أجل
معاهدة السلام وإنهاء التوتر ، ومن أجل انتصار الاشتراكية عن طريق
تدعيم السلام .

ومررنا في شارع ليبزجر الذي كان أكبر شارع تجاري في ألمانيا
قبل الحرب والذي أصبح في الوقت الحاضر لا شيء تقريباً ، ورأينا
حطام المسرح القديم الجميل ، وألقينا نظرة على فناء القصر القديم الذي

بقى منه حائط متداع ، ونظرنا إلى مبنى وزارة الطيران الذى يبدو على حاله تقريباً .. ورأينا شارع ولهم حيث مات هتلر - وهو تل رملى منخفض ومسطح يغطيه المحار الأسود والأتعاض - وهذا هو كل ماتبقى من دولة الرايخ .

ولا جدال فى أن أهم تحفة هى « شارع ستالين ، الذى كان فيما مضى « شارع فرانكفورت » .. وان النكتة السائدة عنه فى الغرب هو أنه الشارع الذى لا يودى بك إلى أى مكان .. وهنا تعيش الصفوة المتعلبة فى برلين الشرقية .. وهنا يبلغ اتساع الرصيف ثلاثمائة قدم ، والمباني السكنية كثيفة ، وغريبة ، طليت باللون الأصفر السمى ، وهى تشبه مباني موسكو .

وفى طريق عودتنا عبرنا مساحات من الخراب ، مررنا بما تبقى من فندق الدون ، ولم نستطع مغالبة القاء نظرة على الداخل .. لقد كان هذا الفندق فيما مضى أعظم القنادق على الاطلاق .. وأعتقد أنه كان أعظم فندق نزلت فيه فى حياتى ، وكل ماتبقى منه اليوم طريق يودى إلى السلم ؛ ومغطى بمشمع قديم مهالل رمادى اللون يودى إلى ما كان فيما مضى جناح الخدم ؛ حيث توجد غرفة للطعام تحوى ست موائد أو تزيد قليلاً .. وفى الطوابق العليا توجد حجرات قليلة للايجار .

ورأى أحد الخدم أحلق فى غرابية؛ ويبدو أنه أدرك ما كنت أفكر فيه بالضبط لأنه غمغم قائلاً : « هذا هو كل شىء .. » وعلى قاعدة الشباك رأيت طبقاً من الموز الذى أصابه العطب ؛

وإلى جانبه باقة وحيدة من الورد المصنوع من الخيط ؛ ولكن كل شيء كان يبدو نظيفاً ؛ وكان الجو يوحى بالتعمير والتوسع الذى سيتم قريباً .
ويستطرد المؤلف فى الحديث عن ألمانيا الشرقية ، وفى المقارنة بينها وبين ألمانيا الغربية ، وعن زعماء ألمانيا الشرقية وكيف وصلوا إلى الحكم . فيقول :

تعتبر ألمانيا الشرقية - فى بعض النواحي - أهم الدول الأوروبية التابعة للاتحاد السوفيتى ، وهى الدولة الوحيدة - فيما عدا المجر وألبانيا - التى لا تنتمى إلى الجنس السلاقى ؛ وهى قريبة جداً من الغرب من الناحية الجغرافية . . . ويوجد فى ألمانيا مدن مثل إيرفيورت ، وفايمار ، وينه ، وماجدبرج ، ودرسون . . . وربما تبدو برلين الشرقية فقيرة فى المظهر ولكن ألمانيا الشرقية ككل دولة ناجحة . وإنتاجها الصناعى ثابت ومتزايد . . . وإنتاجها القومى الكلى يتزايد بمعدل سنوى قدره خمسة فى المائة ، وكان فى عام ١٩٥٨ ١٨ بليون دولار . . . وفيما قبل الحرب كانت المناطق التى تكون ألمانيا الشرقية اليوم تنتج ٥٥ ٪ من كل الأدوات الميكانيكية التى تنتجها ألمانيا ، ٧٥ ٪ من المنسوجات ، وكثير من المعدات والأدوات العلمية المتخصصة .

ومن الخطأ الفاحش أن تقلل من قيمة ألمانيا الشرقية ؛ أو أن تقلل من مدى انتعاشها الاقتصادى أو مساهمتها فى المجال السوفيتى بصفة عامة . . . إن ارتفاع مستوى المعيشة ملحوظ وخصوصاً بعد الاهتمام

بإنتاج مزيد من السلع الاستهلاكية . والتركيز عليها الذي بدأ يبدأ . مشروع السبع سنوات الجديد في عام ١٩٥٨ ، ولألمانيا الشرقية أهمية ماحوزة في مجال آخر هو المجال العسكري ، فجيشتها قوى حسن العتاد ، وبها قواعد للصواريخ قريبة من حدود العالم الحر ، مما يدعو إلى القلق .

وتسمى ألمانيا الشرقية من الناحية السياسية « نموذج » الدولة التابعة ولكن هذا لا يعنى أن زعماءها ليسوا أكثر من مجرد ألعيب في يد الكرمالين وتابعين له .. ولكن هؤلاء الزعماء يتمتعون بقدر كبير من الإرادة والمبادرة الخاصة بهم ، ذلك لأنهم ألمان على أية حال ، ويجب ألا ننسى أن الحزب الشيوعى فى ألمانيا كان قوة وطنية لها قيمتها قبل الحرب .. وقد ورثت حكومة ألمانيا الشرقية الحالية من هذا الحزب إلى حد كبير ، وهذه الدولة ليست واجهة ، أوليست ظلال دولة .. إنها دولة حقيقية ، ويجب علينا أن نتذكر دائماً أنها تحيط ببرلين تماماً .

ويعتبر حزب الحكومة — من الناحية النظرية — ائتلافا يضم الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين اليساريين ، وهو يسمى « حزب الوحدة الاشتراكي » . ولكن الشيوعيين يسيطرون تماماً على هذه الحكومة الائتلافية المزعومة . . ورئيس هذه الحكومة هو والتر أولبرخت (٦٨ سنة) وهو السكرتير الأول للحزب الشيوعى ورئيس مجلس الدولة . . . ورئيس الوزراء هو أوتو جرنفول ، وهو أحد الاشتراكيين الديمقراطيين المرتدين ، وهو يقف فوق أولبرخت

من الناحية الفنية في الجهاز الحكومي ، ولكنه لا يتمتع بقوة أو بهيئته الكبيرة ، وقد كان أولبرخت يعمل نجاراً ، وهو يتحدث الألمانية في لهجة ساكسونية جافة . وهو أحد ثوار المدرسة الدولية القديمة ، وقضى سنوات عدة في موسكو .

وقد كان أولبرخت -- وربما كان حتى الآن -- ستالينياً قلباً وقالباً ويتول البعض : إنه أقرب إلى الصين منه إلى موسكو وليكن ذلك أو لا يكون ، فقد احتمل كل انقلاب حدث في الحزب كما أن مستر خروشوف يبدو أنه يثق ثقة كاملة في الاعتماد عليه ولا جدال في أن كل القرارات السياسية الهامة تتخذ في الكرملين ، ولكن الكرملين يستشير أولبرخت في ذلك وجدير بالذكر أن عدداً من الأفراد ذوي الأهمية في حكومته من أتباع النازي السابقين

وأولبرخت شخصية تجمع بين الضدين ، فهو يتبع الشيوعيين مثل جوموا كما في بولندا (أوتيتوف في يوغوسلافيا) .. ولكنه مع أنه ألماني فهو لا يشعر بشعور قومي واضح .. وجومولسكا يفخر بكونه بولندياً .. ويعتبر تيتوف فوق كل شيء وطنياً يوغوسلافياً . ولكن ولاء أولبرخت الوحيد الذي لا يهتز يتجه نحو قضية الشيوعية في العالم أي يتجه إلى الحزب كأداة للثورة والتأمر الدولي وأن ماضية الستاليني لا يتلاقى خروشوف على الإطلاق ! بل في الواقع يرغب خروشوف أن يكون أتباع ستالين على حدود الإمبراطورية السوفييتية وعلاوة على ذلك يود لو كانوا على أكبر قدر ممكن من التسوية والجفاف .

والآن لا بد لنا أن نقول شيئاً عن الصورة الخلفية . . . فكيف
وصل أولبرخت وصحبه إلى الحكم ؟

يجب علينا أن نعود إلى نهاية الحرب ، وهناك عدة تواريخ
أساسية هامة . . أن أولبرخت — الذي تصادف أنه يتحدث الروسية
بطلاقة — ينتمى إلى ما يعرف باسم « جروب أولبرخت » ، وهي منظمة
مدنية خلف الجيش الأحمر ، وقد كانت أول فريق من المستشارين
السياسيين الشيوعيين الألمان يصل إلى برلين ، وعملت مباشرة على تدعيم
مركزها في المنطقة السوفييتية ، ولكن الشيوعيين وجدوا أنفسهم
يواجهون موقفاً سياسياً غريباً ، ذلك أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي
كانت أقدامه راسخة في أقاليم ألمانيا الوسطى والشرقية ، وكان عدد أعضائه
مبلغ ٦٠٠ ر ٦٨ عضو ، وهو عدد يفوق قوة الشيوعيين . . وعلى
ذلك حاولت موسكو التوحيد بين الحزب الشيوعي والاشتراكيين ،
على أمل أن يستوعب الشيوعيون الاشتراكيين ، ولكن شوماخر
والزعماء الاشتراكيين المتطرفين عارضوا هذه المحاولة بقوة .

ولم يستطع الروس الاقدام على أى شئ لمدة من الزمن . . ثم
استطاعوا بمهارة فائقة عتد صفقة مع ستة أو ثمانية زعماء من
الديمقراطيين الاشتراكيين اليساريين ، من بينهم جروتفول . . وقالوا
لجروتفول : إنه إذا بقي في ألمانيا الغربية فلن يكون إلا شخصاً ثانياً
بعد شوماخر ، ولكنه إذا غير موقفه فإنه سوف يصبح دون منازع
رئيس أول دولة اشتراكية في تاريخ ألمانيا .

ونجحت هذه المناورة الروسية ، وفي ٢٠ أبريل من عام ١٩٤٦ انضم الحزب الشيوعى إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، مكونين حزب الوحدة الاشتراكى ، وهو الذى لا زال يحكم ألمانيا الشرقية حتى اليوم باسم الشيوعيين . . ولم يجد الاشتراكىون الفرصة للدلاء بأصواتهم على الوحدة بينهم وبين الحزب الشيوعى على أساس يضم الدولة بأكملها ، ولكنهم فى برلين حيث لا يمكن للشيوعيين أن يمنعوا اجراء انتخابات حرة ؛ صوتت ٨٧٪ منهم ضد الوحدة . . وتصادف أن الحزب الاشتراكى الديمقراطى حاول الاحتفاظ بعملية سرية قوية فى برلين الشرقية منذ ذلك العهد ، برغم العقوبات الخطيرة .

وفى ١٧ يونيو عام ١٩٥٣ واجه أولبرخت ثانى أزماته ، فقد كانت سياسته تقوم على صبغ ألمانيا الشرقية بالصبغة السوفيتية تماما ، ولكن التجربة لم تفلح تماماً وعارضه ثلاثة من أقوى أعضاء الحزب من بينهم رئيس البوليس السرى الهر زائسر الذى عرف باسم « بريا الألمانى » ولكن أولبرخت أفلح فى سحق هذا التمرد .

وواجهت أولبرخت أزمة أخرى فى فبراير سنة ١٩٥٦ ، بعد أن ألقى خروشوف خطابه فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى فى موسكو وهو الخطاب الذى قال فيه من قيمة ستالين .

وفى ذلك الوقت نهض أحد أعضاء الحزب المتترسين - ويدعى شيرد فان - فى برلين الشرقية ، مطالبا بتنحية أولبرخت لأنه من أتباع ستالين . .

ويبدو أن خروشوف عضد شيرد فان فترة من الوقت ، ولكنه غير موقفه .. وهكذا أمكن لأوبريخت أن يصمد أمام العاصفة وتنحى شيرد فان عن المسرح وأصبح رئيساً لمكتب محفوظات الدولة في بوتسدام

* * *

وقصارى القول : ما هو رد فعل سلطات ألمانيا الشرقية بالنسبة لظاهرة اللاجئين ؟

إن نقص السكان أمر خطير بلا جدال ، وقد انخفض سكان الدولة حوالى ٢٠٪ فى اثنى عشر عاماً ، من أكثر من عشرين مليوناً إلى سبعة عشر مليوناً ، وتشعر ألمانيا الشرقية بنقص شديد فى الأطباء والمهندسين والرجال المهرة من الناحية الفنية بسبب هجرتهم إلى الغرب

وعلى أية حال فليس هناك نقص فى الأيدي العاملة فى الصناعة حتى الآن .

ويعتبر نقص السكان فائدة إلى حد ما ، إذ أن قلة السكان تعنى قلة الأفواه التى تطالب بالغذاء ، وهذا يعنى قلة السلع لاستهلاكية التى يجب إنتاجها .

ومن البديهي أنه إذا بدأ النظام فى الاحساس بالعسر ، وأصبح انخفاض الإنتاج مشكلة فانه سيتصرف مع الشعب بالحيوانية المعهودة عند كل الأنظمة الشيوعية ، ويفرض قواعد تقضى بتخصيص حصص تموينية للمواطنين ، أى أن المواطنين سيأخذون قدرأ من السلع الاستهلاكية أقل مما ينالونه اليوم .

والى جانب كل ذلك يوجد عنصر هام آخر يأتى من طبيعة السياسة

لشيوعية طويلة المدى . . وهو أنه حتى ولو كانت هجرة اللاجئين مسألة خطيرة ، فإنها لا تدعو إلى إغلاق الحدود وتقض قانون الاحتلال وخاق أزمة دولية خطيرة ، وإن عقيدة ألمانيا الشرقية تتشابه مع عقيدة الكرملين ، وهي أن العالم بأسره سوف يكون شيوعياً بمضى الوقت . وعلى ذلك فما أن النصر مؤكد فليس هناك ما يدعو إلى الإسراع ، وأن زعماء الكرملين - وكذلك أولبرخت وسكان ألمانيا الشرقية يأملون أن الغرب سوف يعتقد إن أجلاً أو عاجلاً أن برلين أصبحت مدعاة للقلق ، ويقرر أن الموقف لا أمل فيه ، أو باختصار سيتنازل الغرب عن حراسته لبرلين الغربية .

وماذا يترتب على إجراء انتخابات حرة في ألمانيا الشرقية ؟ لا أحد يعرف ، ولكن سلطات ألمانيا الغربية عامة ، بما في ذلك دكتور أديناور ودكتور إيرهارد ، وكذلك ويلبراندت ، يعتقدون أن الحكومة الشيوعية لن تخرج من الانتخابات الا بعشرة في المائة فقط من الاصوات .

ربما يكون في ذلك بعض الحكم العاطفي . . وبينما يرى بعض المراقبين أن أغلبية كبيرة سوف تدلي بأصواتها ضد الشيوعيين ، فهم يعتقدون أن هذه الاغلبية ستكون أقل مما كانت عليه منذ ست أو سبع سنوات مضت ، وهم يقولون :

إن الناس بدأوا يشعرون بالإذعان . وقد أثر فيهم التلقين الشيوعي وطمس تفكيرهم ، وجعلهم يحسون بالإذعان . .

وهناك عامل يجب أن نلاحظه وهو أن شعب ألمانيا الشرقية هو الشعب الوحيد في غرب أوروبا الذي خضع بصفة دائمة لحكم دكتاتوري مطلق منذ أوائل الثلاثينيات ، فقد انتقل من هتلر الى ستالين دون فترة للانتقال ، وإن أى حكم دكتاتوري يستمر ثلاثين عاما تقريبا دون انقطاع يمكن أن يشبط أقوى عزيمة .

ومن ناحية أخرى يجب أن نتذكر أن شعب ألمانيا الشرقية هو أول شعب في الامبراطورية التابعة بأكملها يحاول التمرد ، فقد حدثت حركة تمرد جريئة في شارع ستالين في ١٧ يونيو عام ١٩٥٣ اذ قذف الاطفال العزل الدبابات السوفيتية بالحجارة ، وكان على السلطات أن تفض هذا التمرد بقوة السلاح ،

وهناك نقطة أخيرة تستحق الذكر ، وهي أن سلطات ألمانيا الشرقية لا تقدر على اساءة معاملة الشعب بخشونة ، ذلك لوجود المخرج الذي توفره برلين الغربية لهم ، فاذا تأزمت الامور فإن مزيدا من الناس سوف يهرعون الى الغرب . . . ومن هنا تتضح لنا الاهمية الحيوية من الاحتفاظ ببرلين الغربية للعالم الحر .

بعض الاعتبارات الدولية

وإذا ما تركنا ألمانيا الآن بشطريها الشرق والغرب فعلينا أن نتكلم قليلا عن بعض الاعتبارات الدولية . . من الواضح أن ألمانيا بشطريها وموقعها في قلب أوروبا ، تعتبر قلب المشكلة الأوروبية . وإذا ما نظرنا إلى هذه المشكلة من خارج ألمانيا ، فإننا نجد أن لها مظهرين :

أولاً : الخوف من أن ألمانيا نفسها ، وخاصة بعد أن تتحد ، قد تثير حرباً في يوم ما .. ويرى معظم المراقبين ذوى الخبرة أن هذا الاحتمال بعيد ، غير أن المرء لا يستطيع أن ينسى أن ألمانيا أثارت مالا يقل عن خمسة حروب عدوانية خلال القرن الماضي ، في عام ١٨٦٤ وفي عام ١٨٦٦ وفي عام ١٨٧٠ وفي عام ١٩١٤ وفي عام ١٩٣٩ . إنك لا تستطيع أن تخمد قوة الألمان ، ولا جدال في أن القرار الذي اتخذ بالسماح بإعادة تسليح ألمانيا ، والذي تم التوسع فيه بعد أن أقدم عليه الأمريكيون في أوائل عام ١٩٥٠ ، كان قراراً مزعجاً .. إن كل سياستنا مبنية على مبدأ هو أننا لا بد أن نبني دفاعاً قوياً في أوروبا ضد أى هجوم سوفيتي محتمل ، وهما انطوى هذا الأمر على مخاطرة .

ثانياً : الخوف من أن يعلن آخرون الحرب بسبب ألمانيا ، خاصة إذا لم تتحد ، وحتى إذا كان لا يوجد مثل هذه الحرب .. ومن هنا ظهر عدد من الاقتراحات لحل مثل هذا الموقع المائع ، وهذه الاقتراحات تتسلسل من الكلمة الغامضة الغريبة « سحب الجيوش » التي تساندها عواطف الجناح الأيسر التنوية في معظم أوروبا بشكل أو بآخر ، والتي قد تعنى ضمناً انسحاب كل من قوات حلف شمال الأطلسي والجيش الأحمر عن الأراضي الألمانية إلى أن تصل هذه الاقتراحات إلى مشروع راباكي ، وقد اقترحه آدم راباكي وزير خارجية بولندا في الأمم المتحدة في ٣ أكتوبر عام ١٩٥٧ ، وهو « يربط بين سحب الجيوش ونزع الأسلحة النووية » .. ويقترح إقامة منطقة « خالية من الأسلحة النووية » في وسط أوروبا على جانبي الستار الحديدي .

وفي نفس الوقت ، فإن مجريات الأمور داخل الجمهورية الاتحادية عرضة للتغير ، وقد أكدت في صفحات سابقة من هذا الكتاب إخلاص المستشار أديناور للوحدة الأوروبية ، وخاصة للتقارب الألماني — للفرنسي ، إلى جانب عداوته القديمة الصريحة للاتحاد السوفييتي .. ولكن تيارات الزمن والظروف العنيفة قد تؤدي إلى ظهور تطورات جديدة .. فإن اتفاق ديجول — أديناور مثلاً معرض للانهار ، ومن الجائز أن يكون ذلك مؤقتاً بسبب إصرار ديجول في أواخر عام ١٩٦٠ على اتباع سياسة مستقلة فيما يتعلق بالتسلح الذري ورفضه ضم قوات فرنسية أكثر إلى قوات حلف الأطلسي ، ورغبته في تغيير ببيان التحالف الأطلسي ..

أما بالنسبة لروسيا فما زال أديناور يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الشيوعية مناقضة للكرامة الإنسانية ، وأن الحياة بدون حرية لا تساوي شيئاً .. ومع ذلك فقد اتبع أخيراً سياسة أكثر استرضاء نحو روسيا أكثر من أي وقت مضى .. وقد ذهب في ذلك إلى حد أنه قرر أن خروشوف طراز يختلف تماماً عن طراز ستالين ، وأنه يتبع أهدافاً أخرى من أجل الشعب الروسي ، وأنه « رجل يستطيع الإنسان أن يتكلم معه ، وأنه من المرغوب فيه أن يتم اجتماع بين الرئيس كنيدي والسيد خروشوف ، وأرسل بيرتولد ييتز — الذي يدير مصانع كروب — في بعثة غير رسمية إلى بولندا في يناير عام ١٩٦١ ، راجية تهيئة الجو لإعادة العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا الغربية وبولندا .

ولا يستطيع أحد أن يتكهن حالياً بالمغزى الكامل لمثل هذه

المناورات . . . إن سياسة الجمهورية الاتحادية ظلت كما هي بدون تغيير جوهري ، والذي يريده سكان ألمانيا الغربية هو السلام والاتحاد ، والمشكلة هي كيف يتم تحقيق ذلك بدون التضحية بالأمن . . . وأخيراً ولا يفوت المرء أن يلاحظ وجود بعض الاتجاهات الحيادية في ألمانيا الغربية ، مع أنها على مستوى افتراضى ضئيل ، وقد نستطيع أن نفكر في احتمال ظهور حياد على نمط حياد النمسا ، غير أنه من الضرورة بمكان أن يكون ذلك جزءاً من اتفاق أوروبي شامل .

٦ — شخصية ديجول

وبعد أن أنهى جنتر حديثه عن ألمانيا بشرطها ، وبعد أن تحدث عن مشكلة برلين ، يتكلم في هذا الفصل عن فرنسا فيبتدى حديثه عن جنرال ديجول قائلاً :

حينما كنت « في داخل أوروبا » منذ خمس وعشرين سنة ، كانت ألمانيا ممثلة في شخص واحد هو شخصية هتلر ، بينما كانت فرنسا يمثلها أناس عديدون . . . أما اليوم فإن العكس صحيح تماماً لأنه مع أن أديناور هو الشخصية القوية في ألمانيا اليوم ، فإن البلد مقسم ويوجد كثير من الألمان النديرين في كل من الشرق والغرب .

أما في فرنسا اليوم ، فلا يوجد أى شخص اطلاقاً ذو وزن لا شارل أندريه جوزيف ماري ديجول .

وعند ما ظهر « في داخل أوروبا » لأول مرة في عام ١٩٣٦ كان

ليون بلم قد خلف بيير لا قال كرئيس للوزراء ، وقد أعدم لا قال في عام ١٩٤٥ ، أما بلم فقد مات في عام ١٩٥٠ ، ولم تذكر ديجول في داخل أوروبا ، . . . فقد كان في هذا الوقت كولونيلا غير ظاهر في سلاح المشاة في منتصف أربعينياته ، ولم يسمع عنه أحد خارج دائرة معارفه إلا القليل ، وأصبح في غضون أربع سنوات قائدا للامة الفرنسية في المنفى ومنظما للفرنسيين الأحرار ، وقائدا للفرنسيين المحاربين . . . وبنهاية الحرب أصبح ديجول نجما عالميا غير محبوب ، وشرسا في أمكنة كثيرة . . . ولكنه نجم سام لا يهزم في نفس الوقت .

ولقد قابلت جنرال ديجول مرات عديدة ، ترجع في تاريخها إلى لندن عام ١٩٤١ ، إنه يستطيع أن يكون أوقع إنسان حينما يريد ذلك . ولن أنسى هذه المقابلة الصعبة التي تمت معه في باريس عام ١٩٥٢ حينما كان خارج الحكم . . . ويستطيع أيضاً أن يكسب الناس إلى جانبه . . . وكلما أراه فإني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في أن صفته الرئيسية هي عدم المرونة ، ومن المستحيل أن تتجاهل أيضاً تعاليه وشموخه .

والجنرال مكتنز نوعاً ما ، هذه الأيام . . . ويبدو بارتفاعه الهائل كسلة منتفخة قليلا . . . ويبلغ ديجول السبعين من عمره وهو لا يكاد يرى بدون نظارة ، ولكنه في صحة جيدة .

ولا يستطيع مقابلة ديجول إلا أقرب أقاربه الشخصيين مثل عائلته . ولا جدال في أن له أصدقاء مثل زملائه القدامى في المقاومة ،

أو الرجال الذين يحترم عقلياتهم مثل أندريه مالرو ، المؤلف والناقد الفنى الشهير ، وهو وزير الثقافة فى حكومة دييجول ، وأيضا لويس جوكس السفير السابق فى موسكو ، ووزير التربية والتعليم وهو الآن وزير الدولة للشئون الجزائرية . ولكن الرئيس نادراً ما يتواضع مع أى شخص ، فعلاقته بمساعديه تكاد تكون كعلاقة العامل برعيته وهو هنا عامل متعجرف إلى حد ما ، وهو لا يتبل نصيحة أبداً ، ونادراً ما يفصح عن نياته لمعاونيه ، وليس لأى شخص تأثير عليه . وقد قيل إن أحد موظفى مجلس وزرائه قال فى مناسبة ما : « إن مشكلة الجنرال الوحيدة هى أنه ليس كائناً بشرياً » . وقد سئل مرة وزير مستول عن سياسة فرنسا تجاه قضية معينة ، فأجاب : « كنت أعرف هذه السياسة حينما تركت الجنرال منذ نصف ساعة ولكن لا أعرف ما انتهت إليه الآن » .

ولا يستطيع الغرباء أن يعاملوا دييجول . إن اديناور - ذلك الرجل - اجتماعى يجب أن يقابل أى إنسان تقريباً . وهكذا يفعل خروشوف إذا كان يهدف من وراء ذلك إلى هدف ما . أما دييجول فهو رئيس الدولة الوحيد فى أوروبا الذى من الصعب جداً أن تقابله - باستثناء دكتور سالازار فى البرتغال . ولكن من الخطأ الاعتقاد بأنه يحتقر الناس . إن السبب بذكر بساطة - كما قاله لى أحد المراقبين الذين درسوه عن كذب لسنين عديدة - هو أن له نظرة متشائمة للقيم الإنسانية . إنه يتردد فى توزيع جهوده لأنه يشعر أن الإنسانية ضعيفة وأن طبيعة الإنسان أن يكون ضعيفاً ، وأنه لا يمكن التوقع من أحد -

حتى من أقدر الرجال — أن يعمل على تحقيق وعودهم ، ولذلك فمن الأحسن ألا تثق في الطبيعة الإنسانية تماماً وألا تعطى معاونيه ثقة لأساس لها .

وهذه الصفة الراسخة في شخصية ديجول ، والتي ساعدت أيضاً على جعله رجلاً عظيماً حينما يتخير عنه أحدهم هي السبب الرئيسي الذي جعل مسرح السياسة خالياً من خليفة له . فلا يوجد أى إنسان تدرب على القيام بمسئوليته ، فهناك بعض رؤساء الدول الذين يتجنبون باستمرار أن يحوطهم رجال من الطراز الأول ، خوفاً من أن يجبرهم عن الأنظار ، ويشعرون بالغيرة من هؤلاء الذين بالقرب من مراكزهم ويتمتعون برؤية الطامحين إلى السلطة الذين يتطاحنون ويتنازعون مع بعضهم ، وقد كان كل من ستالين وهتلر من هذا النوع . ولكن ليس هذا هو السبب في إحجام ديجول عن تدريبهم على المسئوليات ، فهو لا يشعر بالغيرة من أى شخص ولا يخاف من أى شخص آخر يصل إلى خلافته

إن الذى يخاف منه ديجول هو أنه قد لا يكون لدى المرشحين الأقوياء للسلطة المقدرة أو الظروف الضرورية لذلك . وقد سأله حديثاً نائب فى الجمعية الوطنية بصراحة عما سيكون عليه المستقبل ، فأجاب ديجول بهدوء : « عليكم أن تبحثوا عن ديجول آخر ،

وهذه الأنانية صامدة كالصخر ، لاتلين ولا تتزعزع ، وهى شىء مطلق تقريباً . فى ذات مرة ، حينما كان فى التقاعد ، وكان يستعرض الفترة الأولى من حياته ، قال بلهجة جادة تماماً : « آه ! هذا كان حينما كنت فرنسا . »

ومنذ فترة وجيزة لا تتعدى يناير عام ١٩٦١ حينما اقترح عليه أحد أصدقائه أن يشكر هؤلاء الذين أيّدوه عند التصويت على مشكلة الجزائر ، أجاب بقوله : « كيف تشكر فرنسا نفسها ، .

ولقد سمعت مرة من يقول : إن الفرق بين ديغول وأديناور ، هو أن الأول فرنسي ، والثاني أوروبي . ولكنني لأعتقد أن هذا حقيقي تماماً .

فلا جدال في أن ديغول فرنسي قبل كل شيء ، وهو يكره كل مظاهر السياسة التي تعلو عن القومية ، ولكنه في نواح عديدة أوروبي أكثر من أديناور لأن مجاله أوسع ، وفي حقيقة الأمر فإن أديناور ما هو إلا أمريكي في عهد أيزنهاور ، أما ديغول فعنده مفهوم أكبر لأوروبا ، يعتقد أنها تمتد إلى جبال الأورال .

وبعد ائتيار مؤتمر القمة في عام ١٩٦٠ ، كان هو أول رئيس دولة أشار إلى الضرورة الملحة في إيجاد نوع من التفاهم (بشروط معقولة) مع روسيا . بصرف النظر عما عليه خروشوف من عدم لياقة وعدوانية .

ر هناك بعض الإشاعات تقول : إن ديغول سيترك وصية كما فعل لينين ، يذكر فيها بعض المرشحين لخلافته وتقييمه لهم .

وقد علق على ذلك واحد من أعظم الرجال الفرنسيين ، فقال : « هذا كلام فارغ ، أرجو أن تتذكروا أن هذه فرنسا وحينما يموت

ديجول فانه يصبح منتهيا ، ولن يعير أى فرنسى أقل اهتمام لآية وصية يتركها ديجول .

ان هناك حقيقتين متعارضتين يجب أن نتذكرهما عن فرنسا التي تتكون من ٥٥ مليون نسمة . معظمهم إما واقعى عنيد أو فوضوى فى أعماقه .

إن النصص عن ديجول نادرة ، ولكن القصة التي تصوراتها نحو فرنسا ، وترفعه العظيم ؛ ذات صلة بأحد أعضاء سكرتيريه ؛ وهو شاب يدعى أوليفيه جيشارد ، إنه رجل فنى وليس سياسى ؛ وهو واحد من جماعة صغيرة مقربة من الرئيس . إذ يتناول طعام الغداء يومياً مع أسرة ديجول . كان ديجول يتصدر مائدة الغداء ؛ يعرف الحساء بنفسه الحساء الذي يعتبر الطبق الرئيسى فى الوجبة الرئيسية لكل فرنسى . ولكن جيشارد ؛ لم يكن يحب الحساء وعندما كانا يتناولان الطعام معاً لأول مرة ؛ بعد أن انتقل ديجول إلى قصر الاليزيه بقليل ؛ اتجه ديجول إليه قائلاً : « هل لك فى تناول الحساء يا جيشارد ؟ » فرفض جيشارد شاكراً بأدب ، وتكرر هذا الحوار يومياً مدة ثلاثين يوماً دون تغيير . وفى اليوم الواحد والثلاثين كف الرئيس عن دعوة جيشارد إلى الحساء بعد أن أدرك أخيراً أنه لا يتناول الحساء ؛ فقال له بإبتسامة جامدة « جيشارد ! كيف يمكن لفرنسا أن تبقى عظيمة إذا كان أهلها لا يتناولون الحساء ؟ » فتمتم الشاب معتذراً ؛ وامتنع ديجول بعد هذا عن إرغام جيشارد على تناول الحساء ؛ وهو يشعر من غير شك بحسرة دفينه لهذا

الدليل المحزن ، على أن فرنسا ؛ لم تعد حتى بين أهل بيته كما كانت عليه
لدى الماضى .

ويروى أن الجنرال ديغول وزوجته ؛ عندما انتقلا إلى قصر الاليزيه
غنيا من العمل عندهما كل مطلق بلباقة وهدوء ؛ ولم يكن عدد هؤلاء
كبيراً . وكان ذلك لأن الجنرال ؛ باعتباره كاثوليكياً متديناً ؛ لم يكن
يعتقد أن من اللائق أن يخدعه — هو وأسرته — شخص مطلق .

وما يروى فى انتخابات الرئاسة أن فرداً واحداً صوت ضد ديغول
فى قريته « كولومبي لى ديز اجليز » التى يبلغ عدد سكانها حوالى خمسمائة .
وكانت طاهيته هى الوحيدة التى صوتت ضده ؛ إذ كانت تعتقد
أن الانتقال إلى باريس وتحمل أعباء الرئاسة سوف يتعب الجنرال
العجوز كثيراً .

ونستطيع أن نتبين طريقة ديغول فى التفكير من هذه المقتبسات
من مؤتمر صحفى عتمده فى واشنطن فى الخامس والعشرين من شهر ابريل
سنة ١٩٦٠ ، خلال زيارته للولايات المتحدة . وقد كان هذا بالطبع قبل
مؤتمر القمة .

س — يسيادة الرئيس ، هل تتوقع احتمال عقد مؤتمر آخر للقمة
فى موسكو ، بجانب اجتماع باريس هذا العام ، عندما يزور الرئيس
ايزنهاور روسيا ؟

ج — اذا لم نقيم بالحرب ، فلا بد أن نعمل من أجل السلام ، ولكى
نحقق السلام لا بد أن نتفاوض ، ولكى نتفاوض لا بد أن نلتقى معا .

س — يسيادة الرئيس ، ان حب الاستطلاع الصحفي يفوق الخبره
 فهل لي أن أسألك عن شاعر ك الفرنسي المفضل ؟

ج — ان الشاعر الذي أقرأ له هو الشاعر المفضل عندي . فثما
 شعراء كثيرون احبهم وأعجب بهم . واني ارجو أن تسمحوا لي الا
 أبوذى مشاعر الشعراء ، حتى من مات منهم من زمن طويل ، بالمفاضله
 بينهم .

* * *

إن من الممكن أن نقدم باختصار ، خلاصة حياة دييجول . فقد ولد
 في ١٠ ليل ، في الثاني والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٨٠ وكان أبوه استاذاً
 للفلسفة في كلية من كليات الجزويت . وهو ينتمى — من ناحية أبيه
 وأمه — إلى صغار النبلاء ، الذين ورث عنهم صفات الصلابه والنفطه
 والاقتصاد والاستقامه . كما ورث عنهم اسمه « دييجول » هذا الاسم
 ذا الإيحاء الشديد ، الذي قد يتسع مغزاه ليعنى « بن فرنسا » . ولقد
 قرر دييجول أن يختار مهنة عسكرية ، وتخرج بدرجة الشرف من
 « سان سير » المعهد الفرنسي المعادل لمعهد « وست بوينت » .

وكان يشعر باعجاب شديد نحو الضابط الذي عمل تحت قيادته
 أول الأمر : « هنرى فيليب بيتان » الذي كان إذ ذاك في رتبة
 الكولونيل ، وقد أهدي إليه كتابه الأول ، وكان « بيتان » أباً في العباد
 لابنه الوحيد .

وبعد عشرين سنة أصدرت حكومة فيشي برئاسة التعس بيتان
أصدرت حكمها بإعدام دييجول بتهمة الخيانة .

كان دييجول ضابطاً طيباً ، ولكنه ارتقى ببطء ، وكان واحداً من
الضباط القلائل الذين يرون القلم أمضى من السيف . وقد نشر في سنة
١٩٣٤ كتابه « جيش المستقبل » ، الذي أيد فيه الرأي القائل بأن الهجوم
أفضل من الدفاع ، وهو الرأي الذي كان ينظر اليه في ذلك الوقت باعتباره
خروجاً على المألوف ، عندما كانت فرنسا تربض خلف خط ماجينو
المنيع ولقد دعا دييجول في كتابه إلى خلق نوع جديد من الجيوش
سريعة الحركة المزودة بالمعدات الميكانيكية . والميزة باستخدام أعداد
كبيرة من الدبابات . ولكن الفرنسيين لم يعيروا هذه الآراء إلا قدراً
يسيراً من الاهتمام ، بينما اهتم بها الألمان كثيراً ، إذ عنيت الدوائر
الحربية في برلين بكتاب دييجول وأصبح دييجول دون قصد منه بمثابة
الآب لفرقة البانزر النازية ، التي سحقت فرنسا سنة ١٩٤٠ ، كما اجتاحت
الأراضي الواطئة والحملات البريطانية بسرعة سريعة ، وعلى أي حال
وقد أثبتت الأيام صحة نظريات دييجول العسكرية .

ولقد هرب دييجول إلى لندن بعد انهيار فرنسا ، وألقى في الثامن
عشر من يونيو سنة ١٩٤٠ خطبة من أكر الخطب شهرة في التاريخ
المعاصر .

لقد كان مغموراً منسياً ، وكان معدماً شريداً وحيداً ، وكان جليلاً
هيباً .

لقد كان يقول : إن فرنسا خسرت معركة ولم تخسر الحرب وإن الفرنسيين في كل مكان ينبغي أن يجمعوا صفوفهم .

ولقد كانت السنوات التالية سنوات عاصفة ، فلقد أسس حركة فرنسا الحرة . وكانت معارك مريعة مع الأمريكيين والبريطانيين أيام حكومة فيشي وقاسى من مذلات عديدة في الجزائر عندما لم يستطع الحلفاء أن يقرروا تأييده أو عدم تأييده ، ودخل باريس دخول الظافر عام ١٩٤٤ ، وأقام حكومة مؤقتة ، وأشرف على مولد الجمهورية الرابعة ، ووضع تخطيطا لسياسة رشيدة لأفريقيا الفرنسية ، وذهب إلى موسكو (عندما كان الأمريكيون والبريطانيون مترددين في الاعتراف بعده) وعقد معاهدة فرنسية روسية ، وأدخل عددا من الفرنسيين الشيوعيين في حكومته ، واتهم في نفس الوقت من قبل الجهاد بأنه فاشي .

واعزل السلطة مبكرا في سنة ١٩٤٦ لأن تعدد الأحزاب السياسية في فرنسا شل حركة الحكومة وأقعدها عن العمل ، ثم اعزل الحياة العامة فترة ما ، ثم أسس حزباً ، وأمل أن يدعى ثانية إلى الحكم ، ولكنه لم يدع ، فاعزل السياسة ، واعتكف في كولومبي سنوات عدة يترقب فرصة سانحة ، وأثبت متمدته الفائقة في كتابة النثر الفرنسي بكتابة نفيسة في تاريخ حياته ، ودعم فلسفته في الحياة ، ودعا ثانية لإنتاذ الجمهورية ، أيام المحنة الكبرى سنة ١٩٥٨ ، عندما أوشكت ثورة الجيش في الجزائر ، بقيادة جاك ماسو قائد المظلات أن تؤدي

إلى حرب أهلية ، وتولى منصب رئيس الوزراء ، وأشرف على تكوين الجمهورية الفرنسية الخامسة ، ثم أصبح أخيراً أول رئيس للجمهورية الخامسة وللجماعة الفرنسية المؤسسة في الثامن من يناير سنة ١٩٥٩ .

* * *

ما الذى يؤمن به دييجول ؟

انه يؤمن أولاً بفرنسا ، ويؤمن ثانياً بنفسه باعتباره رمزاً لفرنسا .

وما الذى يريده قبل كل شيء ؟

انه يريد أن يجعل فرنسا مرة أخرى دولة من الدرجة الأولى دون منازع ، وهى حالة لم تبلغها من أيام مينخ . وهو من أجل هذا قد أصبح شوكة في ظهر حاف شمال الأطلنطى ، ومن أجل هذا يصر على أن تكون لفرنسا قوتها النووية الرادعة .

وما الذى يحتاجه قبل كل شيء ؟

إنه يحتاج الى الوقت ، ولكنه مع هذا قد جاوز السبعين . وما هى أهم مصادر قوته ، بالإضافة إلى بعض الصفات الشخصية الظاهرة كقوة الاحتمال والذكاء والعقلية المنطقية العجيبة .

إن أول هذه المصادر تتمصه شخصية فرنسا أو روحها ، فالتأند والرسالة ، والأمة ، كل ذلك قد أصبح فى رأيه واحداً ؛ فأى فرنسى يستطيع أن يتناوذه عندما يقول إن الأشياء الثلاثة التى لها قيمتها فى ميدان الزعامة هى الإيجاز والدقة والحسم ، لا يوجد لإنسان يفهمه الشعور بالذات أكثر من دييجول ، ولكنه يجمع إلى هذا تواضعاً عجيباً

غريباً . فلقد تلقى حوالى خمسة آلاف خطاب من مواطنين يطرونه ويهشرونه على عودته إلى السلطة مع أن الفرنسيين لا يهتمون كثيراً بإرسال خطابات إعجاب ، فكتب الجنرال لكل من هؤلاء الخمسة الآلاف خطاباً — بخط يده !

إنه يستظهر خطبه ، ويستطيع أن يتكلم عن أصعب المسائل مدة ساعة دون أن ينحرف عن النص قيد أنملة وهذا ما يعجب به الفرنسيون لأسباب غير واضحة ؛ إنهم يسمونه العقل المفكر .

وخطبته التليفزيونية التى ألقاها عن الجزائر فى التاسع والعشرين من يناير سنة ١٩٦٠ كانت كما يعتقد كثير من الناس أفضل خطبة سمعها أوروبا منذ أن ألقى تشرشل خطبته العظيمة خلال الحرب : وهى تفوق خطب تشرشل ذاتها فى قوة المنطق الصافية البراقة .

وكما هو الحال غالباً يتحدث ديجول عن نفسه بضمير المتكلم وضمير الغائب فى خطبة له بالتليفزيون ؛ استهل كلامه بقوله :

إذا كنت قد لبست اليوم حلى الرسمية لأحدثكم فى التليفزيون ؛ فإنما ذلك لتعلموا أن الذى يتكلم هو الجنرال ديجول ورئيس الدولة فى الوقت نفسه .

لقد أعلن فى خطبته هذه بشجاعة أن الجزائريين ينبغي أن تتاح لهم حرية تقرير المصير .

وقال فى فقرة من خطابه : أيها الفرنسيون فى الجزائر : كيف تنصتون إلى الكذابين والمتآمرين الذين يقولون أن منح الجزائريين

حرية تقرير المصير يعنى أن فرنسا وديجول يريدان هجركم ؛ وانتزاع الجزائر من أيديكم وتسليمها للشوار ! فإن من يبعث إلى الجزائر ويحتفظ فيها بجيش قوامه خمسمائة ألف من الرجال المزودين بكليات هائلة من المعدات ؛ وأن من يرضى بأن نضحى هناك بعدد كبير من أبنائنا ؛ وأن نفق في هذا العام بالذات ، نفقات مدنية وعسكرية تبلغ ألف بايون من الفرنكات لتنفيذ هناك برنامجا كبيرا للتنمية ، وإن من يجلب البترول والغاز من الصحراء إلى الموانئ بكثير من المشقة وكثير من النفقات . إن من يفعل هذا كله لا يمكن أن يقال إنه يهجركم أو أنه يريد أن يضيع الجزائر .

والمصدر الثانى من مصادر قوته أن التاريخ قد أثبت . بعد كل هذا أنه على حق لقد قال أن فرنسا سوف تعود إلى الحياة وعادت فرنسا فعلا إلى الحياة وقال إن المتطرفين ، الجزائريين سوف يدعون للنظام فى عامى ١٩٥٨ - ١٩٦٠ وقد أذعن هؤلاء فعلا للنظام .

والمصدر الثالث من مصادر قوته هو أنه ليست له مصالح خاصة فكل مواطن فرنسى تقريبا يعلم أن الجنرال لا يهتم بغير الصالح العام .

والمصدر الرابع هو أن العهد الذى سبقه كان عهدا فاشلا وأخيرا فمع أن مساوىء ديغول وعيوبه واضحة فقد قدم لبلاده الكثير دون شك . إن القليل من الساسة يمكن أن يقال عنهم إنهم أنقذوا أوطانهم وقد كان لنكولن واحدا من هؤلاء ، وكذلك كان تشرشل ولكن

ديجول تفوق عليهم في هذا المجال لأنه أنقذ بلاده مرتين لا مرة واحدة وهذه ظاهرة نادرة في التاريخ . فبغير ديجول ما كانت لتقوم فرنسا الحرة سنة ١٩٤٠ وبغير ديجول كانت البلاد ستندفع إلى الحرب الأهلية سنة ١٩٥٨ . أنه أنقذ بلاده من ألمانيا مرة وأنقذها مرة ثانية من نفسها .

التغيرات والارتباك في فرنسا

إن الزائر لفرنسا هذه الأيام ، سريعا ما يلاحظ أن هناك ظاهرتين على جانب كبير من الأهمية . أولا . رجل هو ديجول ، وثانياً : بلد هو الجزائر الذي يمثل مشكلة عجيبة ، وربما لا حل لها ،

ولكن علينا أن نذكر أيضا أن فرنسا أصبحت أكثر تساهلا بما كانت عليه منذ سنين ، بالرغم من حدة الأزمة الجزائرية والقلق على الجيش ، ومثل هذه المشاكل .. فسائقو التاكسيات (بلا جدال في أن هذا التعميم واسع جدا) يتسمون الآن أكثر بما يزجرون ، وخدم الفنادق يبدو عليهم السرور وهم يعدون غرف النوم ، وحتى رؤساء السقاة مؤدبون ، وباريس — التي في استطاعتها أن تكون أكبر مدينة سيئة السلوك ، أضحت الآن بجو جديد من العذوبة والرضا .

ومن الواضح أن الازدهار الاقتصادي ، هو سبب من الأسباب التي أدت إلى تخفيف حدة التوتر .. فلم ير هذا البلد — بسكانه الأربعة والأربعون مليوناً — ازدهارا كهذا أبدا ، مع أن كثيرا من المتابع

الاقتصادية مازالت موجودة ، ولا يعرف أحد إلى متى سيظل هذا الارتفاع في الأسعار . . . وسبب آخر هو أن لدعة الذل والهزيمة في عام ١٩٤٠ قد توارت تماما . . . ومن الأسباب أيضا هو الشعور بالرضا الذي جاء مع الهدوء السياسي تحت حكم دييجول ، مع أنه يبدو أن مركزه قد تزعزع أخيرا

أما عن الازدهار ، فإن الإنتاج التومى الكلى كان ٦٣ بليون دولار في عام ١٩٥٨ ، وقد ازداد بمعدل سنوى قدره ٤.٥ ٪ ، ويعتبر معدل الزيادة في الإنتاج الصناعى مساو تقريبا لهذه الزيادة في ألمانيا . . . وعلى ما في هذه الحقيقة من غرابة ، فإن دخل الفرد في فرنسا أعلى منه في ألمانيا . . . وهناك عوامل أخرى ساعدت على وجود هذا الازدهار فهناك برنامج تحقيق الاستقرار (عام ١٩٥٨) الذى قضى على التضخم والتشف وأحتفظ بالفرنك في حالة ثابتة ، وتوسع في التجارة الخارجية وقد أدى الهدوء والطمأنينة السياسية بعد عام ١٩٥٨ ، إلى استرجاع كميات كبيرة من الذهب الذى كان في الخارج ، ومركز العمل الهادى . . . ولا يفوتنا أن نذكر المساعدة الأمريكية التى وصلت في عام ١٩٥٧ إلى ٩.٤٧ بليون دولار .

ولا جدال في أن فرنسا دولة متجانسة تماما . . . وحدة جغرافية موحدة ، متكاملة ، ومتوازنة تماما بين الصناعة والزراعة . . . وإذا ما عتمدنا مقارنة بينها وبين إيطاليا التى ليست بلدا بالمعنى المفهوم للكلمة ، فما هى إلا مجموعة من المدن المختلفة اختلافا بينا . لكل منهما طابعها الخاص . . . أو قارن بينها وبين ألمانيا ، فتجد أن

فرنسا مثل الماسة ، جوهرة واحدة ، صلبة ، لامعة ، متألثة . .
أما ألمانيا فما هي الا عقد مفروط أو تاج غير منتظم . . وبوصف
آخر : أن فرنسا كوب من الشامبانيا الباردة المعتقة ، أما ألمانيا فما هي
إلا برميل صغير من البيرة .

ونستطيع أن نقول : إن فرنسا هي اتحاد عشرة ملايين أسرة
في أسرة واحدة ، وبها ديجول — على الأقل — في الوقت الحالى . .
ونستطيع أن نقول هذه العبارة التى يرجع تاريخها إلى ما قبل الحرب
العالمية الأولى : . إن ألمانيا جنس ، ومصر نهر ، والنمسا — المجر
سياسة ، وإيطاليا لغة ، وبريطانيا جزيرة ، أما فرنسا فتقاليد . .
أى تغير آخر حدث لفرنسا منذ الحرب ؟ . .

من ناحية ، فقد أصبح البنيان الاجتماعى أكثر مرونة ، وأصبح
الفرنسيون كثيرى السفر عن ذى قبل . ولم يعد الناس يذهبون
إلى بيتهم فى ميعاد محدد لتناول الغذاء (وهذه حتما ثورة ؟) .
ففى كل أنحاء باريس تجد أما كن لبيع — السندوتشات ، ومقاه ،
وما أشبه ذلك . . وأصبح الآن الويسكى الاسكتلندى هو المشروب
المفضل عند الطبقات العليا ، ودخلت كثير من الكلمات الانجليزية ،
إلى اللغة الفرنسية .

وما زال تقاليد (الدونه) موجود فى فرنسا ، وخصوصا
فى الأماكن الريفية . . وكثير من البنات يتزوجن فى وقت مبكر ،
ومنذ ثلاثين سنة كان شىء غريب جدا أن تذهب فتاة إلى جامعة

مثل السوربون .. أما اليوم فقد أصبحت من الأشياء العادية .
 وكانت هناك أسطورة قديمة تقول : إن الفرنسيين من الطبقة
 البورجوازية ، أو على الأقل الذين كانوا يعيشون في الريف ، كانوا
 يخبثون مدخراتهم وبراءهم وأولهم في جوارب تخبأ في حشياتهم ،
 ولم تختف هذه العادة إلى الآن .. ولكنها قلت كثيرا عن ذي قبل
 وكان ذلك بسبب خوفهم من حدوث تضخم أكثر .. ودخل
 المواطنون عهد الاقتصاد الاستهلاكي ، وأخذوا ينفقون أموالهم ،
 وأصبح واحد من كل تسعة من الفرنسيين يمتلك سيارة ، ويشترى
 الآن المنازل ذات التكاليف المنخفضة ويستثمرون أموالهم في الصناعة
 واندفعوا نحو شيء لانعروه نحن هنا تقريبا : الشراء بالتقسيط ، ولكنه
 ليس بالانتشار الموجود في إنجلترا .

وعلى أية حال ، فإن عادات الفرنسيين من ناحية الشؤون المالية
 مازالت من طراز قديم ، فمعظم الفواتير لا تدفع إلا بالنقد .. ومعظم
 المحلات لا تتعامل بال شيكات .. والشئ الذي يدعو إلى الغرابة أن هناك
 قلة من الناس لهم حسابات جارية ، وأعرف رئيس تحرير جريدة من
 أهم الجرائد ليس له أى حساب في البنك .. والسبب في ذلك هو أن
 البنوك مرغمة أن تقدم سنويا إلى الحكومة تقريراً بالمركز المالي لكل
 مودع وذلك لكي تحصل منه الضرائب .. وكل فرنسي يقدر تعبهُ ،
 يقاوم فكرة أن يدفع ضريبة دخل .

وحدث تغيير كبير ومثمر آخر وهو ارتفاع نسبة المواليد ..
 وكانت فرنسا قبل الحرب بجدة ، عقيمة .. أما اليوم فإن نسبة المواليد

عالية جداً ، وابتدأ هذا المنحنى الآخذ في الارتفاع بعد الحرب مباشرة في عام ١٩٤٥ ، حينما ابتداء تدفق الأسرى الفرنسيين إلى أرض الوطن بمئات الألوف .. وقد حدث أيضاً ارتفاع في نسبة المواليد في عام ١٩١٩ — ١٩٢٠ ، وهذا بسبب الزواج الذي كان قد توقف بسبب الحرب العالمية الأولى .. ولكن كان هذا الارتفاع مؤقتاً .

وهذا الارتفاع الحالي والمستمر عال جداً ، لدرجة أنه في الثلاثين سنة القادمة — كما تؤكد الاحصائيات — ستكون فرنسا « أكثر دول أوروبا شباباً » .. وقد سميت فرنسا البلد الفارغ ولكنها لن تظل كذلك طويلاً ، وتستطيع فرنسا أن تستوعب ستين أو سبعين مليوناً زيادة عن عدد سكانها الحاليين .. ولكن ارتفاع نسبة المواليد سيسبب حتماً كثيراً من المشاكل الاجتماعية الخطيرة في الوقت المناسب ، وخاصة في التعليم والاسكان ، ما الذي تسبب في ارتفاع نسبة المواليد ؟ .. ليس هناك من يعرف سبباً لذلك ، ولكن قال لي أحد المعلمين الفرنسيين .. إنها ظاهرة « أوتوماتيكية » ترتبط بالرغبة في البقاء ، فبعد الخسارات المريعة في الحرب العالمية الثانية ظهر إحساس لا إرادى بين المواطنين بالحاجة القومية المباشرة ، إحساس بأن القوى البشرية الفرنسية يجب أن تسترد قوتها وتحافظ عليها ، وتزداد .

الاشتراكيون الراديكاليون والمائتا أسرة

أول سؤالين سألتهما حينما وصلت إلى باريس في عام ١٩٦٠ كانا :
 « ماذا حدث للحزب الاشتراكي الراديكالي ؟ ، . . . وماذا حدث
 للمائتي أسرة ؟ ، كانت فرنسا قبل الحرب تحكم — إذا كان هناك أحد
 يحكمها — باتحاد غير منظم بين هذين العاملين : الراديكاليين
 الاشتراكيين الذين لم يكونوا لا اشتراكيين ولا راديكاليين ولكنهم
 كانوا يمثلون مجموعة المواطنين الفرنسيين في الطبقة المتوسطة الذين كانوا
 قلب الأمة وكانوا دائماً يصوتون ضد الكنيسة والقصر ، وثانيهما
 ، المائتا أسرة ، التي تتكون من الأقلية الفنية المركزة في الأوصياء على
 بنك فرنسا .

ولكنهما ليساً بالشئ ذي الأهمية هذه الأيام ، وهذا هو الذي أدى
 إلى أكبر تغيير في فرنسا المعاصرة ، باستثناء ظهور ديغول . فإن
 الاشتراكيين الراديكاليين ، حزب العمالة أمثال كليمنسو وهيربوت ،
 في أعظم أيامهم محوا من الوجود كأداة خطيرة ، وذلك بثلاث عوامل :
 أولاً — هتلر : لقد كانوا أساس وأصل الجمهورية الثالثة . . . ومن
 هنا ، فإنه حينما هزم هتلر فرنسا ، أصبح الحزب في نظر الفرنسيين
 خائباً . . . ولم يستطع أن يسترجع مكانته بعد ذلك في الجمهورية الرابعة
 التي حكمت من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٠ ، ولا جدال في أن أقول نجم هذا
 الحزب يرجع إلى ما قبل الحرب .

ثانياً — العزلة الداخلية : وهذه قصة معقدة ، وخلاصتها هو أن بيير منديس فرانس ، الذى كان رئيس الوزراء الذى ينتمى إلى الحزب الاشتراكى الراديكالى فى عام ١٩٥٤ — ١٩٥٥ ، ابتداءً فى إعادة تكوين الحزب ، بعد أن أزال كل رواسب الماضى ، وكيفه مع الوضع الحالى بالتخلص من الطبقة البيروقراطية التى كانت تدير الأجهزة المخفية ، وقد أدى ذلك إلى حدوث استياء شديد ، وانقسم الحزب ، وأسس منديس جماعة يسارية منفصلة برئاسته . . ولا بد لنا من أن نذكر الاتجاهات الانتحارية نحو الانفصالية التى كانت نقطة سوداء فى جبين النظام السياسى فيما مضى . . ولكن الراديكاليين لم يكونوا مسئولين وحدهم عن كل هذا ، ولكنهم يحملون جزءاً كبيراً من عبء هذا التغير المستمر فى الوزارات التى اشتهرت بها فرنسا قبل وبعد الحرب مباشرة .

ثالثاً — ديجول : فقد جاءت الجمهورية الخامسة إلى الوجود . . وفقد كل من منديس (الذى كان من أشجع رؤساء الوزارات التى رأتها فرنسا) وأيضاً الجناح المحافظ من الحزب الاشتراكى الراديكالى كثيراً من وجوده .

أما عن القلة الفنية المتحركة ، فما زالت موجودة ، ولكنها فقدت كثيراً من قوتها ، وهذا ليس فقط لأنها أضحت أضعف مما كانت عليه . ولكن لأن الدولة أصبحت أقوى من ذى قبل . . وتتعلق الطبقة بورجوازية بثرواتها ، ولكن التوجيه الحقيقى للأمور أصبح فى يد لُبقة إدارية جديدة . . فالحكومة — الدولة — تلعب فى الشؤون

الصناعية والمالية أوزاراً أكبر مما كانت تلعبه قبل الحرب :
 باختصار . . إنه التأمين الذى قتل طبقة القلة من الأغنياء ، وأن
 الناس فى الخارج أدركوا كثرة ما أُمم من الاقتصاد الفرنسى ، فالدولة
 تملك وتدير السكك الحديدية ، ومناجم الفحم ، والقوى المائية
 والكهربائية ، والصناعات البترولية . . كما أنها أيضاً تملك وتدير
 أكبر مصانع السيارات فى فرنسا (رينو) . وأكبر خمس بنوك تسليف
 وعديد من شركات التأمين ، والقوى الذرية ، ومعظم وسائل
 المواصلات الجوية (مثل شركة ايرافرانس) ، وأكبر خط ملاحى ،
 وأيضاً فإنها تملك منذ وقت طويل الدخان ، والابورا ، ومراكز
 البريد والتلغراف .

ومضى الكاتب يقول : إن الكثير من هذا النمو والترقى تم فى عهد
 دييجول ، فى فترة حكمه الأولى القصيرة التى استغرقت سنى ١٩٤٥
 و ١٩٤٦ . . . وكذلك كان للشركات الشبيهة بالعامية أهمية فائقة فى النمو
 الاقتصادى للممتلكات الفرنسية السابقة فى أفريقيا ، وأخيراً أصبحت
 الحكومة تسيطر إلى حد كبير على قطاع من الصحافة . . ويرجع هذا
 إلى أحداث وقعت بعد الحرب مباشرة . عندما صودرت الصحف
 بالتعاون مع الاحتلال ، وحولت معداتها إلى رجال المقاومة .

وأمثلة التأمين هذه . ليست - كما قد تبدو - ثورية جداً ، لأن
 تدخل الدولة فى الصناعة له فى فرنسا تاريخ طويل مشرف ، إذ بدأت
 لدولة أو بدأ الملوك يحتكرون بعض الصناعات منذ عدة قرون . . . كما

أن تأميم بعض الشركات كان نتيجة لظروف خاصة ، إذ أمت شركة رينو - على سبيل المثال - لأنها تعاونت مع الاحتلال ... أضف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من الصناعات قد تملكه الدولة .. ولكن إداراتها تظل متمتعة بسلطات واسعة ، فكثير من الشركات الحكومية .. كشركة أير فرانس مستقلة استقلالاً ذاتياً ، وهي تعتبر أكبر شركات الطيران في العالم .

وثمة اتجاه آخر ، لا يقدر بصفة عامة في الخارج ، وهو ترقى نظام الضمان الجماعي ، إذ تعتبر فرنسا أقرب الدول الأوروبية إلى الرفاهية (الاجتماعية) بعد إنجلترا والنمسا والدول الاسكندنافية ، فهي لا تمنح الإعانات العادية فحسب ، بل تمنح الكثير من الرواتب الشهرية وعلى سبيل المثال : تمنح إعانات في حالة الزواج وإنجاب الأولاد . ويشمل الضمان الجماعي إعانة ربات البيوت ، والتأمين الصحي ، ورعاية الأطفال قبل الولادة . كما يحصل الآباء على إعانات وفيرة تتم تأمينهم الاجتماعي كلما ولد لهم طفل ، وهي إعانات تصل إلى ٣٣٪ من مرتب الأب إذا كان له أكثر من ثلاثة أولاد ، وتقدم الدولة مساعدات قيمة أخرى لكفالة الأولاد الآخرين في النمو فكلما زاد عدد الأطفال في الأسرة زادت الإعانة .. ولعل هذا من أسباب ارتفاع معدل المواليد في فرنسا .

من الذي يحكم فرنسا إذا لم يعد للاشتراكيين الراديكاليين . والأقلية الغنية وزن ؟

إن هذا سؤال عسير ، ولكن ثمة عناصر ثلاثة يمكن ذكرها على الأقل ، وهي .

- ١ - ديجول ..
- ٢ - الموظفون المدنيون ..
- ٣ - بقايا حركة المقاومة ..

السياسات والخلافة

يعتبر ديجول ، من بعض الوجوه ، في موقف انعزالي غريب ... لقد أخذت الجمهورية الخامسة قوى معينة من البرلمان .. وأسست نظاماً شبيهاً بالرئاسي .. حيث يجتمع حول الرئيس نواب يمثلون اتجاهات مختلفة . كما يجتمع الزناب حول عصا كبيرة من الحلوى ، ولكنه لا تزال توجد في فرنسا جماعات لا توازر ديجول ، بل وتوجد أيضاً جماعات معادية له .. إن المذكرة الليانية الحديثة عن الجزائر قد منحت الجنرال عدداً كبيراً من أصوات الثقة - حوالي ٧٥٪ - ولكن فرنسا لا تزال هي فرنسا ، بمعنى أنها إلى حد كبير فردية داخل مظهر عام . وليس ساستها الانفراديون أخفيا بحال .

وإذا غيرت الاستعارة ، فإن طيف السياسة الفرنسية يمثل قوس قزح مكفهر في حركة مستمرة .. فالأحزاب تنقسم ، ثم تنقسم ثانية وتتحد ، وتختفي ، وتولد من جديد . إن من المستحيل تقريباً أن نميز بين بعض الجماعات الصغيرة المنفطرة ، فبعضها ليس شطائر متساوية

ولأنما هي شظايا متناثرة ، والتسميات مختلطة اختلاطاً مشوشاً ، فثمة فرق كبير - على سبيل المثال - بين « اتحاد الجمهورية الجديدة » وجماعة « وحدة الجمهورية » الممثلتان في الجمعية العمومية ، كما أن بعض الأحزاب ترمز لأسمائها حروف يصعب تفسيرها أو بيان مدلولها .

إن حزب ديجول الجديد ، وهو حزب الرئاسة المعروف بـ « اتحاد الجمهورية الجديدة » ، يكاد يكون حزبا مركزيا .. إن أساسه شخصي تماما ، وفي اللحظة التي أكتب فيها هذه الأسطر ، يمتلك هذا الحزب ٢١٠ مقعداً من بين ٥٥٢ .. ومن أجل هذا لابد له من عون إذا أراد أن يمضي تشريعاً .. وثمة حزب مركزي هام آخر هو الحركة الجمهورية الشعبية المعروفة ، الذي يملك مع حزب آخر يسمى « المركز الديمقراطي » سبعة وخمسين مقعداً وحزب الحركة الجمهورية الشعبية حزب كاثوليكي ، وهو على العموم يؤيد ديجول بقوة .

لقد نشأ من حزب المقاومة . ولعب دوراً واضحاً أيام الجمهورية الرابعة . وأيد منظمة حلف شمال الأطلسي والسوق المشتركة . وهو يساوي تماماً في معظم المسائل الاجتماعية .. إنه يريد ضماناً اجتماعياً كاملاً كي يبعد بين العمال وبين الشيوعية وهو يجذب تكوين الأسر الكبيرة لأنه حزب كاثوليكي متدين . وقد يكون أبرز الأعضاء فيه روبرت شومان وزير الخارجية السابق . المولود في اللورين . والذي يعتبر واحداً من آباء صناعة الصلب والفحم في أوروبا :

والقوة الرئيسية إلى اليمين . ديجول تتمثل في حزب المستقلين

والفلاحين ثانياً الأحزاب الكبيرة في فرنسا (١,٩ متعدداً) .. ومن زعمائه سكرتيره العام « روجر ديشي » ذو الشخصية الرائعة . و « بول رينو » آخر رئيس للوزراء في الجمهورية الثالثة وأنطوان بينيه أحد رؤساء الوزارة ووزراء الخارجية السابقين وهو رجل كبير الأهمية وقد كان وزيراً لمالية دييجول حتى يناير سنة ١٩٦٠ .. و « بينيه » هذا الذي يحب أن ينظر إلى نفسه كممثل للرجل الفرنسي العادي يؤمل أن يعود إلى الحكم يوماً ما .. وهو مهم دائماً بتمثيل دور الرجل المنسي الذي يأمل بإخلاص ألا ينسى : وقد ولد في سنة ١٨٩١ . وانحدر من إقليم الرون . واشتغل سنوات عدة صانعاً للجلود

والسياسة اليمينية في الواقع . سياسة أشخاص أكثر منها سياسة أحزاب . وثمة رجلان لهما وزنهما إلى جانب « ديشي » وبينيه « وهما « جاك سوستيل » و « جورج بيدو » ، أما بيير بوجار ، قائد الدهماء الذي أراد أن ياغى الضرائب فتمد أصبح نسياً منسياً ولا يمكن ضمه إلى هذه القائمة من الزعماء . والزعماء اليمينيون جميعهم مختلفون بشدة . إلا في مسألة واحدة هامة هي مسألة الجزائر . فهم يعتقدون أن دييجول قد أصبح متساهلاً أكثر من اللازم في موضوع الجزائر . وأنه يحتاج إل تشدد أكثر .. واحتمان السماح للجزائر أن تنفلت من قبضة فرنسا يخيفهم ويرعبهم .

و « سوستيل » — كما هو معروف — كان واحد من المقربين ومن أشد المخلصين لدييجول عدة سنوات .. لقد كان في أول أمره رجلاً

يسارياً ، وكان مدرباً على وضع الخطط ، إنه رجل واسع المدارك ، قادر على العمل . . العمل المنحرف أحياناً . . لقد عمل بمهارة في عديد من المناصب الوزارية (بما في ذلك الاستعلامات ، وما وراء البحار والطاقة الذرية) . . وكان حاكماً عاماً للجزائر ، ولكنه طرد من حزب ديجول في أبريل سنة ١٩٦٠ . . إن له آراء سديدة في جميع المسائل ماعدا مسألة الجزائر .

وقد ولد « بيدو » سنة ١٨٩٩ وعلى هذا فسوستيل أصغر منه بكثير وهو شخصية مشهورة في السياسة الفرنسية المعاصرة ، وقد كان رئيساً للوزارة ووزيراً للخارجية ، وكان لسنوات عديدة واحداً من أقطاب الحركة الجمهورية الشعبية ، ولكنه انفصل عنه بسبب الجزائر ليتخذ موقفاً يمينياً مستقلاً . . وحزبه الجديد الذي يتركز على شخصه إلى حد كبير يعرف باسم الحزب الديمقراطي المسيحي . . ولكن بيدو ، الذي كان أستاذاً للتاريخ ، رجل له وزنه . . لسببين اثنين . أولهما أنه قاد حركة المقاومة داخل فرنسا أثناء الحرب . . قادها بمهارة ولا يزال يمثل نوعاً من البطولة ، وثانيهما أنه يعطى اليمينيين قدراً معيناً من التبصر والتعقل .

وننتقل الآن إلى الأحزاب اليسارية بالنسبة لديجول ، مستثنين الجماعات الصغيرة المتعددة . . إن ثمة قوى أربعة : تتمثل الأولى في بيير مندريس فرانس ، وجماعة من الجناح اليساري للحزب الاشتراكي الراديكالي ، وهي جماعة صغيرة . . ولكن مندريس لا يمكن إغفاله لأن له مقدرة فائقة وشجاعة وخيالاً (خصباً) . . وهو يحاول أن

يخلق حزباً يسارياً قوياً ، كما أنه يعتبر السياسي الفرنسي الوحيد الذي يال ديجول وبينيه ، وربما يبدو ، في المكانة الوطنية السامية ، وجماعة مندس تربط نفسها الآن باتحاد يعرف باسم اتحاد القوى الديمقراطية .

والقوة الثانية تتمثل في بقايا الاشتراكيين الراديكاليين القدامى والجمهوريين اليساريين (٤٣ مقعداً) .. ومن القادة الراديكاليين ذوى الشأن : « فيلي جايلار » ، أحد رؤساء الوزارة في الجمهورية الفرنسية الرابعة

والقوة الثالثة تتمثل في « جى موليه » ، والجناح الايمن في الاشتراكيين المحافظين (٤٤ مقعداً) .. ولكن موليه يعمل بين عدة معوقات .. فلقد كان رئيساً للوزارة أيام محنة السويس ، وقد هجر حزبه بالتالى برضوخه لديجول .. لقد كان وزيراً للدولة سنة ١٩٤٦ ، واتفق مع ديجول على المسائل الجوهرية في موضوع الجزائر ، ولكنه اختلف معه في التنبؤات الحديثة المتصلة بمنظمة حلف شمال الاطلنطى وبالسياسة النووية .. وموليه رجل أريب ، في منتصف الحلقة السادسة من العمر وهو ينتمى إلى الطبقة العاملة إذ كان أبوه عامل نسيج .

والقوة الرابعة تتمثل في الشيوعيين .. وموقفهم اليوم لا يمكن تبينه بسهولة ، لأن ديجول سن قانوناً انتخابياً جديداً يجعل حق التمثيل في الجمعية الوطنية قاصراً على الأحزاب التى يمثلها فى البرلمان خمسون نائباً على الأقل .. ولقد بلغ الشيوعيون النمة فى سنة ١٩٤٦ - ١٩٤٧ ، إذ كان حزبهم هو أكبر الأحزاب فى فرنسا ، فكان فيه تسعمائة ألف

عضو ، نالوا أكثر من خمسة ملايين وخمسمائة ألف من الأصوات ،
 أى ربع الأصوات الانتخابية ، وكان له مائة وخمسون نائباً .. ولكن
 عدد الأصوات التى نالها فى انتخابات نوفمبر سنة ١٩٥٨ انخفض إلى
 ٣٨٨٢٠٠٠ صوت (أى إلى نسبة ١٨٫٩ ٪ من المجموع الكلى
 للأصوات) .. وهو رقم لا يزال كبيراً ، ومع هذا لم يظفر الحزب
 إلا بعشرة مقاعد فى الجمعية الوطنية ، وذلك بسبب الطريقة التى أجريت
 بها العملية الانتخابية . والذى يؤلم الشيوعيين هو الرخاء .. وثمة عامل
 آخر له أثره السيئ على الشيوعيين ، وهو أنهم أصبحوا حزباً قديماً .

والشيوعيون يعادون منظمة حلف شمال الأطلسى ، والوحدة
 الأوروبية . والسوق المشتركة ، وهم يهتمون ديجول بقسوة ، ولكنهم
 لا يعارضونه دائماً .. ففى يونيو سنة ١٩٦٠ على سبيل المثال :
 أيد الشيوعيون العرض الذى تقدم به ديجول لمفاوضة الثوار
 الجزائريين .

وأكبر قوة وراء الحزب الشيوعى ، هو أقوى الاتحادات الفرنسية
 وأهم الزعماء الشيوعيين هم : موريث ثورى أحد مؤيدى ستالين القدامى ،
 الذى يتمتع رغم هذا بتأييد الكرملين الحالى . وجاك دوكلو ، وقد ولد
 ثورى سنة ١٩٠٠ لأب من عمال المناجم ، وقاد الشيوعيين فى حكومة
 الجبهة الشعبية ، وقضى كثيراً من الوقت فى موسكو .

رئيس الوزراء ووزير الخارجية

ولد ميشيل ديبريه، أول رئيس للوزراء في عهد الجمهورية الخامسة، في باريس عام ١٩١٢ وهو نصف يهودي ، وقد كان أبوه أستاذاً قديراً في الطب ، وهو نفسه دكتور في القانون (جامعة باريس) وقد أصبح ديبريه موظفاً حكومياً وانضم إلى القوات المسلحة في عام ١٩٣٩ وحينما سقطت فرنسا انضم إلى حركة المقاومة وقد لمس سحر ديغول منذ وقت طويل وأصبح متعصباً للجنرال منذ عشرين سنة .

وبعد تحرير فرنسا أصبح ديبريه شخصية بارزة في حزب اتحاد الشعب الفرنسي وحصل على مقعد في البرلمان ، وظل محتفظاً به لمدة سنين عن دائرة اندرس - و - لواد . . . ولقد أصبح مشهوراً بسبب كتاب هاجم فيه الجمهورية الرابعة بقوة ، وبعد ذلك ارتفع إلى مركز المتحدث الرسمي باسم ديغول في البرلمان ، وقد لعب دوراً كبيراً في مؤامرة مايو سنة ١٩٥٨ : وحينما تولى ديغول الحكم ، عين وزيراً للعدل ، وهو الذي وضع دستور الجمهورية الخامسة ، وحينما أصبح ديغول في النهاية رئيساً للجمهورية في ١٨ يناير عام ١٩٥٩ ، عين ديبريه وزيرها الأول .

ورئيس الوزراء رجل شريف وهذا وصف لا يمكن أن يطلق على جميع السياسيين ، وشجاعته ملحوظة ولكن تعوزه اللمسات السياسية ، ولا جدال في أنه مساعد لديغول لا أكثر ولا أقل ، وهو لا يتساح

مع النقد بسهولة ، ومنذ مدة قصيرة انفجر غضبه بهذه العبارة « أى دولة أخرى تستطيع أن تتحمل جرائد مثل الاكسبريس وفرانسو — ابزيرفاتير ، والكنار انشنيه أو الهيومانتيه التى تهدد أعمال الحكومة بانتظام ، ١٤ . وجاءت الإجابة سريعة من جريدة الكنار « أى دولة أخرى تستطيع أن تتحمل مسيو ميشيل ديبريه كرئيس للوزراء ، ؟ . . . ومثل كثير من رجال المقاومة ما زال ديبريه ينطوى على شئ من التآمر .

وبجانب مشكلة الجزائر فإن مشاغل ديبريه الرئيسية الجديدة كرئيس للوزراء تتصل بسياسة التسليح الذرى الفرنسية والتقارب الفرنسى الألمانى ، بما فى ذلك حلف شمال الأطلنطى ، أما عن المشكلة الأولى فإن فرنسا — كما هو معروف — ابتدأت فى تكوين قواتها الذرية التى ستتكلف — كما قدر لها — مبلغاً كبيراً يصل إلى ١٣ رايون دولار فى عام ١٩٦٥ ، وقد أجرى الفرنسيون ثلاث تجارب ذرية فى الصحراء الكبرى . . . ورسمت الخطط لبناء أسطول صغير — ولكنه باهظ التكاليف — من قاذفات القنابل قادرة على إلقاء الأسلحة الذرية . . . وديجول مصمم على امتلاك فرنسا للقنبلة الذرية ووسائل استخدامها وذلك لأربعة أسباب على الأقل :

أولاً : لإعلاء شأن الكرامة الفرنسية بعضويتها فى « النادى الذرى » .

ثانياً : الخوف المستمر من إعادة تسليح ألمانيا ، والقلق من أن

الألمان سيحصلون على قوة ذرية خاصة بهم في الوقت المناسب .

ثالثاً : الاستياء من السياسة الأمريكية التي تصمم على منع تخزين الروس الذرية الأمريكية في أراض أجنبية ، وهذه السياسة لا يرضى عنها ديجول .

رابعاً : عدم الرغبة في الانضمام إلى أية ترتيبات مستقبلية والتي على أساسها تصبح القوة الذرية الفرنسية الضاربة عرضة لأن تكون تحت سيطرة دولية (حلف شمال الأطلسي) ، ولقد مر ديرييه بفترات عصيبة وهو يعرض سياسة ديجول الذرية على الجمعية الوطنية بالرغم من هيئة رئيس الجمهورية . . . وقد أنقذت الحكومة بصعوبة حيث أنها هزمت مرات عديدة عند التصويت على لومها . . . ولم يصبح مشروع القرار قانوناً إلا بعد سبعة أسابيع عصيبة من المناقشات الحامية .

أما بالنسبة لعلاقته بألمانيا وحلف شمال الأطلسي ، فإن موقف ديجول يعتمد كلية على كراهيته للسياسة التي تعلو على التسمية . ولا جدال في أنه يريد التقارب مع ألمانيا ولكن تبعاً لشروطه الخاصة . . . وقد ذهب ديرييه في أكتوبر عام ١٩٦٠ إلى بون ليناقد هذه الأمور — ولكن بلا نتيجة ملموسة — ولقد استمر ديجول نفسه في التحويم حول دول حلف شمال الأطلسي . إن ديجول يريد « أوروبا أرض الآباء » بملاعها القومية وخلق « سكرتيرية أوروبية » يكون مقرها باريس ، ومعارضة استخدام أي قوة من قوات حلف الأطلسي للأسلحة الذرية . . . ويدعو للراقبين إن هذا ما هو إلا بحث

عن العظمة القومية الفرنسية على حساب وخـدعة التحالف ، . . .

ووزير الخارجية موريس كوف دي مورفيل مثل رئيس الوزراء كان أستاذاً في جامعة باريس ، وعمل بعضاً من الوقت موظفاً حكومياً ، ولد دي مورفيل في ريمز عام ١٩٠٧ ، وقد كان مديراً للشئون السياسية في كاي دي أرساي . وعمل سفيراً في القاهرة ، روما ، واشنطن وبون ، وقد أصبح وزيراً للخارجية في حكومة دييجول الأولى في عام ١٩٥٨ وكان هذا داعياً لدهشته ، وقد احتفظ بمنصبه منذ هذا الوقت ، وهو من الأعضاء القلائل في الحكومة الذين لم يساعدوا دييجول أثناء الحرب ، وقد عمل في حكومة فيشي حتى عام ١٩٤٣ كوظائف حكومي . . .

وكوف دي مورفيل شخصية لا لون لها تقريباً ، وما هو إلا منفذ للسياسة الدييجولية وهو على علاقة حسنة بالألمان وحينما كان التقارب الفرنسي الألماني على أشده ، كان يطلق عليه تهكماً « وزير خارجية فرنسا - ألمانيا » .

نظرة إلى المستقبل

ولكن ماذا يحدث لو مات دييجول غداً؟ حينئذ من الممكن حدوث أي شيء ، فلو تتابعت الأحداث بطريقة دستورية صحيحة ، فستكون هناك فرصة كبيرة أمام بينيه للنجاح أكثر من أي شخص آخر ، وذلك لأنه يتمتع بأنصار أقوياء - وربما يتلقى مساعدة ملموسة من اليساريين

بالرغم من كونه يمينيا — لأنه حيثئذ سوف ينظر إليه على أنه دفاع ضد التيار اليميني المتطرف ، وهناك احتمال آخر — وإن كان أضعف — وهو قيام ائتلاف بين اليساريين بزعامة منديس فرانس أو حتى موليه .. ومع ذلك فإن هذين الاحتمالين يتوقفان على تطور الأمور تطوراً دستورياً .. وهذا أيضاً يمكن ألا يحدث — فلو مات دييجول — أو أقيل من منصبه بطريقة ما — قبل أن تضع الحرب الجزائرية أوزارها فهناك احتمال كبير بوقوع انقلاب . وربما يحاول سوستيل الاستيلاء على السلطة وهو قادر فعلاً على ذلك إذا ما وجد تعضيداً من الجيش . وربما يدفع هذا بالشيوعيين إلى الخروج صوب الشوارع، وبالتالي يسبب حرباً أهلية .

ويعتقد معظم المراقبين المطلعين بأن الجيش سوف يسيطر على الموقف في أية محنة كبرى . على الأقل لو استمرت الحرب الجزائرية — وهذا ما يجعل دييجول شديد الرغبة في أن يجد تسوية سريعة للمشكلة الجزائرية ، وفي استطاعته هو فتمط أن يجد مثل هذه التسوية دون حرب أهلية .

٨ — الجيش والجزائر وأفريقيا

والشيء الوحيد الذي يستطيع أن يقلب عهد دييجول هو تفاقم الموقف الخطير في الجزائر .. ولكن الجنرال قضى على انقلاب ٢٥ يناير عام ١٩٦٠ الفاشل بيد حازمة واثقة من نفسها إلى درجة أن أصبح حدوث

تمرد آخر من المتطرفين أو المستوطنين الفرنسيين في الجزائر أمر محتمل،
أو على الأقل تأجل حدوثه .

وعلى أية حال فإن موقف الجيش الفرنسي غامض وقد يؤدي
إلى متاعب خطيرة . وهذا سبب من الأسباب التي جعلت معظم
الفرنسيين العقلاء يأملون في أن يستمر دييجول في الحكم لخمس سنوات
أخرى أو أكثر وذلك لأنه إذا مات دييجول وما زالت المشكلة
الجزائرية بدون حل فإن استيلاء الجيش على السلطة عن طريق انقلاب،
كما ذكر منذ وقت قصير ، تحت قيادة ضباط مثل جنرال راؤول سالان
سيؤدي إلى دكتاتورية عسكرية

وهذا لا يعني بالضرورة قيام دكتاتورية فاشية أو رجعية لأن الجيش
الفرنسي في الجزائر جيش من نوع غريب . . . وسالان موجود الآن
في أسبانيا ومعه يبير لاجار وكثير من الذين اشتركوا في تمرد ينابر ،
ومن الملاحظ أن الجيش يستطيع أن يقيم ويدير دكتاتورية مختلطة ،
أو حتى دكتاتورية يسارية . . . والجيش منقسم جداً . وقد كان الجيش
قديماً محافظاً جداً وكان معظم الضباط كاثولوكيين ولم يكن الشاب منهم
يستطيع أن يدخل كلية سان سير بسهولة فإنه كان يجب أن يأخذ توصية
من ممثل الإشراف المحلي ومن القسيس . . . وهكذا كان الضباط يحنّدون
من طبقة المحافظين ، وظل معظمهم محافظاً إن لم يكن رجعياً ، طوال
حياتهم ، مثل المارشال جوان .

ولكن نظام كلية سان سير التقليدي يحضر هذه الأيام . . . فقد

أحيل إلى التقاعد معظم الرجال الذين كانوا يحملون رتبة كابتن فأعلى في الحرب العالمية الثانية ؛ وحل محلهم الآن جيل جديد . وهناك جزء كبير من الضباط والجنود الذين هم عنصر من عناصر الجيش الآن ؛ فروا بتجربة حرب الهند الصينية ؛ وتعلموا الكثير منها - - - - - صرف النظر عن الذل الذي لاقوه من الهزيمة - - - - - لقد درس هؤلاء الرجال نظم ماوتسى تونج العسكرية الثورية وتعلموا الأهمية العظيمة لحرب العصابات حينما تعتمد على الاتصال التام بالفلاحين المحليين . ولقد أسر الصينيون بعض الضباط الفرنسيين . وقد أدرك الجميع قوة جيش الشعب العظيمة ؛ إذا ما قورنت بقوه الجيش المنظم الذي يتووده ضباط من الطراز القديم . وأدركوا أيضاً ضرورة قيام الجيش الفرنسى بإعادة تنظيم نفسه ، ولا يتقبل الضباط اليوم النكته الساخرة التى تقول أن فرنسا كانت مستعدة تماما لحرب عام ١٨٧٠ فى عام ١٩١٤ ؛ وأنها كانت مستعدة عام ١٩٤٠ لحرب عام ١٩٢٤ .

وهناك ظاهرة غريبة وهى أن الجيش الفرنسى فى الجزائر لا يحب ولا يعجب بالمستوطنين الفرنسيين . وقد استخدم رجال الجيش المستوطنين فى تحقيق أغراضهم وعملوا معهم فى المناسبات ولكن لا يوجد كثير من المشاركة الوجدانية بينهم ويطاؤون على المستوطنين اسم الأقدام السوداء . والمرء يتوقع أن يرى هوة عميقة بين الجيش والمستوطنين حيث أنهما فرعان من جزر واحد . ولكن هذا ما لا يحدث فى الواقع . السبب هو إدراك الجيش أن المستوطنين مسئولون عن تسميم العلاقات مع السكان المسلمين الوطنيين ، وأدرك الجيش أيضاً إدراكاً جيداً

(بعد ست سنوات من الحرب) إنه لن يكون هناك حل دائم لمشكلة الجزائر إذا تم إبعاد الوطنيين المسلمين عن الاشتراك في وضع هذا الحل . انه يريد أن يستميل هؤلاء المسلمين الذين لا يحارب معهم في الحقيقة وعلى كل حال فإن المنطق يؤكد بوضوح أنه سيكون من السهل أن يظل الجيش في البلد إذا ما أصبحت جماهير الجزائريين من الأصدقاء (١١)

والكن الجيش يشك في ديجول أيضاً ، وذلك لأنه يخشى أن تضطر الظروف ديجول ، رغماً عن نفسه ، إلى التنازل عن الجزائر ، وهذا ما لا يسمح به الجيش . فقبل كل شيء يريد الجيش أن يظل في الجزائر ، وهذا هو جوهر موقف الجيش كله . إنها ليست فكرة احتلال عسكري وإنما هي كراهية لازمة . فقد هزم الجيش الفرنسي في الجزائر ، وأرغم على الانسحاب من سوريا ولبنان ، وطرد من مراکش وتونس ، ومرت بكارثة ديان بيان فو في الهند الصينية وفقد كل النفوذ الفرنسي في الشرق الأقصى ، والتاريخ مليء بالتقهقر التقهقر المستمر ، والهزيمة . الهزيمة المستمرة . ونتيجة لذلك يقول الجيش الآن : « لا هزيمة بعد الآن . إننا هنا في الجزائر ، المعقل الأخير . وسنظل هنا » !

وفي نفس الوقت مازالت الأزمات الخطيرة مستمرة بين العناصر المتطرفة في الجيش وبين موظفي دييجول الحكوميين . وفي يناير عام ١٩٦٠ انضم الجيش إلى جانب المستوطنين المتمردين الذين حصنوا أنفسهم في شوارع الجزائر بالمتريس . ولكنه تراجع حينما أصبح من الواضح

أن فرنسا كلها تقريباً تقف صامدة خلف دييجول . و انتهت الحركة .
وقد عملت حكومة دييجول كل ما في وسعها منذ ذلك الوقت على
« تصفية » الموقف عن طريق تقليم أظافر الجيش . فقد أعفى كثير
من الضباط بهدوء من العمل في الجزائر عن طريق التقاعد أو النقل .

ويمضى المؤلف فيقول : لقد بدأت الحرب الجزائرية ، وهى
الحرب الساخنة الوحيدة التى تشن اليوم فى العالم الغربى ، بدأت بغارة
على المنشآت الفرنسية ، قامت بها فى اليوم الأول من شهر نوفمبر سنة
١٩٥٤ ، جماعة من الوطنيين الجزائريين ، يحتمل ألا يزيد عددها عن
خمس مئات ، ولقد نظر الفرنسيون أول الأمر إلى هذه الغارة ،
باعتبارها وخزة صغيرة فى الظهر . ولكن هذه الخزة لم تلبث أن
أصبحت جرحاً نافذاً فى جسد السياسة الفرنسية قد تنزف منه حتى
الموت . ولكن الصدمة التى أصابت باريس كانت محيرة للغاية ، إذ كان
يطن — منذ وقت طويل — أن الجزائر آمنة مع أن من زارها —
من ذوى الوعى والإدراك — فى السنوات الخمسينية الأولى لم يكن
عليه أن يطيل النظر كي يعلم أنها ليست كذلك .

ولكن الفرنسيين وضعوا الجزائر فى وضع مختلف تماماً عن جاراتها
المغرب وتونس حيث ولدت العاطفة القومية اضطرابات عنيفة . لئلا
كانت الجزائر — من الناحية الواقعية على الأقل ، جزءاً متمماً لفرنسا
نفسها ، تماماً كنورماندى أو تورين ، وقيام ثورة حقيقية كاملة هناك
كان شيئاً مستبعداً — شيئاً شبيهاً بالحرب الأهلية ومن الأمور التى
تبعث على الضيق ، وهى حقيقة يعرفها كل إنسان ، أن الجزائر لا تضم

على وجه التقريب مجرد تسعة أو عشرة ملايين مسلم، ولكنها تضم أيضاً
 مليون فرنسي والوجه المعلق للمشكلة يتعلق دائماً بهذا المليون من الفرنسيين
 البيض من رجال الأعمال والموظفين والعمال المقيمين في الجزائر . ماذا
 نفعل إزاءهم ؟ أنضحى بهم ؟ أنتركهم تحت رحمة العرب ؟ أننقلهم ثانية
 إلى فرنسا ، ونهى لهم وظائف جديدة ، وحيوات جديدة هناك ؟ أم
 ماذا ؟ إن ثمة ملحوظة هامة هنا ، وهي أن كثيراً من الملايين البيض
 من النساء والرجال المقيمين في فرنسا لا ينتمون إلى أصل فرنسي .
 فالكثيرون منهم ينتمون إلى أصل إيطالي أو أسباني ، وهم كثيرون
 بدرجة أن غير العرب من الجزائريين قد يمثلون فيما يبدو قومية جديدة
 هي مزيج من قوميات البحر الأبيض المتوسط ولكنهم جميعاً مواطنون
 فرنسيون ، ومشكلة حفظ حقوقهم ، والتصرف إزاءهم مشكلة عويصة .

لقد كلفت الحرب فرنسا والجزائر خسائر باهظة . وأجبرت فرنسا
 على الاحتفاظ بجيش في الجزائر يبلغ عدده خمسمائة ألف ، وهذا يعني .
 بشيء من الاعتدال ، استنزافاً خطيراً للاقتصاد القومي . إن أحداً
 لا يعرف تماماً ما تتكلفه الحرب الفرنسية الجزائرية ، ولكن من المحتمل
 أنها تكلف خزانة فرنسا في العام ٢ بليون دولار ، أضف إلى هذا أن
 الخسائر في الأرواح لا تسر .

فع أن القتال قد خفت وطأته في الأشهر الأخيرة إلى حد كبير
 فالأطفال الفرنسيون يقتلون يوماً بعد يوم ، ومتوسط القتلى في العام
 حوالي الألفين . ففي جانب الجزائريين يقدر الفرنسيون عدد المصابين

منهم بحوالى ٢١٠.٠٠٠ ويقدرهم الجزائريون بما لا يقل عن نصف مليون ، بما فى ذلك ٥٠.٠٠٠ لقوا مصارعهم . إن السفر فى كثير من أنحاء الجزائر لا يزال غير مأمون الجانب ، والاقتصاد المحلى قد أصابه العطب ، وما يقرب من مليون ومائتين وخمسين الفا من الجزائريين قد أجبرتهم السلطات الفرنسية على الإقامة فى مراكز اللاجئين . وهذا العدد الضخم من الناس ، الذين يبلغون عشر التعداد الكلى لسكان الجزائر ، قد أجلاهم الفرنسيون عن مناطق كانت مصدر متاعب لهم أو مأوى للشغلين بحرب العصابات . وأخلت أحياء بأسرها تماما من الجنس البشرى ، كما فر أخيراً ربع مليون من اللاجئين الجزائريين إلى تونس والمغرب .

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن الجزائريين بالرغم من الضغط الفرنسى المستمر ، الذى يشمل التعذيب من قبل الجيش والبوليس المحلى قد أصبحوا قادرين لا على مجرد الإبقاء على أنفسهم كقوة لا تتمهر فى حرب العصابات ، ولكنهم أوجدوا شيئاً شبيها بالحكومة الحقيقية ، مع أن الفرنسيين ينكرون هذه الحقيقة بشدة . وتنظيم الثوار الذى يسمى جبهة التحرير القومية ، يجمع الضرائب ويحفظ نوعاً من النظام المحلى . ويحتمل أن سلطاتهم تشمل ثلث الجزائر مع أن الفرنسيين يسيطرون بالطبع على الشريط الساحلى ذى الأهمية الحيوية وقائد جبهة التحرير الثومية هو فرحات عباس ، الذى يعرف برئيس حكومة الجزائر المؤقتة ومقره الرئيسى فى تونس وأحياناً فى القاهرة . وهو فى الثانية والستين من عمره ، وكان منذ عدة سنوات نائباً يمثل الجزائر فى البرلمان الفرنسى

وهو ينتمى أصلاً إلى الجناح المعتدل من الوطنيين الجزائريين، ولم ينضم إلى الثورة، التي يمثل الآن بصفة اسمية قائدها السياسي والحربي، إلا في سنة ١٩٥٦ « عندما بلغت الثورة عامها الثاني أنه يعتبر غالباً الطليعة لعناصر قوية؛ وربما يتمتع الكثير ممن دونه من الزعماء؛ كنائبه بلقاسم بقوة أكبر مما يتمتع بها هو. إن فرحات مزاج غريب من الدهاء والانفعالية والصلابة. إن زوجته فرنسية ومن المفروض أن يتكلم الفرنسية أفضل من العربية. والقضية الجزائرية؛ كما يلخصها فرحات عباس وزملاؤه بسيطة جداً: إن الجزائر هي الدولة الإسلامية الوحيدة في العالم الباقية في قبضة الاحتلال؛ والتي تستحق الحرية عن جدارة. وقد لعبت الاعتبارات الدولية دوراً حيوياً في تطور جبهة التحرير القومية من ذلك أن الرئيس ناصر؛ ذلك الزعيم الذي بلغت كراهيته الغاية لفرنسا منذ حرب السويس؛ يؤيد جبهة التحرير بشدة. ولقد ذهب الفرنسيون إلى حد القول بأن جبهة التحرير لا يمكن أن تعيش بغير ناصر، وثمة عامل آخر وهو أن تونس والمغرب؛ كما هو متوقع؛ تؤيدان جبهة التحرير في هيئة الأمم وكذلك يفعل أعضاء آخرون من الكتلة الأفريقية الآسيوية. ومن الأمور البالغة الأهمية أن جبهة التحرير تلتزم التأييد من الاتحاد السوفيتي ومن الصين الشيوعية على وجه الخصوص لقد زار فرحات عباس كلا من موسكو وبكين مع أن جبهة التحرير ليست شيوعية؛ وقد تعهد ماوتسي تونج أخيراً في سنة ١٩٦٠؛ بمساعدة الجزائريين مساعدة كاملة غير مشروطة. وقد استقرت بعثة جزائرية دائمة في العاصمة الصينية. وقد

كانت موسكو رغم هذا ؛ وحتى وقت قريب على الأقل ؛ تبدو شيئاً من التردد . وهذا راجع إلى أن الروس ؛ وهم يأملون إضعاف حلف شمال الأطلسي قد اتجهوا إلى ديجول يؤيدونه ضد الجزائريين لأنه كان معادياً للحلف ولكن الأيدي الروسية ، كالأيدي الصينية ، تمتد الآن لتأييد الجزائر ففي أكتوبر سنة ١٩٦٠ عند ما كان خروشوف في الأمم المتحدة ، انضم إلى ماوتسي تونج في تقديم الوعود لجهة التحرير ببذل المعونة الممكنة لمساعدة الجزائريين على الظفر بحريتهم وثمة حلول ستة ممكنة للمشكلة الجزائرية ، إذا أمكن تسمية الحرب المدمرة السامة مجرد مشكلة ، وهي حلول ممكنة نظرياً

١ - الانتصار العسكري الكامل لفرنسا ، وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الحرب . وهذا غير ممكن إلا بتكاليف لا تطاق .
٢ - الانتصار العسكري الكامل للجزائريين ، وهو كذلك مستحيل .

٣ - التقسيم على نحو ما تم في شبه القارة الهندية أو إسرائيل وهو أمر لا يستقيم من الناحية الجغرافية .

٤ - الاتحاد الكامل بين فرنسا والجزائر ، الذي يعتبر برنامجاً لليمينيين الفرنسيين ولكن أحدا لا يرغب في تعريف هذا الاتحاد تعريفاً دقيقاً . إن كل فرنسي يوافق على أن الاتحاد إذا قام . فإن امتيازات كبيرة ينبغي أن تمنح للشعب المسلم في الجزائر ، كمثل التمثيل السياسي الكامل في باريس . إن العرب يمتنون بالمساواة ، ولكن المراد بالمساواة لم تتضح بعد .

٥ - سياسة التسوية، وهي عبارة الديجوليين . إن الجنرال ديغول الذي ولى السلطة كرئيس للوزراء في مايو سنة ١٩٥٨ قضى ثمانية عشر شهرا يدرس الموقف حتى اتخذ رأيا بصفة مؤقتة . وفي السادس عشر من سبتمبر سنة ١٩٥٩ صدر تصريح سياسي كبير ، لم يسبق له مثيل في إقراره إمكان التفاوض مع جبهة التحرير ، وإنما في وعده بمنح الجزائريين امتيازات لم يكن يحلم به أحد حتى ذلك الوقت .

قال ديغول ، إنه مادامت الحرب قد توقفت فإنه سيكون مستعدا لأن يمنح الجزائر حق تقرير مستقبلها . ومعنى هذا أنه قد سلم بأن للجزائر حق تقرير مصيرها ، وأن تختار الحرية إذا أرادت ، ولكنه أصر على وقف إطلاق النار وعلى فترة من الهدوء تمتد أربع سنوات كشرط لإجراء الانتخابات ، وعندما تجرى الانتخابات ، سيكون للشعب الجزائري أن يختار واحد من ثلاثة :

١ - الانفصال أو الاستقلال التام عن فرنسا

٢ - استقلال ذاتي داخل الإطار الفرنسي .

٣ - الاتحاد مع فرنسا وقد استعمل ديغول كلمة « الاتحاد » ، ولم يستعمل كلمة « الاندماج » ، لأن هذه الكلمة تثير الوطنيين الجزائريين

ومن هذه الثلاثة يختار ديغول الثاني ، ومن المهم كذلك أن نلاحظ أن الجزائر إذا اختارت . الانفصال ، فإن من المحتمل أن تنقسم فتظل الأجزاء الفرنسية الخالصة فرنسية .

وقد رأت جبهة التحرير أن عرض ديجول رغم كونه مثيرا لم يخط نحو حل المشكلة بالدرجة الكافية ، ومن ثم فقد رفضته الجبهة وكان اعتراضها عليه أنه لم يعرف شروط وقف إطلاق النار ، وأنه ترك فرنسا تسيطر على الجزائر أربع سنوات ، ولم يكن ثمة ضمان للظروف التي تجرى فيها الانتخابات . وإذا كانت الجبهة لا ترضى باقتراحات ديجول ، فإن الجيش والمستوطنين في الجزائر لا يرضون بها أيضا وبدرجة أكثر . والمستوطنون على وجه الخصوص قد أثارهم أن ديجول الذي جاء إلى السلطة سنة ١٩٥٨ ليحل المشكلة الجزائرية بتصفية الحرب ، قد أخذ يفتح الآن باب المفاوضات مع الثوار ، ويحلب الإهانة التي لا تحتمل ، بتمكينه الجزائريين في المستقبل من أن يصوتوا للانفصال عن فرنسا . وكانت النتيجة المباشرة لهذا هي ثورة المستوطنين في يناير سنة ١٩٦٠ .

وفي الرابع عشر من يونيو سنة ١٩٦٠ جدد ديجول محاولاته ، فقد أعطى ضمانا شخصيا بأن الجزائر ستكون حرة تماما لتختار مستقبلها ، وحث على المفاوضات لوضع نهاية كريهة للحرب . وفي الرابع والعشرين من يونيو وافقت جبهة التحرير على هذه الدعوة الجديدة ، وقدم إلى فرنسا وفد من رجلين يمثلان فرحات عباس . وبدأت المحادثات سرا في ميلون على مقربة من باريس ولكنها انتهت بغير نتيجة ؛ فقد أعلن المفوضان الجزائريان أنهما عوملا كأسرى ولم يسمح لهما بمفاوضة فرنسيين مساوين لهما في المكانة والمقام .

تأزمت الحوادث في فرنسا واتسعت هوة الخلاف فيها بعد ذلك .. ووقف ديجول بعض الوقت في وسط كان اليمينيون يشيرون إلى أنه إذا فقدت الجزائر فإن العواقب الاقتصادية ستكون وخيمة على كل المستويات ، فثلا قدر لمصانع رينو - وهي مصانع السيارات الضخمة - أنها ستضطر إلى التوقف عن العمل يومين في الأسبوع . ومن ناحية فهناك قوى مختلفة تحاول التأثير على ديجول .

فالكردالة الكاثوليك الرومانيون - بما فيهم أسقف باريس - يحثونه على إيجاد تسوية ، وفي نفس الوقت تقريباً قامت مظاهرة للطلبة المنتمين إلى الجناح اليساري تطالب بجزائر حرة . ووقعت مجموعة كبيرة من المثقفين بزعامة جان بول سارتر ومن بينهم رجال معروفون في جميع أنحاء العالم ، منشور الـ ١٢١ ، الذي حث في النهاية الجنود الفرنسيين في الجزائر على هجر صفوف الجيش .

وفي يوم ٤ من نوفمبر ألقى ديجول خطبة جديدة ، بين فيها أنه مازال متمسكاً بقوة برأيه في أنه من الممكن أن تحدث مفاوضات مع الثوار الجزائريين إذا ما توقف أولاً إطلاق النار ، تبعاً لشروط يتم تحديدها ولكنه قتل احتمال الاندماج الكامل . وقد ذهب إلى حد أن قال إنه يجب إقامة « جزائر جزائرية » بحكومتها وقوانينها المستقلة . ولا تخضع لسيطرة الحكومة الفرنسية ، وإن قيام جمهورية جزائرية شيء محتم . ونتيجة لذلك وقد ثار المتطرفون في الجزائر ، ولكن سرعان ما أخذت ثورتهم . وقد زار ديجول بنفسه الجزائر في ديسمبر ليحصل على التأييد

لشروعه هذا . . ولكن في ١٨ من ديسمبر قام المسلمون بحوادث شديدة مثيرة للشغب ، أدت إلى حدوث إصابات خطيرة . وقد وقف الجيش بقوة بجانب دييجول ، ولأول مرة في تاريخ حركة التمرد ، قام الجيش بإطلاق النار على المستوطنين الأوربيين .

وقد قام دييجول بإجراء استفتاء عام في ٨ من يناير ١٩٦١ حيث ذهب أكثر من عشرين مليون ناخب في فرنسا وأكثر من ٢٠٦ مليون ناخب في الجزائر إلى صناديق الاستفتاء حيث طلب من الناخبين أن يجيبوا بلا أو نعم على اقتراحين لتقرير المصير . وكانت النتيجة النجاح التام لدييجول ولسياسة تقرير المصير . . فقد حصل على ٧٥٠٣ / في فرنسا وحصل على ٦٩ ر ٠٩ / من مجموع الأصوات . وقد صوت ضد دييجول حوالي ٧٨٠ ر ٠٠٠ جزائري . والسبب في ذلك هو أنه ما زال هناك عدد كبير من الجزائريين — بالرغم من كل شيء — ليس مخلصاً لفرنسا فقط . بل يخدمها في الواقع كثيرون كمساعدين في الجيش الفرنسي . وقد صوت الجزائريون الأميون عن طريق الألوان فاللون الأبيض معناه : نعم واللون الأرجواني معناه : لا .

ومن الواضح أن هذا الاستفتاء أنهى احتمال وجود حل «فرنسي» خالص وابتدأت من جديد لاستعدادات للمفاوضات بين باريس والثوار ، واستعد آلاف من المستوطنين لحزم أمتعتهم والعودة إلى الوطن الأم . وفي الحال أعلنت جبهة التحرير الجزائرية أنها ستمنح امتيازاً خاصاً للأوربيين الذين يختارون الإقامة في الجزائر وذلك إذا ما حصلت الجزائر على الاستقلال التام . ولكن عناصر الجيش لم توافق

على الوضع الجديد ، وحاول أربعة من الجنرالات الفرنسيين ومن بينهم سالان وشال في ٢٢ من أبريل عام ١٩٦١ الاستيلاء على السلطة في الجزائر عن طريق انقلاب وقد واجهت باريس تهديداً بالغزو من رجال المظلات المتمردين . ولكن ديجول واجه الموقف بقوة وانتهى التمرد بعد أربعة أيام . ولكن لا يمكن أن نستبعد احتمال حدوث اضطرابات أخرى .

وهناك نقطة تدعو إلى الاهتمام ، وهي أن الأراضي التابعة للصحراء الكبرى الغنية والتي تقع جنوب الجزائر ، والتي كانت تعتبر فيما مضى جزءاً من الجزائر ، ولم تكن موضع مناقشة . فلا بد من أن تظل الصحراء الكبرى جزءاً لا يتجزأ من فرنسا مهما يحدث من نتائج وهناك سبب لتصميم الفرنسيين على الاحتفاظ بالصحراء الكبرى مهما كلفهم الأمر . وهو أن المساحات الشاسعة من الصحراء ضرورية لتجارها النووية . وسبب آخر هو أنه لا شك في أن هناك أجزاء كبيرة من الصحراء الكبرى مليئة بالبترول ، ويصل الإنتاج اليوم إلى حوالي ثمانية ملايين طن في السنة . وسيزداد هذا الإنتاج في السنوات الخمس القادمة والشعور الوطن في أغوار الصحراء الكبرى مهمل . وليس لجهة التحرير الجزائرى إلا نفوذ ضئيل في الوقت الحاضر هناك .

المغرب... تونس... وأفريقيا السوداء

لقد حصلت كل من المغرب وتونس على استقلال من فرنسا قبل وصول ديجول إلى الحكم . ودخلت الأمم المتحدة كدول ذات سيادة في عام ١٩٥٦ . وهذا تطور عظيم في حد ذاته . وازدادت عظمتة بالسرعة التي تم بها هذا الاستقلال . فقد كان من المعروف أن في المغرب وعلى الأخص في تونس حركة وطنية مسلحة ومنظمة تنظيماً دقيقاً . لقد كان هناك بعض المراقبين المتفائلين . حتى عام ١٩٥٢ . ولم يكن الواحد منهم يحلم بأن يتم هذا الاستقلال بهذه السرعة . لقد كان أمس (هكذا يبدو) حينما كان الحبيب بورقيبة . رئيس جمهورية تونس . سجيناً في يد الفرنسيين . وكانت بلده تتقدم إلى نوع غريب من الفوضى الكريهة . وكان السلطان محمد الخامس قد عزل عن العرش ونفى إلى جزيرة مدغشقر . واليوم كل منهما رئيس لدولة مستقلة (توفي السلطان محمد الخامس منذ شهور قليلة) وانكشف مركز الفرنسيين في البحر المتوسط إلى الجزائر والصحراء الكبرى .

ولم تكن النوازع الخيرة ولا الرضوخ لرغبات العصر هي التي جعلت فرنسا - وهي التي كان مركزها راسخاً في شمال أفريقيا منذ عشر سنين كمركزها في مقاطعة بريتانى الفرنسية - تتنازل عن مستعمرات مثل تونس والمغرب بدون مقاومة أطول مما كانت وتفكير ذلك هو أن الثورة الجزائرية هي السبب .. فقد كان الفرنسيون

يعلمون تمام العلم بأنه إذا ما امتد هذا التمرد القوي إلى الشرق وغرب ، إلى المغرب وتونس ، فإنهم سيفقدون دولا جتماً ، ولذلك قرروا أن يقللوا من خسائرهم ، فلتذهب تونس والمغرب ، وركزوا جهودهم في الاحتفاظ بالجزائر التي تعتبر أكثر الدول الثلاث قيمة ، والأرض التي يعيش عليها كثير من الفرنسيين . وتفسير آخر ، هو أن الوطنيين المغربيين والتونسيين استغلوا ضعف الإدارة الفرنسية في المنطقة واستغلوا أيضاً هذا الجو السياسي المنقسم الذي كان يحيط بباريس في هذا الوقت ، وأخيراً ترأس مندريس فرانس مفاوضات تحرير تونس .

وفي الأيام الماضية ، أي أمس ، وكما هو الحال في الجزائر الآن ، كان الوضع الفرنسي التقليدي هو أنه من المستحيل أن يتنازلوا عن المغرب وتونس ويهجروا المستوطنين هناك . لذلك فإنه لمن المفيد لنا ، ونحن نضع الجزائر في اعتبارنا ، أن نرى ماذا حدث في الواقع . ففي تونس رجع حوالي ١٠٠.٠٠٠ شخص من ٢٥٠.٠٠٠ شخص من المستوطنين إلى فرنسا ، أما هؤلاء الذين فضلوا المعيشة في تونس فيبدو — وهذا أمر يدعو إلى الدهشة — أنهم لم يثيروا أية شكوى أو حادثة أخرى ذات مغزى ، ويظهر أن كثيراً من الملاك الفرنسيين في تونس الذين رجعوا إلى فرنسا كانوا خبراء في زراعة الأراضي البور ، وقد نقلوا خبراتهم الزراعية التي تعلموها في أفريقيا ، إلى الوطن الأم حيث حقق ذلك نتائج عظيمة ، وقد كان هذا تطوراً مشمراً خاصة في مناطق جنوب فرنسا حيث تتشابه الأحوال الزراعية مع الأحوال في أفريقيا ، أما بالنسبة للمغرب فلم يكن من المتوقع حدوث

عودة المستوطنين الفرنسيين بامتيازات ضخمة في مقابل بقائهم هناك وقد رجع ٤.٠٠٠ شخص من حوالي ٣.٠٠٠ من المستوطنين إلى فرنسا، ولكن لا جدال في أن هذه الأمثلة لا تقلل من الصعوبة التي يواجهها الجزائريون، وذلك لأنه يوجد في الجزائر، مايون قرنسى، وأن استيعاب نسبة كبيرة منهم في فرنسا سيكون عملاً محفوفاً بالخطر وحينما كتبت « في داخل أوروبا، منذ خمسة وعشرين سنة لم يكن هناك من يحلم بحصول المغرب وتونس على حريتهما : ولكن ما حدث لأفريقيا السوداء، أفريقيا الفرنسية فيما وراء الصحراء الكبرى . هو شئ مثير، إذ كانت هذه المناطق الشاسعة التي كانت معروفة يوماً ما باسم أفريقيا الغربية الفرنسية (ومن بينها جزيرة مدغشقر أيضاً) أو هكذا كان يعتقد — من العمد التراسخة للإمبراطورية الفرنسية . ولكن، خلال الحرب وبعدها، أصبح من الواضح أن الاستعمار لا بد وأن ينتهى بمرور الوقت، وذلك يرجع على الأقل إلى أن الاستعمار يلزمه تكاليف عالية لدرجة لا يمكن معها الاحتفاظ به . وقد كان لديجول أفكار بعيدة النظر في هذا الموضوع ترجع في تاريخها إلى يناير عام ١٩٤٤ حينما عقد مؤتمر للمستعمرات في برازافيل ووعد فيه الشعوب الأفريقية بتعديل القيود الفرنسية عليهم في الوقت المناسب . وقد كانت خطوته الكبيرة التالية (وذلك اختصاراً للوضوع) في عام ١٩٥٦، حينما ظهرت فكرة الاتحاد الفرنسي، في عهد الجمهورية الرابعة . وقد أعطى هذا للمستعمرات الفرنسية شكل رابطة بين دول حرة على غرار الكومنولث البريطاني تقريباً .

وقد قدم عرضاً للمناطق الفرنسية ليختاروا نفس الاختيار الذى عرضه على الجزائر فيما بعد — أن تظل فرنسية ، أو تنفصل ، أو تصبح دولة تتمتع بالحكم الذاتى مرتبطة بفرنسا ، وعلاوة على ذلك فإنه جعل من الواضح أن للدول التى تختار الثالث الحق فى أن تعلن استقلالها الكامل فى أى وقت .

وقد اختارت دولة واحدة هى غينيا الخروج من الاتحاد الفرنسى ، وأصبحت فى الحال دولة مستقلة . وقد ضايق ذلك فرنسا كثيراً . فقد كان من الواضح أن ديجول اعتقد أن أحدا لن يستغل عرضه . ويختار قطع كل رابطة مع فرنسا . وعلى غرار غينيا ولأسباب أخرى لا يتسع المجال بها هنا ، قربت الدول الأفريقية الأخرى — بعد أن أصبحت تتمتع بالحكم الذاتى فى نطاق المجموعة الفرنسية ، أن تسير فى الطريق إلى آخره وأعلنت استقلالها التام ، وكان ذلك مثل السلسلة المتشابكة ، فما جاء خريف عام ١٩٦٠ إلا وكانت اثنا عشرة دولة من دول المجموعة الفرنسية فى أفريقيا السوداء ، قد أصبحت حرة ، مع أن خمسا من هذه الدول احتفظت بعضويتها فى المجموعة الفرنسية . وقد ابتدأ العرض بمدغشقر التى أصبحت جمهورية مالا جاس ، ثم اتحدت السنغال والسودان الفرنسى وكونتا اتحاد مالى — ولكن المتاعب أصابت هذا الاتحاد ، وانقسم وأصبح دولتى مالى والسنغال . ثم سرعان ما جاء الكونغو الفرنسى ، وتشاد ، وجمهورية أفريقيا الوسطى (التى كانت سابقاً أبانجى - - شارى) والى اتحدت فى الاتحاد الجديد لجمهوريات أفريقيا الوسطى ولكنها احتفظت بشخصيتها ، ثم ساحل

لعاج ، وداهومى ، والنيجر ، وجمهورية فولتا ، وجابون وأخيرا موريتانيا فى أسبوع واحد حصلت ثمانى مستعمرات فرنسية راغبة عن مناطق تصل مساحتها إلى ٣٠٧ر١٤ر٠٣ ميلا مربعا ، وفيها مالا يقل عن سبعة عشر مليون شخص ، بدون أى أثر للاضطراب بين الفرنسيين والأفريقيين وبدون أن تطلق طلقة واحدة . ودخل الأمر المتحدة سرب من البلاد السوداء الجديدة .

وهذا تطور عجيب يدعو إلى الدهشة ولكنه فى الوقت نفسه تطور مفيد . فإذا ما قارنا بين ما حدث وبين ما يحدث فى الكونغو البلجيكي وجدنا المغزى العميق وراء ذلك ، إن الفرنسيين لم يكونوا مستعمرين نموذجيين بأى حال من الأحوال ولكنهم أعطوا بعضها من التعليم للشعوب الأفريقية ، وجعلوهم مواطنين ، وسمحوا للأفريقيين أن يعملوا فى البرلمان فى باريس . وشجعوا التقدم السياسى إلى حد ما . وعلاوة على ذلك فإنهم لم يقوموا بعمل تفرقة - تفرقة عنصرية - وكانت النتيجة أن العلاقات بين فرنسا وأفريقيا السوداء كانت (على وجه العموم) متجانسة ، وحينما قرر الفرنسيون أخيراً أن يخرجوا تركوا وراءهم نظاماً إدارياً مكوناً من الموظفين الأفريقيين المتعلمين القادرين على تحمل المسئوليات ، ولكن البلجيكيين طوال سنوات حكمهم للكونغو لم يبنوا أى شئ . إلا ما سموه « بالقاعدة الاقتصادية » ولم تكن لهم أية تجارب فى الأصول البرلمانية . ولم تكن لديهم صحافة حرة . ولم يكونوا على علم بفنون الديمقراطية . ولا أى تمرين على طريقة الحكم وقد كان حكم البلجيكيين صارماً لدرجة أن مفهوم الوطنية لم يكن

معروفا إلا في أضيق نطاق ، ولقد ترك الفرنسيون أفريقيا بتعقل .
 لأسباب واقعية . بعد فترة من التدريب على تحمل المسئوليات ، ولكن
 البلجيكيين تركوا الكونغو في الليل بدون أن يدربوه على كيفية حكم
 نفسه بنفسه .

ولنتقل الآن إلى البحر المتوسط

١٠ - شبه جزيرة ايبيريا

إن البرتغال ، هذه الدولة التي لا يعرفها إلا القليل في أوروبا ، مكان
 صغير غريب ويحكمها رجل أغرب منها ، فما زال دكتور سالازار
 هذا البروفسور العظيم ، وعميد السياسيين في أوروبا في الحكم بعد مضي
 تسع وعشرين سنة ، وبالرغم من موضوع ساننا ماريا ورجالها ، القراصنة ،
 فإنه من الممكن أن نصف سالازار بأنه من طراز موسوليني ولكن
 الحقيقة أعتمد من ذلك .

وفي حقيقة الأمر ، وبالرغم من أنه يقرر كل شيء مهم بنفسه ، فإن
 رئيس وزراء البرتغال جاء إلى الحكم بوسائل قانونية تماما ، لم يتم
 بانقلاب أبدا ، وكان دائما يحكم تحت ستار الوسائل الدستورية : ويوجد
 في البرتغال رعب واضح ، وتجرى الانتخابات — من نوع معين —
 ومن الناحية النظرية يستطيع الاميرال أميركو دريس دودريجوس
 توماز رئيس الجمهورية أن يقلد دكتور سالازار في أى وقت ، ولكن

بوماز رجل نقي ، مسكين وبسيط وليس أمامه فرصة لتغيير رئيس الوزراء الذي لا يعوض

، جوهر الموضوع هو أن البرتغال تحت حكم سالازار فيها من سمات الدكتاتورية التقليدية الكثير - نظام الحزب الواحد ؛ وكنتم الحريات وخنق المعارضة، والرقابة الصارمة على الصحافة والبوليس السرى - ولكن ذلك يتم بطريقة معتدلة على العموم . والدولة منظمة تبعا لنظام الاتحادات ، وطبعا رئيسها سالازار ولكن نظامه كما يحب البرتغاليون أن يصفوه « مطلق ، أكثر منه « جماعى ، ولا يؤمن سالازار بالعنف ، ويفرعه أن يطلق عليه أى لقب غير طيب

وقد أطلق سالازار على دولته التى تتبع نظام الاتحادات اسم الدولة الجديدة ، وأطلق على حزبه اسم الاتحاد الوطنى . . ويوجد هيتان « تشريعتان » ، مجلس الأمة ويبلغ عدد أعضائه ١٠٠ عضوا وينتخب كل أربع سنوات ، ومجلس النقابات وهو سلطة استشارية يبلغ عدد أعضائها ١٣٥ عضوا وهو يمثل اتحادات اقتصادية ، وإدارية ، وثقافية . وفى الحقيقة أن نظام الاتحادات يعنى أن أعضاء الهيئة التشريعية يمثلون لطوائف والأعمال المختلفة كما يمثلون أيضاً المناطق الجغرافية .

وقد استمدت المبادئ الاجتماعية من المنشورين البابويين الشهيرين . اللذين أصدر أحدهما البابا ليو الثالث عشر عام ١٨٩١ ، والثانى أصدره البابا بيوسى الحادى عشر منذ أربعين عاما . وقد رسم هذان المنشوران نظاماً اجتماعياً راسخاً ، تمت بسببهما على كل شىء سيطرة الدولة . وقد

نم تصميمهما لتشجيع الوحدة الكاثوليكية، والتمسك بقدسية الملكيات الخاصة، ومنع التفاوت الاقتصادي وحرب الطبقات. وقد عارض الاشتراكيون هذا النظام بقوة، لأنه إذا تم تنفيذه بالكامل فهذا معناه نهاية النقابات العمالية التي يسيطر عليها الاشتراكيون ويحرم العمال من قوتهم المنظمة ومن حقهم في الاضراب.

وتتمتع البرتغال بجو أهدأ مما كانت عليه دول أخرى تتبع نظام الاتحادات مثل إيطاليا ما قبل الحرب، وأسبانيا في عهد فرانكو. وهي تشبه إلى حد ما النمسا ما قبل الحرب حيث كان منشور البابا بيوس الحادي عشر هو الأساس النظري لسياسة الدولة، وحيث ولا بد أن يتذكر المرء ذلك، أدى هذا النظام إلى حرب أهلية دامية. ولكن التجربة البرتغالية تعكس شخصية شعبها، فالشعب البرتغالي شعب ودود، لا يحب التطرف البطولي، هو شعب تسويقي. ودكتور سالازار مقتنع تماماً بأن البرتغال ليست مستعدة بعد لتحل مسؤوليات الديمقراطية، ولذلك عليه أن يحكمها.

إن البرتغال على وجه التحديد، دولة من دول الاطلنطي، لا من دول البحر الأبيض المتوسط. فالمحيط الاطلنطي يحدها من الغرب والجنوب، وكما هو معروف للجميع قام البحارة البرتغاليون بعدة اكتشافات بحرية مذهشة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. فقد دار بورتولوميو دياس حول رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٨٨. ونزل فاسكودى جاما وبحارته في كل المناطق من كينيا إلى ساحل مالابار. وقد خرجت البرتغال من ذلك بتراثين.

(١) علاقات برتغالية مع البرازيل ، ذلك الطفل الذى أصبح أكبر مما كان وأغنى وأصبح أكثر قوة وقدرة من الأم نفسها .

(٢) وإمبراطورية برتغالية استعمارية ، تعتبر الآن أكبر إمبراطورية استعمارية فى العالم بعد أن استقلت كثير من المستعمرات الإنجليزية ، والهولندية ، والفرنسية ، والبلجيكية .

وتعتبر بريطانيا أقدم حليف للبرتغال ، وقد أقامت معاهدة وندسور عام ١٣٨٦ هذه العلاقة بينهما ، وظلت هذه العلاقة منذ ذلك الوقت . وتملك البرتغال جزر الآوزر وهذا يؤكد مركزها كقوة من قوى الاطلنطى . وكان يمكن أن تكون هناك صعوبات أمام الطائرات الأمريكية للوصول إلى بريطانيا العظمى أثناء الحرب العالمية الثانية لولا وجود جزر الآوزر . وقد كانت البرتغال من الناحية النظرية حيادية أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولكنها كانت عضواً فى التحالف الاطلنطى وفى حلف شمال الاطلنطى منذ انشائها ، وما زال فى جزر الاوزر قاعدة أمريكية .

وقد دخلت البرتغال الأمم المتحدة فى ديسمبر عام ١٩٥٥ ولم تعترف البرتغال بالاتحاد السوفيتى ، ومثاها مثل أسبانيا ليس لها علاقات رسمية مع الاتحاد السوفيتى أو مع الدول التى تدور فى فلكه .

ومشكلة البرتغال (مساحتها ٣٥٩٠ ميل مربع وعدد سكانها ٨٠٠.٠٠٠ نسمة) الرئيسية هى الفقر ، والسلعة الرئيسية هى الفلين .. وقد واجه سالا زار صعوبات اقتصادية بطرق مختلفة . . . ولا تعتقد

البرتغال أن الاتحاد السوفيتي موجود ، ولكنها صممت سلسلة من مشاريع السنوات الست للتنمية على غرار الطراز السوفيتي . . والم شروع الحال يبدأ في عام ١٩٥٩ وينتهي في عام ١٩٦٤ وما زال دخل الفرد في البرتغال أقل دخل في أوروبا — حوالي ٢٣٠ دولاراً سنوياً — وكثير من الخدمات الاجتماعية والخدمات الأخرى من طراز قديم وغير كافية . . ويصل إلى البرتغال كثير من السياح عن طريق أسبانيا .

وكثيراً ما يعتقد بأن مستوى المعيشة في البرتغال ، ذات المناظر الرائعة والقرى الجميلة ، أعلى منه في أسبانيا . . وهذا يرجع إلى حقيقة أن المناطق الأسبانية المجاورة للبرتغال هي أفقر مناطق أسبانيا . . وهكذا تبدو البرتغال — بمقارنتها بها — على أنها أحسن مما هي عليه . . وهناك مقارنة أخرى في مجال الدين . . فهناك ٩٧ ٪ كاثوليك في البرتغال ، ولكن الكنيسة ليست بالقوة الغالبة كما هو الحال في أسبانيا . . ورجال الدين ليسوا ظاهرين هناك ، ولا يلبسون ملابس تظاهرية ، ولا تتمتع الكنيسة في البرتغال بشيء مثل السلطة الاقتصادية في أسبانيا ، ويسمح لبروتستانت بالعبادة في حرية . . . وفي حقيقة الأمر لا تشابه البرتغال وأسبانيا في شيء إلا سطحياً ، مع أنهم يتقاسمون نفس الشبه في السمات الجغرافية .

ولشبونة مثل روما وكامبالا (عاصمة أوغندا) مقامة على تلال سبعة ، وتتمتع بسحر طبيعي ، وتختلف تماماً عن مدريد . . ومن العجيب أنه يعيش في ضواحي لشبونة مجموعة خيالية من الملوك السابقين ،

والمطالبين بالعروش ومعاونيهم ، منهم الملك امبرتو ملك ايطاليا السابق ، وماجدا لويسكو ملك رومانيا ، ومنهم كونت باريس ، ودون جوان ، والأمير جوان كارلوس المطالبين بعرش أسبانيا .. ولشبونة أيضاً عضو هام في منظمة راديو أوروبا الحرة — الإذاعة الأمريكية في ميونيخ التي تذيع إلى روسيا والدول التابعة لها — والبرامج لا تسجل في لشبونة ولكنها حيوية كمركز للتبادل الإذاعي .

شخصية دكتور سالازار وصفاته

ولد دكتور أنطونيو دي أوليفيرا سالازار — الذي كان باحثاً في شبابه — في ٢٨ من أبريل عام ١٨٨٩ ، وهو من بيئة زراعية متواضعة ، فقد كان أبوه عاملاً زراعياً .. ومع ذلك استطاع أن يلتحق بجامعة كوامبرا ، حيث حصل على درجة الدكتوراه في القانون . . . ثم ترك بعد ذلك فكرة انخراطه في سلك القضاة ، وأصبح أستاذاً للعلوم الاقتصادية في جامعة كوامبرا . وهي من أقدم الجامعات في أوروبا .

وصفة دكتور سالازار البارزة هي التقشف ، وهذا على غير عادة البرتغاليين ، وهو أعزب ، ويؤمن بالنظام . ويكسب ١٣٠ دولاراً في الأسبوع ، ويعيش في شقة من ثلاث غرف ، وهو معتدل جداً في نفقاته ، ويعمل أربع عشرة ساعة يومياً ، ونادراً ما يتقابل الزوار . فمن الممكن أن نعد عدد مقابلاته خلال ثلاثين سنة على أصابع اليد الواحدة .. وعلى أية حال فإنه عندما يوافق على استقبال زائر يظهر

سحره جلياً في الحال .. وقد تأثر به كثيراً دين اتشيسون وزير خارجية أمريكا السابق ، حينما قابله أخيراً ، وشعار دكتور سالازار هو « أن يدرس في شك ، وأن يتحقق بإيمان » .

ولا جدال في أن سالازار كاثوليكي مخلص ، وأن البرتغال بلد كاثوليكي ، ولكنهم يقولون أحياناً « إن رئيس الوزراء ضد رجال الكنيسة » .. وذلك أنه رجل دولة ، وليس رجل كنيسة ، يعتقد بفصل الكنيسة عن الدولة ، ويعمل كل ما في وسعه على المحافظة على الزعامة الدينية في مكانها .

وقد جاء سالازار إلى الحياة العامة في عام ١٩٤٦ ، وكانت الحكومة البرلمانية قد انهارت ، وكان هناك ما يقل عن أربعين حكومة في ثمان عشرة سنة .. وقام جنرال يدعى جوما دو كوستا بثورة ، وابتدأ عهد الدكتاتورية ، وتم حل البرلمان . وأخذت حكومة مكونة من ثلاثة عسكريين -- هم جنرال أنطونيو أوسكار دي فراجوسا كارمونا ، والادميرال منديس كاييكاديس ، ودا كوستا -- في النضال من أجل السلطة ..

وكانت الناحية المالية للدولة في حالة سيئة ، وكان أحد أعضاء الحكومة قد سمع أن سالازار رجل قدير في الناحية الاقتصادية ، فاقترح دعويته ليتولى منصب وزير المالية .

وحيثما وصل إلى لشبونة ، درس الموقف ، وطالب بسيطرته التامة على ميزانية الدولة كشرط لتولية هذا المنصب .

ولكن دا كوستا رفض طلبه . فأجاب البروفسور أنه راض تماماً عن عودته إلى الحياة الأكاديمية في جامعة كوامبرا .

ثم تدهورت الأمور في لشبونة من سوء إلى أسوأ ، وتدهورت العملة ، وطلبت البرتغال قرضاً من عصبة الأمم القديمة، ولكنها رفضت أن تمد يد المساعدة للبرتغال إلا إذا أرسلت مراقباً له سلطات واسعة ليكون في لشبونة ، فكان هذا الاقتراح تحدياً لشرف البرتغال القومي وفي سبيل حل المشكلة تمت دعوة البرفسور سالازار من جديد .

وفي هذا الوقت من عام ١٩٢٨ ، كانت حكومة الثلاثة الثورية قد انهارت ، وأصبح الجنرال كارمونا رئيساً للجمهورية ودكتاتورا ، وقد احتفظ بالرئاسة مدة ثلاث وعشرين سنة حتى وفاته في عام ١٩٥١ ولكن سالازار بتولية منصب وزير المالية في عام ١٩٢٨ . أصبح الشخصية الرئيسية تقريباً في الحكومة .

ولم يكن سالازار رئيساً للوزراء منذ ١٩٠٢ . بلا انقطاع ، بل كان أيضاً وزيراً للمالية من عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٤٠ ، ووزيراً للحربية من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٤٤ ، ووزيراً للخارجية من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٤٧ ، وكان أيضاً وزيراً للمستعمرات بعضاً من الوقت ، وكان يدير كل الإدارات الهامة في الدولة بنفسه . مثل موسوليني .

ونظام الأحزاب - كما هو معروف لنا - غير موجود في البرتغال ولكن المواطنين يقومون المعركة كأفراد ضد مرشحي الاتحاد الوطني ولا توجد معارضة رسمية تحت النظام الدكتاتوري ، ولكن هناك أربعة مصادر مختلفة واضحة على الأقل للسخط السياسي .

وقد كان هناك مظاهرات الطلبة ضد سالا زار في المناسبات ، وكانت هناك محاولة - يرجع تاريخها إلى عام ١٩٣٧ - لاغتياله .

وأول مجموعة معارضة له اليوم تتركز في الحفنة القليلة من أعضاء البرلمان قبل عام ١٩٢٦ التي ما زالت على قيد الحياة ، والذين مازال لهم بعض الاحترام .

والمجموعة الثانية هي بعض العناصر في الجيش ، فقد كان هناك ستة ضباط بين ثلاثة وعشرين شخصاً اتهموا جميعاً بالتآمر لأحداث تمرد مسلح ضد العهد الحاضر في مارس ١٩٥٩ .

وثالثاً : الجماعات اليسارية التي لا يستهان بها ، .

ورابعاً : الحزب الشيوعي ، وهو حزب غير شرعي ، ولكنه منظم تنظيمياً دقيقاً ، وهو منظمة سرية معتدية . مع أنه صغير .

وجاءت في عام ١٩٥٨ مشكلة ديلاجادو المعروفة .

فقد قرر هيرتو سيلفا ديلاجادو الجنرال في القوات الجوية ، والذي كان مديراً للطيران المدني أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية ضد أدميرال توماز مرشح الاتحاد الوطني .

ويجب أن نلاحظ أن ديلجادو لم يرشح نفسه ضد سالازار، بل ضد شخص رئيس الجمهورية الضعيف .

ولم يأخذ أحد المواطنين ترشيح ديلجادو لنفسه مأخذ الجد ، حتى تصرف الجنرال كما لو كانت مباراة عادله سيكون له فيها النصر .
لقد كان هناك « سباق » ، على الرئاسة من قبل ، ولكن ذلك كان فقط من الناحية الشكلية .

وعلاوة على ذلك ، انتقد ديلجادو سالازار علنا ؛ وأعلن اتهامات نارية عن الرشوة والمحسوبية في داخل الحكومة .

وقال إنه إذا تم انتخابه سيطرده سالازار من رئاسة الوزارة .

وكانت المفاجأة أن حصل ديلجادو على نسبة كبيرة من الأصوات وهي ٢٣ر٥٪ في البرتغال الوطن الأم ؛ وحصل على ما يزيد عن ٢٥٪ في المستعمرات فيما وراء البحار عامة ؛ وحصل على ما لا يقل عن ٢٥٪ في المستعمرة البرتغالية الأولى : موزامبيق .

والشيء المحير أكثر من ذلك هو أن ديلجادو (الذي مثل البرتغال مرة في حلف شمال الأطلسي وفي واشنطن) رفض أن يسكت بعد الانتخابات وصمم على أنه هو الفائز ؛ وأن هناك تزويراً في الانتخابات

ويبدو أنه لم يكن هناك شيء يسكت هذا الجنرال الصغير ؛ الحاد الطبع بل لقد بلغ به التهور إلى حد أن دعا أنيورين بيفان زعيم حزب العمال البريطاني ؛ لزيارة لشبونة والقاء سلسلة من المحاضرات .

وكان هذا كثيرا ؛ فقبض على ديلجادو ؛ وبعد أن حوكم أمام مجلس
تأديبي تابع للجيش أحيل إلى التقاعد بثأى مرتب . وعلى أية حال ؛
سمح له أن يستمر في حمل لقب جنرال ؛ وأن يلبس ملابسه العسكرية
في المناسبات .

ولكن ديلجادو رفض أن يتقبل التوبيخ ؛ واختفى في السفارة
البرازيلية في لشبونة طلباً للحماية؛ وقد سبب ذلك أزمة عنيفة في الدوائر
الدبلوماسية البرازيلية .

وأخيراً تم ترحيله من السفارة وأرسل بالطائرة إلى مصحة
في البرازيل نفسها .

وكانت نتيجة هذه الضجة ؛ حدوث تغير في القانون الذي به سيتم
اختيار رؤساء جمهورية البرتغال (كل سبع سنوات) عن طريق لجنة
انتخابية ، بدلا من الانتخاب الشعبي المباشر .

وفي يناير عام ١٩٦١ جاءت مغامرة سانتا ماريا الوهمية . فقد أبحر
« القراصنة » في باخرة الركاب البرتغالية الفاخرة سانتا ماريا (٢٠٩٠٦ طن)
حينما كانت في رحلة بحرية في البحر الكاريبي وعليها ستائة
شخص ، واستولوا عليها في ظروف مؤثرة ، وظل الضابط والبحارة
والمسافرون سجناء لمدة اثني عشر يوما ، بينما كانوا يبحرون في خط
غير منتظم نحو راسيف في البرازيل ، ولم يكن هؤلاء الخارجون على
القانون بالطبع ، قراصنة ولكنهم كانوا متآمرين من نوع جديد ضد
سالازار . وكان زعيمهم الكابتن هنريك مالتا جالفارو . الذي كان

ضابطا وأديبا من الأدباء . وقد كان يتولى منصبا هاما في أنجولا . وكان مقبوضا عليه في لشبونة بسبب نشاطه الثوري ، ولكنه استطاع أن يهرب إلى البرازيل ، وأقام علاقات مع ديلجادو وقد قال وهو فوق سطح الباخرة سانتا ماريا : أنه يعمل تحت قيادة « حركة الاستقلال الوطنية » التي يتزعمها ديلجادو ، والذي شكل « حكومة » في الأراضي البرازيلية كل هدفها قلب حكومة سالازار .

وقد حاولت وحدات الأسطول الأمريكي ، والانجليزى ، والهولندى والدانميركى . وسلاح الطيران والسفن التجارية تتبع خط سير السفينة سانتا ماريا ولكن دون جدوى . وقد طلب الدكتاتور سالازار — وهو مرتبك تماما — من الولايات المتحدة أسر السفينة ، وإنزال قواتها البحرية عليها ، وأن تسلم المتآمرين للسلطات البرتغالية . وقد رفضت الحكومة الأمريكية الجديدة أن تفعل ذلك . وأخيراً استسلم جلفاو وقواته للسلطات البرازيلية . وهنا ، حتى وقت كتابتى هذه ، انتهت القصة . ولكن هذا الفصل من القصة كان له أصداء هامة في البرتغال نفسها بإطلاق المشاعر المكبوتة ضد الدكتاتورية ، ومرت على سالازار أوقات عصيبة لم يعرفها من قبل خلال الثلاثين سنة الماضية .

ومازال الدكتاتور نشيطا وهو في سن الثانية والسبعين بالرغم من أن أيامه قد أصبحت معدودة . وهناك إشاعة تقول أنه ستقاعد في نهاية توماز — عام ١٩٦٥ . وإذا حدث وجاء من سيخلفه بالطرق القانونية ، فإن الذى سيصبح رئيسا للجمهورية سيعين رئيس الوزراء الجديد . وهناك كثيرون من المرشحين لذلك ، فإذا كان من ناحية

السن والتفوذ ، فإن أصلحهم هو دكتور بدور تيتوينو بيريرا ، وهو سفير سابق في كل من الولايات المتحدة الأمريكية ، والمملكة المتحدة وهو الآن وزير شئون رئاسة الجمهورية في حكومة سالازار وهناك شخص آخر هو ماركيلو كايثانو . وقد كان مساعدا لرئيس الوزراء قبل بيريرا ، ومدير جامعة لشبونة ، وقد عمل تحت رئاسة سالازار في وضع تفاصيل الدولة الجديدة أما من ناحية العسكريين ؛ فإن الرجل الذائع الصيت هو الجنرال جوليو بوتيلهو مونز ؛ وزير الدفاع ؛ ورئيس الهيئات العسكرية .

وتلخيصا للوضع نقول : لقد تغيرت البرتغال قليلا في ربع قرن ويبدو أنها تتهافت وأصبحت بعيدة عن الأحداث الجارية بصفة مؤسفة ! .

البرتغال ومستعمراتها

تشمل الامبراطورية البرتغالية فيما وراء البحار منطقتان أفريقيتان شاسعتان ؛ موزامبيق وأنجولا ؛ وتشمل أيضاً بعض المناطق الصغيرة المبعثرة على طول الطريق من الهند البرتغالية (جوا) ؛ إلى تيمور في جنوب غربي المحيط الباسفيكي ، وهناك أيضاً ماكاو هذه المستعمرة الصغيرة القريبة من هونج كونج ومن بين أملاك هذه الامبراطورية أصغر مستعمرة في العالم — حصن القديس يوحنا المعمدان — على الساحل الغربي في أفريقيا وقد احتفظ البرتغاليون بهذا الموقع البعيد

منذ عام ١٦٨٠ ؛ ويتكون شعب هذه المستعمرة من ضابط (المقيم)
وأحد عشر رجلا .

ومن ناحية الواقعية ؛ لا تعتبر المستعمرات البرتغالية « مستعمرات » ،
ولكنها تعتبر أجزاء من البرتغال نفسها فيما وراء البحار : كجزء من
الدولة ؛ مثل لشبونة أو أبروتو وقد منح لهم هذا الوضع في عام ١٩١٥
حينما أعيد تسمية البرتغال نفسها رسميا على أنها دولة « أفرو - أوروبية » ،
فقد رأى البرتغاليون رياح الوطنية تهب في كل مكان ، وأرادوا
أن يتخلصوا من كلمة « المستعمرة » ، الكريهة .

ولكن هذا التغيير الوهمي في الاصطلاحات لم يغير شيئا من واقع
الأمور ؛ فالممتلكات فيما وراء البحار ليست في الواقع إلا مستعمرات ؛
وتقوم وزارة المستعمرات بإدارة موزامبيق ، وأنجولا وبقية
المستعمرات ، وهذه الوزارة مثل كل شيء في البرتغال ؛ يديرها
سالازار . وقد يؤثر حاكم عام قوى على مجريات الأمور إلى حد ما
في منطقته ولكن لشبونة هي المسيطرة على كل شيء وتحكم الأقاليم فيما
وراء البحار ؛ مثلما تحكم البرتغال بالضبط ، وهدف الإدارة البرتغالية
هو أن يستمر حكمها للمستعمرات إلى الأبد . وهناك انتخابات تجري
في الأقاليم ؛ وترسل هذه الأقاليم نوابا عنها إلى لشبونة ، ولكن لا يوجد
أدنى تفكير في السماح للسكان الأفريقيين أن يتقدموا نحو الحرية .
وفكرة الحكم الذاتي محرمة تماما هناك ، والمنظمات السياسية محدودة ،
ويقمع الشعور بالوطنية هناك بقوة .

وقد كان البرتغاليون عرضة للنقد في الأمم المتحدة ، وفي كل مكان بسبب استمرارهم في الأساليب الاستعمارية . وفي نوفمبر عام ١٩٦٠ رفض مجلس الوصاية التابع للأمم المتحدة إدعاء البرتغال أن المناطق أو الأقاليم المستعمرة ، ما هي في الحقيقة إلا أقاليم فيما وراء البحار . وطلبت من الحكومة البرتغالية أن ترسل تقريراً إلى الأمم المتحدة عما يدور في كل مستعمرة . وقد طلبت هذه المعلومات من كل الدول الأعضاء الذين مازال لهم مستعمرات . . . ورفضت ؛ طبعاً ، البرتغال بغضب أن تدعن لهذا الطلب ؛ وكان الغريب في أمر التصويت ضد البرتغال (٥ ؛ مؤيدون للقرار ٦ معارضون ؛ وامتنعت ٢٤ دولة عن التصويت) أن تمتنع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي عن التصويت ؛ مع أن دولاً كثيرة أخرى بما فيها حلفاء البرتغاليين في حلفاء شمال الأطلسي صوتوا ضدها لأسباب مختلفة ؛

أن أنجولا وموزامبيق ؛ التي زرتها حينما كنت أقوم بجمع المعاملات لكتابي ، في داخل أوربا ، أقاليم ساحرة .

والحكم البرتغالي خليط من الطيب والسيئ . هناك ولكن الجانب الأكبر منه سيئ . ويحصل العمال في موزامبيق على أجر يومي يصل في المتوسط إلى ١٢ سنتاً ، وفي كل أنجولا التي يصل سكانها إلى ٢ مليون نسمة ، لا يوجد أكثر من مائة أفريقي يتمتع بالتعليم العالي . وأعمال السخرة ، التي لا يمكن تمييزها عن العبودية ، هي أساس الاقتصاد هناك ، والتعليم قليل وضعيف والعقوبات الجسدية من النوع القاسي هي القاعدة هناك ، والافريقون ليس لهم أي حقوق سياسية من أي

نوع ، ومن ناحية أخرى ليس هناك تميز بسبب اللون في المستعمرات البرتغالية في أضيق نطاق ، ونتيجة لذلك لا يوجد أى نوع من أنواع التوتر العنصرى .

وإنك لتجد لورينسو ماركيز ، المدينة الساحرة الوحيدة والتي هي عاصمة موزامبيق ، هادئة مثل ما تجد جوهانسبرج متوترة، ومعذبة، ومعرضة للانفجار .

ويستطيع أى مواطن زنجى فى أفريقيا البرتغالية ، لحسن الحظ ، أن يصبح ما يطلق عليه اسم المندج ولكى يفعل ذلك ، لابد وأن يستوفى أربعة أو خمسة شروط :

ان يتعلم البرتغالية . وأن يمارس تعاليم الكاثوليكية ، وأن يعيش على الطريقة الاوربية ، وأن يتزوج من أكثر من واحدة ، وأن يكون فى مستوى اقتصادى معين . ويصبح ، بعد أدائه امتحاناً معيناً، مواطناً له حقوق مساوية تقريباً لحقوق البرتغاليين .

معنى ذلك أن الرجل الأسود لا يستطيع أن يصل إلى مكانة الرجل الأبيض بسرعة .

ولكن هناك حوالى ثلاثين ألفاً فقط من المندجين فى أنجولا التى يصل عدد سكانها إلى درء مليون نسمة وحوالى ستة الاف فقط فى موزامبيق التى يصل عدد سكانها إلى ٦٥ مليون نسمة .

وقد عاجل سالازار المشكلة الاستعمارية بكياسة فى أرض الوطن . ويقول المواطنون ان البرتغال فى خطر ، وأن رايها مهددة ،

وأن اسمها العظيم طعن فيه ، وأنهم لا بد وأن يتحدوا حول سالازار ،
قائدهم دفاعا عن سمعتهم .

ولم يعد هناك معارضة حتى في المشاكل الأخرى — على الأقل
في الوقت الحالي . وبعد ذلك في نوفمبر عام ١٩٦٠ ، تظاهر أكثر
من ١٠٠.٠٠٠ من الرجال والنساء في شوارع لشبونة مؤيدين سالازار
ومحتجين على النقد الذي وجه إلى البرتغال في الأمم المتحدة .

ومن ناحية أخرى فإن الشعور الوطني في أفريقيا البرتغالية في ازدياد
مستمر . وقد حدثت بعد حادثة الباخرة سانتا ماريا ، حوادث شغب
دائمة في أنجولا .

نظرة سريعة إلى إسبانيا

في الواقع أن كل شيء هام في إسبانيا اليوم — ما عدا مصارعة
الثيران ، والكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، والمناظر الطبيعية الجميلة
تحت ضوء القمر — يرجع في تاريخه إلى الحرب الأهلية .. وقد ساعد
هذا على إبعاد إسبانيا عن المجرى الأساسي للتطورات الأوروبية لمدة
تقرب من ربع قرن ، وقد أدى ذلك إلى نتائج اقتصادية خطيرة، وكانت
أساس القوة العظيمة التي يتمتع بها الجنرال فرانيسكو فرانكو .

لقد قامت الحرب الأهلية الإسبانية منذ خمس وعشرين سنة .
حينما قامت الجماعات اليمينية لقاب حكومة إسبانيا الدستورية الشرعية .
وقد ظلت هذه الحرب من ١٨ يولييه عام ١٩٣٦ إلى ٣١ مارس عام

١٩٣٩ ، ولكن جراحها لم تلتئم بعد . وكانت ألمانيا وإيطاليا تساند
اليمينيين .

أما حكومة الموالين فكانت تخضع للنفوذ السوفيتي ، وقد فقدت
اسبانيا ما لا يقل عن ٧٠٠.٠٠٠ شخص قتلوا في الحرب ، ودمرت
المدن ، وتحطمت الصناعات ، وعانت الزراعة الكثير . وقد هرب
٢٥٠.٠٠٠ من المواطنين الأسبان إلى فرنسا ، وقد أمضى حوالي ربع
مليون اسباني فترات طويلة أو قصيرة في السجون ومعسكرات الاعتقال ،
وقد أعدم الطرفان ما لا يقل عن ثلاثين ألفا . ونادراً ما حدث
في التاريخ الحديث أن دمرت دولة بهذه الطريقة .

ولا بد أن أسبانيا اليوم تختلف اختلافاً بينا عنها في عام
١٩٣٦ ، لا يسمع لزاثر لها الآن طلقات المدافع في شوارع توليدو
ومدريد .

ولكن من المستحيل ألا نذكر أنه حتى في أيامنا هذه مازال الشعب
الإسباني محروماً حتى من مبادئ الحريات المدنية : الحكم البرلماني
والإساليب الديمقراطية ، وذلك كله نتيجة للحرب الأهلية .

ومن الممكن أن نقول أنه لو لم يكسب فرانكو الحرب ، لأصبحت
اسبانيا اليوم شيوعية ولكانت مأساة أسوأ مما هي عليه الآن . وكان
ومن الممكن ألا يكون فرنكو دكتاتورا ، لولا المساعدة الكبيرة التي
قدمها له هتلر وموسوليني أثناء الحرب الأهلية .

ولحسن الحظ قد انتهى كل من هتلر وموسوليني ، ولكن فرانكو
مازال معنا .

وقد أعلن فرانكو أكثر من مرة ، أثناء الحرب العالمية الثانية ،
أنه « مخلص تماماً ، لدول المحور .. وقال في مناسبة ما « إن حرب ألمانيا
ضد روسيا هي أعظم معركة في التاريخ .. وعبر عن شعوره بالكبرياء
لأن « الدم الأسباني قد سال في سبيل هذا العمل النبيل .. »

وحينما سقطت فرنسا ، قابل هتلر على الحدود الفرنسية وسلم عليه
فرانكو مبتسماً ، ثم كتب إليه بعد ذلك « عزيزي الفوهرر .. إمتنى أقف
مستعداً بجانبك .. وتحت تصرفك تماماً ، متحدين في المصير التاريخي
المشترك .. غير أن فرانكو لم ينضم رسمياً إلى دول المحور .. ومازالت
بعض الدوائر في أوروبا تحقد على أسبانيا بسبب مساندتها لهتلر
وموسوليني وقد أصبحت أسبانيا عضواً في الأمم المتحدة في عام ١٩٥٥
ولكنها لم تصبح بعد عضواً في حلف شمال الأطلسي ، مع أن الولايات
المتحدة — ربما بحماقة — تريد أن تكون ..

والسبب الذي جعل أسبانيا بعيدة عن هذه العضوية ، هو أن
الحكومات الديمقراطية الصغيرة في أوروبا الشمالية ، بين دول أخرى ،
ترفض أن تتقبلها كعضو في حلف شمال الأطلسي .. وأسبانيا تريد
بشغف أن تصبح عضواً في هذا الحلف ، ولكنها لن تقدم طلباً
للعضوية بسبب خوفها من التصويت بعدم قبولها ..

ومن الغريب أن بعض اللاجئين الموالين من أيام الحرب الأهلية
والذين يعيشون في الخارج — في فرنسا مثلاً — يريدون أن يروا

أسبانيا عضواً في حلف شمال الاطلنطي .. ووجهة نظرهم هي أنه ربما يؤدي ذلك في الوقت المناسب إلى تحرر الحكومة الأسبانية .

وقد جاءت الحرب العالمية الثانية بعد الحرب الأهلية مباشرة ، وهذا يعني أن إعادة بناء الاقتصاد الأسباني المنهار قد تأخر بعض الوقت .. وقد تركت أسبانيا لتقف وحدها ، بعناصرها المنعزلة والمشتتة .. وبعد انتصار الحلفاء ثم مقاطعة أسبانيا مقاطعة معنوية .. وقد هوجمت أسبانيا المنبرزة في الأمم المتحدة ؛ ولم تحصل على أية مساعدات من مشروع مارشال . وقد وبخها المحايدون توبيخاً شديداً ، وقد أدانها الاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية التابعة له بقوة .. وحتى اليوم ليس هناك أية علاقات دبلوماسية — أو أية علاقات — بين أسبانيا تحت حكم فرانكو ، والكتلة السوفيتية ..

لأتى أتذكر دهشتي حينما كنت في موسكو عام ١٩٥٦ ، وأردت أن أتصل بصديق لي في برشلونة لأسباب شخصية ، واكتشفت أن هذا مستحيل ، وأنه ليس هناك أية خطوط جوية مباشرة بين الاتحاد السوفيتي وأسبانيا ، وتصل الخطابات عن طريق مركز تبادل في سويسرا .

أما بالنسبة للغرب ، فإن أسبانيا ظلت منعزلة حتى عام ١٩٥٣ ، ثم حدثت واقعة بارزة وهي إقرار الحكومة الأمريكية بناء عدة قواعد عسكرية في أسبانيا وتجهيزها بالرجال والعتاد .. وقد كان هذا ضرورياً بسبب تدهور الموقف السياسي في المغرب حيث فقدت القواعد الأمريكية التي بنيت حديثاً هناك بعضاً من قيمتها ، ولأن القواعد

التي كانت موجودة من ألمانيا ، والبطارية ، إلى أوزوما ..

وقد كانت المفاوضات من أجل الحصول على القواعد الأسبانية — كما قال لي أحد الذين اشتركوا فيها — من أصعب ما قامت به الحكومة الأمريكية في الميدان الخارجى ، وقد حصل فرانكو على من عال لذلك .. وكان من ضمن الاتفاق حصول أسبانيا على مساعدات أمريكية كبيرة — تبتدىء بـ ٦٥ مليون دولار — وقد ارتفع هذا المبلغ بالتدريج .

وقد توطد مركز أمريكا في أسبانيا عن طريق إقامتها لخطوط الأنابيب ، والمحطات البحرية ، واشترائها في الاستثمارات التجارية .. وقد تم مساعدة أسبانيا من الناحية المالية ومن نواح أخرى بمقتضى اتفاق القواعد .. واتهى الحظر المعنوى على أسبانيا ، وتبع ذلك إقامة علاقات أكثر مع الولايات المتحدة وأوروبا .. ومع ذلك فما زالت الدولة تقابل كثيراً من الصعوبات فى الشؤون الدولية .. ولم يزور وزير بريطانى أسبانيا رسمياً حتى عام ١٩٥٩ ولم يحدث ذلك إلا فى عام ١٩٦٠ ، وبعد فترة قطيعة طويلة تصل إلى حوالى ٢٧ سنة زار وزير خارجية أسبانيا الحكومة البريطانية رسمياً .

وأسبانيا التى يبلغ عدد سكانها حوالى ثلاثين مليوناً ومساحتها تبلغ قدر مساحة كاليفورنيا مرتين ، ليس بها نفس الرخاء الموجود فى ألمانيا الغربية وفرنسا ، وذلك لأنه يعوزها الكثير من الموارد الاقتصادية الرئيسية . ودخل الفرد السنوى منخفض جداً حوالى ٢٦٥ دولار سنوياً .

والسكك الحديدية هى أسوأ سكك حديد فى أوروبا كلها . والاقتصاد

في حالة ركود تام في بعض المناطق ، ولقد عانت الزراعة ، التي هي عصب القدرة الإنتاجية للدولة الكثير ، ولا تصل الخدمات الاجتماعية إلى المستوى التي هي عليه في بقية دول غرب أوروبا . وهناك حوالي ٢٠٠.٠٠٠ عاطل ، وقد عانى العمال أخيراً من تخفيض أجورهم . ومن ناحية أخرى كان هناك تحسينات ملحوظة في الناحية المالية . فقد ابتدئ في عام ١٩٥٩ برنامج للاستمرار الذي يتضمن تخفيض سعر البستا ، وبذلك تم القضاء على التضخم ، وأصبحت أسبانيا أيضاً عضواً في منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبية ، وحصلت على قروض كبيرة من بنك الاستيراد والتصدير .

ويعتبر جنرال فرانيسكو فرانكو ، كما كتبت في عام ١٩٢٦ بعد اندلاع الحرب الأهلية بأسابيع قليلة ، مثالا بارزاً للصدف التاريخية . فلا جدال في أن حياة فرانكو كانت رائعة ، وكان من الممكن أن يصبح رئيساً للدولة في وقت المناسب . ولكن الذي دفعه إلى مكان الصدارة هو أولاً : اغتيال كالفوسوتيلو في يولية عام ١٩٣٦ ، ثم حادثة سقوط الطائرة ، الذي قتل فيه الجنرال جوس سانجويرجو ، بعد اندلاع الحرب الأهلية بثلاثة أيام ، وقد كان كالفوسوتيلو ، الذي كان وزيراً سابقاً للبالية ، الزعيم السياسي للشواراليمينيين ، وكان سانجويرجو القائد العسكري . وعندئذ ، وقف فرانكو ، حاكم جزر كاناري ، على قدميه ، واتخذ خطوة حازمة بطيرانه إلى مراكش ، واستطاع بمساعدة الطائرات الإيطالية أن ينقل الفرقة الأجنبية والقوات المراكشية إلى أسبانيا . وأصبح رئيساً للدولة بعد ذلك بشهور قليلة .

ولد الجنرال فرانكو في ٤ ديسمبر عام ١٨٩٢ ، وهو من عائلة متوسطة ، والتحق بالجيش ، ورتقى سريعاً فقد كان كابتن وهو في سن العشرين . وماجور في سن الثالثة والعشرون ، ثم أصبح برجدير جنرال وهو في الثانية والثلاثين ، وكان أصغر برجدير جنرال في أوروبا كلها . ويمثله في سرعة ترقيته هذه الجنرال دوجلاس ماكارثر . والجنرال فرانكو القصير القوام رجل متحزلق ومستواه الفكري محدود .

وكان يطلق على فرانكو في أوائل حياته اسم « الجنرال الطفل » ، طفل أو غير طفل ، فرانكو الآن أكثر دكتاتورية واستبداداً في إسبانيا من خروشوف في روسيا ، فهو رئيس الدولة مدى الحياة ، وزعيم الامبراطورية ، والقائد العام للقوات المسلحة ، ورئيس الوزارة وحامي الكنيسة ، ورئيس حزب الفلانج ، الحزب السياسى الوحيد في اسبانيا ، وله حق الاعتراض الكامل على أى تشريع يقدمه البرلمان وعلى عكس خروشوف لا يتمتع بعقل ذا تفكير سليم .

والقوة الرئيسية التى تقف وراء فرانكو هى الجيش ، والكنيسة وطبقات الملاك ، والطريقة الآلية الرئيسية ، لممارسة السلطة - فى النواحي المدنية - هى حزب الفلانج ، وهذا الحزب لم يؤلفه فرانكو ولكن أسسه جوزى أنطونيو بريمو دى ريفرا فى عام ١٩٢٣ ويشمل هذا الحزب عناصر وطنية . وملكية ، وطائفية ، وفاشية ، ونقابية . ولكن هذا الحزب أصبح اليوم لإطاراً للبيروقراطية الحاكمة فقط ،

أما بالنسبة للكنيسة . فان المرء يستطيع أن يقرر بأن حكومة

فرانكو . والكنيسة الكاثوليكية الرومانية وحدة متشابكة غير مجزأة ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً . فمن الوجهة النظرية تعتبر الدولة والكنيسة واحدة . ولكن هناك عدد كبير من البابوات البارزين حتى ولو لم يتجرأوا على إعلان عدوانهم جهاراً . لا يقدمون لعهد فرانكو سوى تأييدهم الظاهري . وذلك لأن معظمهم من أنصار الملكية المخلصين ،

وقد كان الكردينال بيدرسيجورا . رئيس أساقفة اسبانيا الراحل من أعداء عهد فرانكو . أما المساندة الرئيسية للدكتاتور فإنها تأتي من النجاح الرجعي في الكنيسة وليس الفاتيكان على علاقات حسنة مع اسبانيا حتى الآن ، وكانت الكنيسة دائماً كما هو معروف للجميع . تتمتع بامتيازات خاصة وعظيمة في اسبانيا . فلم تلغى محاكم التفتيش إلا في عام ١٩٢١ . وكان الكفر جريمة حتى قيام الجبهة الشعبية بالثورة وما زالت السلطات الكنيسية . والمنظمات الدينية مثل الجزويت . هي وازعة يدها على الأراضي . وملكية المناجم . والصناعات . وعمليات الشحن . ووسائل المواصلات . تتمتع بقوة اقتصادية ملحوظة ، ونفوذ الكنيسة على التعليم نفوذ مطلق . وتدرس التعاليم الكاثوليكية إجبارياً حتى في مدارس الدولة وهناك ما لا يزيد عن ٢٥٠.٠٠٠ بروتستانتي (٩٩.٩٨ ٪ من اسبانيا كاثوليك رومانين) ونشاطهم محدود جداً وقد سمح للبروتستانت أن يتعبدوا في كنائسهم (حوالي ١٨٠ كنيسة في كل اسبانيا) ولكن الأسبان ينظرون إلى البروتستانتية نفسها على أنها شر ، وليس مسموح للبروتستانت أن يطبعوا أو يستوردوا

الأناجيل . أو يشغلوا مناصب القوات المسلحة . أو أن يتولوا رئاسة تحرير الجرائد . أو أن يلتحقوا بالوظائف العامة أو أن يفتحوا مدارس خاصة بهم .

ودكتاتورية فرانكو هي المسيطرة على الحكم . ولكن هناك كثير من السخط الظاهر مع أن الحكومة تقوم بقمع كل حركة للمعارضة بقسوة والغريب في الموضوع أن كثيرا من المعارضة موجود داخل حزب الفلانج نفسه ، ذلك أن كثيرا من أعضاء هذا الحزب يعتبرون فرانكو خائناً لمبادئ بريمو دي ديفيرا الأساسية .

وهناك أيمناً الجيل الجديد من الشباب ، الذي كبر منذ الحرب الأهلية وأصبح الآن في سن الالتحاق بالجامعة فانهم يشعرون بالاختناق من الشعور النفاذ بالتعب والاجهاد - إن لم يكن قلق حقيقى - الذى أصبح يتزايد سنة بعد أخرى ، وحتى وإن كان غير مركز تماماً . فما زالت الرقابة شديدة على الصحافة والاذاعة ، ولكن من المستحيل أن تمنع المواطنين من أن يتشبعوا ببعض تيارات الفكر الموجودة في بقية دول أوروبا . أو أن يسمعوا أحاديث الشعوب ، والمعارضة السياسية تبدأ من الكاثوليكين أنصار الملكية وهم يمينيون متطرفون ، وتنتهى عند الحزب الشيوعى - غير شرعى وسرى طبعاً - وبعض ما تبقى من الفوضويين ، وهناك جماعة من الكاثوليكية وهى المنظمة الخاصة التى يطلقون عليها اسم أويس دى . ومنظمة أخرى يتزعمها جوز ، ماريا جل روبلز وهو شخصية هامة قبل الحرب الأهلية . وهم الدييمقراطيون المسيحيون . ثم هناك بعض الأحزاب الضعيفة ، فاذا ما أخذنا

في الاعتبار شدة قسوة الدكتاتورية . لوجدنا أن قوة الاثارة السياسية التي نجحت تدعو إلى الدهشة . في الواقع هناك ٨٠ أو ٩٠ ٪ من الشعب يعارض فرانكو . ولكن ليس لديهم الوسائل الكافية لإبعاده وعلى أية حال فكثيرا ما تحدث اضرابات غير مشروعة في بعض المناسبات . مع أن الاضرابات ممنوعة منعاً باتاً . وكل برهة تصدر البيانات بالقبض على بعض المواطنين لقيامهم بنشاط تخريبي مع تقديمهم للمحاكمة أمام المحاكم العسكرية . وإذا ما قيدت أسبانيا بالبرتغال نجد أن العقاب أكثر وحشية في أسبانيا منه في البرتغال . وبالاختصار ليست اسبانيا بالدولة السليمة . حيث يخلق دكتاتور من أبشع الدكتاتوريين أنفاس بلد رائع وشعب عظيم ، وليس مركز فرانكو بالمركز المريح وربما لا تتقدم الدولة وتنهض وهو على قيد الحياة .. ولكنه رجل يعيش فوق غطاء قديم .

الخلافة

وهذه قضية حية ، حتى مع ان فرانكو يحافظ على صحته جيداً ، وهو في صحة جيدة مع أنه في الثامنة والستين ، ويجب فرانكو أن يفاخر بأن أباه توفي في التسعين من عمره ، ومشكلة الخلافة تدور حول الملكية . وهناك مرشحان رئيسيان - والد وابنه . والوالد هو دون جوان من آل بربون ، كونت برشلونه ، وهو يعيش في المنفى في البرتغال ، ويبلغ من العمر السابعة والاربعين . وقد كان الابن الثاني لملك أسبانيا السابق ، الفونس الثالث عشر الذي هرب من اسبانيا عام ١٩٣١ ؛

وابن دون جوان الامير جوان كارلوس دى بربون ويبلغ من العمر الثانية والعشرين؛ هو الثانى فى التريب . وليست اسبانيا فى الواقع مملكة ولكنها دولة ذات عرش (فارغ) . وهذا يعنى أن الميدان مفتوح ؛ نظريا ؛ وأن لفرانكو فقط السلطة فى الاختيار ؛ ويعتقد العليمون ببواطن الامور ، أنه يفكر فى إغفال الأب ؛ ويعطى الخلافة للأمير جوان كارلوس ؛ ولكن هذا ليس مؤكداً ؛ وقد صدر قانون بعد إعلان بيان بشأن الملكية فى عام ١٩٤٧ لا يسمح لأى شخص أن يعتلى العرش قبل أن يصل إلى سن الثلاثين ، ومعنى هذا أن على الأمير . وان كارلوس أن ينتظر ثمان سنوات أخرى . وقد كانت هناك معارك حامية بين فرانكو ووالد الأمير حول تعليمه . فكان دون جوان يفضل أن يعيش ابنه فى الحرية النسبية الموجودة فى البرتغال ولكن فرانكو كان يريد فى اسبانيا ؛ والأب والابن لا يتنافسان أبداً ؛ فوجهة نظر الابن أن أباه هو الملك ، والاب لا يريد أن يقف فى طريق الأمير جوان .

وفرانكو له الحق أن يظل رئيساً للدولة مدى الحياة . ولكنه أيضاً يستطيع أن يتقاعد فى أى وقت . وإذا لم يفعل ذلك ، ولم يختار خليفة له قبل أن يموت ، فإن السلطة تعطى لمجلس المملكة ، الذى يتكون من رئيس البرلمان ، ورئيس الاساقفة ، والقائد العام للقوات المسلحة ، ليختار حاكماً أى اسباني يجرى فى عروقه دم ملكى ، ، ويعتقد كثير من أفراد الشعب أن دون جوان ، وهو نصف انجليزى ، وأباه جوان كارلوس « نيلان » و « أوربيان » ، وهناك مرشح آخر هو

الامير اكسافير من آل بوروبون — بارم ولكن فرصته ليست كبيرة على أية حال . لا يهمننا من الذى سيتولى العرش ، فما زال هناك سؤال كبير . من الذى سيحكم بعد خروج فرانكو أو موته ؟ . إن الجميع يخمنون بأن الجيش هو الذى سيحكم .

١١ - ماذا يحدث فى إيطاليا ؟

الموقف السياسى فى إيطاليا اليوم — الذى يبدو أنه معقد جداً — يمكن أن نصفه بسهولة ، ذلك أنه ليس هناك أى حزب كبير بما فيه الكفاية ليحصل على أغلبية كبيرة فى مجلس النواب ولذلك فإن الحكومة كما هى الحال الآن ، لا بد أن تؤلف عن طريق ائتلاف . والسياسة مسألة حساية بسيطة ، كيف تحسب الاغلبية ، وكثيراً ما يجمع الائتلاف الناتج بطبقة صغيرة من الاسمنت ، يمكن شرحها بسهولة ، وكثيراً ما تحدث الأزمة تلو الأزمة ، وكقاعدة عامة ، فإن عمر الحكومات قصير مع أنه ليس بالقصر الذى كان يحدث لحكومات فرنسا قبل عهد ديغول .

وأكبر الاحزاب ، وهو الذى يقف فى الوسط تقريباً ، هو الحزب الديمقراطى المسيحى وهذا الحزب ، وهو حزب الكنيسة ، يسيطر على الفاتيكان . ومع ذلك فإن الحزب الديمقراطى المسيحى ليس بالجماعة المتجانسة .. فالحزب يتكون من جناح يمينى والوسط ، وجناح يسارى ويسيطر الحزب الديمقراطى المسيحى ، فى الوقت الحالى ، على ٢٧٣ عضواً من ٥٩٦ عضواً من أعضاء البرلمان ، وهذا يعنى أنه يقل عن

الاجلبية بمقدار ثلاثين صوتاً ، ولكي يستطيع أن يتولى الحكم لا بد أن يلتقط ثلاثين صوتاً أكثر - بأي طريقة ومع ذلك فهو ليس متأكداً دائماً من أعضائه - فهناك على الأقل مائة من ٢٧٢ عضواً التابعين له في الجناح اليسارى ، مع أنهم موالون للفاشيكان .

ويحق لنا أن نسأل كيف يكون أعضاء حزب الفاشيكان يساريين وكاثوليكين في نفس الوقت ؟ كيف يكون زعيم سياسى ايطالى رجل كنيسة ، ورجلا يساريا في نفس الوقت مثل السنيور جورنش رئيس الجمهورية ؟ والإجابة هي ان ايطاليا مازالت أمة فقيرة أساسا (بصرف النظر عن بشائر الرخاء الظاهرة الآن) ؛ فعلى السياسى إذا أراد أن ينجح أن يحاول عمل أى شىء للشعب أويظهريه بذلك ؛ ومن الطبيعى أن يرغب الوطنيون الكاثوليكون الايطاليون أن يثبتوا اهتمامهم بالاصلاح الذى سيرفع من دخل الفقير ؛ مثل اهتمام الشيوعيين والاشتراكيين ، والموقف يشبه بالتمريب موقف حركة الجمهوريين الشعبين في فرنسا ، والغريب أن كثيراً من الشيوعيين الإيطاليين كاثوليكون . وسنتكلم عن هذا فيما بعد .

ويستمر جنتر في حديثه قائلاً . إنه إذا تأرجح الديمقراطيون المسيحيون كثيراً إلى اليمين ، فإن هناك خطراً في أن ينتمدوا الجناح اليسارى ، والعكس أيضاً صحيح ، ومع ذلك ، وبصرف النظر عن الانشقاقات الكبيرة في الحزب ، فإن على الاشتراكيين المسيحيين أن يتجددوا ويتناسكوا ؛ لأنهم إن لم يفعلوا ذلك وظلوا منشقين ، فسيكون الحزب الشيوعى هو الفائز ، وهذه فكرة مفزعة .. فإذا ما أراد

الحزب الديمقراطي المسيحي أن يحصل على الأغلبية .. فإلى أين يتجه للحصول على هذه الأصوات المطلوبة ؟ .. لقد اتجهوا نحو الحزب الناشي الجديد ، وهو جماعة يمينية متطرفة في أبريل عام ١٩٦٠ ، بعد الأزمة التي استمرت ثلاثة وستين يوماً ظلت إيطاليا خلالها بدون أية حكومة . ولكن رئيس الوزراء فيرناندو تامبروني ، الديمقراطي المسيحي ، الذي نظم هذه الترتيبات ، لم يعمر أكثر من شهر قليلة . وكان هذا هو الوضع ، وذلك لأن اليساريين لا يتقبلون وجود الفاشيين الجدد في الحكومة .

ولقد حدث الكثير من أعمال الشغب الناسية . وحينما سقط تامبروني في يولية من عام ١٩٦٠ ، اتجه الديمقراطيون المسيحيون بيأس إلى ثلاثة أحزاب صغيرة في الوسط .. الجناح اليميني من الحزب الاشتراكي الذي يتزعمه جيوسيب ساراجات والاحرار .. والجمهوريين .. واختاروا أمينتوري فانفاني ، وهو من الجناح اليساري المعتدل ، رئيساً للوزراء ، ولا يستطيع أحد أن يتكهن بالمدة التي سيقضها فانفاني ، ذلك لأن هذا الائتلاف يعتبر أغرب ائتلاف عرفته إيطاليا فما لا شك فيه أن الحزب الديمقراطي المسيحي تابع للفاتيكاني ، أما الجناح اليميني من الحزب الاشتراكي ، والاحرار ، والجمهوريون (الذين يتزعمهم راندولف بكياردى وزير الدفاع السابق الذي حارب مع الموالين في أسبانيا) فهم ضد رجال الدين تماماً ..

ومبدأ الوقوف ضد رجال الدين مبدأ محترم تماماً في إيطاليا ، خاصة في الدوائر العليا ، وقد كان مجلس السافوى نفسه ضد رجال

الدين ، فالجميع يعرفون قصة ريزور جيمنتو ، ذلك أن الذين وحدوا إيطاليا ، وأقاموا دولة هم رجال مثل كانور ، ومازيني . . وغاريبا لدى الذين حاربوا البابوات ؛ وحرروا الولايات البابوية وأقاموا على العرش أسرة مالكة جديدة ، وقد انتهى اليوم مجلس الساقوى ، ولكن الاتجاه المعادى لرجال الدين ما زال باقيا .

أما عن يسار الحزب الديمقراطي المسيحى فهناك الشيوعيون (١٤٠ مقعداً) والجناح اليسارى من الاشتراكيين (٨٨ مقعداً) الذى يتزعمه بيتر نيني ، أحد الزعماء الإيطاليين البارزين الجدد . . ويقوم نيني والشيوعيون بالعمل سويا فى معظم الأمور . فقد عارض نيني مثلاً انضمام إيطاليا إلى عضوية حلف شمال الأطلسى وأثنى جهاراً على حوادث الشعب التى قام بها الشيوعيون ، والتى ساعدت على قلب حكومة تامبروني . وبالرغم من ذلك فإن كل هم السياسة الإيطالية هو لإحداث شقاق بين نيني والشيوعيين ، وبذلك يتم دخول كتلة نيني من النواب فى تحالف مع الحزب الديمقراطى المسيحى . ويوافق الرئيس جرونش خاصة على هذه العملية ؛ ويعمل بلا هوادة على تحقيقها لأنها الحلم الذى يحلم به ، بيد أن هناك عمتبتين كبيرتين :

الأولى — أن الفاتى كان يعارض هذه الفكرة بقوة على أساس أن ذلك « سيعلى من قدر ، نيني ، وسيؤدى إلى ازدياد نفوذ اليساريين كثيراً .

الثانية — أن نيني نفسه لا يريد أن يكسبه أحد ، لأنه إذا فقد تحالفه مع الشيوعيين فسيخفق مصدر قوته الأساسى .

وعلينا أن ندرس الآن شخصية سنيور جرونش ، الذي يلعب دوراً كبيراً في هذه التطورات .

صورة لرئيس الجمهورية

إن جيوفاني جرونش رجل يثير الإهتمام ، مع أنه غير معروف للكثيرين خارج إيطاليا . وما يثير دهشتنا أن نجده يجلس حيث جلس موسوليني يوماً ما ، وأنه رئيس الدولة الإيطالية . . . وقد وصفت موسوليني في « داخل أوروبا » بأنه « عنيف متأنق . . . » وأنه خايط هائل من الغدر والخطرة ، وأنه رجل عبقرى في التاريخ الحديث ، ولكن جرونش ليس محباً للظهور ولا عنيفاً ولا متأنقاً ، ربما شابه شخصية من شخصيات بلزاك ، فهو ريفي ، يقط ، وبخيل إلى حد ما . . . وقد كان موسوليني قوياً فشطاً ولكنه كان أجوف ، أما جرونش فرجل متين ولكن لا لون له . ودعنا نتذكر أن جرونش كان وكيلًا للوزارة في حكومة موسوليني الأولى عام ١٩٢٢ ، ولكن أين موسوليني الآن ؟ لقد عاش العصفور (جرونش) ليتربع على عرش الطاووس (موسوليني) .

إن جرونش في الثالثة والسبعين ، ولكنه يبدو أصغر من سنه . . . وقد ولد في بونتيدرا ، وهي قرية صغيرة بالقرب من فلورنسا في ١٠ من سبتمبر عام ١٨٨٧ . وهو يحافظ على نفسه تماماً ، وما زال مغرماً بنعيم الحياة ، مليئاً بالحياة . وقد كان أبوه قصاباً (وكان أبو موسوليني

حدادا) وقد كبر وترعرع في جو من الفقر المدقع (كما كان الدوتش أيضاً) . وكان دائماً كاثوليكيًا متدينًا . ثم اهتم بالسياسة بعد ذلك في أيامه الأولى لأنه — كما يقول — لم يكن فقط نصيرًا للفقراء ، بل كان أيضاً من المقراء . وكان يتفهم موقفا يساريا ، وأثبت بسرعة أنه متيقظ تمامًا للمناورات السياسية . وكان جرونش دائماً يعمل من وراء الستار . . إنه رجل الدهاليز وليس رجل الشرفة .

وقد أفصح جيوفاني جرونش في أن يشق طريقه في جامعة بيزا ، وكان يعمل نفسه بالعمل في هيئة تحرير إحدى الجرائد وقد بدأ حياته مدرساً للعلوم الإنسانية ، وانضم إلى حزب الشعب وهو حزب الإصلاح الكاثوليكي الذي أسسه دون ليجي سترزو ، الرئيس الصقلي المشهور ، ثم دخل جيوفاني البرلمان بعد ذلك بقليل . ثم ولاءه موسوليني منصب وكيل وزارة الصناعة ، بعد الزحف على روما مباشرة (عام ١٩٢٢) . وعلى أية حال لم يكن جيوفاني فاشيا أو عضواً في الحزب الفاشي . وقد استقال في السنة التالية من منصبه ، احتجاجاً على فظائع النظام الفاشي وانسحب كلية من الحياة العامة حوالي عشرين سنة .

أرغم جيوفاني على ترك منصبه كعضو في هيئة تدريس جامعة بيزا ، ولم يزججه الفاشيون أكثر من ذلك . ثم دخل ميدان العمل الحر ، فعمل بائعاً لشركة وينيش وطلاء ، وأثرى من ذلك .. ثم عادت الحياة ثانية بدخول الحلفاء إيطاليا عام ١٩٤٣ ، وحينئذ أرسل إليه السيد / دي جاسبير أحد مساعديه قبل الحكم النازي ، وهو زعيم

كاثوليكي داهية ، استطاع أن ينجو من العهد الفاشي باختفائه داخل كنيسة الفاتيكان ، وقد أصبح جيوفاني وزير الصناعة بعد ذلك بقليل .

وما أن جاء عام ١٩٤٦ حتى كان جيوفاني من أكبر أعوان دي جاسير ، وأصبح زعيماً للجناح اليساري في الحزب الديمقراطي المسيحي الذي برز من داخل حزب الشعب ، وقد أصبح في عام ١٩٤٨ رئيساً لمجلس النواب وتم انتخابه رئيساً لمجلس الجمهورية في ٢٩ أبريل عام ١٩٥٥ لمدة سبع سنوات . وقد كان مرشحاً مناسباً ، لأن الحزب الديمقراطي المسيحي كان يريد رجلاً يسارياً إلى المدى الذي يستطيع به أن يكسب أصوات الشيوعيين والاشتراكيين . وفي الحقيقة كان جرونش مؤيداً من الشيوعيين ومن الاشتراكيين أتباع نين لأنهم لم يكونوا يريدون رجلاً رجعيّاً .

وبذلك كان سنيور جرونش هو أول كاثوليكي متدين تولى رئاسة لدولة في تاريخ إيطاليا كاه . وقد انبثت الملكية في إيطاليا بعد الحرب بوقت قصير ، وكان الرئيسان السابقان لجرونش في الرئاسة - - انريكو دي نيولا رئيس الدولة المؤقت من عام ١٩٤٦ إلى ١٩٤٨ ولوجي اناردى رئيس الجمهورية في الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٥ كانا معادين لرجال الدين .

وقد تبادلت حديثاً ممتعاً مع السنيور جرونش في ممره الرسمي بتصر كوبريتال الذي كان متراً للبابوات ومجلس سافوي (ولكن ليس في نفس الوقت) ، وهو قصر في منتهى الروعة والبهاء ، وقد

قابله في غرفة ذهبية ، بشعره الأشيب وعينه الزرقاوين ، وكان يلبس حلة ومادية ورباط عنق رمادي اللون ايضاً ، وصندله الأسود . وهو لا يقوم إلا نادراً بمقابلات شخصية . ولم يتسم إلا مرة واحدة خلال ساعة ، ذلك حينما سأله عن الأسباب التي جعلته سياسياً ؟ . . فأجاب قائلاً ؛ بأن السياسة شيء يجري في دم الايطالي وهو في سن مبكرة ولا يتركه أبداً . وسأله كيف تغيرت إيطاليا منذ الحرب ؟ فأعرب عن شعوره بأن للاجابة شقين .

الاول هو - ظهور حزب مسيحي ملهم ليحل محل الفاشية ، وفظائع الحرب .

وثانياً - أصبحت إيطاليا - بملايينها الخمسين - عضواً في التحالف الاطلنطي ونداً للولايات المتحدة ، وأصبحت أيضاً عضواً عاملاً في حلف شمال الاطلنطي . (وقد أسرع إلى الإشارة بأنه ليس من الغريب أن تكون إيطاليا شريكا للغرب الديمقراطي ، فعلى أية حال ، حاربت إيطاليا مع الحلفاء في الحرب العالمية الأولى) .

وقد زار سنيور جرونش أمريكا في أوائل أيام رياسته ، ثم ذهب إلى الاتحاد السوفيتي في فبراير عام ١٩٦٠ ، وهذا شيء غير عادي أن يحدث من رئيس للدولة الايطالي ، وقد كان هناك منظر حيوي هو الذي أبرز الزيارة كلها ؛ فقد استدار السيد خروشوف في حفل الاستقبال الذي أقامه السفير الايطالية في موسكو تكريماً للرئيس جرونش ووزير خارجيته في ذلك الوقت جيوسي بيللا ، وتحدث أمام خمسمائة من الضيوف واقترح بطريقة مبتذلة أن يصبح سنيور جرونش شيوعياً .

ققد قال خروشوف : « إن زامنا هو أحسن نظام ديمقراطى فى كل الأنظمة الديمقراطية الموجودة ، فى ظل النظام الرأسمالى يعتبر الرجل الذى يملك دولارات أكثر هو الأ أكثر ذكاء ، أما فى ظل النظام الاشتراكى ، فان الرجل الذكى هو الرجل الذى يتمتع بذكاء أكثر .. فكر فى ذلك ثانية وسوف تصبح شيوعياً .. لابد وأن تفكر فى ذلك - سواء أردت أن تظل رئيساً للجمهورية منتظماً إلى الحزب الديمقراطى المسيحى أو انقلبى شيوعياً - وعلى أية حال ، فهما يكن قرارك فلن يقلل ذلك من احترامى لك .. ويجب أن نتطلع إلى السلام والصداقة بين شعبينا وانهى تبادل الانتخاب ، فاسندار السيد خروشوف نحو سنيور بيللا قائلاً : « لقد طلبت من الرئيس أن يصبح شيوعياً واكفى أفكر أن تكون أنت أيضاً شيوعياً .

وعندئذ حدثت هذه المحادثة ذات الأهمية .

سنيور بيللا - إنه لمن الصعب على الرئيس أن يتقبل اقتراحك .

السيد خروشوف : ولكننى دائماً أقترح الأمور الصعبة ، وعلى أية حال ، أنا لا أحب الاقتراحات ، إنما أنا أدعوكم ، فأنا أريد صالح الحكم سنيور جرونشى : إننى أريد أن أتقدم للرئيس خروشوف برغبة طيبة فى أن تمسه رحمة الله يوماً ما فيدخل الحزب الديمقراطى المسيحى السيد خروشوف : اتنى أنتمى إلى الحزب الذى يوفر للشعب أكبر نسبة من الرخاء ، فإذا فعلتم ذلك فإتنى أتقبل دعوتكم .

سنيور جرونشي : اتنى اعتمد على ذلك .

السيد خروشوف : ولكن أخبرني أولاً : منذ متى وجد الحزب
الديمقراطي المسيحي في إيطاليا ؟

سنيور جرونشي : إنه لم يوجد منذ وقت طويل كالحزب الشيوعي
السيد خروشوف : دعنا نعقد مقابلة ، ماذا أعطى الحزب
الديمقراطي المسيحي لإيطاليا ؟ هل رفع رمزكم ورايتكم فوق القمر ؟ !
سنيور جرونشي : حينما تمتلك المال تستطيع أن تشتري أى شيء
مهما كان غالياً . وبذلك فلا وجه للمقابلة .

السيد خروشوف : إننا لا نبيع عتائنا إلا إذا كانت جيدة
فالعائد ليست وجبة من « السلامة » ، والايطاليون قوم ذوو طباع
حادة ، ويعتبرون الإشارة إلى « السلامة » من أفسد الأذواق .

والثقافة الايطالية تفرض في رؤساء الجمهوريات سموهم عن
السياسة - فهم رؤساء صوريون - ولكن جرونشي لم يبق بالاً لهذا
الرأي ، فهو دائم النشاط في مناورات السياسة .. وكما ذكرنا من قبل
أن أمنية العزلة هي أن يباعد بين الاشتراكيين أنصار نيني (الجناح
اليساري) وبين المعسكر الشيوعي ويربطهم بالديمقراطيين المسيحيين .

ماذا تبقى من الحزب الفاشي ؟

لم يتبق إلا القليل ..

وعلى أية حال فهناك حزب فاشي جديد يسيطر على ٥٪ من مجموع الأصوات وله أربعة وعشرون نائباً في البرلمان الحالي ويستطيع أن يسبب مضايقات صغيرة في المناسبات ، وفي الواقع يمنع القانون أن تكون « فاشياً » ، ولذلك فقد أطلق الحزب على نفسه اسم الحركة الاشتراكية الإيطالية ويترأسه اجستو دي مارسانش الذي كان موظفاً في حكومة موسوليني . وقد اشترك هذا الحزب كما اشرت الى ذلك من قبل في ائتلاف تامبروني التمهيد .

وما زالت دونا راشيل موسوليني — وقد بلغت السبعين — على قيد الحياة . وأيضاً أولادها الأربعة من الدكتاتور الراحل — أيدا ، أرملة الكونت كيانو ، الذي أمر حماه (موسليني) بإعدامه في المراحل الأخيرة من الحرب . وفيتوريو الذي يعيش في الأرجنتين ورومانو وعمره الآن اثنان وثلاثون عاماً ، وهو رئيس فرقة جاز موسيقية وأنا ماريا ، الابنة الصغرى .. وقد تزوجت أنا ماريا في يونية عام ١٩٦٠ ، من ناندي بوكي وهو مهرج يعمل في ناد ليلى ، وقد حضر الحفل معظم أقاربها وكذلك زعماء الحزب الفاشي الجديد . وقد أرسل البابا يوحنا الثالث عشر برقية تهنئة إلى العروسين ، ولكن الأمر لم يسبب كثيراً من الحماس . ويعلم الإيطاليون الذين عاصروا الحرب العالمية الثانية أن

عائله موسولينى لاتستعيد ذكريات جميلة ، وحتى الدوتشى نفسه تناسوه
بعدم اكتراث .

وقد سمعت رئيس تحرير جريدة مشهور يقول : « ايسـت جريمة
موسولينى فى أنه كتم الحريات، ولكن جريمته أنه لم يعمل شيئاً يستحق
الذكر حينما كانت السلطة بين يديه . . كان يستطيع أن يحل المشكلة
الزراعية، ويسترجع الجنوب ، ولكنه بدلا من ذلك سيطر عليه هتلر ،
وأحلام حمقاء فى تأسيس امبراطورية ، لقد كان تشرشل على حق حينما
انبه « بالأداة .

وليس هناك أى دليل على أن دولة الاتحادات التى ابتدعها موسولينى
ما زالت قائمة ، ولكن ما زال هناك قليل من القوانين الفاشية المتنوعة
موجودة فى الكتب . وهناك تناقض هام يستحق الذكر . ذلك أن
الرجال الذين كانوا يديرون نظام الحكم الفاشى . أتموا تعليمهم تحت ظل
النظام الديمقراطى الذى كان يسبقه ، والآن فإن معظم الرسميين الذين
يعملون فى تطبيق الديمقراطية فى إيطاليا . تلقوا تعليمهم فى ظل النظام
الفاشى ، ولكن ليس هناك من يريد أن يرى دكتاتوراً جديداً .

وهناك فى إيطاليا أيضاً حزب ملكى ، يكرس جهوده للدفاع عن
مطالب الملك امبرتو الثانى . الذى عاش الخمس عشرة سنة الماضية فى
منفى فى البرتغال . وما لاشك فيه أن هناك عدداً كبيراً من الإيطاليين
من أنصار الملكية وخاصة فى صقلية . وفى الجنوب . . ويسيطر هذا

الحزب على ستة مقاعد في مجلس الشيوخ (من ٢٥٠ مقعداً) . وعشرين مقعداً في مجلس النواب . ولكن ليس له أى تأثير مباشر .

ومن الناحية العملية انتهى مجلس الساقوى تماماً . وهناك نقطة هامة وهي أنه إذا استرد الملك امبرتو العرش في ظروف لا نستطيع أن نتكهن بها . فإن أول عمل سيقوم به هو أن يتنصل من كل المظاهر المبالغ فيها التي يقوم بها أتباعه . وسيحكم حكماً يقترب من النظام الجمهورى . ولكن الفرصة التي أمامه ليصبح سيد إيطاليا تماماً مثل الفرصة التي أمام زازا جابور لأن تصبح ملكة انجلترا .

بعض الجماعات ذات النفوذ

أولاً : منظمة العمل الكاثوليكي ، وهي الساعد الأيمن للكنيسة ، وتعتبر قوة جبارة تقف وراء الحزب الديمقراطي المسيحي . ومن ثم فهي تساند الحكومة أيضاً وقد ظل يتزعمها العالم الطبيعي دكتور لوجي جيداً لعدة سنوات وهي أيضاً المنظمة التي تتحكم في الأصوات ، ويتبع منظمة « العدل الكاثوليكي » ما يقرب من عشرين ألف « خلية » منتشرة في المناطق الريفية والحضرية ، ويبلغ عدد أعضائها حوالي أربعة ملايين عضو . وهناك شخصية هامة هي جيوسي كردينال سيري أسقف جنوا ورئيس الأساقفة الإيطاليين وقد وُصف لي على أنه أقوى رجل في إيطاليا ، وذلك لأنه يدير حركة اندماجية للكنيسة وتصدر « التعليمات » من الفاتيكان ، وتصل إلى كردينال سيري ، الذي ينقلها إلى البابوات

الذين يتصلون بدورهم بالكنائس المحلية . ثم تبلغ هذه التعليمات والعمل الكاثوليكي ، التي تقوم بإصدار أوامرها إلى الناخبين .

وليس هناك إلا قليل من الاتصالات المباشرة بين الفاتيكان والحكومة على المستوى الرسمي فلا يجلس البابا وسفير جرونشي سوياً ليتفقا على شيء بل إنهما لم يتقابلا أبداً في الحقيقة . ومن الواضح أن هناك أجنحة عديدة في فاتيكان اليوم وهناك أيضاً أحزاب مختلفة ، فهناك محافظو سيرى . وهناك جناح أكثر حرية ، وهو يرتكز في الكاردينال مونتيني أسيف ميلانو ، ومع أن الفاتيكان يعمل سياسياً خلال منظمة العمل الكاثوليكي ، التي هي السند الرئيسي للحكومة فإن الفاتيكان لا يتصل دائماً مباشرة بالحكومة ، وهناك نقطة محل نزاع وهي التعليم ، والجناح اليمين المتطرف من الكنيسة يشفق من زيادة سرعة انتشار التعليم ، لأن ذلك قد يؤدي إلى المروق والكفر ، وأنه إذا ما تولت نخبة متعلمة الحكم ، فقد يصبحون ضد رجال الدين ، بل ومنافسين للكنيسة ، وهناك مشكلة أخرى مشابهة ، وهي الإصلاح الاجتماعي . فيعتقد الرجعيون بأن إعانة الفقير لا بد وأن تأتي عن طريق الهبات الخيرية التي تقوم بجمعها الكنيسة ، وليس عن طريق العمل السياسي الذي تقوم به الدولة .

وسمعت أحد المتطرفين يشرح وجهة نظره قائلاً : « اننا يجب أن نتمسك ، لسوء الحظ بالفقر لأنه يولد الجهل ، . فالرجعية تريد النمو على حساب الناخبين الجهلاء .

ثانياً : الشيوعيون . فالحزب الشيوعي الإيطالي ، كما هو معروف

جيداً ، يعتبر أكبر حزب شيوعي في العالم خارج الصين والاتحاد السوفيتي . وعلاوة على ذلك ، فانه يعتبر أكبر حزب في إيطاليا بعد أعضائه الذين يزيدون عن المليونين ، ومقاعده المائة والأربعون في مجلس النواب ، وقد حصل في الانتخابات العامة الأخيرة على ٦٠٥ مايون صوت وأيضاً فانه يعمل متعاوناً مع الاشتراكيين برئاسة نيني كما هو معروف ، الذي يسيطر على ٨ نائب وحوالي أربعة ملايين صوت ، ويسيطر الشيوعيون والاشتراكيون سوياً على ٣٨٤٪ من مجموع أصوات الناخبين ، وبذلك يعتبر أكبر قوة يسارية متطرفة في العالم الغربي .

وقد كانت معاقل الشيوعيين الرئيسية إلى وقت قصير مضى في شمال ووسط إيطاليا منطقة الولايات المتحدة، وما أن انتشر الرخاء في الشمال حتى اضمحل النفوذ الشيوعي إلى حد كبير ، وأصبح الحزب الآن يستمد قوته من مناطق الجنوب الاقطاعية حيث بدأت الصناعة تغزو هذه المناطق على نطاق واسع، ويأمل الشيوعيون أن يستفيدوا من ذلك ويستفيدوا أيضاً من طبقات الشعب المعدمة .

ولد بالميرو توجلياتي زعيم الحزب الشيوعي في عام ١٨٩٣ وهو من مؤيدي نزعة ستالين وقد كان توجلياتي شخصية عظيمة في الشيوعية الدولية منذ عام ١٩١٩ . وهو اليوم سياسي محنك ، يتبع مبادئ خروشوف باحترام ، ويتبع الاتجاه الديمقراطي ، السليم وقلما حدث أن اشترك الشيوعيون في الحكومة في إيطاليا حتى عام ١٩٤٧ ، فقد ضمت الوزارات الأربعة الأولى التي شكلها دي جاسبري ،

أربعة أعضاء شيوعيين ، وكان توجلياتي نفسه وزيرا للعدل . وهناك زعيم شيوعي آخر هو لويجي لونجو نائب سكرتير الحزب ، وهناك أيضاً اجوستينو نوفلا ، الذي يمثل نقابات العمال اليسارية .

بيد أن هناك سؤالاً يحول في الخواطر . كيف تكون إيطاليا دولة كاثوليكية وشيوعية في نفس الوقت ؟ . من الواضح أن ملايين من الشعب ينتمى إلى الاثنين ، ويثبت هذا حقيقة أن ٩٩.٦٪ من الشعب كاثوليكيون ، وأن حوالي ٢.٥٪ منهم شيوعيون .

والسبب في ذلك هو أن كثيراً من الإيطاليين الكاثوليكين ليسوا مؤمنين بالمعنى الحقيقي فإن ملايين منهم لم يذهبوا إلى الكنيسة طوال عمرهم إلا مرات قليلة ، وليس هناك أى علاقة بين انتسابهم للدين وبين السياسة .

ويصل بعضهم إلى حد أن يعتقد أن الشيوعية تماثل مذهب البروتستانت ، أو بدعة دينية داخل الكنيسة ، مع أنه لا يمكن أن يعتقد بذلك أى كاثوليكي خالص الإيمان .

أما من جهة الشيوعيين فإنهم لا يعباون أن يذهب أعضاءهم إلى الكنيسة أو لا يذهبون . مع أن المفروض فيهم أنهم ملحدون .

وهناك حقيقة تثير الدهشة ، وتلك هي أنه نادراً ما يهاجم رجال الدين زعماء الشيوعيين الإيطاليين شخصياً . فإن الفاتيكان خاصة لا يريد أن يفقد رسمياً ربع جمهور الناخبين ،

وليس الفقر هو السبب الرئيسى لوجود الشيوعية في إيطاليا

كما يعتقد البعض . ففي الحقيقة نجد أن أكثر الإيطاليين فقراً ، مثل فلاحى أبوليا وكالابريا ، عرضة لأن يكونوا فى حالة جمود من الناحية السياسية بل إن بعضهم من الرجعيين .

ولكن الشيوعية انتشرت بسبب عوامل أخرى ، مثل سجل الشيوعيين الخافل فى المقاومة . وهناك سبب آخر لانتشار الشيوعية وهو الضيق العاطفى — الاستياء من قوة الكنيسة ، ومبدأ أنه ليس هناك شيء يستحق الاهتمام فى هذه الحياة ، إنما الحياة الأخرى هى الأهم بالإضافة إلى الشعور السائد بين الشباب — المثقفين منهم خاصة — أن السياسة المطلقة للجناح اليسارى وحدها تستطيع أن تجد العلاج لكل مشاكل إيطاليا ، وتستطيع أن تستلح الأراضى ، وتجمع الضرائب بأمانة ، وتخلص الدولة من امتيازات الاقطاعيين .

ثالثاً : الشركات الصناعية الكبيرة فى الشمال — فيات ، ومونت — كاتيني ، والقوى الاقتصادية المشابهة ، التى تكون الاتحاد العام للصناعة . وعلى أية حال ، فهذا الاتحاد لا يعمل فى الأوقات العادية بجماعة ذات نفوذ كبير .

وبدلاً من ذلك فإن رجال الصناعة — فرادى — لهم نفوذ قوى . فإن رجال الصناعة الكبرى المركزين فى ميلانو يسيطرون على حوالى ٨٠ ٪ من الصحف فى إيطاليا ، ومعظمهم يساند حزب الأحرار ، هذا الحزب المعتدل الذى يرجع إلى أيام كانور . وسكرتيره الشاب جيوفانى مالا جودى من ألمع الشخصيات الإيطالية وأكثرها تعقلاً :

ولكن حزب الأحرار لا يسيطر إلا على أربعة مقاعد في مجلس الشيوخ ، وسبعة عشر مقعداً في مجلس النواب .

وهناك شخصية بارزة في عالم الصناعة وهو انريكوماتي مؤسس ورئيس شركة البترول الإيطالية الحكومية ، وماتي المعادي للنازية ، زعيم من زعماء الحزب الديمقراطي المسيحي ، يمثل نوعاً جديداً من المديرين في مجال الصناعة الذين يديرون أعمال الدولة ،

وهو أحد أعضاء الحزب الديمقراطي المسيحي القلائل الذين لعبوا دوراً بارزاً في حركة المقاومة الإيطالية . وقد ساعده في هذا ابتداء حياته بعد ذلك من جديد وأصبح نائباً برلمانياً ، ثم عهد إليه القيام بتصفية مؤسسة كان قد أسسها موسوليني لاكتشاف البترول في إيطاليا وتصنيعه .

ولكن لم تنجح هذه المؤسسة في اكتشاف أى شيء غير أن ماتي قال : ربما كان موسوليني مجنوناً في بعض الأمور ، ولكنه كان على حق في هذه المسألة ، ورفض أن يترك المشروع ، وسرعان ما اكتشف منابع كبيرة للغاز الطبيعي في وادي بو .

ثم دخل في مجازفات البحث عن البترول في الخليج الفارسي ، وعمليات بيع الجازولين في بلاده ، ثم اشتغل في الإدارات الالكترونية ، والأعمال الهندسية ، والصحف والاسكان ، ومعدات الصناعات الآلية ، والمطاط ، والأسمدة وأشياء أخرى كثيرة .. وقد اشترى أخيراً للدولة محطة للقوى الذرية (التي حصل عليها من إنجلترا) وقيمها الآن على

بعد ثلاثين ميلا من روما — وهي أول محطة ذرية « تستورد » ،
 في التاريخ ، وقد قام أيضاً بعماية مبادلة ، حيث يستورد ثلاثة ملايين
 طن من البترول الروسى سنويا ولمدة الاربع سنوات القادمة فى مقابل
 بعض المنتجات الهندسية الايطالية وتملك الدولة كل العمليات التى يقوم
 بها ، وبذا فهو نوع فريد من الرجال .

وهناك جماعتان أخريان لها نفوذ كبير لا بد من ذكرهما ، وهما :
 نقابات العمال فى الشمال وهم من الجناح الايمن من الحزب الاشتراكى
 الجناح (الذى لا يتبع نينى) والذى يتزعمه جيوسيبى ساراجات ،
 والثانية : صغار الفلاحين ، ومعظمهم من الحزب الديمقراطى المسيحى
 وقد كان هناك تطور هام فى الزراعة وهو الانتقال من زراعة الحبوب
 إلى تربية الماشية ، فإيطاليا كلها الآن تمتلئ بمناطق تربية الماشية وهى
 عملية دخلت حديثاً إليها .. ولا بد لنا بعد ذلك من كلمة عن الصحافة ،
 ذات التقاليد القوية .

فقد توقفت كثير من الصحف فى أوروبا عن الصدور منذ الحرب
 ولكن هناك صحيفتين بارزتين إيطاليتين لم تتوقفا عن الصدور يوما
 واحداً منذ فترة ما قبل الحرب وهما : « لاستامبا » التى تصدر فى تورينو
 و « كورير ديلاسيرا » التى تصدر فى ميلانو ، وهى إحدى الجرائد
 العالمية فى العالم .

فانفاني وجماعته

تولى أما نتورى فانفاني رئيس الوزراء الجديد المنتمى إلى الجناح اليسارى من الحزب الديمقراطى المسيحى ، الوزارة مرتين من قبل — لمدة ١٢ يوما فى يناير عام ١٩٥٤ ، ولمدة ستة شهور فى عام ١٩٥٨ — ٩٥٩ ، وكان يتولى أيضاً وزارات العمل ، والزراعة ، والداخلية ، وفى رئاسته للوزارة السابقة ، كان يتولى منصب وزير الخارجية ، وهو يميل كثيراً إلى حلف شمال الأطلنطى وإلى الأمريكىين ، ويؤيد التكامل التام مع أوروبا ، ومن الناحية الداخلية فإنه دائماً يقف بجانب الطبقة العاملة فى الصناعة وطبقة الفلاحين .

ولد الدكتور فانفاني القصير القامة النشيط الحركة فى سان استفانو وهى قرية فى توسانيا عام ١٩٠٨ ، والتحق بجامعة كاثوليكية فى ميلانو وحصل على درجة فى الاقتصاد ، ثم أصبح أستاذا للتاريخ الاقتصادى وقد ألف كثيراً من الكتب المفيدة . وعلى عكس دى جاسبيرى وجونشى هرب من إيطاليا حينما بدأ الاحتلال الألمانى ، وعاش فى المنفى فى سويسرا حتى عام ١٩٤٥ ثم هيات له منظمة « العمل الكاثولى » ، وهو أحد أعضائها الدائمين ، فرصة دخول الحياة السياسية ، وأصبح عضواً فى مجلس النواب منذ عام ١٩٤٨ .

وحينما زار مستر ماكيلان رئيس وزراء بريطانيا إيطاليا فى خريف عام ١٩٦٠ طلب من الدكتور فانفاني سماع بعض الأغاني الإيطالية ، فما كان من فانفاني إلا أن سار إلى البيانو وأبتدأ يغنى بأعلى صوته .

ومن بين أعضاء الحزب الديمقراطي المسيحي المجريين أنطونيو سيني ، جيوسيبي بيللا ، وماريوسيلبا وزير الداخلية النشط الذي يطارده الشيوعيين ، والثلاثة من رؤساء الوزارات السابقين ، وأن سيني ، الذي يتولى وزارة الخارجية في حكومة فانفاني سردينى المولد ، وعمل فترات طويلة من عمره محاميا ومدرسا وسياسيا ، إنه في السبعين من عمره الآن . وكان يهتم كثيراً بالزراعة ، وهو يعتنى عناية خاصة بشئون سردينيا . وجيوسيبي بيللا ، الذي كان رئيسا للوزراء ووزيراً للخارجية سابقا ، يتولى الآن منصب وزير الميزانية ، ولد في شمال إيطاليا عام ١٩٠٢ وعمل أستاذا للحاسبة لسنين طويلة ومثل الكثير من زملائه داخل الحزب الديمقراطي المسيحي عن منظمة العمل الكاثوليكي .

* * *

سألت بعض الأصدقاء في روما ماذا يحدث لو حدث انشقاق في حكومة فانفاني . وكانت الإجابة « لن يسيطر علينا دكتاتور آخر — رجل عسكري — إننا نستطيع أن نتقبل رجلا في رداء الكهنوت مثل شخص سالازار . »

نبذة صغيرة عن البابا

إنه لمن الصعب أن نجد اختلافا بينا بين رجلين من رجال الكنيسة مثل هذا الاختلاف الموجود بين البابا الجديد يوحنا الثالث والعشرين وسلفه بيوس الثاني عشر . والبابا يوحنا رجل بدين ، متراخ ، يعشق الناس ، ولا يحب المظاهر وهو من أصل ريفي ذكي ولكنه ليس

مثقفا ثقافة عالية ، كما أنه في حقيقته لا يبدى اهتماما خاصاً بالسياسة — كما لا يهتم بالنفوذ الشخصي — أما ييوس الثاني عشر فهو على تقيض ذلك تماما كان أرسقراطيا متحضرا لاعم الثقة ، غارقا في السياسة حتى أذنيه ، ميالا إلى الوحدة ، نحيل الجسم ، وحادا كالسيف ، كما أنه كان شخصية سوفسطائية غريبة ، وكان يدير شئون الفاتيكان وحدا ، ويرسم سياسته بنفسه ، وكان يبدو وكأنه الملك ، ورئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء . وقد ولد البابا يوحنا الثالث والعشرين ، الذي كان يحمل اسم انجلو جيوسيبي دونكالي ، عام ١٨٨١ . ويجعلك ذلك تشعر بأنه جد مقدس ، وكان في سن السابعة والسبعين حينما تولى العرش البابوي عام ١٩٥٧ ، وبذلك يكون أحد البابوات الكبار السن القلائل من بين ٢٦٢ بابا منذ عهد القديس بطرس .

وكان دونكالي أكبر إخوته الاثني عشر ، ونشا اسم يوحنا نسبة إلى أبيه وبدأ دراسته للكهنوت عندما كان صغيراً ، وحصل على إدرجة في علم اللاهوت في روما ، ثم رسم قسا عام ١٩٠٤ ، وقد قضى بضع سنين في الاعمال الادارية في بيرجادو بالقرب من مسقط رأسه وقام بتدريس تاريخ الكنيسة ، وساعد في تنظيم منظمة العمل الكاثوليكي ، في القرى المجاورة ، وأصبح قسيساً برتبة سرجانت في الهيئة الطبية التابعة للجيش الايطالي ابان الحرب العالمية الاولى ، وقد رقى بعد ذلك إلى رتبة ملازم .

وينفرد البابا يوحنا الثالث والعشرين عن جميع رؤساء الدين السابقين ، في أنه قضى معظم أيام شبابه في بلاد غير كاثوليكية ، أو في بلاد بها أقلية

كاثوليكية . . فبعد اختياره أسقفياً في ١٩٢٥ سافر إلى بلغاريا كزائر رسول ، وظل هناك حوالي عشر سنوات ثم أمضى حوالي تسع سنوات كنائب رسول في اليونان وتركيا . . ثم ذهب إلى باريس لمدة سبع سنوات ، حيث كان يشغل منصب القاصد الرسولي هناك ، وقد كان محبوباً . ومحترماً من الكاثوليكين والبرتستانت على السواء هناك .

ويعتقد معظم المراقبين المطلعين ، بأن البابا يوحنا يريد أن يقلل من ظهور النزعة الكاثوليكية واضحة في السياسة . . أو كما يقولون يقلل من تدخل الفاتيكان في السياسة ، . . وما لا شك فيه أن للبابا نفوذاً واسعاً ، ولكنه على عكس باكيلى يجب أن يوكل سلطاته إلى نائب له ، وهو أقل الرجال دكتاتورية . . وقد عين مالا يقل عن ثلاثة وعشرين كردينالاً جديداً في أول اجتماع يعقده لمجلس الكرادلة في ديسمبر عام ١٩٥٨ ، وتم تعيين ثمانية عشر كردينالاً جديداً منذ ذلك الوقت ، وكانت النتيجة أن مجلس الكرادلة يضم اليوم ستة وثمانين كردينالاً ، وهو أكبر عدد منذ عام ١٥٨٦ .

وقد خفض البابا عدد الكتب التي تتناول موضوع الطهارة إلى النصف ، من حوالي ٥٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ ، وقد استقبل بحرارة رجالاً قديرين ، من غير المذهب الكاثوليكي مثل ويلي براندت عمدة برلين الغربية الاشتراكي ، وهارولد ماكيلان رئيس وزراء بريطانيا . . وفي ديسمبر عام ١٩٦٠ عتبد اجتماعاً طويلاً مع دكتور جيوفري فرانسيس فيشر أسقف كاتدربري ، وكانت هذه أول مرة يتم فيها اجتماع بابا ورئيس الكنيسة الانجيلية منذ ٥٦٣ عاماً .

ومن المفروض أن يمثل البابا يوحنا ، الذى كان بطريرك فينسيا بعد رجوعه من فرنسا ، الجناح « الفينيسى » للكنيسة الإيطالية المقابل للجناح الرومانى (نسبة إلى روما) . . وكان الفينسيون دائماً أكثر « صراحة » . . وبما لا شك فيه أنه تم اختيار يوحنا الثالث والعشرين للبابوية لأنه كان رجلاً مبجلاً ، ومن الواضح أنه يمكن أن يطلق عليه لقب بابا « مؤقت » . . فبعد تزلزلت وصراة باكيلى ، أرادت القوى الموجودة فى الفاتيكان فسحة من الوقت لتجميع نفسها . . ولا شك فى أن أقوى كاردينال ساعد على اختيار يوحنا الثالث والعشرين للبابوية هو دومينيكو كاردينال تاردينى .

التغيرات والمشاكل

من الواضح أن هناك تغيراً كثيراً حدث فى إيطاليا بملايينها الخمسين فى ربع القرن الماضى ، وأعظم هذه التغيرات هو الاتجاه نحو التصنيع . . فبينما كانت إيطاليا قبل الحرب ٦٠ ٪ زراعية و ٤٠ ٪ صناعية ، أصبح العكس صحيحاً تماماً ، فما يزيد عن ٥٠ ٪ من العمال الإيطاليين يعملون الآن فى الصناعة . . وعلاوة على ذلك فإن طبيعة الصناعة نفسها تغيرت ، فلم يصبح الاهتمام مركزاً الآن على الحرف الصغيرة ، بل على المنتجات التى تحتاجها الجماهير .

وقد أدى هذا إلى ثورة حقيقية ، فأصبحت القرى القريبة من نابلى والى كانت بعيدة تماماً عن مدينة القرن العشرين مثل العشش التى كانت

إلى وقت قصير مضى على ضفاف النيل ، تملك الآن أجهزة التليفزيون والغسالات الكهربائية ، وأصبح المواطنون يتناولون اللحوم والسكر والقهوة ، وهي سلع لم تكن معروفة لهم منذ خمسة وعشرين عاما (وما زالت غير معروفة في بعض المناطق) . . . وظهرت إلى الوجود طبقة متوسطة مليئة بالحياة والنشاط ، وأصبحت الطبقة العاملة في الشمال أكثر رخاء مما كانت عليه من قبل .

ومن التغييرات الكبرى التي حدثت ، اختفاء الكثير من معالم الاعتزاز بالقومية بعد اختفاء النظام الفاشي ، وأصبحت إيطاليا أقل تهورا مما كانت ، وكان السبب في ذلك هو تسوية النزاع حول مشكلة تريستا ، فلم تعد تثير هذه المشكلة الشعور الوطني . . . وأيضاً ساعدت عضوية إيطاليا في مجموعة الاطلنطي على شعور الإيطاليين بالراحة والتضامن ، كما ساعد على ذلك أيضاً عضويتها في السوق الأوروبية المشتركة التي أفادت إيطاليا فائدة اقتصادية كبيرة . . . وأخيراً ، هناك تطور واضح في الميادين الثقافية والفنية ، ويحق للإيطاليين أن يفخروا بأعمالهم الحديثة البارزة في ميادين التصميم الصناعي ، وعالم المودة ، والمعمار ، والسينما .

وهناك كلمة يجب أن نذكرها عن التحالف الاطلنطي . . . حيث توجد سبع فرق إيطالية تحت تصرف حلف شمال الاطلنطي ، وقد ساندت الولايات المتحدة الأمريكية جهود الإيطاليين في بناء قوتهم الدفاعية بمساعدات عسكرية مباشرة وصلت إلى ١٠٨ بليون دولار —

١٣٧ مليون دولار في عام ١٩٦٠ فقط . . كما توجد قيادة رئيسية لحلف شمال الاطلنطي في نابلي .

وقد تم تسليح إيطاليا بالصواريخ الأمريكية من طراز جوبيتر ، غير أن أمريكا ترفض تخزين رهوس الصواريخ الذرية في أراض أجنبية كما ينص على ذلك القانون الأمريكي . . والغريب في الموضوع أتى رأيت أدلة دولية على وجود حلف شمال الاطلنطي في المناطق الريفية الإيطالية . مدن مثل بيزا أكثر من أى مدن أخرى في كل أوروبا ، تستطيع أن ترى هنا جنودا هولنديين ، ونرويجيين ، وأمريكيين في ملابسهم الرسمية . . كما توجد قواعد أمريكية في فيرونا ، وفستزا ، ولجهورن ، وفي مناطق أخرى بالقرب من نابلي .

وبما لا شك فيه أن إيطاليا تتقدم نحو الازدهار ، فقد ارتفع الانتاج القومى الكلى حوالى ٨ ٪ في السنة الماضية عنه في عام ١٩٥٩ وهو حوالى ثلاثون بليون دولار ، زاد ثلاث مرات عما كان عليه عام ١٩٤٦ وتملك إيطاليا ثالث احتياطي ذهب في العالم (صدق هذا أو لا تصدق) بعد الولايات المتحدة مباشرة ، ووصلت صادراتها في الخمسة الشهور الأولى من عام ١٩٦١ إلى ٢ بليون دولار ، أكثر مما كانت عليه في العام الماضى بمقدار ٤٦ ٪ .

ومع ذلك ما زالت إيطاليا بلداً فقيراً ، إذ أنه يوجد حوالى ١٧ مليون عاطل ، وبها مناطق شاسعة لم تلبسها يد التطور ، مع وجود تفاوت كبير جداً بين الأغنياء والفقراء . وقد وجد رسمياً أن ما لا يقل

عن ١٢٪ من مجموع السكان « معدمون تماماً » وأن حوالى ٢٪ آخرون « فى حالة من الفقر تصل إلى ملايين لا يحدون الطعام الكافى حدود العوز التام » . . . وهناك لهم ، وفى عملية مسح حديثة فى منطقة ريفية فى صقلية ، ثبت أن ٨٠٪ من السكان ليس عندهم مياه نظيفة أو مرافق صحية ، وأن ٤٪ من السكان أميون ، وتصل نسبة الوفيات بين الأطفال إلى ١٠٣ر٨ فى كل ألف من المواليد .

وفى الحقيقة ، تنقسم إيطاليا إلى بلدين . . فليس الاختلاف بين الشمال والجنوب مثل الاختلاف بين يوركشير وسسيكس . . ليس الشمال الإيطالى والجنوب بلدين مختلفين فقط ، بل يبدو كما لو كانا بلدين فى قارتين مختلفتين . . فبعد نابلى إيطاليا هى أفريقيا . . فى الواقع أن مشكلة الفقر الإيطالية هى مشكلة الجنوب . . كيف يوزع الدخل القومى حتى يحصل الجنوب على دخل أكبر . . وهناك مشروعات مختلفة فى طريقها إلى التنفيذ ، بما فى ذلك مشروعات استصلاح الأراضى . . ولكن الصعوبات كثيرة . . فلو أخذت الحكومة مبالغ كبيرة من الشمال لتعطيها للجنوب ، فإنها بذلك ستزيد خطر الشيوعية فى المنطقتين ، لأن الشمال سيضعف ، بل ربما يفتح انتشار الصناعة فى الجنوب الباب للتغلغل الشيوعى .

إن المشكلة الرئيسية فى إيطاليا هى الفقر ، والمشكلة الثانية سياسية : كيف تطبق فى بلد جديد وغير متحد كإيطاليا (التي أعلنت دولة مندماة عام فقط) . . والسؤال بطريقة أخرى هو كيف نحول إيطاليا العصور الوسطى إلى دولة حديثة . . وإذا تقدمت الدولة بسرعة نحو الإصلاح فإنها

ستخاطر بقيام معارضة من اليمينيين ، وإذا سارت ببطء ، فسيتمسك
ذلك في معارضة اليساريين .. وسمعت نقطة كثيراً ما تذكر وهي أن
إيطاليا ، مثل الدول الأخرى التي ليس لها تجربة في الإصلاح ، عندها
تقاليد قليلة عن المواطن الصالح .. فليس هناك وعي اجتماعي إلا في
أضيق الحدود .. إن الناس أولياء مخلصين لأنفسهم ، ولعائلاتهم ،
ولمدنهم .. ولكنهم لا يحملون الكثير من الولاء نحو أممتهم ، فالذي
يهمهم هو فرصتهم الخاصة وربحهم الخاص .

وبعد أن تحدثنا عن كل ذلك ، علينا أن نذكر كلمة أخرى صغيرة ..
إن إيطاليا تواجه متاعب ، وقد تزداد هذه المتاعب بشكل خطير بمرور
الوقت .. إن الدولة لا تتمتع بالاستقرار ، وما زالت أجزاء كبيرة من
الشعب بعيدة عن أضواء المدينة ، ولكن إيطاليا — رغم ذلك —
تعطيك الشعور بالدفء ، والسعادة . والمحبة .. إنها دولة باسمة .. إنها
الطف دولة من دول أوروبا تزورها أو تعيش فيها بصرف النظر عن
يحكمها .. كيف أو لماذا ؟

انقلاب في تركيا

عندما ظهر كتاب ، في داخل أوروبا ، لأول مرة في سنة ١٩٣٦ ،
كانت شخصية كمال أتاتورك غير العادية لا تزال تسيطر على تركيا ..
لقد كان بمثابة الأب لامة ولدت من جديد — فقد كان ذا نفس مريضة
وقلب قاس ، وكان عملاقاً وطنياً — لقد التقطت تركيا ككلب أجرب
ثم شكلها تشكيلاً جديداً .

إن كل إنسان يعرف أنه ألغى الطربوش . وأنهى تعدد الزوجات وحول المساجد إلى مخازن للحبوب ، وحرر المرأة وأنشأ عاصمة جديدة في أنقرة (لتحل محل القسطنطينية) واستبدل الأبجدية التركية باللاتينية وكافح كلا من البريطانيين والروس ، ودفع الإغريق إلى البحر بلارحة ومات كمال في سنة ١٩٣٨ . كنتيجة للانغماس في الملذات . وقبل مرضه الأخير بأسابيع قليلة . قال لصديق : إذا استطعت أن أعيش خمس عشرة سنة أخرى ، فإن باستطاعتي أن أجعل من تركيا بلدا ديمقراطياً . وإذا مت فسوف يتطلب ذلك ثلاثة أجيال ، ولعله كان صادقا فيما قال

إن أتاتورك ، ذلك الفظ الغليظ القلب المستبد ، كان دائما مبتدعا وإذا عدنا إلى الوراء نجد أنه — على ما أعلم — قد فعل في سنة ١٩٣٠ شيئا فريدا في حويلات الدكتاتورية . لقد تعمد إنشاء معارضة بتعيين حفنة من النواب في البرلمان . . . كلهم بالتصويت ضده . . . لقد كانوا خائفين ، ولكنهم كانوا سيشنقون إذا رفضوا القيام بالعمل الذي وكل إليهم . وهو مصير أشد سوءا . ولقد أوقفت التجربة بعد قليل . ولكنها جديرة بالذكر لأنها تحدد الوقت الذي دخل فيه ميدان الحياة العامة . ذلك الرجل الذي أدار دفة الأمور في تركيا بين سنتي ١٩٥٠ ، ١٩٦٠ فلقد كان مندریس واحداً من الجماعة الأصلية التي عينها كمال أتاتورك لتعارضه .

وفي العاشرة من نوفمبر سنة ١٩٣٨ ، آل الحكم بعد كمال أتاتورك إلى الجنرال عصمت اينونو ، وهو الآن رجل عجوز ولكنه لا يزال يلعب دوراً مفحماً في مجالس الأمة . ولقد كان لسنوات عديدة مساعد

أتاتورك الأيمن ، إذا أمكن أن نقول إنه كان لأتاتورك ساعداً أيمن وكان يسمى عصمت باشا ، ثم عرف باسم إينونو عندما أصدر كمال مرسوماً يقضى بأن يحمل كل تركي الاسم العائلي على الطريقة الغربية . وكان نهر إينونو هو المكان الذي شهد أعظم انتصارات عصمت باشا الحربية إبان الحرب اليونانية في الأناضول سنة ١٩٢١ .

وأدار إينونو دفة الأمور في تركيا من سنة ١٩٣٨ إلى سنة ١٩٥٠ . وقد كان — ولا يزال — شخصية خلافة ، ومن صفاته المميزة أنه كأستاذه كمال مبتعد عن الناس : وكقاعدة عامة ، لم يستقبل إينونو أحداً مدة توليه الرئاسة ، حتى أعضاء الهيئات الدبلوماسية . وكان المكان الرئيسي لراحته هو يخته الذي كان أنفسم اليخوت وأكبرها شهرة في العالم في ذلك الوقت . لقد تكلف ثلاثة ملايين ونصف مليون دولار ، وكان هدية من أتاتورك لإينونو .

وفي سنة ١٩٤٦ قرر إينونو أن تركيا ينبغي أن تجد الفرصة لتذوق النظام الديمقراطي . وأذن للأمة في التصويت في انتخابات حرة تقريباً . تخاصم فيها حزبان . حزب الشعب الجمهوري ، الذي كان الحزب الوحيد في البلاد أيام أتاتورك ، وحزب معارض ، وهو الحزب الديمقراطي الذي قام بعد وفاة أتاتورك ، وكانت النكته تقول : إن حزب الشعب قد صوت له أنصاره علناً ، ثم حسبت أصواتهم سراً ، أما الحزب الديمقراطي فقد صوت له أنصاره سراً ، ثم حسبت أصواتهم علناً . وقد سجلت انتخابات سنة ١٩٤٦ تقدماً محسوساً . فمن بين ٤٦٨ مقعداً من مقاعد الهيئة التشريعية . حصل الديمقراطيون المعارضون

على ستين مقعداً ، وكان يتزعمهم جلال بايار وعدنان مندريس ، ذلك الرجل الذى اختاره أتاتورك ليحترف معارضته قبل ذلك بسنوات .

وبدأت رياح جديدة تهب على تركيا بعد سنة ١٩٤٦ . لقد فتح الباب (للديموقراطية) وأصبح المواطنون وقد تنوقوا الديموقراطية يطلبون المزيد منها . وبعد حكم دام جيلاً : أخذ حزب الشعب الجمهورى فى الضعف ، بينما أخذ الديمقراطيون يزدادون قوة . وجاءت فى سنة ١٩٥٠ انتخابات جديدة ، فازوا فيها بجدارة — إذ ظفروا بـ ٤١٥ مقعداً فى مقابل ١٧٥ ظفربها خصومهم .

وكان من المدهش أن لينونو الموقر قد قبل هذا القرار بهدوء واتزان وطنى مع أن هذا كان يعنى نهاية سنى حكمه ، ولم يابث أن اعتزل الحياة السياسية وانتهى عهد أتاتورك واستولى الديمقراطيون المعارضون على الحكم ، وأصبح بايار زعيم الحزب . رئيساً للجمهورية ، بينما ولى مندريس رئاسة الوزارة .

ومن الغريب — كما قد يبدو — أن مندريس لم يشغل قط فيما مضى وظيفة عامة ، مع أنه كان نائباً . ولا بد أن يكون واحداً من الرجال القلائل فى التاريخ الأوروبى المعاصر ، الذين ارتفعوا بالوسائل الدستورية من لا شىء إلى رئاسة الوزراء بين يوم وليلة .

إنه إنسان مثير للاهتمام . . وأهم ما يميزه من صفات ، حيويته الدافقة ، وتفهمه للتنظيم السياسى ، ومزيد من الثقة بالنفس ، والطموح . لقد ولد مندريس فى سنة ١٨٩٩ لأسرة غنية من ملاك الأراضى .

ومات أبوه وهو صغير ، فكفله أجداده . ودرس في مدرسة إرسالية أمريكية في أزمير .

وفي سنة ١٩١٦ ، التحق بالجيش التركي . وحارب البريطانيين في المعارك الصحراوية التي دارت أثناء الحرب العالمية الأولى ، وبرز في الأعمال العدائية الوحشية التي وجهت ضد اليونان .

وعندما تولى السلطة سنة ١٩٠٥ أدار دقة الأمور في تركيا بثقة ومهارة ونشاط مدة عشر سنوات ، لقد كان من المؤيدين المتحمسين لمنظمة حلف شمال الأطلنطي . وأصبح أكثر الرؤساء في الشرق الأوسط حظاً من الحماية الأمريكية .

وكان الشيء الذي هوى به هو الإغراق في الملذات لقد كان يريد أن يعرف كبناء عظيم . وقد عمل حتماً بجهد لإعلاء شأن الأمة ولكن مشروعاته في استانبول وفي غيرها من البلدان تكلفت مقادير باهظة من المال وأصاب البلاد تضخم مالي هدام وعندما سقط ، بلغ دين تركيا العام ١٩٣٠ بليوناً من الدولارات .

وسنذكر باختصار قصة الانقلاب الذي أطاح بعدنان مندريس . لقد بدأت المعارضة في عهده في سنتي ١٩٥٩ - ١٩٦٠ . وفكر في قمعها بوسائل غير حكيمة ، فلقد حدث أن ذهب الرئيس السابق اينونو إلى مؤخرة المدينة ليلقي خطاباً سياسياً ، فما كان من مندريس إلا أن أرسل فرقاً من الجيش لتعطيل موكبه . وقد كان هذا السلوك مبعث استياء شديد لأنه كان إهانة لاينونو ، ذلك الرجل المسن ذو الستة والسبعين عاماً ، الذي يعتبر أعظم تركي على قيد الحياة . ولأنه أقحم الجيش في الشؤون السياسية ولذلك فقد هاج الشعب وماج .

وفي منتصف إبريل سنة ١٩٦٠ عطل مندريس كل نشاط سياسي لمدة ثلاثة أشهر ، مما بدأ تذكيراً بالانتكاس إلى الدكتاتورية وأقام لجنة خاصة لبحث المعارضة . وصودرت الجرائد ، وسجن المحررون وفصل أساتذة الجامعات .

ونتيجة لهذا قامت أعمال شغب عنيفة في الثامن والعشرين من شهر أبريل وفي الخامس من مايو هاجمت جموع الطلبة مندريس نفسه في أنقرة وطالبوه بالاستقالة ، فصرخ متحدياً : « اقتلوني . اقتلوني .. »

وفي التاسع من مايو حدثت حادثة لم يكن مغزاها قد اتضح تماماً في ذلك الوقت ، فقد اعتزل الجنرال جمال جورسيل منصبه كقائد عام للجيش التركي ، وفي الساعات الأولى من اليوم السابع والعشرين من مايو سنة ١٩٦٠ قام الجيش بانقلاب سلمي هادئ . وقبض على بايار ومندريس وأعضاء الوزارة جميعاً ، وعلى اثني عشر من كبار ضباط الجيش . وما لا يقل عن أربعمائة من النواب الديمقراطيين في البرلمان . وأصبح الجنرال جورسيل قائماً بأعمال رئيس الوزراء . وأقام على الفور حكومة مدنية كبيرة ، ولكنه لم يلبث أن أصبح واضحاً أن الجيش هو الذي يحكم من وراء الستار ومن الواضح أن الرئيس السابق عصمت أيونو لم يكن له دخل في كل هذا ولم يكن له سابق علم بهذا الانقلاب .

ومع أن حركة الجيش كانت تعارض بمرارة عهد مندريس وقد أصر الساسة المحنكون على أن لا يحاول حزب الشعب الجمهوري العودة إلى الحكم إلا بالطرق الدستورية .

وكان هذا هو ثالث انقلاب قام به الجيش منذ ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ . ومع هذا فلم يتم هذا الانقلاب نتيجة لتدمير عسكري .. وعندما قرر الجيش أن مندريس يجب أن يعتزل الحكم لم يجد مندريس مفرأ من الاعتزال ..

ولكن ثمة عوامل أخرى لعبت دورها .. ومن هذه العوامل تلك الحالة من الضجر من جانب الساسة الذين كانوا يرغبون في تولى الحكم والظفر بالسلطة — وكذلك ما قام به المحررون والمدرسون والطلاب من تهيئة العقول للثورة ..

وثمة عامل آخر هو موقف المواطنين من أهل المدن إزاء الفلاحين فتركيا دولة زراعية ولكن عمال الزراعة لم يظفروا بحقوقهم كاملة منذ البداية ... وأراد مندريس أن يصلح من حال الفلاحين ، وعمل على استغلال القوى الاقتصادية في المدن لصالح الفلاحين الفقراء ، مما أدى إلى استياء أهل المدن .

وثمة مصدر آخر من مصادر الاستياء هو الفساد الذي كان منتشراً والنفوذ الأمريكى في تركيا . . فلقد هوجم مندريس لكونه العوبة في يد الأمريكان ومنظمة حلف شمال الأطلنطى .

ومضى المؤلف يقول :

إن الجنرال جورسيل ، الذى نصب نفسه رئيساً للدولة قد ولد سنة ١٨٩٥ فى بلدة « أرزوروم » على مقربة من الحدود السوفيتية ، وعاش رجلاً عسكرياً طيلة حياته .

لقد حارب البريطانيين في الدردنيل أثناء الحرب العالمية الأولى ،
وعين ملازماً أول سنة ١٩١٤ ، ولكنه لم يرق إلى رتبة قائد اللواء
إلا في شهر أغسطس عام ١٩٤٦ وحتى وقت الانقلاب عام ١٩٦٠
لم يكن معروفاً في غير الدوائر العسكرية . وقد وصفه زملاؤه الضباط
بأنه بطيء في الحديث ، وكسول بعض الشيء . ولكنه مواطن عركته
الأيام بدرجة كبيرة .

والمجلس الذي يرأسه جورسيل ، والذي يسمى نفسه لجنة الاتحاد
القومي ، ينقسم إلى جناحين : جناح معتدل ، وآخر متطرف .
لقد كان يضم في البداية ثمانية وثلاثين عضواً . ثم نقص العدد
أخيراً إلى أربعة وعشرين ، وهو تطور له عواقب خطيرة .

ففي الثالث عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٦٠ ، أعلن جورسيل
أنه فصل أربعة عشر عضواً بحجة أنهم يهددون المصلحة القومية .
وأشهر هؤلاء المفصولين هو الكولونيل السابان تيركس ، الذي كان
في واقع الأمر المؤسس الحقيقي للانقلاب — والرجل الذي دبره
ثم أقنع الجنرال جورسيل بأن يكون طبيعته .

إن جورسيل وهو رجل خجول في المركز (لا إلى اليمين
ولا إلى اليسار) لم يكن يريد أن تدفعه جماعة تبركس إلى اليسار .

لقد ألغى الجنرال جورسيل كل نشاط سياسي في تركيا في الوقت
الحاضر . . وهذا ما حاول مندريس أن يفعله ، ولكنه وعد مراراً
باستئناف النظم الديمقراطية بأسرع ما يمكن ، وبعد انتخابات حرة

في أقرب فرصة وبإعادة تأسيس حكومة مدنية كاملة . ولكن من الواضح أن الموقف الآن في تركيا موقف هورى .

ومن الشخصيات الجديرة بالذكر الجنرال جمال مادانوجلو الذى لا يزال عضواً بارزاً فى لجنة الاتحاد القومى معه ، إنه وثيق الصلة بـ « تيركس » .

وثمة رجل آخر هو سليم ساربر ، ذلك الدبلوماسى البارز الذى أصبح وزيراً للخارجية بدلاً من فطين رستوزورلو الذى كان — بصفة خاصة — رجلاً مكروها ويعتبر « ساربر » صديقاً مخلصاً للولايات المتحدة .

لقد كان سفيراً ناجحاً لتركيا فى روما ، وفى هيئة الأمم ، ومنظمة حلف شمال الأطلنطى قبل أن يتولى منصبه الحالى ، وإذا اعتزل هذا الرجل منصبه ، فسوف يعنى هذا أن الثورة التركية قد أصبحت معادية لأمريكا . . .

وفى نوفمبر عام ١٩٦٠ حوكم بايار ومندريس ومئات عديدة من أنصارهم وبلغ عدد المعتقلين فى عهد جورسيل ١٠٨٧ من رجال السياسة وكشفت المحاكمات الأولى عن مأساة وهمية كبيرة هزت استانبول .

فقد اتهم بايار ، الذى يبلغ السادسة والسبعين بالفساد . . . إذ تلقى كلباً أفغانياً هدية من الدولة الأفغانية ، ثم باعه لحديقة حيوان أنقرة بـ ٢٢٠٠ دولار .

واتهم مندريس ، كما جاء في سجلات المحاكمات ، بمخالفات مالية عديدة شملت ملايين الدولارات ، وقيل إنه أمر أخصائياً في أمراض النساء في استانبول بقتل رضيع لم يكتمل نموه ولد من عشيقته ، إيهان إيدان ، المغنية السابقة في أوبرا أنقرة ، وكانت خلية لمندريس مدة تسع سنوات .

ولقد برىء كل من بايار ومندريس من هذه التهم الخاصة ، ولكنهما ، حتى وقت كتابة هذه السطور لا يزالان يواجهان عتوبة الإعدام جزاء جرائم مزعومة ، أشد خطراً من الناحية السياسية ، مثل التآمر عند مصلحة الدولة .



وتركيا كما يتضح لأى إنسان ينظر إلى الخريطة . نقطة ارتكاز جوهرية في نظام التحالف الدفاعى . . إنها التمنطرة بين أوروبا وآسيا ، بين البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأسود ، وهى الدولة الوحيدة التى تعتبر عضواً فى كل من منظمة حلف شمال الأطلسى ومنظمة الحلف المركزى ، الحلف الذى يربط تركيا وباكستان وإيران وبريطانيا فى تنظيم للأمن المتبادل . و . أنقرة ، الآن هى مقر منظمة الحلف المركزى الذى كان يعرف سابقاً بحلف بغداد وكانت العراق فى يوم ما عضواً رئيسياً فيه .

وتحتفظ الولايات المتحدة بقاعدة هامة فى تركيا ، مزودة بالقذائف وبمحطة للرادار .

ويبلغ المستخدمون الأمريكيون في تركيا عدداً لا يقل عن ١٤٦٤٢ شخصاً . منهم ١٣٨٧٦ من العسكريين (بما في ذلك من يعولونهم) . والجيش التركي جيش قوى وهو مزود بأحدث الأسلحة ومدرّب تدريباً حسناً ، ويبلغ عدده ٤٧٠٠٠٠ رجل ، وهو بهذا أكبر قوة أوروبية وطنية مرتبطة بمنظمة حلف شمال الأطلسي ، وقد أعد الجيش التركي ، إلى حد كبير ، على أساس من المعونة الأمريكية السخية ، مع أن الأتراك دائماً شديدو المراس في الميادين الحربية (بمعونة وبغير معونة) ولكن الولايات المتحدة ، منذ عام ١٩٤٧ ، قد أمدت تركيا بثلاثة ملايين من الدولارات ، أنفق منها مليونان على الأغراض الحربية .

ومن الأسباب التي جعلت تركيا ، لسنوات عديدة ، حليفاً طيباً هو خوفها التقاليدى وكراهيتها لروسيا .

إن العلاقات الرسمية بين تركيا والاتحاد السوفيتي علاقة سليمة جداً ولكن معظم الأتراك يعتقدون أن الاتحاد السوفيتي ، وكل ما يؤيده ، إنما هو لعنة ، وقد حل الحزب الشيوعي منذ عام ١٩٢٤ . ولم يعد له نفوذ ، ولقد تقضت الولايات المتحدة بشدة لإفراطها في معونة الأتراك ففي الثالث من شهر مايو عام ١٩٦٠ كتبت الجريدة الإيطالية الكبيرة « كوريير دلا سيرا » تقول : —

إن الذي يبقى على حكومة مندريس في الحكم هو المعونة الأمريكية . . ومهما كانت المعونة الأمريكية في محلها .. ومهما كانت

تستحقها ، فإن ثمة حدا يذبحى أن يقف عنده أشد الناس تحالفاً . وهذا الحد يذئاً عندما تكبت الحكومة التى تتلقى المعونة حريات شعبها . لقد قاست الولايات المتحدة أخيراً من تجربتين خطيرتين ، واحدة فى كوبا وأخرى فى كوريا فبمساعدها لباتيستا . فتمدت الولايات المتحدة صداقة الشعب الكوبى ، وفى جمهورية كوريا لم تتخل الولايات المتحدة عن تأييد سنجمان رى إلا فى اللحظة الأخيرة ؛ وفى اليوم الواحد والثلاثين من شهر مايو عام ١٩٦٠ كتب جو الكس موريس فى جريدة هيرالد تريبيون يقول : -

إن الثورة التى أطاحت يوم الجمعة الماضى بحكم عدنان مندريس الذى استمر عشر سنوات يمكن اعتبارها - هى وكوريا - كحالين قامت فيهما الولايات المتحدة والغرب بتأييد وتمويل حكومته لسبب واحد هو أنها فى جانبنا . .

وليس ثمة - حتى الآن - دليل على أن لجنة الاتحاد القومى الجديدة فى تركيا قد حولت سياسة تركيا بعيداً عن تأييد منظمة حلف شمال الأطلسى والولايات المتحدة ، ولكننا نعيد ما قلناه من قبل من أن تركيا فى حركة ثورية ولا أحد يستطيع أن يعرف ما قد يحدث أو لا يحدث غداً .

لقد أعلن الجنرال جورسيل بعد أن ولى السلطة مباشرة أنه لا يفكر فى إجراء أى تغيير فى سياسة تركيا إزاء الولايات المتحدة ، ولكن من الصعب أن نظن أنه يعتمد عليه كمندريس .

إن من حسن حظ الحلفاء الغربيين أن الأتراك يشعرون بعداوة شديدة للاتحاد السوفيتي ، والدرس الذي يمكن أن نستخرجه من كل هذا هو أنه من الخطر دائماً على دولة ديمقراطية كالولايات المتحدة أن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدكتاتور أو شبه دكتاتور مهما بدا ذلك .

إن الشعوب هي التي لها الكلمة في آخر الأمر ، وإن عهداً يقلل من شأن المواطنين لا ينبغي أن يظفر بأي تأييد .

١٤ — إنجلترا .. أخطر بلدان العالم

في سنة ١٩٣٦ كان ستانلي بولدوين ، ذلك الرجل الناعس العنيد ، رئيساً لمجلس وزراء إنجلترا . . وكان وزير ماليته نيفيل تشامبرلين الذي وصف ذات مرة بأنه « محاسب دقيق في سنة معسرة » . . كان هذان الرجلان يتزعمان حكومة سميت « قومية » . . وكان رمزي ماكدونالد الزعيم الاشتراكي — الداهية المرن — رئيساً لمجلس اللوردات .

أما ونستون تشرشل فقد كان معزلاً العمل منذ عام ١٩٢٩ ، وكانت الفرصة أمامه ضعيفة في عودته في يوم من الأيام إلى منصب هام . . ومع ذلك فقد كتبت أقول وقتذاك : « إن معظم الناس يجمعون على أنه سيظهر في خضم ضخم من الأحداث كزعيم وطن لبريطانيا ، . . ولم ينتظروا طويلاً حتى تحقق ذلك .

وكان هارولد ماكيلان ، في تلك الأيام البعيدة ، يجلس مستترا في المقاعد الخلفية لا يلاحظ وجوده أحد إلا بين الحين والحين عندما

تحدث انحرافات تتصف ببعض الشذوذ في منهاج المحافظين الصارم ، وكان المرحوم أنورين بيفان شخصية معروفة ، ولكن ما كان ليتنبأ إلا القليلون لهذا الشاب المتحمس السيء — كما كان يسمى وقتذاك — والذي ظهر مع الحركة العمالية بأنه سيصبح أقوى وزير صحة في تاريخ بريطانيا ، كما أصبح قبل وفاته الأليمة قوة جبارة خيرة تعمل على تضامن حزب العمال .

أما هيو جيتسيكل ، فلم يكن معروفا على الإطلاق في عالم السياسة في سنة ١٩٣٦ ، وكان وقتذاك لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره وكان الرجال البارزون اليوم في كلا جانبي مجلس العموم من أمثال « أ. بتلر ، دنكان سانديز . بيتر ثورينكروفت ، إيرل هوم (وتنطق هيوم) ، سلوين لويد ، هارولد ويلسون ، مايكل فولت ، ريتشارد هـ . س كروسمان ، ..

كان هؤلاء لا يزالون في دور التكوين وغير مستعدين لخوض معترك السياسة .

واليوم أين عمالقة سنة ١٩٣٦ ؟ .. أين أولئك العمالقة الذين كانوا يهيمنون على الهوية هول في تلك الأيام التي سبقت الحرب مباشرة ؟ فقد مات الفريد دف كوبر ، ذلك الرجل الشاعر اللاذع .. كما مات لورد هاليفاكس وسير سامويل هور وسير جون سيمون الذي كتب عنه أنه كان في لعبة الجولف يضرب الكرة حول البروز ليصيب الهدف .

أما من حزب العمال فقد مات سير ستافورد كريبيس وأرنست بيفن ، وقد لقي أنتوني إيدن مصرعه في معركة السويس سنة ١٩٥٦ رغم بقاءه على قيد الحياة حتى الآن .

وكان من أهم المشاكل التي حدثت في إنجلترا في أوائل سنة ١٩٣٦ أزمة تنازل الملك عن العرش التي أثارت كثيراً من المشاعر ، وقد أحاط بها يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة قلق متلهف وتوتر لا يحتمل ، حتى إنها لن تفارق ذاكرة الذين عاشوا خلالها .. ثم حدثت بعد ذلك أزمة ميونخ ، ثم الحرب الشاملة التي دامت ثمانية وستين شهراً ، ثم حكومات العمال برئاسة مستر اتلي الذي أصبح أحد شيوخ الساسة المصقولين المحنكين ، ثم بزوغ نجم ونستون تشرشل وارتقاؤه سلم المجد .

وفي سنة ١٩٣٦ كانت هناك ثلاثة موضوعات تشغل المرتبة الأولى من الأهمية ، وهي : هتلر والبطالة والهند .. وقد أصبح هتلر الآن حفنة من الرماد ، كما ذابت مشكلة البطالة في خضم التوسع الصناعي المعاصر ، وأصبحت الهند دولة حرة مستقلة .

من الذي يقرأ على ذهنه عرضاً الآن أن مستر تشرشل قد أمضى جزءاً كبيراً من العشر سنوات التي قضاها بعيداً عن منصب الحكم (منذ ١٩٢٩ حتى ١٩٣٩) ظل خلالها في البراري يحارب في ثبات وإصرار ضد استقلال الهند ؟ وكانت فكرته هذه هي أحد أوهامه الغريبة الشاذة .. بيد أنه أمضى نفس هذه الفترة من الزمن محاولاً بفصاحته القوية القاسية أن يبصر مواطنيه بالتهديد النازي المدمر ، كما كرس نفسه كذلك لتأليف الكتب القيمة ، وهي أكر الأعمال لنة .

كيف تغيرت انجلترا

وهناك على مستوى أقل ، وقد لا يكون أقل بكثير مما سبق جميع أوجه الاختلاف بين بريطانيا العظمى في سنة ١٩٢٦ وبين بريطانيا العظمى الآن (التي يبلغ عدد سكانها ٥١٠٠٠٠٠٠) . فالساسة الآن يشيرون إلى زملائهم في التليفزيون بأسمائهم الأولى . كما أصبحت الشوارع خالية من الساقطات . وكذلك ألغت جامعة كبريدج اللغة اللاتينية كشرط من شروط الالتحاق بها (وهكذا فعلت أكسفورد مع طلاب القسم العلمي) . كما تدهورت في رأيي - على الأقل - مستويات الصحافة الشعبية إلى حد كبير .

وقد أصبح في مجلس اللوردات أعضاء مدى الحياة تم اختيارهم على أساس بعيد عن الحزبية ، ولم يوضع هذا الإصلاح موضع التنفيذ لتذليل مهمة رفع الناس إلى أعلى الدرج ولتغطية موقف الفاشلين في مجلس العموم فحسب ، لبعث المزيد من الحيوية والنشاط في اللوردات والعمل على جعلهم أكثر اتصالاً بحياة الأمة .. وكذلك إذا كان علينا أن نصدق الصحف ، فإن طالبات جامعة أكسفورد قد يتقدمن بطلب بوالص تأمين ضد الحمل ، كما تناقشت نقاط الخلاف بين الحزبين السياسيين الكبيرين عما كانت عليه قبل ذلك ..

وهناك تقدم آخر مهم ، فقد رفعت سن الانتهاء من التعليم الإلزامي من الرابعة عشرة إلى الخامسة عشرة . وكذلك فإن الاستعراضات

العارية التي تقوم في جميع أنحاء وست اند في لندن لشهود من أعضاء التوادي تحقق أرباحا تبلغ خمسة ملايين من الجنيهات في السنة أو أكثر وكما أصبح حديث الشباب في هذا البلد يكشف عن نفمة واضحة من الاستهتار نحو ذلك الكيان الغامض المعروف باسم كنيسة إنجلترا .. أما غضب الشباب الساخط فمرجعه قلة دواعي الغضب .

كما سمح للسائحين بالاعتداء على الحدود المقدسة لأى بيت ريفي تقريبا في إنجلترا بعد دفع رسوم صغيرة ، وقد أمكن تنفيذ ذلك بواسطة « المؤسسة القومية » كما يحصل أصحاب البيوتات الارستقراطية القديمة على مساعدات مالية من الدولة في مقابل السماح للسائحين بمشاهدتها ، وهذا بالإضافة إلى رسم الدخول الذى يجمعونه منهم ، مما يمكن أن يدر عليهم ربحا وفيرا وتنتقل ملكية هذه البيوت إلى الدولة بعد وفاة أصحابها وهناك مئات الآلاف من السائحين الذين يدفعون رسما على كل طريقة باب اكل فرد ليختلسوا نظرة إلى نول وها تفلد وكليفندن أو أى تراث قديم فاخر .

وثمة شيء آخر مهم وهو التوتر العنصرى الذى لم يكن معروفا على حقيقته قبل الحرب .. لا شيء إلا لقلّة وجود طوائف الزنوج .. أما الآن فقد استقرت في إنجلترا أخيراً أعداد ضخمة من أهالى جزيرة جاميكا وجزر الهند الغربية الأخرى يبلغ مجموعهم مائة ألف تقريبا كما يوجد كذلك خمسة وخمسون ألفاً من الباكستانيين والهنود والافريقيين وقد وقعت اضطرابات عنصرية مؤسفة ، كان أعنفها ما حدث سنة ١٩٥٨ في نوتجهل جيث هو أحد أحياء لندن (كذلك في فرنسا

فان الاضطهاد العنصرى الذى لم يكن معروفاً هناك إلى عهد قريب قد بدأ يثبت وجوده أخيراً . ولكن الزوج هناك ليسوا هدفا لهذا الاضطهاد . بل الهدف يتمثل فى الجزائريين والعرب والأجناس الملونة الأخرى .

وثمة شئ آخر فى انجلترا ألا وهو الهجرة خارج البلاد . . . فى سنة ١٩٥٧ : هاجر حوالى مائتان وثلاثون ألفاً من البريطانيين إلى الخارج ، وقد تناقص هذا العدد الآن إلى حوالى مائة وأربعين ألفاً سنوياً فى المتوسط .. ويذهب معظم المهاجرين إلى كندا أو إلى أى مكان آخر فى الكومنولث .. وكذلك فهناك فى انجلترا ذلك النقاش الحاد المدوى الذى يطرق آذان الجميع حول موضوع كان الحديث فيه همساً بحكم التقاليد . ألا وهو الشذوذ الجنسى ، ذلك المرض الذى اتسع انتشاره فى انجلترا .

وقد وصل أخيراً إلى مجلة نيوستيستمان خطاب مهور بأسماء ثلاثة أشخاص بدوا كما يلى : — نحن ثلاثة من المصابين بالشذوذ الجنسى نكتب هذه الرسالة مدفوعين بشعورنا القوى بأن ماتم عمله حتى الآن لا يكفى لتبصير الرأى العام بموضوع هام طال السكوت عليه .

وقد أوصى فى تقرير ولفندن سنة ١٩٥٧ بأن (السلوك الجنسى الشاذ الذى يحدث بين البالغين برضاهم ، وبعبداً عن الأنظار ، لا يجب أن يعتبر بعد ذلك مخالفة جنائية) .. وقد بذلت محاولات لوضع هذا

الاقتراح ضمن القوانين واللوائح في مجلس العموم في يونيو سنة ١٩٦٠ ولكنها دحضت تماماً .

وهناك مظاهر أخرى واضحة لهذا التغير ، تتطلب المزيد من التفصيل .

فلدينا أولاً السيوالة الاجتماعية . . . فالقول بأن الفروق الطبقيّة لم يعد لها وجود في إنجلترا مبالغه جسيمة . فالواقع أنها لا تزال قائمة على صورة أشد وضوحاً وأكثر عمقاً في نواح معينة ، منها في أى بلد آخر في العالم ، ولكننا إذا تكلمنا بصفة عامة فإن الفروق الطبقيّة في أى مكان في العالم تقريباً ليست بالأهمية التي كانت عليها قبل الحرب ، فقد أصبح البنيان الاجتماعي أقل صلابه بكثير مما كان عليه قبل ذلك . . . كما ازدادت مرونته وقل التعسف في ثبات نظامه إلى حد كبير .

وقد ذهب إلى غير عودة ذلك الزمن الذي كان من الممكن أن تستغل فيه الوظائف السياسيّة في داخل إنجلترا وفي مستعمراتها دون الإشارة إلى الخبرة السابقة أو الجدارة تماماً . . . كما مضى في أمريكا إلى غير عودة أيضاً ذلك الوقت الذي قال فيه كومودور فاندربيلت كلمته المشهورة : فليذهب الشعب إلى الجحيم .

ولأضرب مثلاً واحداً لذلك التفسير الطبقي الذي طرأ على المجتمع في الثلاثينيات كان حوالي ٦٥٪ من مجموع طلبة أكسفورد وكبردج قد سبقتهم في الدراسة في هاتين الجامعتين آباؤهم وأخوانهم الكبار وأقرباؤهم الآخرون . . . أما اليوم فقد انعكست هذه النسبة .

وثمة تغير آخر حدث في إنجلترا ، ففي الماضي كانت الفرصة ضعيفة أمام الشباب في الالتحاق بوظيفة في وزارة الخارجية ، ما لم يكن فيه دخل خاص

أما اليوم فقد يكون ذلك من العوامل المساعدة للمتقدمين لهذه الوظائف ولكنني واثق من أنه بالطبع ليس شرطاً ضرورياً .

وكذلك فإن الأوضاع الاجتماعية قد تغيرت إلى حد كبير في المناطق الصناعية والريفية . فلو كان الابن قبل الحرب لأب من عمال مناجم الفحم ، أو عمال النسيج فليس أمامه من فرص الحياة إلا ترسم خطى أبيه في عمله .

ولم يكن يظهر من بينهم غير الموهوبين على صورة فذة . والمطبوعين على العدوان وسعداء الحظ .

أما اليوم فإن عدداً لا يحصى من الشبان والفتيات يخرجون من بيئاتهم إلى العالم الخارجي في سهولة ويسر

وكذلك ففي العصر الفيكتوري كان القروي الذي لا يجذب قبته في حركة آلية تحية لصاحب الأرض بطريقة لا تنطوي على الاحترام الخسب ، بل على الذلة والخنوع يطرد من قريته .

أما اليوم فقد يحترم أهل الريف حكمهم ، بل ويحبونهم . لكن لا يشعر إلا الأقل منهم بذلك الشعور الطبق على صورة ملحوظة ، كما أنهم لا يخضعون لهم في ذلة وانكسار .

ويبدو أن هناك ثلاثة عوامل ساعدت على هذه المرونة في المجتمع الانجليزي المعاصر .

وأحد هذه العوامل بلا شك هو التعليم ، فقد ساد الجامعات الكبرى انطباع الديمقراطية ، وأصبحت المدارس العامة (مثل ألتون ونشستر وهارو وغيرها) تقدم المنح الدراسية لأبناء الطبقة العاملة رغم أنها ما زالت تحتفظ بأبناء الطبقة الارستقراطية ، ولها تأثير كبير في الأوساط الهامة .

والعامل الثاني هو التليفزيون ، وبما كانت محطات التلفزيون قليلة واختيار البرامج محدود ، فإن هذا العامل يمكن أن يجعل من مجتمعنا مجتمعاً متجانساً .

والعامل الثالث وهو أكثرها أهمية فهو المال . . فقد غيرت البطالة انجلترا تغييراً ملحوظاً . فقد أصبح الفقراء أكثر ثراء مما كانوا ولا شك في أن الأغنياء أصبحوا أقل ثراء . وقد ارتفعت ضريبة التركات (التي فرضتها حكومة المحافظين لأول مرة منذ عدة سنوات مضت) حيث ارتفعت إلى ٨٠ ٪ بالنسبة للتركات التي تصل قيمتها إلى مليون جنيه .

ولا شك في أن أية ضريبة — حتى ضريبة الدخل نفسها التي يبلغ حدها الأقصى ١٧ شلناً و ٩ بنسات لا يمكن أن يكون لها نفس الأثر — ويبلغ عدد الذين يزيد دخلهم السنوي عن ٦٠٠٠ جنيه حوالى ٨٠٠ شخص فقط ، ولك الحرية في أن تصدق أو لا تصدق أن ١٧٦٠٠

شخص فقط يحتفظون لديهم بأكثر من أربعة آلاف جنيه . ويعيش معظم الأغنياء على رأس مالهم .

وتعتمد هذه الطبقة ، بمرور الزمن ، على عوامل الوراثة ، ولكن وراثة بلا مال تؤدي إلى (في المدى الطويل) اختفاء هذه الطبقة .

وثانياً كان يبدو لي أثناء زيارتي لـ لانجترا في عام ١٩٥٨ وللرة الثانية في عام ١٩٦٠ أن احترام الناس للعائلة المالكة قد قل بصفة عامة . ولا شك أن هذه المسألة حساسة إذ أنني أقصد بذلك أن الغالبية العظمى من الشعب أصبحوا لا يحبون الملكة ولا يبجلونها ، فهي محبوبة ومبجلة .

ولكنني أقصد القول بأن نظرة الناس إلى النظام الملكي تختلف كل الاختلاف عن نظرتهم في السنوات الماضية .

وقد أبدى بعض الكتاب المحافظين والعمال على حد سواء مثل لورد الترنشام ومالكولم مجيردج تعليقات قوية عارضوا فيها الامتيازات الملكية ..

وقد أثار زواج الأميرة مارجريت لغطاً شديداً ولا سيما على موائد الطعام في بيوت الصفوة وبأسلوب ما كان ليفكر فيه أحد مند جيل مضى .

ونشرت صحيفة « نيوسبيتسمان » مقالا عن العروس . ولم يكن هذا المقال ينم عن العداء ، ولكنه كان لا يتطوى على الاحترام ، وكان يتعرض لها المقال لا باعتبارها فرداً من أفراد الأسرة المالكة

ولكن باعتبارها شخصاً عادياً له هفواته ونقاط ضعفه .

وجاء في المقال مثلاً : « أنها لا تملك . . . إلا القليل من موارد الثروة الحقيقية التي تواجه بها الحياة .

وقد تساءل بعض أعضاء حزب العمال عن المبالغ التي خصصت لتزيين شوارع لندن احتفالاً بهذا العرس (البالغ قدرها ٢٥٠.٠٠٠ ر. جنيه) ونفقات شهر العسل على ظهر اليخت الملكي « بريتانيا » (البالغ قدرها ٤٠.٠٠٠ ر. جنيه) وعلى أية حال لا يفكر غير القليل من المواطنين البريطانيين في النفقات التي تكبدها لهم الأسرة المالكة .

والواقع أن الجميع — تقريباً — يفرحون كثيراً للاحتفالات العامة التي تقام في بعض المناسبات مثل زواج أحد أفراد الأسرة المالكة . وقد صرح أحد رجال الأعمال يوماً بقوله : « إننا ندفع لهؤلاء الناس (الأسرة المالكة) ٦٠٠.٠٠٠ ر. جنيه سنوياً وأقل ما نتوقعه منهم هو استعراض حسن متقابل هذا المبلغ . »

وقد وضع الكاتب المسرحي الاعم جون أذربورن قصيدة عنوانها : « رسالة إلى الذين يعوقون التقدم » ونشرت هذه القصيدة في مجلة « تريبيون » ، الأسبوعية اليسارية في عددها الصادر في ١٣ من مايو عام ١٩٦٠ وهو يتهم فيها على الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة الزواج الملكي بحيث أنتى لاعتقد انه كان من الممكن أن تنشر هذه القصيدة في إنجلترا منذ أعوام قليلة .

ويبدو أن قصر بكنجهام أصبح يدرك بوضوح التغيرات الهائلة

التي طرأت على رأى العام بالنسبة للتقصر الملكى .

وفي صيف عام ١٩٦٠ وقع حادث فريد فقد حضرت الملكة ودون ادنبره حفل استقبال أقامه لورد أستور في هيفر وكان يعتمد اجتماعهما ببعض الصحفيين .

ثالثاً : الرخاء . . فقد فاز هارولد ماكيلان في الانتخابات الماضية بسبب شعاره : « انكم لم تمروا بمثل هذا الرخاء من قبل » .

وقد كان عام ١٩٦٠ أفضل من عام ١٩٥٩ : بل ربما كان يمثل أفضل فترة مر بها تاريخ بريطانيا الحديث .

فقد اندفعت بريطانيا — كما فعلت فرنسا وألمانيا من قبل — نحو عهد الاقتصاد الاستهلاكى ، إذ يبدو أن كل شخص يمتلك مالا وهو لا يحتفظ بهذا المال بل ينفقه .

ولذلك ارتفعت الأجور ولم تصل قدرة الطبقة العاملة على الاتفاق إلى المستوى الذى بلغته ، هذا فضلاً عن التحكم فى التضخم .

وثمة نقطة هامة أخرى وهى الدخل الكبير نسبياً الذى يمكن أن يحصل عليه الشباب ، فالصبي الذى لا يزال يذهب إلى المدرسة يستطيع أن يكسب حوالى عمانية جنهات أو أكثر فى الأسبوع من أول عمل يقوم به دون أن تكون له أية خبرة .

ويتعرض الشاب الذى هو فى أواخر فترة المراهقة لاحتتار زملائه إذا لم يكن حسن الهندام .

ولعلنا لا نذسى أن هؤلاء الصغار قد عاشوا حياتهم فى فترة كانت توزع فيها المواد الغذائية بالبطاقات .. أى أنهم قاسوا من شظف العيش وذاقوا الحرمان وقضوا جزءاً كبيراً من حياتهم وهم لا ينعمون إلا بالحد الأدنى من الأحذية واللحوم والدراجات وأجهزة الإرسال وأصبحوا اليوم ينعمون بالرخاء .

ويؤدى الثراء عادة إلى الرخاء ، ولذلك فإن بريطانيا أصبحت دولة متراخية اليوم ، غير أن الثراء يدفع أيضاً إلى الانتقال .. وثمة ظاهرة هامة أخرى وهى ارتفاع نسبة الشراء بالتقسيط والشراء عن طريق دفع الإيجار كقسط من ثمن البيع . ويؤدى هذا التطور إلى وصول السلع المختلفة إلى يد كل إنسان تقريباً . وهذا سبب آخر من الأسباب التى أدت إلى تساوى الطبقات . وقد قال لى أحد الأصدقاء : إن الشخص الواحد لا يستطيع أن يقود سوى سيارة واحدة فى وقت واحد (بغض النظر عما يملكه من السيارات) ويستطيع العامل فى أى جراج أن يذرع الطريق بسيارته الفورد المستعملة جنباً إلى جنب مع أى دوق يجلس فى سيارته هاجوار ، وتستطيع أية عائلة تسكن فى حى هوايت شابل أن تشتري بالتقسيط جهازاً للتدفئة وربما كان تنعمها بقدر من الراحة الجسدية أكبر مما ينعم به الدوق لأن الدوق نفسه لا يستطيع أن يحصل على عدد من أجهزة التدفئة كاف لتدفئة قصر يغم ١٥٠ حجرة .

وثمة نقطة تنطوى على مغزى هام ، رغم أنها ليست عظيمة الأهمية وهى تتصل بموضوع السيارات ، فعندما صممت برامج الإسكان وتم بناء

للمنازل (وقد شملت هذه البرامج كل مدينة وقرية في إنجلترا) لم يكن يتصور أحد العصر الجديد الذي انبجج فجره ، ولذلك لم تكن لتصميمات تضمن إقامة جاراجات للسيارات .. ولم يكن يحلم أحد بأن يتمكن العامل العادي من شراء سيارة ، ومن ثم فإنه لن يحتاج إلى جراج ولذلك فإن أحدث الأحياء السكنية في إنجلترا تزدهم بالسيارات التي تسد الشوارع والطرق المحلية والريفية .. وتمثل الطرق مشكلة كبيرة في إنجلترا وتعاني البلاد أيضاً من مشكلة السيطرة على حركة المرور (وكان يجب أن تثير الطرق مشكلة في فرنسا ولكن هذا لم يحدث إذ أن فرنسا بها كثير من الطرق الفرعية ، غير أن هذه الظاهرة غير متوفرة في إيطاليا وألمانيا) .

ويطلق على مستر ماكيلان أسماء مختلفة في الصحف .. وربما كانت هذه الظاهرة ترجع إلى شعبيته وتنتشر هذه الأسماء حتى بين الذين ينتقدونه بشدة ، فقد أطلق عليه مثلاً : ماك العجيب ، و : ماك البارغ ، و : ماك السيد ، و : ماك اللطيف ، و : ماك الشهيد ، و : ماك الخيالي ، و : ماك الوطني ، (وأطلق عليه هذا الاسم أثناء أزمة قناة السويس) و : ماك ماهر ، و : ماك السريع ، و : ماك جيكل ، و : سوبر ماك ، و : ثارماك ، (أي المهندس الكبير بعد نشوب أزمة غربية حول طريق اسمه : ممر بريستون) . وأكرر قولي السابق بأن الطرق وأزمة المرور وركن العربات في الشوارع من المشاكل الهامة في إنجلترا .

والرخاء البريطاني وهو رخاء حقيقى وكبير ، ولكن لا يعنى ذلك انعدام القلق في المجال الاقتصادى .. فقد سبق أن قلت : إن البطالة قد

انخفضت إلى حد كبير ، ولكن لا يزال يوجد بعض العاطلين العنيدون في المناطق الصناعية الشمالية وفي اسكتلنده ، وتبلغ نسبة العاطلين إلى مجموع أفراد القوة العاملة حوالي ١٥٪ / غير أن الفرق بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٢٠ واضح وبين مثل الفرق بين النهار والليل ، ففي ثلاثينيات هذا القرن بلغت البطالة أقصاها وكانت أشد المشاكل خطورة . بل لم يكن لها حل وكانت تهدد بخلق الاقتصاد بأكمله .

أما السبب الرئيسى الثانى للقلق فهو يتعلق بالواردات فبريطانيا دولة تجارية ، ولذلك فهي تعتمد إلى كبير على الاستيراد (فهي تستورد حوالى نصف كمية السلع الاستهلاكية التى تحتاج إليها) ولو لم تفعل ذلك لمات الناس جوعاً . ولكن لا بد من دفع قيمة الواردات . وراء أن الصادرات لا تزال ثابتة فى متواها فإن الواردات قد ارتفعت إلى للضعف سريعاً وازداد العجز فى الميزان التجارى كثيراً عن مستواه فى أية فترة منذ عام ١٩٥٧ وبلغ أخيراً مئات الملايين من الدولارات .. وربما كان السبب فى ذلك هو الرخاء أى زيادة طلب البريطانيين على السلع الاستهلاكية البريطانية ومعنى ذلك أن المنتجات التى كانت تصدر إلى الخارج فى الأوقات العادية أصبحت تستهلك محلياً ، ولكى تمنع الحكومة هذه الظاهرة فإنها اتخذت خطوات عديدة مثل رفع معدل الفائدة فى البنوك وضغط الائتمان ومحاولة تقييد عمليات البيع بالتقسيط بقيود مباشرة .

رابعاً : التأمين ودولة الخدمات .. إن حوالى ١/٥ الصناعة البريطانية الآن يتبع القطاع العام .. ولم يتم تأمين معظم الصناعات الانتاجية التي تعتمد عليها التجارة في بريطانيا إلى حد كبير ، ويحتمل ألا تؤمم هذه الصناعات أبداً .. وقد أتمت الوزارة العالية صناعة الصلب ثم أتمت التأمين ثانية في عهد وزارة المحافظين . ولا تزال الدولة تملك حوالى ١/٧ صناعة الصلب .. أما قائمة الصناعات والخدمات الأخرى التي لا تزال مؤمنة وفي القطاع العام فهي طويلة ومنها محطة الاذاعة البريطانية التي أتمت في عام ١٩٢٧ والسكك الحديدية ومعظم شركات الطيران المدني (وليس كلها) وبعض شركات النقل البرى (وليس كلها) وبنك إنجلترا (عام ١٩٤٥) وصناعة الفحم العظيمة الأهمية (١٩٤٧) والغاز والكهرباء والمواصلات السلكية واللاسلكية وخدمات البريد والبرق. ولا بد من أن نذكر في هذا المجال أيضاً تمويل عمليات الإسكان ومشروع التأمين الوطنى الذى يتيح الضمان الاجتماعى على أساس متقدم وشامل ، والخدمات الصحية التي تقدمها الدولة وقد اقترح هذا البرنامج الصحى المحافظون لا العمال وكانت حكومة أتلى الأولى هي التي وضعت في حين التنفيذ ، أما اليوم فان الخدمات الصحية لا تقدم بشكل فعال فحسب .. بل إنها موضع تقدير المواطنين بجميع فئاتهم ، وتدفع وزارة الخزانة حوالى ٦٥ ٪ من نفقاتها .

والواقع أن المواطن البريطانى في الظروف العادية لا يدفع إلا مبلغاً اسمياً للطبيب الباطنى أو لطبيب الأسنان أو للدواء مدى حياته كلها من المهد إلى اللحد . هذه الحقيقة قد لعبت دوراً مقنعاً في الانتعاش الحالى.

وفي زيادة القوة الشرائية القومية . وذلك لسبب بديهي وهو أن الجزء الذي كان فيما سبق مخصصاً في ميزانية كل أسرة للعناية الطبية يمكن أن ينفق الآن على حوائج أخرى إبتداءً من لحم الخنزير في طعام الافطار إلى مسجل الصوت . فقد استبعد تماماً الآن باب من أبواب الاتفاق الرهيبة التي يستنزفها المرض الطويل الممض وهو ليس أمراً محبباً في حد ذاته فحسب ، بل إنه يطلق اليد للتصرف في قدر كبير من المال في وجوه أخرى نافعة ، تلك نقطة واضحة ولكنها لا تدرك دائماً . وثمة نقطة أخرى ترتبت على توفر الخدمات الصحية القومية ، وهي أن المواطنين لا يترددون في زيارة الطبيب عند مبدأ ظهور أعراض المرض بما أدى إلى إنقاذ حياة الكثيرين .

إن حكومة ما كيلان حكومة محافظة بلا شك ، ولكنها في نظر الأمريكيين تنحرف قليلاً نحو اليسار في معظم الموضوعات . والواقع « الماكيليين » قد أطلق عليهم الأعضاء الثوريون اسم « المحافظين اليساريين » كما يطلقون عليهم أيضاً عبارة أخرى محببة وهي : المحافظون القرمزيون ، والأصل في سياسة ما كيلان هو ممارستها كالشطرنج ، فهو يتمسك بمركز منيع في الوسط مهما كان الثمن . ولكي يصل رئيس الوزراء إلى تحقيق هذا الهدف يتحتم عليه أن يحصل على قدر معين من موازنة اليسار ، وقد ظن بعض المراقبين بعد الانتصار الثالث الواضح الصريح لحزب المحافظين سنة ١٩٥٩ أن ما كيلان سوف ينتقل إلى صفوف اليمين حتى ولو كان ذلك لأنه أحد أعضاء حزب المحافظين ، وهو بالطبع

الطريق المأمون من الناحية السياسية ، ومع ذلك فهو لا يزال متمسكاً
بمركزه الذى يميل قليلاً إلى اليسار .

وهذا هو ما يثير غضب حزب العمال ويجعل من الصعب على العمالين
أن يقودوا حملة انتخابية ناجحة ، فقد أخذ الثوريون حماسهم ، وبالإضافة
إلى ذلك فقد انقسم حزب العمال على نفسه انقساماً شديداً فى موضوعين
هما : التوسع فى تأمين الصناعة ، والدفاع .

وقد اضطر مستر جيتسكل وهو من أكثر الأعضاء علماً وذكاء
ووطنية إلى استنفاد وقت أطول وحيوية أكثر فى محاربة جناح من
أنصار حزبه عما يتطلبه من ذلك فى مواجهة ما كيلان وحكومته .

خامساً - وأخيراً - إن بريطانيا لم تعد دولة عظمى . فهى من غير
شك فى قمة الصف الثانى من الدول ، ولكنها ليست فى مستوى الاتحاد
السوفييتى أو الولايات المتحدة . . وربما كان هذا التغيير بالنسبة لكل
ما ذكر فى هذا الفصل هو أكثرها عمقاً وأجدرها بالملاحظة حيث إن
بريطانيا ظلت ما يقرب من مائة عام الدولة العظمى فى العالم بلامنازع
وليس من الهين مطلقاً على دولة عظمى أن تتنازل عن مكانتها . وفوق
ذلك فإن الإمبراطورية البريطانية ككتلة منفصلة عن الكومنولث قد
اختفت من الوجود وهو تطور من الأهمية ، بحيث يتحتم علينا أن نبخسه
بمزيد من التفصيل .

أقول نجم الإمبراطورية

لقد ألقى مستر ونستون تشرشل — كما كان يلقب وقتذاك —
في ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٤٢ خطبة مشهورة في مانشن هاوس قال فيها
متحدياً بطريقة القوية الغلبة : انه لم يصبح رئيساً للوزراء ليشراف
على تصفية الإمبراطورية البريطانية ، ولكن اليوم وبعد مرور فترة من
الزمن لا تتجاوز العشرين عاماً على هذا التاريخ قد تحققت بالضبط هذه
الظاهرة نتيجة لتطور من أغرب تطورات التاريخ — كما سبق أن
ذكرت في مكان آخر من هذا الكتاب — إذ أن تصفية الإمبراطورية
ذلك الاحتمال الذي رثى له تشرشل في مرارة وألم ، والذي لم يتصور
إمكان حدوثه في لحظة من اللحظات قد أوشك أن يكون حقيقة واقعة.

فمنذ الحرب ، تحررت ، المحميات البريطانية التالية التي كان يشار
إليها في نغز وكبرياء باللون الأحمر في خريطة كل طالب .

آسيا	عدد السكان	المساحة بالأميال المربعة
الهند	٤٢٠٠٠٠٠٠٠	١٢٩٦٦٤٠
باكستان	٨٦١٧٦٠٠٠	٣٦٤٧٢٧
بورما	٢٠٨٥٦٠٠٠	٢٦١٧٨٩
سيلان	٩٣٦١٠٠٠	٢٥٣٣٢
إسرائيل	٢٠٦٢٩٠٠	٨٠٤٨
الأردن	١٦٠٠٠٠٠	٣٧٠٠٠
جنوب شرقى آسيا		
ملايو	٦٦٩٨٠٠٠	٥٠٦٨٠
حوض البحر الأبيض		
قبرص	٥٤٩٠٠٠	٣٥٧٢
أوروبا		
أيرلندا	٢٨٠٠٠٠٠	٢٦٦٠٠
أفريقيا		
مصر	٢٥٠٠٠٠٠٠	٣٨٦١١٠
السودان المصرى الانجليزى	١٠٢٢٥٩١٢	٩٦٧٥٠٠
غانا (ساحل الذهب سابقا)	٤٩٠٠٠٠٠	٩٢٠٠٠
نيجيريا	٣٤٦٠٠٠٠٠	٣٧٧٣٢٥٠
الصومال البريطانى	٦٠٠٠٠٠٠	٦٨٠٠٠
المجموع	٦٢٥٤١٩٨١٢	١٠٢٣٧٦

ويجدر بنا أن نتحدث الآن في إيجاز عما حدث . . فمصر قد أصبحت من الناحية القانونية دولة ذات سيادة منذ عام ١٩٣٦ . ولكن بريطانيا ضيقت الخناق عليها ، وقد استعادت بريطانيا سلطانها هناك أثناء الحرب بشروط غامضة مهمة . . ثم أعيدت السويس إلى الحكم المصري سنة ١٩٥٠ . . وكذلك السودان المصري الانجليزي فإنه لم يكن في يوم من الأيام من الناحية الرسمية جزءاً من الامبراطورية البريطانية . . ولكنه كان من جميع النواحي الأخرى مقاطعة بريطانية (بل مقاطعة نموذجية أيضاً) إلى أن تم التوقيع على الاتفاقية السودانية بين بريطانيا ومصر في ١٢ من فبراير سنة ١٩٥٢ .

وثمة نقطة أخرى ذات وزن خاص : هي أن معظم الدول التي تحررت أخيراً ما زالت تحتفظ بروابط وثيقة ببريطانيا من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، كما أنها من الأعضاء المخلصين في الكومنولث الذي تمخضت عنه الامبراطورية البريطانية هذا على الرغم من أن تلك الدول قد أصبحت بلامنازع دولاً ذات سيادة ، وقد جاء ذلك كله نتيجة للتطور الدستوري الذي لاعنف فيه ولا شدة ، كما جاء نتيجة لبعده النظر الذي طبع عليه الحكم البريطاني . فلم يعد علم الاتحاد يرفرف فوق هذه الدول ، ولم يعد لها حكام بريطانيون ولكنها ما زالت تربطها بلندرا ومعظم الدول الأخرى الأعضاء في الكومنولث وشائج ودية وثيقة . يستثنى من ذلك بورما التي انسحبت في صراحة ووضوح من الكومنولث وكذلك فعلت أيرلندا . . وأكرر فأقول إن كم هذا أعنى إطلاق الحرية لأكثر من ٦٠٠ مليون من البشر — كان مثاراً للدهشة ، لا لشيء .

إلا لأنه قد حدث بسرعة مذهلة . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الحركة لم تنته بعد بأي حال من الأحوال ، فلاشك أن تحال الامبراطورية يأخذ مجراه بسرعة متزايدة . فهناك سيراليون على الساحل الغربى من أفريقيا ، توشك هي الأخرى أن تتحرر ، وتنجانيقا على الساحل الشرقى واثى يحتمل أن تستكمل حكمها الذاتى الكامل فى خلال سنتين ويكاد يكون من المؤكد أن تتبعها كينيا وأوغندا .. أما الاتحاد الأفريقى الأوسط (الذى يتألف من جنوب روديسيا وشمال روديسيا ونياسالاند) فقد مزقته الأزمة المستمرة . فالحكام البيض (الذين يعتبرون قوميين تماما كالسود) يريدون وضع استقلاليا كاملا داخل الكومنولث ، والأفريقيون فى نياسالاند لم يعد من الممكن التحكم فيهم داخل الإطار الهش المشلول لهذا الاتحاد . . وفى الجانب الآخر من العالم يتقدم اتحاد جزر الهند الغربية فى خطى متعثرة بعض الشيء نحو حكم ذاتى كامل ولنلقى نظرة على بعض القواعد مثل سنغافورة التى اختلق بها البريطانيون الدهاء وضعاً جديداً لا مثيل له ، ومالطة فى حوض البحر الأبيض حيث يزداد الشعور القومى فى عنف وشد .

، وأخيرا زنجبار فى المحيط الهندى حيث أخذت القومية فى التعبير عن نفسها فى إصرار وإلحاح ، وقد تفاقم الموقف بواسطة الدعاية والتسلل السياسى من الصينيين والشيوعيين . وخلاصة قصة الاستعمار من مزارع الملايو إلى صحارى نيجيريا الشمالية — تلك الأبعاد التى لا مثيل لها والتى تقارب بعد القمر عن الأرض — ومن جزر البحر الكاريبى الغنية والتى تقع على مقربة من الولايات المتحدة إلى مرتفعات تنجانيقا الجافة

الوعرة — خلاصة هذه القصة هي : « إلى الزوال . . . إلى الزوال ! » ثم إلى الزوال التام .

ما الذى أدى إلى هذا التطور ؟ . إلى هذا التخلي عما يوشك أن يكون ربع العالم ؟ هناك أسباب واضحة كما سبق أن قلت فى كتابي « داخل أفريقيا » — تبدأ من دور ويلسون الذى أعلن فى باريس سنة ١٩١٩ مبدأ حق الأمم الصغيرة فى تقرير مصيرها إلى الاعتبارات المعنوية فى عالم الأخلاق ، بأن الاستعمار خطأ من الناحية الاخلاقية ولا يمكن العمل به ، وقديم قدم النخاسة .. وكذلك أجبر البريطانيون على الجلاء فى كثير من المناطق . فقد تخلوا عن معظم أراضيهم الشاسعة بسبب بسيط بدائى هو أن المجتمع المتخلف حالما يبصر بالحضارة الحديثة يصبح من المستحيل كبت الشعور القومى فيه إلا بنفقات مالية باهظة وجنود وأسلحة ودماء . ولكن هناك عوامل أخرى أيضاً . فهل بريطانيا — وحدها بين الدول المستعمرة — لديها هدف واضح ، وهو التدريب المنتظم للتدريجي لمستعمراتها حتى تحكم نفسها فى النهاية . . ولا أقصد من ذلك أن أسرف فى إبراز العوامل المثالية .

إن لفظ « فى النهاية » هو كلمة السر ، فلم يتوقع أحد أن يأتى فيضان الحكم الذاتى بهذا الاندفاع ، وثمة عامل آخر وهو ذلك المبدأ البريطانى القديم المحبب والذى عبر عنه مرة ارنست بيفن وزير الخارجية الراحل بقوله « اعط وابق » وهذا معناه أن البريطانيين كانوا يأملون بخروجهم فى الوقت المناسب وتحقيق الآمال القومية للشعوب المستعمرة

عاجلا لا آجلا أن يبقوا في ذكاء وكياسة على سيطرتهم السياسية ومصالحهم الاقتصادية .. ومع ذلك فإن هذا المبدأ لم تثبت صحته في كل الحالات .. فلا شك مثلا أن بريطانيا لا تسيطر على الهند التي يتزعمها نهرو، بيد أن العلاقات البريطانية مع الهند قد تحسنت كثيراً وأصبحت أقل عنفاً وأجدى بكثير مما كانت عليه قبل الحرب كما انتعشت فعلا التجارة البريطانية مع الهند انتعاشاً كبيراً .

ولكن فلنسأل هذا السؤال الذي يتردد في الأذهان ألا وهو هل الشعوب المتخلفة مستعدة حقيقة للحكم الذاتي ؟ .. ألا يجب أن تظل الوصاية عليها أكثر من ذلك ، ؟ .. ان الكثير منها بالطبع ليس على استعداد لذلك (ولننظر إلى الكونغو مثلا) كما أن معظمها لا يزال في حاجة إلى التوجه السياسي وإلى المعونة الاقتصادية ، ومع ذلك فإن موضوع الجدارة لا يمت إلى ما نحن فيه بصلة ما . فقد فات أوانه . ولم تعد له علاقة بالموقف الحاضر . فسواء أكانت الشعوب المستعمرة مستعدة للاستقلال أم لا من وجهة النظر المثالية فنيتها الحصون عاياه ، ولن تستطيع قوة أن توقفها عن تحقيقه . والمشكلة الحقيقية هي كيف تستمر الوصاية عليها بعد الاستقلال انها بإيجاز تنحصر في كيفية منح الدول الحديثة الاستقلال والتي قد تحمل لمستعمرها التداي قدرا كبيرا من الحقد الثقة في حسن نية العالم الغربي الديمقراطي ومقدرته وسعة أفقه . وإذا لم يتم ذلك فإن البديل الوحيد له هو الفوضى والانهار أو الشيوعية أو ربما الثلاثة معاً .

والرجل المسئول مسئولية إيجابية عن تلك العملية الضخمة وهي عملية تصفية بقايا الامبراطورية البريطانية واذابتها هو ايان نورمان ماكلويد ذلك الشاب الاسكتلندي الشهير الذي تولى وزارة المستعمرات منذ عام ١٩٥٩ . . ومستر ماكلويد مواطن قدير فرح ذو عقل راجح لامع كالعملة الفضية الجديدة واثق من نفسه صعب المراس بأحسن ما في هذه الكلمة من معنى . وقد تقدم الصفوف لأول مرة عندما هاجم أنورين بيفان تلك الشخصية العظيمة في نقاش حول الشؤون الصحية ، ورغم أن بيفان الذي يعتبر أقوى مناظر في المجلس بعد تشرشل كان يصدر عن حجج متفق عليها إلا أن ماكلويد الشاب قد هزمه هزيمة منكرة .

وهو من سلالة اسكتلندية كما أنه ينحدر من آل ماكلويد الذين عاشوا في جزيرة لويس؛ كان والده طبيباً وهو ينتمي إلى الطبقة الوسطى . وقد تلقى تعليمه في مدرسة فيتس وهي مدرسة خاصة ذائعة الصيت في أدنبرة (رغم أنه ولد في إنجلترا) ثم أتم دراسته في جامعة كمبردج . وقد روى لي أن البريدج والمسرح كانت هي هواياته الرئيسية في جامعة كمبردج كما كان يحب التمثيل ، أما من الناحية السياسية فقد كان حسب قوله « قمرانياً إلى حد ما ، في شبابه ، أما أبوه فقد كان ينتمي إلى حزب الأحرار . ثم جاءت الحرب وأصيب ماكلويد في فرنسا بجرح أليم في ساقه . . وعين مدرساً في إحدى الكليات وأصبح « ميجور » ثم نزل في نورماندي بفرقة في يوم « القيامة » وكان من الضباط المحاربين في هذه المنطقة المجاورة للشاطئ . وقد اشترك في عمليات حربية كثيرة حتى انتهاء الحرب وبعد ذلك ظل يعمل في الترويج .

وبعد انتهاء الحرب ظل ما كلويد يشغل وقته بلعب البريدج والشطرنج وقد كان من المهارة بحيث أصبح بطل إنجلترا في البريدج وظل يعمل مراسلا للبريدج لصحيفة « صنداي تايمز » وقد ألف كتابا بعنوان البريدج لعبة سهلة « ونشر الكتاب في عام ١٩٥٢ » ، وكان في نفس الوقت مولعا بالسياسة، ولذلك فانه قرر أن يصبح من المحافظين.. وحصل على منصب هام في هذا الحزب ، وعين رئيساً لقسم البحوث الشؤون الداخلية للحزب وانتخب ما كلويد عضواً في مجلس العموم عام ١٩٥٠. وارتفع نجمه سريعاً ، وفي خلال عامين أصبح وزيراً للصحة ، ولا شك في أن هذا سجل لم يوات أحداً من قبل ، وفي عام ١٩٥٥ عين وزيراً للعمل والخدمات الوطنية ، ثم وزيراً للمستعمرات في ١٩٥٩ ولما وقع أنه لم يكن يلتفت كثيراً إلى شؤون المستعمرات بل إنه لم يشترك في أية مناقشة للسياسة الاستعمارية حتى ذلك الوقت الذي عينه فيه ما كيلان في هذا المنصب .

ولا يختلف اثنان في أن ما كلويد رجل ذو مستقبل باهر ، وكان يحتمل أن يتولى وزارة الخارجية في التعديل الوزاري الذي حدث في صيف عام ١٩٦٠ ، ولكن ربما شعر ما كيلان بأن نجمه يرتفع بسرعة مذهلة وأنه مازال أمامه الكثير من الواجبات التي يجب القيام بها في شؤون المستعمرات ، غير أن الأمل كبير في أن يتولى رئاسة الوزارة في يوم من الأيام ، على الرغم من أن رئيس الوزارة الذي قد يحل محل ما كيلان بعد اعتزاله السياسة سيكون أكبر منه سناً مثل بتلر .. وجدير بالذكر

ان ماكلويد لا يتعدى السابعة والاربعين، أى أنه ما زال يعد من الناحية العملية طفلا بين الساسة البريطانيين ، ولذلك يجب عليه أن ينتظر قليلا ، وعندما أصبح وزيراً للصحة فى سن التاسعة والثلاثين ، أى أنه كان فى ذلك الوقت من أصغر الوزراء فى تاريخ إنجلترا ، احتج البعض إلى تشرشل وقالوا له : ان ماكلويد صغير جداً على ذلك المنصب ، غير أن رد تشرشل على هذا التعليق كان كمايلى : إنه كفء جداً بالنسبة لعمره .

كيف لم تتغير إنجلترا

نستطيع أن نذكر فى هذا بعض الأمثلة البسيطة . فدكا أن نظام البوابين سيظل قائما بالرغم من قيام أى تغيير فى فرنسا ، فإن فنادق لندن ومحلاتها ستظل تحتفظ إلى يوم القيامة أو ما بعدها بالوسطاء ذوى الشوارب المدببة اللامعة الذين يرتدون ملابسهم الأنيقة ويضعون الميداليات التى تثبت خدمتهم الطويلة ، بل إننا نعتقد اعتقادا راسخا أنه لن تعلق ذرة واحدة من التراب على جانبي عربات الرولرزوين . . . وهناك عوامل أخرى ثابتة لا يمكن أن تتغير مثل أغصان اللبلاب التى تتدلى على جدران المنازل فى القرى ، وحرية الخطابة فى « هايدبارك » ، والرسائل التى يبعث بها القراء إلى صحيفة التايمز ، والتقاليد الشديدة المتبعة فى المحاكم ، وأشكال الكاتدرائيات والنساء الطويلات اللاتى يولعن بالصيد واطلاق النيران ، ولا شك فى أن البريطانيين لم يختلفوا أبدا فى أن السياسة هى العمل الأول فى البلاد ، وسيظلون دائما يحترمون الوظائف العامة وينتجون رجالا موهوبين يميلون إلى الشذوذ ، ومثال

ذلك المارشال مونتهجرى الذى قال، فى خلال زيارة لكثير من معاقل الشيوعية ، إن المكان الوحيد الذى تسمع فيه أحاديث الحرب هو العالم الغربى . .

ولكن يجب أيضا أن نذكر شيئاً على جانب كبير من الأهمية ، وقد صرح لى أحد الشبان البريطانيين بأن انجلترا ما زالت دولة تحتفظ بضميرها بشرط عدم تدخل الضمير ، طالما كان يتمتع بقدر معقول من الرفاهية الاقتصادية ، وما من دولة فى العالم تفخر بحرياتها المدنية مثل بريطانيا ، ربما كانت هى الدولة الوحيدة التى تستطيع أن تدخل الحرب نيابة عن دولة أخرى فقد دخلت الحرب العالمية الأولى نيابة عن بلجيكا وبنى ارب العالمية الثانية نيابة عن بولندا على الرغم من قيام بواعث أخرى بدورها فى هذين الحادثين . وتعتبر بريطانيا دولة ثابته فى انكارها وهى لا تزال تحترم انشقاق البعض عن الكنيسة التقليدية ، ولا تزال أيضا تحتفظ بقدرتها على الاحتجاج فى مجال السياسة ، ولا تزال تؤمن بالحق والصواب .

١٥ — الدفاع ونزع الأسلحة الذرية

هناك موضوعان هاما يشغلان انجلترا في الوقت الحاضر وهما أولا الدفاع بما في ذلك حلف شمال الأطلسي ، ومشكلة نزع الأسلحة الذرية الغربية ..

وثانياً السوق المشتركة .. وكلاهما من المسائل العامة التي تشغل أوروبا كلها ، كما أنها يدلان على الاختلافات الواضحة بين أوروبا فيما قبل الحرب الأخيرة وأوروبا اليوم . والواقع أن حلف شمال الأطلسي والسوق المشتركة لا تقلان أهمية عن أية تغييرات أخرى حدثت في هذه القارة في الربع قرن الأخير .

إن الدفاع مشكلة عسيرة الحل في انجلترا . ونبدأ حديثنا الآن بالمقدمة التالية وهي أنه ليس من الممكن الدفاع عن هذه الدولة في عصر الصواريخ .. إذ كنا ننظر إلى الموضوع نظرة مجردة . وإذا أن بريطانيا هدف سهل كما أنه ليس هناك أية دولة هامة في العالم أكثر تعرضاً للهجوم الذري من بريطانيا ، إذ أنها صغيرة المساحة ومكتظة بالسكان (٧٠ ٪ من سكانها يعيشون في ثلاث مناطق حضرية كبرى) كما أنها قرية جدا من قواعد الصواريخ السوفيتية في ألمانيا الشرقية ، ويقدر البعض أن تحطم بريطانيا كلية لن يتطلب إلا إلقاء عدد من القنابل قوتها ٦٠ مليون طن . ولا ريب في أن كل هذه الحقائق قد كانت لها نتائجها وعواقبها على الوعي القومي . فقد يعيش السائح شهوراً في إيطاليا

مثلاً دون أن يسمع كلمة واحدة عن الحرب الذرية أو القنابل ، بل إن هذه الأشياء لا تخطر على بال أحد ، وعكس ذلك تماماً ما يحدث في إنجلترا ، فلا يخشى البريطانيون الاتحاد السوفيتي فحسب ، بل إنهم يخشون قوة أمريكا العسكرية ، والصين أيضاً . . فقد تناولت طعام الغداء في مجلس العموم مع أحد أصدقائي وبعد الانتهاء من تناول الطعام لوح لي صديقي بيده مودعاً :

« آمل أن أراك ثانية في القريب العاجل ، أي إذا لم يحصل الصينيون على القنابل ويلقونها علينا صباح غد ، .

وعلى الرغم من انتشار الرعب من الدمار الناجم عن الحرب الذرية في إنجلترا فإن الحكومة ليست على استعداد لإنفاق الأموال اللازمة لتجنب هذه الحرب . وهي أيضاً غير قادرة على القيام بذلك . ويبلغ إجمالي ميزانية الدفاع في بريطانيا حوالى ١٦٠٠ مليون جنيه أو بالأحرى ١٠٪ من ميزانية الدفاع الأمريكية . وتنفق الولايات المتحدة الآن على أبحاث الصواريخ وحدها أكثر مما تنفقه بريطانيا على جميع الأسلحة العسكرية البرية والبحرية والجوية . وبريطانيا مضطرة بالطبع إلى الانفاق على الأسلحة التقليدية والذرية أيضاً . . والحال كذلك أيضاً بالنسبة للولايات المتحدة . ولكن نظراً لموقع بريطانيا الجغرافي الخاص فإنها تعطى الأولوية للأسلحة التقليدية ، أى للدبابات والأسلحة التي يستخدمها المشاة في الحروب المحدودة النطاق . . وينتهى التجنيد في بريطانيا في عام ٩٦ .

وفي أبريل عام ١٩٦٠ نشبت أزمة حول السلاح غير التقليدي الجديد وهو « الصاروخ المتوسط المدى » الذي يكفي مداه لضرب الأهداف الهامة في الفلك السوفيتي . ولكن لم يكن من الممكن إطلاق هذا الصاروخ إلا من قاعدة ثابتة ، واتضح أن هذه الصواريخ ستصبح عديمة القيمة تماما بمجرد أن تبدأ في العمل ، فمن المعتقد أن الصواريخ السوفيتية القصيرة المدى تستطيع تدمير قواعد الصواريخ الثابتة والصواريخ المتوسطة المدى نفسها قبل انطلاق هذه الصواريخ من الأرض . وثمة نقطة ضعف أخرى وهي أن هذه الصواريخ تستخدم الوقود السائل . . . ولكن عقدت آمال كبيرة على هذا السلاح رغم أن نفقات الأعمال التمهيدية كانت تبلغ حوالي ٦٥ مليون جنيه ، وهذا مبلغ كبير بالنسبة ل إنجلترا .

وسوف تبلغ تكاليف استكمال المشروع ما يتراوح بين ٥٠٠ مليون جنيه و ٦٠٠ مليون جنيه وقد ثارت ثائرة الناس بمد البيان الذي ألقاه هارولد والدوانكينسون وزير الدفاع في مجلس العموم البريطاني والذي قال فيه إنه لا بد من صرف النظر عن المشروع . وقال جورج براون أخصائي حزب العمال في شؤون الدفاع إن هذا هو « أكبر انهيار وزارى في العصر الحديث » ، وقيل إن هذا الموضوع كان عبارة عن « نهاية » لمحاولة بريطانيا اتخاذ سياسة رادعة مستقلة . ولكن حكومة ماكيلان تمكنت من تحمل هذه العاصفة الشديدة التي هددتها .

ولعل عبارة « سياسة رادعة مستقلة » هي مفتاح لكثير من المشاكل ، فهي تعنى باختصار ، القدرة على الانتقام بواسطة الأسلحة

النرية — سواء أكان الحلفاء يؤيدون انجلترا أم لا ، ولم يكن صحيحاً طبعاً القول بأن الصواريخ المتوسطة المدى كانت ستعتبر الرادع الوحيد الذى تمتلكه بريطانيا ، فهي دولة نامية إلى حد بعيد ، وهي تمتلك الكثير من المنشآت النرية ، كما أنها تنتج القنابل الذرية والهيدروجينية . وأهم ما فى الموضوع هو إنقاذها . . . وفى السلاح الجوى الملكى قوة صغيرة من قاذفات القنابل القصيرة المدى ، وهي توازن القيادة الجوية الاستراتيجية فى الولايات المتحدة التى تتألف من الطائرات طراز مقاتلات « ف » ، التى تحمل الأسلحة ذات الرؤوس الذرية وهذا فى الوقت الحاضر هو الرادع الذرى المستقل الوحيد الذى تمتلكه بريطانيا . ولا قيمة — طبعاً — لهذه القوة بمقارنتها بقوة الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى ومعداتها .

والواقع أن كلمة « رادع » مليئة بالأخطاء . . فهل تستطيع أية دولة أن تصبح من الدول الكبرى فى العصر الحديث ما لم تملك رادعاً ذرياً وفى نفس الوقت تكون مستقلة عن غيرها من الدول .

وتدور الآن فى بريطانيا مناقشة كبرى حول هذا الموضوع ، ويؤيد الحزب طبعاً سياسة الردع ، بينما توجد عناصر قوية فى حزب العمال تركز فى نقابات العمال تعارض بشدة هذه السياسة ، وهي تدعو إلى نزع الأسلحة الذرية من جانب واحد . وهذا ما سنتعرض له الآن .

ويعتبر موضوع الرادع موضوعاً شائكاً فضلاً عن الانقسام الخطير الذى يحدثه فى صفوف حزب العمال . وبعد أن ذهب مشروع

الصواريخ المتوسطة المدى أدراج الرياح وأصبحت المقاتلات طراز . غير ملائمة فما هو الرادع البريطاني إذن ؟ أو بعبارة أخرى (كما قال مستر واتكنسون) ما هي مساهمة بريطانيا المستقلة في القوة الرادعة التي يمتلكها الغرب بصفة عامة ؟ ، وكيف يمكن الدفاع عن بريطانيا نفسها لو حدث أى انقسام في التحالف الانجلو أمريكى أو لو افترضنا لإخراج أية حكومة في المستقبل لبريطانيا من حلف شمال الاطلسي ؟

ويبدل الموقف الحالى بوضوح على أن القوة الرادعة البريطانية لا بد من أن تقوم على أساس استمرار ارتباط بريطانيا الوثيق بالولايات المتحدة ، وهناك مشروع بشراء بريطانيا للصواريخ التي تنطلق من الجو إلى الأرض والمسماة « سكايبولت » والطائرات التي تستخدم هذا النوع من الصواريخ تستطيع أن تطلق الصاروخ وهي على بعد ١٠٠٠ ميل من الهدف ثم تعود ثانية إلى قاعدتها دون أن يصيبها أى ضرر ، غير أن هذا النوع من الصواريخ لا وجود له إلا على الورق فقط ، ولن يكون من المستطاع إنتاجه قبل عام ١٩٦٤ أو ما بعد ذلك ، وعلى أى حال من الأحوال فقد وضعت الخطط التفصيلية ولتسكامل ، مشروعات إنتاج هذه الصواريخ في المستقبل في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وقد تحمل النماذج المتطورة من مقاتلات « ف » ، هذا النوع من الصواريخ على الرغم من عدم اتفاق جميع الخبراء حول هذا الموضوع ، ثم إن بريطانيا قد تشرع في إنتاج غواصات ذرية قادرة على حمل الصواريخ طراز « بولاريس » ، أو قد تستخدم هذا النوع من أنواع الصواريخ بطرق أخرى ، والوقود الصلب الذي تستخدمه الصواريخ المتوسطة

المدى، والذي توصلت إليه البحرية الأمريكية، غير أن التكاليف التي يتطلبها تنفيذ البرنامج الكامل - لا لإنتاج صواريخ بولاريس - باهظة، وقد لا يمكن تحملها.

في أبريل من عام ١٩٦٠ خرج حوالي ٢٠٠٠٠ ألف مواطن بريطاني من قرية « أولدستون »، وهي المنطقة التي تجرى فيها الأبحاث الذرية وساروا نحو لندن التي تبعد حوالي ٥٥ ميلاً من هذه القرية. وكان هؤلاء المتظاهرون فرحين ومنظمين، وكانوا يحملون لافتات كتب عليها « أوقفوا صنع القنابل الذرية »، ولا أحد يمكنه أن يتجاهلنا الآن، ووصل المتظاهرون لندن يوم الاثنين التالي لعيد القيامة، وكانوا يؤلفون من بينهم طابوراً طوله أربعة أميال ونصف ميل. إذ ازداد عددهم كثيراً بانضمام كثير من المتحمسين في الطريق وقاموا جميعاً بمظاهرة ضخمة في ميدان الطرف الأغر، اشترك فيها عدد من المواطنين يتراوح بين ٧٥ ألف إلى ١٠٠ ألف شخص.

وكان زعيم المتظاهرين القس ل. جون كولنز وهو من كبار رجال « الكنيسة الإنجيلية ».

وكانت هذه المظاهرة الثالثة من بين المظاهرات التي تدعو إلى السلام، والتي تحمل لافتات تدعو إلى نزع الأسلحة الذرية من الجانب الواحد أما المظاهرة الأولى فإنها قوبلت على أنها لون من ألوان الفكاهة بينما كانت المظاهرة الثانية تجمع بين المثالية والشدوذ البريطانيين.

أما هذه المظاهرة الثالثة فكان لا بد من الاهتمام بها، وذلك أولاً

لأنها كانت منظمة ، ولأنها كانت تضم عدداً كبيراً من الناس ،
وثانياً لأن المتظاهرين لم يكونوا يمثلون المثقفين من اليساريين أى العمال
المعارضين لجيتسكيل أو الشيوعيين أو المسلمين أو الموظفين بل اشترك
في المظاهرة عدد من العمال الفنيين المهمين ويمثل المهن المختلفة وبعض
الشخصيات ذات النشاط الأكاديمي الهام ، وكان من بين المشتركين
في هذه المظاهرة بعض الشخصيات الهامة مثل برتراند راسل
و ج . ب . سريستلي والقائد سيرستيفن كينج هول والبروفيسور
ا . ج . ب . تيلور .

وأصبحت حركة مؤيدي مظاهرات أولدرماستون التي أطلق عليها
رسمياً حملة نزع السلاح الذرى ، — أصبحت من أقوى الجماعات صاحبة
النفوذ في إنجلترا .

وقد سمعت أنها كانت المناسبة الوحيدة في إنجلترا التي جمعت
خمسین ألف متظاهر في الشوارع في يوم واحد . وقد تمخضت
هذه الحركة عن أثر سياسي هام وهو أنها كادت تقضى على وحدة
حزب العمال .

فقد ظل هيو جيتسكيل عاماً بأكمله يقاتل هؤلاء الناس الذين يؤمنون
بالسياسة المستقلة على الرغم من أنهم يضمنون ما يزيد على ربع أو ربما
ثلث مجموع أصوات العمال .

ويرجع سبب ذلك إلى أن عدداً من أعضاء البرلمان المبرزين

فى حزب العمال وزعماء نقابات العمال أمثال فرنك كسفرينز قد اتبعوا هذه السياسة .

وهكذا بدأت نقابات العمال تميل إلى سياسة كسفرينز وبلغ عددها جميعاً حوالى ٢٣ نقابة . وكانت تأمل أن تجعل من هذه السياسة مبدأ من مبادئ الحزب الرسمية .

ولكن كيف يمكن أن يريد هذه السياسة أن انجليزى مشول أو وطنى ؟ وكيف يطالب بوقف إنتاج جميع أنواع الأسلحة الذرية فى بريطانيا بغض النظر عما يترتب على ذلك من النتائج ؟ .

وكيف يمكنهم أن يحرموا المماسكة المتحدة من كل قدرتها على الدفاع عن نفسها إلا بالأسلحة التقليدية فى تلك الفترة التى يتأجج فيها العالم ؟ والافتراض الأساسى الذى يقيم عليه هؤلاء الأشخاص حجبتهم هو أن انجلترا ستزداد قوة وأنها لن تضعف أبداً إذا توقفت عن إنتاج الأسلحة الذرية ودمرت جميع القنابل الذرية والهيدروجينية وانسحبت من حلف شمال الأطلسى وأوقفت العمل فى النوواء الأمريكية .

ويدللون على أنه لو تزعمت بريطانيا حركة نزع الأسلحة الذرية ولم تحتفظ بأية أسلحة ذرية . وتخلصت من ارتباطها بخاف شمال الأطلسى وكذلك الولايات المتحدة فلن يفكر الاتحاد السوفيتى فى مهاجمتها ، حيث لا يوجد أى سبب من أسباب النزاع بين هذين البلدين أى أن أفضل سبيل إلى المحافظة على الأمن والاستقرار ، هو الضعف الكامل .

ويعتقد أتباع جيتسكل من جانبهم أن هذه سياسة جنون مطبق أو ما هو أسوأ من ذلك . وثمة نقطة مثيرة للاهتمام وهي ان أنورين بيفان الراحل قد أيد بشدة وجهة نظر جيتسكل في هذا الموضوع ، ولو أنه امتد به الأجل لكان ذا قيمة لا تقدر لزعامه حزب العمال الرسمية في هذه المعركة .

وقد قال بيفان: إن نزع الأسلحة النووية من طرف واحد معناه أن يذهب أى وزير مفوض بريطانى لحضور أى مؤتمر دولى فى المستقبل « عارياً » .

وقد روى لى أحد أعضاء حزب العمال فى البرلمان وهو يمتاز بنظرته الموضوعية للأمور كما أنه يعارض نزع الأسلحة النووية بعنف وشدة أن أنصار نزع السلاح من طرف واحد يتألفون من ست مجموعات رئيسية وهى .

أ - مثاليون صادقون .

ب - « الواقعيون » من دعاة السلام وتضم هذه المجموعة كثيراً من رجال الكنيسة الذين يريدون تحييد بريطانيا .

ج - الشيوعيون ومريدوهم .

د - الفارون من الواقع الذين لا حل لديهم للآزمات المستحكة إلا وضع رؤوسهم فى الرمال كالنعام .

هـ - المعارضون للسياسة الأمريكية .

و - الخائفون من إعادة تسليح ألمانيا الغربية . إذ أن هناك جزءاً

كبيراً من رأى العام البريطانى لا يزال يكره ألمانيا ويخشها . ويرى هؤلاء أن ألمانيا يجب أن يحال بينها وبين إنتاج أسلحتها الذرية الخاصة فهناك دول أربع فقط فى العالم اليوم تستطيع أن تصنع الأسلحة الذرية وهى — الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا . (وقد أصبح الصين الحمراء بالطبع فى أية لحظة من اللحظات خامسة هذه الدول) . وحجة أنصار نزع السلاح من طرف واحد هى أن ألمانيا الغربية بصنعها للأسلحة النووية الخاصة بها سوف تجعل دولاً أخرى أصغر تحذو حذوها وسوف نجد أنفسنا بعد فترة وجيزة فى موقف يستطيع فيه أى رجل تافه معتوه فى أية دولة تافهة ولتكن براجواى مثلاً — أن يستغل عرضاً حربياً ذرية شاملة تحول العالم كله إلى كومة من الرماد .

والوسيلة الوحيدة للحيلولة دون ذلك (كما يقول أنصار نزع السلاح من طرف واحد) هى أن تنزع الحركة دولة كبرى مثل بريطانيا وتتنازل عن الأسلحة النووية بمحض إرادتها على أمل أن تكون قدوة لغيرها من الدول الأخرى أولاً . وأن تمهد الطريق لنزع السلاح بوجه عام بمقتضى اتفاق دولى ثانياً .

ويؤمن بعض زعماء حزب العمال مثل مايكل فوت وهو رجل قوى ذو نظر ثاقب بأن نزع الأسلحة النووية من طرف واحد سوف يحقق لهم — بعد أربع أو خمس سنين وذلك إذا كتب للعالم البقاء — نصراً حتمياً يستطيعون به أن يفوزوا فى الانتخابات العامة القادمة . وأن يكتسحوا ما كيلان ويستطوه عن مقاعد الحكم . فانبجلترا دولة لا يمكن مطلقاً

أن يتجاهل الإنسان قوة المثالية الكامنة فيها مهما كانت غرابة هذه المثل ، تلك القوة التي قد تتفجر فوق السطح في أية لحظة من اللحظات وزد على ذلك ما تلقاه الفكرة الأساسية من المذهب الحيادي من عطف وإعجاب شديد عند الكثيرين، ولا حاجة بنا أن نقول إن انتصار حزب العمال على أساس تعهده بنزع الأسلحة النووية من طرف واحد سوف يوقع الولايات المتحدة في مشاكل قاسية .

فقد يعنى ذلك نهاية منظمة حلف شمال الأطلسي ، وكذلك مركز أمريكا الدفاعي في إنجلترا . وربما في أوروبا كلها . كما أن كثيرا من أنصار نزع السلاح - من طرف واحد - اليساريين يخشون القواعد الأمريكية في إنجلترا بل ويكرهونها كراهيتهم للقنبلة الذرية تقريبا .

ومن أهم ما وقع كرد فعل لحادث الطائرة رب ٤٧ في يولية ١٩٦٠ وهي إحدى طائرات الاستكشاف الأمريكية التي أسقطها الروس في مياه القطب الشمالي أن قام أنصار حملة نزع الأسلحة النووية بتنظيم مظاهرة صامتة إلى برايز نورتون وهي القاعدة الأمريكية في مقاطعة أوكسفورد التي انطلقت منها الطائرة المشثومة . والحادث ليس خطيرا في حد ذاته ولكنه أظهر من جديد أن القواعد الأمريكية في بريطانيا يمكن استغلالها كسالة داخلية تتعلق ببريطانيا ذاتها .

وعلى إثر هذا حاولت جموع غاضبة من الشعب في كوفنتري أن تفض اجتماعاً عاماً كان يخطب فيه الجنرال لوريس نورستاد القائد العام الأمريكي في أوروبا .

ثم قامت مظاهرات عنيفة في أسكو تلندا عندما أعلن أن هولى لوتش
في مدينة فيرث أوف كلايد بالقرب من جلاسجو سوف تصبح قاعدة
لغوصات الأمريكية المجهزة بصاروخ بولاريس .

وقد لوح المتظاهرون في جلاسجو ولندن بلافتات كتب عليها
أيها الأمريكيون - خذوا صواريخكم إلى بلادكم .

ويقول أنصار نزع السلاح من طرف واحد بإيجاز : لماذا يتحتم
على بريطانيا أن تتعرض لخطر الدمار بسبب خلاف بين روسيا
والولايات المتحدة ؟ فلنكن محايدين

ومن الناحية الأخرى فليس هناك من مبرر يجعلنا نفترض احتمال
بجاح مذهب الحياد في إنجلترا .

أما اليوم فالقوات الأمريكية الموجودة في إنجلترا في مستويات
ثلاث : أولها قاذفات القنابل بعيدة المدى التابعة للقيادة الجوية
الاستراتيجية : وهي قوة أمريكية خالصة، وليس لها علاقة مطلقاً بمنظمة
حلف شمالى الأطلنطي .

ومع ذلك فإن القيادة العليا للقوات المتحالفة لا تحتفظ بالكثير من
قاذفات القنابل العاملة في القواعد الموجودة في الأراضي البريطانية التي
تعتبر مكشوفة إلى حد كبير ، وهذه القواعد تستخدم غالباً لطائرات
التدريب . وعلى الولايات المتحدة من الناحية النظرية أن تحصل على
إذن من الحكومة البريطانية قبل إطلاق أية طائرات تابعة للقيادة العليا
للقوات المتحالفة من القواعد البريطانية في حالة نشوب الحرب .

والمستوى الثانى : هو قاذفات القنابل المقاتلة التكتيكية التابعة لمنظمة حلف شمال الأطلسى . وهى من الناحية النظرية تحت قيادة القائد الأعلى للقوات المتحالفة، وهو فى الوقت الحاضر الجنرال نورستاد الموجود فى مركز القيادة بالقرب من باريس وكان مركز هذه الفرق أولاً فى فرنسا ولكنها نقلت إلى بريطانيا والمانيا الغربية عندما رفض الجنرال ديجول أن يسمح لها بأن تظل فى الأراضى الفرنسية أكثر من ذلك . والسبب فى ذلك إن هذه القوات كانت تدرب على حمل أسلحة ذات رؤوس ذرية التى تفرض الولايات المتحدة سلطانها عليها وديجول كما نعرف جيداً لا يقر وجود أكراس من الأسلحة الذرية أو حاملات الأسلحة النووية التى لا تخضع فى النهاية للإشراف الفرنسى فى الأراضى الفرنسية .

والمستوى الثالث هو مواقع الصاروخ « ثور » ، إذ يوجد على طول الساحل الشرقى لبريطانيا عدد من هذه الصواريخ يبلغ حوالى ستين صاروخاً من الصواريخ الموجهة التى توصلت إليها القوات الجوية فى الولايات المتحدة . وهذه الصواريخ فى حالة استعداد دائم كما أنها موجهة بالطبع إلى مختلف الأهداف الرئيسية فى روسيا والدول التى تدور فى فلكها . وهذه الأسلحة (التى يتراوح مداها بين ١٥٠٠ ميلاً إلى ١٨٠٠ ميلاً) . تخضع لنظام خاص ذى إشراف مزدوج وهى تعمل فى ظل نظام يسمى الفيتو المزدوج ، فسلح الطيران الملكى يختص بتشغيل الأجهزة ذاتها . ولكن السيطرة على الرؤوس الذرية نفسها هو اختصاص أمريكا وحدها . ولإطلاق صاروخ ثور لا بد من وجود رجلين .

أحدهما ضابط بريطاني وآخر أمريكي لتحريك مفاتيح معينة . ويحمل كل منهما المفتاح المحرك حول رقبتة . وقد ظهرت في مجلة فرنسية أخيراً صورة تشيع الذعر في النفوس إلى حد ما للوحة الموجهة للصاروخ ثور وقد كتب على أحد أزرارها « الحرب — السلم » ، وقد التقطت هذه الصورة ونشرت على الصفحة الأولى من السنداي تايمز في لندن ، ثم ظهرت في مجلة التايمز في الولايات المتحدة وحالما يوضع المفتاحان في ثقبهما الصحيحين وبعد مضي ١٤ دقيقة فقط ينطلق الصاروخ « ثور » والواقع أن ظهور صورة فوتوغرافية لهذا الصاروخ المعقد والحساس في الصحف الأوربية أغضب المراقبين الأمريكيين ، وأثار بعض المحادثات في جو من التوتر في إنجلترا . وكان الناس يفكرون في أنه قد يحدث يوماً أن يضغط شخص ما في يوم من الأيام على هذا الزرار خطأ فينطلق الصاروخ رغم جهاز الضبط الثنائي المعقد .

وبعد حادث الطائرة رب — ٤٧ واجه ماكيلان سيلا من الأسئلة الشديدة والمعادية له في مجلس العموم . وكان أعضاء حزب العمال يريدون أن يعرفوا ما إذا كانت الحكومة البريطانية قد علمت مقدماً عن الطائرة الاستكشافية الأمريكية التي قامت من « برايز نور تون » ، غير أن الحكومة لم يكن لديها علم بذلك . وانتهى الأمر بأن وعدت الولايات المتحدة وعداً حازماً بإبلاغ المملكة المتحدة مقدماً بأن طائرة استكشافية يقودها طيارون أمريكيون إذا كانت هذه الطائرة ستقوم من الأراضي البريطانية .

وتتضمن القواعد والمخازن الأمريكية في إنجلترا المنشآت المقامة

في شلفستون وبروتنجنشورب وهيفورد العليا . ومقر القيادة في هاي
ويكومب وبرايز نورتون وفيرفورد وجرينهام كومن وبلاكبوس
(حيث ترابط البحرية الامريكية) والكوبنورى ومولزويرث
وسكالثورب وليكنهيث وهيلس هول وبينتونرز وودبريدج وويندزفيلد
ورويسيلب الجنوبية . والمعروف لكل إنسان أن القواعد الامريكية
قد أقيمت في بريطانيا منذ البداية — بناء على تعاونها الوثيق — في
أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد أغلقت هذه القواعد والمنشآت عقب
الحرب ، ولكنها عادت إلى العمل ثانية في عام ١٩١٨ ردأ على سياسة
الاتحاد السوفيتي أثناء الأزمة التي قامت عند حصار برلين ، وجدير
بالذكر أن هذا قد حدث عندما كانت حكومة العمال تتولى الحكم .
هذا كما أن بريطانيا قد اتخذت قرارها بإنتاج القنابل الذرية والهيدروجينية
في عهد مستر أتلي . وربما كانت أمريكا تشك في الفئة التي تنادى بنزع
الأسلحة الذرية في حزب العمال رغم الضوضاء التي كانت تثيرها ، غير
أن زعماء الحزب الرسميين كانوا دائما يؤيدون حلف شمال الاطلنطي
وينحازون إلى أمريكا .

يبلغ عدد أفراد القوات الامريكية في بريطانيا اليوم حوالى ٥٠٠٠٠
معظمهم تابعون للقوات الجوية . ويبلغ عدد العسكريين في الدول
الاوروبية الأخرى حوالى ١٠٠٠٠ شخص في أسبانيا (معظمهم في
القوات الجوية وبعضهم في البحرية) و ٤٠٠٠٠ في فرنسا معظمهم من
القوات البرية و ١٠٠٠٠ في ايطاليا (من الجيش والقوات الجوية)
و ١٠٠٠٠ في أيسلنده وجرينلاند و ١٩٠٠٠٠ في ألمانيا الغربية (من

الجيش السابع والقوات الجوية) وبالإضافة إلى ذلك يوجد الاسطول السادس في مياه البحر الأبيض المتوسط وهو يضم عدداً من الجنود يتراوح بين ٢٥٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠٠ - وهذه في غاية الأهمية . . وهكذا فان العدد الإجمالي لأفراد القوات العسكرية في أوروبا يبلغ حوالى ٣٣٠ ألف شخص ، وتوجد بإيطاليا وتركيا قواعد الصواريخ جويتر كما يوجد بإيطاليا أيضا صواريخ قصيرة المدى بها رؤوس ذرية .

نبوءة

قالت لى صديقتى الراحلة آن اوهر ما كورميك التى لم أفقد أبداً صحفياً أعز منها - قالت لى فى يوم النصر إنها تعتقد أن الحرب العالمية الثانية قدمت درسین أولهما أنه لن يهاجم أحد روسيا برياً للمرة الثانية وثانيهما أن البريطانيين لن يدخلوا الحرب مرة أخرى .

إن النبوءات لا تصدق فى كثير من الأحيان، ولكن يجب علينا أن نتذكر هذه الملاحظة السابقة .

ما كيلان

عندما أصبح ما كيلان رئيساً للوزارة في يناير عام ١٩٥٧ كان نفوذ بريطانيا وحظها قد وصلا إلى الحضيض في خلال جيل بأكمله ، وكانت هذه الحقيقة تثير دهشة جميع الناس في المملكة المتحدة باستثناء نفسه ، إن تجربة قناة السويس الفاشلة بالنسبة لبريطانيا قسمت الرأي العام البريطاني وساءت العلاقات بين إنجلترا وأمريكا إلى درجة لم تحدث منذ عام ١٧٧٦ أو حوالى ذلك الوقت ، وكان الكومنولث قلقاً ومضطرباً كما كانت الروح المعنوية في الداخل مزعزعة ، وخاب أمل حزب المحافظين وأصبح بلا زعيم وثبطت همته .

أما التطورات التي حدثت بعد مضي ٣٨ شهراً فهي تطورات ظاهرية . إن حرب السويس قد تركت ندبا كبيرا في جبين انجلترا رغم أن الجرح قد التأم ، وعادت العلاقات الطيبة الحسنة بين لندن وواشنطن وأصبحت بريطانيا تمتلك أكبر رصيد من الذهب في تاريخها ، وأصبح موريس هارولد ما كيلان - رئيس الوزراء ووزير الخزانة - زعيم حزب المحافظين بلا منافس وأصبح يعتبر شخصية شعبية تحظى باحترام الناس بصفة عامة وبلغ أقصى مراتب القوة .

ذكرت في فصل سابق بعض الأسماء التي تطلق على رئيس الوزراء

وكان يعرف من خمس سنوات باسم « مستر ما كوثبول » . (أى ماك كرة اللعب) وأصبحت الصحف تسميه ماك النشيط .

إن ما كميلان شخصية معقدة وهو من أصل اسكتلندى وأمريكى وهو آخر من يدعى أن الانتعاش الحالى فى مركز بريطانيا يرجع إليه دون أى شخص آخر ولكنه فى الحقيقة ساهم كثيراً فيه ، وهو يرمز إلى الروح الجديدة فى حزب المحافظين وقد مر بتطور يختلف عن ذلك التطور الذى مرت به البلاد ، فقد كان النجاح سبباً فى انبعاث الثقة فى نفسه .

وعندما أصبح ما كميلان رئيساً للوزارة لم يكن سوى ظل لكتلة الشعب الكبرى وكان فى الحقيقة ظلاً غريباً وعتيقاً ، بل ومثيراً للضحك أيضاً بإشارته المتدلى على شفثيه وكان يبه ووكأنه مشلول الحركة نتيجة لعدم الثقة أو لبطئه .. ولم يكتسب ما كميلان هذه الحيوية التى يتسم بها اليوم بين ليلة وضحاها ، فقد كانت الأشهر الأولى له فى رئاسة الوزارة ثقيلة وبطيئة بالنسبة له وبالنسبة للمحيطين به الذين كانوا يائسين لعجزه عن الاتصال بالجمهور . غير أن الانتخابات التى أجريت منذ وقت غير بعيد أظهرت أنه أبعد رئيس وزراء إلى الشعب فى بريطانيا بعد نيفل تشامبرلين .

ورغم أن ما كميلان محافظ أصيل فى معظم غرائزه وزعيم حزب الثورى إلا أنه ليس ثوريا متعصباً على الإطلاق ، لقد قضى أكثر من عشرين سنة نائراً ضد مبادئ الحزب الجامدة وداعياً إلى المبادئ

الاشتراكية حتى لقب مرة باليساري الخطير ، فليس هناك مستقبل كبير أمام أى سياسى بريطانى فى هذه الأيام مالم يظهر عطفاً ولو لفظياً على الأقل على مبادئ دولة الخدمات ، وبما ساعد مساعدة فعالة على ظهور ماكميلان يقظة ضميره ومثاليته ، وصبغته المحافظة القرمزية ، بالإضافة إلى بعض العوامل الأخرى مثل لبقته ومهارته ، وقد سألت أحد أصدقائه الحميمين عما أدى إلى ذلك التغير البطيء الواضح فى رئيس الوزراء وتحوله من فرد عادى إلى شخصية هامة ، فكان جوابه كما يلي :

« الواقع أن ماكميلان لم يكن فرداً عادياً فى يوم من الأيام . لقد اشتغل بالحياة العامة فترة من الزمن تزيد على ثلاثين عاماً بكثير . حقاً إنه كان غير معروف نسبياً ولكنه لم يكن فرداً عادياً ، وعندما أصبح رئيساً للوزراء أراد أن يستريح فترة ويدرس اتجاهاته ، وكان يعلم أن واجبات معينة تتطلب المعالجة وعليه أن يعالجها ، لقد حدث نفسه قائلاً « لو كنت على شئ من الجرأة فسوف يظهر ذلك مع مرور الزمن ، ثم بدأ يقوم بأعمال جريئة واسعة الأفق ، وبدأ الناس يدركون أن هناك رجلاً ذا حيوية وكفاية وذكاء على صورة فذة » .

وفى مايو سنة ١٩٥٨ ظهر ماكميلان فى برنامج تلفزيونى لادوارد مارو بعنوان « شاهده الآن » ، وقد ظل رئيس الوزراء شهوراً عديدة يعارض فكرة الظهور فى التلفزيون ، فقد كان يكره المقابلات ويكره كذلك سماع الراديو ، فهو لا يضع فى منزله الريقى راديو أو تلفزيون ولا يوجد كذلك تلفزيون فى دوتنج استريت

ثم حدث بعد ذلك أن استيقظ ذات صباح فوجد نفسه نجماً تليفزيونياً فشاهد ملايين الناس في إنجلترا والولايات المتحدة لأول مرة شخصيته الجادة التي عجز الوصف عن تصويرها ، كما لاحظوا آراءه المجددة وصراحته وتواضعه وهدوئه ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن مارداً قد صنع ، ما كميلان ولكنه أعطاه دفعة قوية إلى الأمام في محيط العلاقات العامة . وقد علق رئيس الوزراء على هذا البرنامج معبراً عن رضاه ودهشته قائلاً إنه يستحق خمسة انتخابات فرعية .

الخطوط العريضة للوصول إلى تولى السلطة

يمكن توضيح الخطوط العريضة لحياة ما كميلان السياسية عن طريق سرد بعض التأثيرات التي ساعدت على تكوينه .

أولاً ذلك الإطار الاسكتلندي الذي عاش فيه . . فقد كان جده لأبيه مزارعاً مستأجراً في جزيرة أران ، أما جده دانييل فقد نشأ في فقر مدقع ، ولكنه كان مغامراً ، فرحل جنوباً إلى إنجلترا حيث أصبح بائع كتب ، ثم اشترك مع أخ له في افتتاح مكتبة في كمبردج ، ثم انتقل في النهاية إلى لندن حيث أسس سنة ١٨٤٣ دار النشر المشهورة « ما كميلان » التي لا تزال للآن من أعظم دور النشر في العالم . ثم انضم موريس والد رئيس الوزراء . إلى مؤسسة الأسرة بعد أن درس الموسيقى واشتغل بالتدريس ، وكان هذا الرجل إلى حد ما معتزلاً بالعالم ، خجولاً ، منطوياً على نفسه متديناً .

وكانت أم هارولد ما كميلان أمريكية تدعى هيلين بلز (نلى)
وهي ابنة طبيب في كنتاكي ، مارس الطب سنوات عديدة في مدينة
صغيرة في ولاية أنديانا وهي امرأة ذات شخصية جذابة ملهمة تدفع
على العمل ، تزوجت وهي في الثامنة عشرة من فنان يدعى جون
بيليسلن هيل سنة ١٨٧٤ ، ولكنه توفي بعد شهر قليلة من زواجه ،
ثم رحلت نلى إلى باريس لدراسة الموسيقى ، وهو عمل فيه كثير من
المغامرة لامرأة شابة في ذلك الوقت ، وهناك التقت بموريس ما كميلان
وتزوجا سنة ١٨٨٣ ، وولد هارولد ابنهما الثالث سنة ١٨٩٤ .

لقد كان رئيس الوزراء يحلها دائماً ويحترمها احتراماً عميقاً . وقد
روى لي أثناء حديثه معي في داوتنج استريت منذ زمن غير بعيد أنها
كانت إلى حد كبير لها التأثير على حياته . وكانت مثل والدته روزفلت ،
تسرف في حب ابنها . . ولكنها لم تحاول أن تخرجه من أوهامه . فقد
أرادت له أن يكون طموحاً كما أرادت له أن يكون ناجحاً في حياته ،
مهما تعود على الظهور بمظهر التراخي والوهن . وليس من المؤكد أنها
عند وفاتها في سنة ١٩٢٧ كانت تستطيع أن تخمن فيما إذا كان ابنها
سيصبح رئيساً للوزارة في يوم من الأيام . : وثمة نقطة هامة وهي أن نلى
كانت من العاطفين المتحمسين على فرنسا وقد أجبر هارولد على تعلم
اللغة الفرنسية في طفولته قبل أن يتعلم الانجليزية ، وقد أصبح مغرماً
بالأشياء الفرنسية منذ هذا الوقت .

وقد نجا ما كميلان من الموت بمعجزة في حادث طائرة في شمال إفريقيا

سنة ١٩٤٣ ، فقد أفاق ليجد نفسه في مستشفى مصاباً بحروق خطيرة دون أن يذكر شيئاً عما حدث له . وكانت كلماته الأولى التي نطق بها هي « أخبروا والدتي بأنني على قيد الحياة وفي صحة جيدة » . وكانت أمه في هذا الوقت قد مضى على وفاتها ست سنوات .

ويتحدث كثير من الكتاب الذين لا يتصفون بالدقة عن «استقراطية» ما كيلان كما لو كان تشرشل أو ساليسبري . لا شك أن زيجته كانت باللغة الارستقراطية . فهو ينحدر من سلالة اسكتلندية ريفية مختلطة بدم الطبقة الوسطى الأمريكية كما أنه في معظمه وُلِدَ ما كان يسمى بحق «الطليعة التجارية» .

وثاني التأثيرات هو تعليمه : ربما كان ما كيلان أحسن رؤساء الوزارات تعليماً منذ بافور أو آسكويث أي منذ خمسين عاماً رغم أنه ليس في مستواهما كفكر . وقد تلقى تعليمه في ايتون وكلية باليول وأوكسفورد وكان مغرماً باللغات القديمة فقد كان طالباً نجيباً (ولو أنه كسول إلى حد ما) وقد حدث مرة أثناء الحرب العالمية الأولى أن أصيب بجروح خطيرة فأنفصل عن فرقته ثم عثر عليه رجاله في إحدى الحفر التي أحدثتها القنابل وهو يقرأ آسكيلس باللغة اليونانية .

وهو لا يزال إلى اليوم متشبعاً بقراءاته . فقد كان يتسلى بقراءة كتاب فورد عن تاريخ إنجلترا وهو يتألف من أربعة عشر مجلداً عند عودته أخيراً من استراليا بعد الانتهاء من جولته التي قام بها حول جميع

دول الكومنولث وهي أول جولة يقوم بها رئيس وزراء هول هذه الدول . وعندما قابلته جسون هاى هوتيني السفير الأمريكى السابق فى بلاط سانت جيمس لأول مرة كان مشغولاً بقراءة تاريخ كاي دورساي باللغة الفرنسية . وقد سأله زميل له بعد أن شعر بالاجهاد على أثر جلسة طويلة لمجلس الوزراء عما ينتوى أن يفعله ليسترخى ويستريح . فكان جوابه الذى يشوبه شيء من التحدى هو « سوف أقرأ قصة جيدة » ،

ومع ذلك فإن رئيس الوزراء فى الواقع لا يقرأ كثيراً من القصص هذه الأيام رغم أنه يدمن — كما كان دائماً — قراءة كتابات تزولوب . وقد روى لى أنه يتحول شيئاً فشيئاً نحو قراءة كتب التاريخ وتراجم الحياة . وهو يحب سير الحياة الطويلة الحافلة المليئة بالوثائق ولا سيما عن العظماء والبارزين فى تاريخ بريطانيا . فهذه السير تروى له قصصاً كاملة وتعينه على أن يقرر رأيه فى المشاكل التى تعترضه وقد كان يقرأ تاريخ حياة المرستون فى اليوم الذى التقيت به .

وهو يحب اللغة اللاتينية ولذلك فانه يشير دهشة الناس أحياناً حينما يروى نكتة باللاتينية أو يتلاعب بالألفاظ اللاتينية فى المذكرات الرسمية .

ثالثاً الحرب العالمية الأولى . ترك ما كيلان فى شبابه كلية باليول ليتولى إحدى المهمات فى حرس جريناديه وظل يعمل فى فرنسا سبع سنوات وقد أصيب ثلاث مرات وقد أقعده جرحه الأخير — وكان عبارة عن شرخ فى الحوض — فى الفراش ٢٠ شهراً . وكان اصدقاؤه

يظنون أنه لن يستطيع أن يسير بعدئذ وقد اضطر إلى أن يعيش في تأمل وتفكير طيلة هذه الفترة التي كانت بمثابة فجوة كبيرة في حياته . وقد أظهر كفاءة في عمله، ولكن لم تكن تظهر انبأؤه . ويبدو أنه في شبابه لم يترك أثراً كبيراً في أقرانه سواء في المدرسة أو في الجيش . ونادراً ما يشار إليه في ذكريات تلك الفترة حتى من جانب الذين يعرفونه جيداً .

رابعاً الزواج . سافر ماكيلان إلى كندا في عام ١٩٢٠ ليقوم بمساعدة الحاكم العام وكان في ذلك الوقت هو الدوق التاسع لديفونشير وتزوج ابنة ليدي دوروتى ايفلين كيفينيش .. وكان ذلك حادثاً هاماً في حياته فقد دخل على الفور في دائرة النبلاء وقد حضرت حفل قرانه الملكة الأرملة الكسندرا وحضره أيضاً توماس هاردى وقد بعث ذلك السرور في نفسه

والمعروف أن أفراد أسرة ديفونشير ظلوا أجيالاً كثيرة يحتلون مراكز رفيعة في الحياة الاجتماعية والسياسية وفي البلاط الملكي ، ولذلك عندما دخل ماكيلان معترك السياسة وجد أنه يمت بصلة القرابة ... نتيجة لواجه هذا — لعدد من أعضاء مجلس العموم لا يقل عن ١٦ عضواً . وقد تبين فيما بعد أنه يمت بصلة الدم إلى سبعة من بين التسعة عشر عضواً في مجلس الوزراء وما يقابل عن ٣٠ شخصاً من العدد الإجمالي للأعضاء في الوزارة البالغ عددهم ٨٥ عضواً (يختلف معنى لفظ « مجلس الوزراء » ، و « الوزارة » ، في اللغة الإنجليزية فمجلس الوزراء هو قلب الوزارة الصغير . وقد يرقى أحد الأشخاص

ويصبح « وزيراً » ، أى عضواً فى « الوزارة » ، ولكنه لا يكون عضواً فى « مجلس الوزراء » .

وقد تطور موقف ما كيلان فيما يتعلق بأقاربه سريعاً وبعد التعديل الوزارى الذى حدث فى نوفمبر من عام ١٩٦٠ أصبح زوج ابنته جوليان امرئ وزيراً للدولة لشئون الطيران وابن عم ليدى دوروثى الدوق الحادى عشر لديفونشير نائب السكرتير البرلمانى فى مكتب علاقات الكومنولث ، وأصبح يمت بصلة القرابة إلى رئيس الوزراء أو زوجته ما لا يقل عن ثلاثة آخرين فى مناصب وزارية ..

ودافيد أورمسباى جور وزير الدولة للشئون الخارجية القدير هو صهر موريس ما كيلان الولد الوحيد لرئيس الوزراء الذى هو عضو فى مجلس العموم . وعندما أعلنت هذه التعيينات علق هيو جيتسكيل زعيم المعارضة على ذلك فى تهكم قائلاً : « إن رئيس الوزراء رفض بشدة أن يسمح بالتمييز غير العادل بين أقاربه » ..

وأشارت صحيفة نيوستيسمان فى تعليق شديد اللهجة لها (فى عددها الصادر فى ١ من ديسمبر عام ١٩٦٠) إلى أن وزارة ما كيلان بها دوق وماركيزة وستة أعضاء يحملون لقب إيرل واثنتان يحملان لقب فاىكونت وما لا يقل عن سبعة بارونات .

وبجمل القول أن الليدى دوروثى ما كيلان لم تكن مهتمة بالسياسة أبداً وهى تميل إلى فلاحه الحدائق .. ولما كيلان أربعة أبناء و١٢ حفيداً

وهما يرعونهم جميعاً ، ولذلك فإن منزل الأسرة في مسبكي به طابق
بأكمله كله حبرات للأطفال .

خامساً — العمل — اشترك ما كيلان في أعمال النشر التي تطور بها
النشر في عام ١٩٣٤ وظل هو وأخوه الكبير دانييل يديران معاً
الشركة . وباعتباره ناشراً فإنه التفت إلى الناحية العملية أكثر منها
إلى التحرير ولكنه مع ذلك كان له نشاط أدبي أيضاً . ومن قراراته
الجريئة قراره نشر قصة « الحمل الأسود والصقر الرمادي » بقلم
ريبيكا ويست التي تقع في ١٠٠٠ صفحة في فترة كانت تشكو فيها بريطانيا
من الورق ..

وثمة قرار هام آخر اتخذته ما كيلان (وإن لم يكن هو شخصياً
قد اتخذته) بنشر قصة « ذهب مع الريح » في مجلد واحد طبع منه
ثلاثة آلاف نسخة إذ لم يكن البريطانيون يعتقدون أن هذه القصة ستباع .
وقد جنى ما كيلان ثروة طائلة من النشر وكان يعد مليونيراً لمدة
عشرين عاماً بسبب الشركة الهائلة التي آلت إليه وبسبب الأرباح الطائلة
التي حققتها جهوده . وقد خلفه في إدارة الشركة ابنه موريس الذي بدأ
يشتغل في مجال السياسة .

وتضم قائمة المؤلفين الذين نشرت كتبهم شركة ما كيلان في خلال
حياتها أسماء لامعة مثل هنري جيمس وشو وويلز وكيهانج وبيتس
ومجموعة أخرى من أبرز الأسماء التي نشرت كتبهم في كتب ما كيلان .

وكانت الشركة بصفة عامة تميل إلى الشعراء والاقتصاديين والمؤرخين اليساريين أمثال ج . م . كينز . وهذا ما يدعو إلى الدهشة حقاً . ومن أحسن كتبها التي ذاعت كتاب كينز بعنوان : « الآثار الاقتصادية للسلام » ، لكينز . وكتاب تاريخ العالم للمؤرخ المعروف ه . ج . ويلز .

سادساً — السياسة والشئون العامة . شعر ما كيلان بأنه — باعتباره بريطانيا تقليدياً — أن من واجبه أن يني بالتزاماته نحو مجتمعه . وكان يريد إلى جانب ذلك أن يتقدم فكان من الطبيعي أن يدخل معترك السياسة ورشح نفسه عن « ستوكتون » وهي دائرة صناعية تشتهر ببناء السفن في عام ١٩٢٣ أي بعد عودته من كندا مباشرة وخسر جولته الأولى بثلاث وسبعين صوتاً . ولكنه رشح نفسه ثانية في العام التالي ونجح نجاحاً باهراً وأصبح عضواً في مجلس العموم .

وقد تعلم الكثير من ستوكتون ولاسيما في خلال سنوات الأزمة الاقتصادية . وانتقل فيما بعد إلى دائرة أكثر أمناً وهي بروملي . وكانت البطالة تعتبر من المشاكل العسيرة التي تواجهها . وواجه ما كيلان رجل الشارع لأول مرة في حياته . وفي منتصف العقد الرابع ألف كتاباً بعنوان : « الطريق الوسط » ، وكان هذا الكتاب بمثابة دعوة إلى اتباع إنجلترا « مشروع جديد » ، مثل مشروع روزفلت المعروف . . . وهكذا أثار ما كيلان سخط المحافظين المتزمطين . وقد رد الصاع صاعين . وما زالت بعض عباراته وملاحظاته التي انتقد فيها الزعماء المحافظين في ذلك الوقت تردد حتى الآن .

وأطلق على بنك إنجلترا اسم « الاستعداد الدائم » كما تحدث باحتقار عن « ملهى الرأسمالية » و « أرسقراطية مدبرى المكائد الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة ومشجعي نظام الشركات » وقال : إن أعضاء الصفوف الأولى حزب المحافظين « أكوام مهملة » بل لقد تطور الأمر إلى تصويته ضد حزبه في مسألة تتعلق بمساعدة المتعطلين كما انضم إلى جانب الاشتراكيين ضد زملائه من أعضاء حزب المحافظين ..

وقد نادى في وقت معين بقيام ائتلاف مع حزب العمال كما تحدث عن إقامة اندماج بين « الاشتراكية والرأسمالية » : وكان يبغض حكومة السراة الجشعة وأراد أن يكون هناك حد أدنى معقول لمستوى معيشة الجميع .

وفي ذلك الوقت أخذت الشؤون الخارجية تحتل مكان الصدارة في السياسة البريطانية وقد اتخذ ماكيلان لنفسه سياسة مستقلة وذلك أثناء فترة حكم تشمبرلين وبالدوين ، فقد رفض « سطوة الحزب » التي أرادت له أن يستقيل من الحزب مؤقتاً ، وذلك لأنه عضد اتخاذ تدابير عقابية ضد إيطاليا أثناء حرب الحبشة كما عارض بشدة - وإن كان ذلك بأدب - سياسة ميونيخ واجراءات التهذئة ..

وقد ظل ماكيلان في « الغابة الموحشة » سنين طويلة حيث كان يتعرض للوم زعماء المحافظين ، ولم يحصل على منصب وزارى إلا في عام ١٩٤٠ وكان عمره في ذلك الحين ٤٦ عاماً . وجاءت تباشير النصر على عجل فقد أصبح ونستون تشرشل رئيساً للوزارة وأرسل ماكيلان

في عام ١٩٤٢ إلى مدينة الجزائر « كوزير مقيم ، . . وهناك كون صداقات مع رجلين كان من حسن حظه أن اشترك معهما في العمل بعد ذلك وهما دوايت أيزنهاور وشارل ديغول . وكان من أسباب تعيين تشرشل له في هذا المنصب أنه كان من أتباعه المقربين ولأنه كان يتقن اللغة الفرنسية . . وهكذا كان لتربيته الأولى أثرها ثم أصبح ماكيلان بعد ذلك وزيرا للدولة لشئون الطيران ثم وزيرا للاسكان وكان هذا منصبا قليل الأهمية بالنسبة له ولكنه أدى واجبه بإخلاص وأحرز نجاحا ملحوظا . وقد أعقبت ذلك فترات كان فيها وزيرا للدفاع لمدة ستة أشهر في عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٥ ، ثم وزيرا للخارجية من شهر أبريل حتى شهر ديسمبر من عام ١٩٥٥ ، ثم وزيرا للخزانة من شهر ديسمبر عام ١٩٥٥ حتى شهر يناير عام ١٩٥٧ ، وقد قضى في كل هذه المناصب فترات قصيرة لم يستطع أن يقوم خلالها بأي شيء يستحق الذكر اللهم إلا المجهود الذي بذله في وزارة الاسكان فكانت جهوده في وزارة الخارجية مخيبة الآمال كما أنه لم يفعل شيئا ذا بال في وزارة الخزانة .

فكيف أمكن لهارولد ماكيلان إذن أن يصبح رئيسا للوزارة في يناير عام ١٩٥٧ عندما استقال ايدن ؟ . .

إن التماسيل الدقيقة لهذه المسألة ستشغل بال المؤرخين لمدة طويلة ولا يمكن معالجة هذه المسألة المعقدة في حيز محدود كهذا . . ولقد رشح تشرشل واللورد سالسبوري — الذي كان له مكان « لاشيب المزموق » ، في حزب المحافظين — ماكيلان ضد رتشارد بتل منافسه

الرئيسى قاعتقد عامة أعضاء حزب المحافظين أن اختيار ما كميلان أكثر سلامة لهم كما أنه أشد عزماً وقوة مع أن الكثيرين كانوا يرون فيه شخصية غريبة وشاذة . .

وقد أثار الدور الذى لعبه ما كميلان فى هزيمة السويس جدلاً مراراً .
أولاً : لأنه أيد بشدة خطة أيدن المدمرة لغزو السويس بقوة السلاح . .

وثانياً : لأنه كان أشد الوزراء تحمساً للانسحاب عندما رأى أن المغامرة العسكرية فى السويس قد منيت بالخيبة والفشل . . ويقول أصدقائه إن الدافع الرئيسى وراء ذلك لم يكن قلقه من رد الفعل الذى أحدثته هذه الحملة فى أمريكا وروسيا ودول الكومنولث بل خوفه من تأثير الاسترليني وكان من شأنه كوزير للبالية أن يقدر تلك الاعتبارات جيداً .

وقد وصف أحد المراقبين المتهمكين ذلك الوضع وذلك بعد انتهاء الأزمه بقوله :

« ينبغى علينا أن نتخذ زعماً وخاصة إذا كان يستطيع أن يزعنا فى كلا الطريقين . . وقد قادنا ما كميلان إلى حرب السويس كما قادنا فى الانسحاب منها . . »

شخصية ما كميلان :

إن ما كميلان رجل طويل القامة أطول مما يتضح من صورة ويبلغ طوله حوالى ستة أقدام وبوصة واحدة . ولقد اتخذ مظهراً ملتوياً لبضع

سنين وتفكه البعض بأن ايدن كالارنب الذى يحاول أن يظهر بمظهر الرجال بينما ما كميلان رجل يحاول أن يتخذ مظهر الارنب . .

وما كميلان ذو أذرع طويلة كما أن طريقة مصافحة للغير رقيقة وناعمة، ومن خصائصه أن خطه صغير جداً وإذا يتعب سكرتيره فى حل رموز كتابته . ويتميز بوجه قوى الملاحظة وبشعر رمادى طويل يمشطه إلى الخلف على طراز « لومبادور » كما أن له عينين سوداوين براقتين وحواجب كثة تنحدر إلى الجوانب الخارجية لعينه حتى إنه كان يسمى أحياناً « بالأعجوبة المحجبة » .

كما أن تصرفاته حسنة بلا تكلف ، كما أنها لطيفة وم-تساعه، وقد أخبرنى أحد وزرائه أن المصدر الوحيد لثروة ما كميلان هو هدومه وعدم تراخيه . ويشتهر ما كميلان بأنه أسوأ رجل جلس فى داوتنج ستريت من ناحية الملابس وهو يكره الذهب لشراء حاجياته كما كان يفعل فرانكلين روزفلت كما أنه يُعشق لبس الجاكتات الصوف التى يرجع طرازها الى ثلاثين سنة خلت وقيل إن نظرتة للملابس «مريعة» فلم يشتر بدلا جديدة منذ عدة سنوات كما نجد أنه لا يلبس الصديرى الذى يعتبر لبسه مألوفاً فى الأوساط الرسمية البريطانية بل يلبس بدلا من السويت الذى قد ينسى أن يوثق عراه . ويفضل ما كميلان أن يلبس قلنسوة من الصوف على أن يستعمل القبعة الشىء الذى كان يلبسه ديزرائيلى أو شرلوك هولمز .

ويتمتع ما كميلان بصحة طيبة وينام جيداً ومع أنه شخص حساس إلا أنه لا يبدو عصيباً فى معظم أحواله . . ويقرأ ما كميلان

لمدة ساعة قبل النوم كل ليلة مهما كان الوقت متأخراً . ونادراً ما يقوم بأية إجازة حتى أنه لا يقضى خارج عمله خلال الثمانية عشر شهراً الأولى في مدة رئاسته للوزارة سوى سبعة عشر يوماً كما أنه لا يهتم بالرياضة على عكس الانجليز من أفراد طبقته، بيد أنه يحب النزهة خارج المنزل وبين الأشجار ويهوى الصيد الذي يؤديه بسهولة بيده اليسرى .

يعتقد البعض أن ما كيلان تعلوه كآبة ، بيد أنه لا يتسم بالثورة والهياج ، وله سحر هادئ . ومع ذلك فلهذه إحساس قوى بالفكاهة ، ويحب قول النكات التي يكون بعضها لازعاً ، ولكن كلمة « الخجل » التي يطلقها البعض على ما كيلان تحتاج إلى تعريف خاص بالنسبة له ، فهو يكره الاتصال بأولئك الذين لا يعرفهم جيداً بيد أن هذا الخجل يزول عندما يكون بين زملائه ومعارفه ، وهو يعشق قراءة الكتب والثرثرة ، كما يحب أسرته ، فضلاً عن ميله للحداثة ، فهو متحدث لبق سريع البديهة .

وكان يذهب أحياناً إلى حفلات الكوكتيل قبل أن يصبح رئيساً للوزارة . وكان يقف في ركن بعيد بأدب تغلب عليه الكآبة حتى يأتي شخص يميل إليه . وقد يلتقي بأحد أصدقائه القدامى في أحد الأندية وقد لا يفتن إلى وجوده إذا كان مستغرقاً في أفكاره .

وعلى أية حال فإن ما كيلان يؤمن بقدر معين من الرستيات والخصوصيات ، فقد ظل أحد أعضاء وزارته مترباً لديه لبضع سنين ، وكان يحبه ويشترك معه في العمل يومياً ، ومع ذلك لم يدعه إلى منزله

في « بيرش جروف » التي تبعد عن لندن بمقدار ٣٨ ميلا .

ولم يكن مقربا لديه من أعضاء وزارته سوى وزيرين وبعض أعضاء سكرتاريته ، كما أن بين زملائه الذين يحبهم ويعتمد عليهم لورد ميلز وزير القوى السابق ومدير المدفوعات الحالي وأدوارد هيث حامل أختام الملكة الحالي .

ويقول البعض عن ما كيلان إنه تمثيل ، وإن حياته سلسلة من المواقف المصطنعة .

والواقع أن ما كيلان اعتاد على استخدام التهم لكي ينقذ نفسه من الشعور بخيبة الأمل ، غير أنه ليس متهمًا كما يحاول هو أن يبدو دائما . بيد أن هذا التهم قد أصبح جزءاً لا يتجزأ من شخصيته ، ويبدو أن هناك شيئا غير حقيقي في تصرفاته وكأنه ليس مخلوقا من لحم ودم كسائر البشر ، فيبدو كما كان مقنعا .

وقد قال لي أحد الساسة « إن كل ما أريده في حياتي هو أن أقضي أسبوعا مع رئيس الوزراء وحده . . عندئذ سأعرف ما يفكر فيه » .

وقال أحد أعضاء حزب العمال البارزين عندما سأله البعض عن صفة ما كيلان : إن الصفة البارزة لما كيلان هي « العظمة » .

وقال عضو آخر إن سمته البارزة هي « التكبر » ، ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك إذ أنهم يعتقدون أن عيبه الرئيسي هو الافتقار إلى الاقتناع الداخلي العميق ، وأنه يجنح إلى العزلة كما أنه يتسم بالمهارة الفائقة ويبدو ما كيلان من جانبه فظا في معاملته لأعضاء حزب العمال .

وهذه ليست سياسة سليمة ، لأنها تقسم البلاد ، كما أن عدم احترام المعارضة هو في حد ذاته احتقار لمجلس العموم الذي يعتبر رمزاً وموثلاً خيراً ما تمتاز به الديمقراطية البريطانية .

رئيس الوزراء أثناء العمل

من الملاحظ أن ماكيلان ليس له مكتب في مقر عمله في داوننج ستريت ، وهو يؤدي عمله على منضدة مستطيلة . يستطيع ما يقرب من عشرين رجلاً أن يجلسوا عليها ، وذلك في الطابق الأرضي من مبنى الوزارة ، ولما كيلان في الطابق العلوي حجرة مكتب أخرى .

ولكن محتويات هذه الحجرة ليست مما ينتظر من رئيس للوزارة أن يستعمله .. وقد سأله عما يفعل كرئيس للوزارة بكل هذه الأوراق إذ أنه ليست هناك أدراج أو أماكن للارشيف فأجاب بإبتسامة خفيفة : « إن هذه الأشياء توضع في الصناديق » .

إن مبنى داوننج ستريت صغير ولا يتألف سكرتارية رئيس الوزراء إلا من سبعة أو ثمانية أشخاص ، معظمهم موظفات شابات .

وقد ذهل ماكيلان من ضخامة مبنى رئاسة الجمهورية الأمريكية أثناء زيارته الأخيرة لواشنطن .. والحقيقة أن الاجراءات البريطانية أقل تعقيداً من الاجراءات الأمريكية .

والجو في مبنى رئاسة الوزارة غير رسمي إلى درجة مذهلة ، وكل ما تشهده هو رجل البوليس الواقف أمام الباب ، وفيما عدا ذلك

فليس هناك أية احتياطات أخرى يمكن أن تلاحظها عند دخولك للبنى .

وليس هناك أية اجراءات للأمن وعادة ما يكون رئيس الوزراء رسمياً أثناء اجتماعات مجلس الوزراء التي تعقد مرتين في الأسبوع بانتظام . . .

ولكنه في غير هذه المناسبة يكون هادئاً وطبيعياً . وقبلنا يدو ما كيلان جرس مكتبه طالباً أى موظف ، ولكنه يطوف بين حجرات المبنى الذى يحج الموظفون مثل الدجاجة التي تبحث عن فراخها، ثم يقول لأحد الموظفين : « إتنى أجد بعض الصعوبة في هذه المذكرة - أرجو أن تساعدنى على كتابتها .

ويوجد فوق الباب الذى يودى إلى مكتب السكرتير الخاص لمجلس الوزراء ملحوظة بخط يد رئيس الوزراء نفسه هي : « المناقشة الهادئة تفك كل عقدة ، وهي مأخوذة من أوبريت « ملاحو الجندول ، لجيلبرت وسوليفان ، وقد وضع ما كيلان هذه اللافتة بيده حتى تكون مبدأ يسير عليه جميع الموظفين . وقد ضاق الحال يوماً بتوماس هيوز المؤلف القصصى المعروف فذهب منذ سنوات مضت إلى شركة ما كيلان يطلب وظيفة . فكان ردوالد هارولد ما كيلان يتقاضى بشروط معينة ، منها : أن الشركة تتوقع من كل موظف أن « يقوم بعمله اليومى في نفس اليوم » .

وتطرق نفس المبدأ في داوتنج ستريت اليوم ، ودائماً ما يردد

رئيس الوزراء هذا المبدأ كلما استمع إليه أحد .

وقد سأله عما إذا كان يحب منصبه كرئيس للوزراء فأجاب بالإيجاب وبأسلوب تأكيدى . وهو يتخذ موقفاً فلسفياً من تفسير التاريخ ، وقد سأله كيف استطاع أن يتحمل العبء بنفسه ؟ فأشار إلى أن هناك الكثيرين الذين يستطيعون أن يحملوا العبء عنه ، وكان في ذلك طبعاً يمدح سكرتيه القدير .

والواقع أن ما كميلان يتخذ القرارات بسهولة دون موازنة للعواقب غير الملائمة أو المحيرة وهو زعيم قدير . ويقول لأصدقائه كثيراً : « إذا اتخذتم جميع قراراتكم بطريقة جدية فإنكم لن تتخذوا أى قرار ، »

وأفضل الجمل التي يرددتها كثيراً . « فلنعيد النظر في ذلك ، وهو لا يعمل أبداً في عجلة .

ويحصل كل مساء على صندوق مليء بالخطابات ، ويأخذ في قراءتها بعد العشاء ، وهو جالس مع أسرته في بعض الأحيان . ويفتح معظم الوزراء المظروفات في حضور مجموعة من السكرتاريين تتلقى التعليمات أما ما كميلان فيفضل القيام بهذا العمل بمفرده . . وهو يضع ملحوظة بالمداد الأحمر على كل ورقة يقرأها (وجدير بالذكر أن رئيس الوزراء فقط هو الذى يستخدم الحبر الأحمر في مستندات مجلس الوزراء) وتنطوى هذه الملحوظة على الأوامر التي يريد إصدارها . ويكتب أحيانا عدداً كبيراً من الملحوظات كل ليلة قد يصل إلى ألف كلمة .

وقد دخلت مكتب رئيس الوزراء للاجتماع به في الساعة الثالثة بعد الظهر ، وقيل لي إن اجتماعي سيستغرق خمس عشرة دقيقة . ولكنني خرجت من داوتنج ستريت حوالي الساعة الخامسة ، أي بعد مضي ساعتين ، وعندما دخلت حجرة المجلس التي ترتبط بكثير من الأحداث التاريخية ، سار مستر ماكيلان نحوي وعرض على شمعدينا فضايا كان قد وصله قبل دخولي مباشرة . وكان هذا الشمعدان خاصا بخمسة رؤساء وزارات . هم : والبول وبيت الصغير وبيل ودزرائيلي ولورد روزبيري .

وقد تحدث معي في البداية عن التاريخ البريطاني وماضي بريطانيا ولم يشر إلى جهوده كرئيس للوزارة . ومن بين الأشياء التي ذكرها لي أنه قطع حوالي ٨٠ ألف ميل في رحلات قام بها خلال ١٨ شهراً لاشك أن هذه مسافة كبيرة لرجل في سنه . وقد اصطحبني إلى الحديقة وروى لي قصة عن مستر جلاد ستون وطاف بي في أنحاء مبنى رئاسة الوزارة والمبنى المجاور له الذي يقيم فيه وزير الخزانة ذا كرا لي كثير من الأحداث التي تقترن بمختلف الأشياء ، صعدنا إلى وزارة الخزانة في مبنى مجاور كان قد اجتمع فيه الملك بمجلس الوزراء وهو جالس .

وتحدث إلى ماكيلان عن صعوبة تسجيل الملاحظات الدقيقة في حديث تليفوني وقد يرجع ذلك إلى أنك لا ترى الشخص الذي تتحدث

إليه ثم انتقل إلى الحديث عن الصحف في لندن ومن سياسة روسيا في وسط آسيا قبل الحرب العالمية الأولى وعن الكثير من الأمور المتعلقة بروسيا بما في ذلك تفاصيل مرحلته التي قام بها في عام ١٩٢٩ كسائح وعن وجه دزرائيلي الرائع . وعن النطق الصحيح للاسماء البولندية وعن السرور الذي يشعر به عند قراءة الكتب القديمة بدلا من المخاطرة بقراءة كتاب جديد ، وعن أسكويث ولويد جورج ونهرو وأدناور والآب نوكس وليتون ستراتشي وعن إنجلترا في السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى وعن روعة إنجلترا التي كانت تتميز بها هذه الأيام المجيدة الغابرة وكيف أن جيلا بأكمله قد ضاع وتمت التضحية به .

وفي النهاية سألته عما يؤمن به أكثر من أي شيء آخر . وقد وجهت هذا السؤال إلى كثير من الشخصيات البارزة من قبل وحصلت على إجابات حية مختلفة . وربما كان من المنتظر أن يجيب رئيس الوزراء بأنها إنجلترا أو التحالف الانجلو - أمريكي أو التطور أو روتين الحياة الارستقراطية القديمة أو الشعب ، ولكنه أجاب بقوله « الله » .

الخلاصة

إن مسرّ ما كيلان — مثل غيره من رؤساء الوزارات — إنسان معقد، غير أنه يتميز بصفة أساسية وهي أن طريقة معالجته للشا كل دائما مباشرة ومبتكرة . وتخطر ببال ثلاثة أشياء .

أولاً — أن رئيس الوزراء أصبح مقتنعاً في أوائل عام ١٩٥٩ بأن الموقف الدولي يتدهور بشكل جدي بحيث إنه لا بد من عمل شيء للقضاء على كل احتمال في نشوب صراع مكشوف ، ولذلك فإنه قرر الذهاب إلى موسكو شخصياً وبحث الأمور ودرس احتمال التفاهم مع مستر خروشوف .

ثانياً — أنه قام برحلة في أنحاء افريقيا طولها ١٨ ألف ميل في شهر يناير من عام ١٩٦٠ زار خلالها جنوب افريقيا والقي خطبة من أروع الخطب التي القاها في حياته أشار فيها إلى قوة الضمير الوطني الأفريقي متقبلاً هذه القوة على أنها حقيقة طبيعية وأنه قد تهب «رياح التغير» في أنحاء القارة على الرغم من أنه كان يعرف أن هذه العبارة قد تثير تبرم المستمعين .

ثالثاً — أنه حاول — بعد إنهاء مؤتمر الاقطاب المنعقد في جنيف عام ١٩٦٠ — أن يخفف الضغط الشديد الواقع على روسيا بينما كان خروشوف مشيراً للغاية في حديثه عن حادث الطائرة رب — ٤٧ وعن السكونغو ونزع السلاح . وقد جلس ما كميلان وكتب إليه رسالة شخصية قال له فيها العبارة التالية : «اتى ببساطة لا أفهم ما هو غرضك اليوم» . والواقع أنه لم تصل إلى الزعيم الروسي أية رسالة عن الشئون السياسية الكبرى بهذه العبارات الشخصية وغير الرسمية . وقد كان لها أثر سريع .

وهناك أشياء سلبية يمكن أن يقال عن مستر ما كميلان ، ولكن لا أحد يشك في أنه رجل حسن النية وعميق .

الهيئة الجامدة والمعارضة

عشت في إنجلترا حوالى ستة أشهر في عام ١٩٥٨ ، ولكنى لا أذكر أتى سمعت كلمة « الهيئة الجامدة » ، ولكن عندما عدت إلى لندن في عام ١٩٦٠ كُن هذا اللفظ على كل لسان . والواقع أن هنرى فيرلى الصحفي والمعلق التلفزيونى المثير ، هو الذى اختلقها فى مقال له بمجلة « سيكتاتور » ، منذ بضعة سنوات ، غير ان الفكرة التى أراد «سترفيرلى» أن يحددها ليست بجديدة على إنجلترا ، إذ أتى كنت أشعر بنفس الفكرة عند محاولتى القيام بتحليل الهيئة التى تقوم بحكم بريطانيا فأطلقت عليها الدائرة المعلقة فى عام ١٩٣٦ ، ولم أكن أنا الوحيد الذى توصل إلى ذلك . ومن بين الأشخاص الجامدين الذين أدخلتهم فى هذه الحلقة ستانلى بولدوين ولورد تيرل ، وجوفرى دوسون ، الذى يكتب فى التايمز ، ولورد سالزبورى (ولورد سالزبورى الحالى) وموتاجيو نورمان ، الذى كان يعمل محافظاً لبنك إنجلترا حينئذ ، ولورد ديربى والسيد موريس هانكى .

ولكننى أضفت إلى ذلك أنه لا يمكن أن يتفق مراقبان معاً على جميع الأسماء السابقة الذكر باستثناء بولدوين . ويجب ألا يحاول أحد أن يحدد أن الطبقات الحاكمة فى المملكة المتحدة تؤلف هيئة تستطيع أن تجتمع فى حجرة واحدة ، وتنتخب من بينها رئيساً أو تقوم بالوظائف الهامة ، فليس فى إنجلترا أقلية حاكمة قوية ومتراصة مثل تلك

الأقلية التي كنت ممثلة في فرنسا قبل الحرب في مديري بنك فرنسا .
ولم أكن أكرر الآن ما سبق أن كتبت في عام ١٩٣٦ من أن قوة الطبقات
الحاكمة في بريطانيا هي ليوتها . فقد ينتمى أحد الأشخاص إلى أقدام
الأسر في الجزر البريطانية ، ولكنك مع ذلك لا تدخل هذه « الحلقة » ،
فليست العقول أو الثروة أو المركز المعيار الوحيد للدخول في هذه .
بل إنها جميعاً تساعد على ذلك .

والآن كيف يمكن أن نعرف « الدائرة المغلقة » ؟ . . . ومن الذي
يحكم انجلترا ؟ . . . إن تعريف مستر فيرلي يؤكد بقاء الرغبة في استمرار
الأشكال والصور القديمة ، مع احترام أوامر المجتمع المحافظ وامتيازاته
وأسراره ، وهو يعيد إلى ذلك قوله :

إن « الهيئة الجامدة » ليست هي « الصفوة التي بيدها السلطة » ،
فعلى سبيل المثال يستطيع صاحب إحدى الصحف أن يباشر نفوذاً كبيراً
ولكنه قد لا يدخل في « الهيئة الجامدة » . (وهذا تعريف للهيئة
الحاكمة) ولأني أشك في أن يستطيع أي عضو من أعضاء حزب العمال
أن يعتبر نفسه عضواً حقيقياً في « الهيئة الجامدة » ، حتى وإن تولى
منصباً رسمياً . ويجب ألا يخفى عنا عامل الدين ، لجميع أعضاء هذه
« الهيئة الجامدة » ، يدينون بالولاء — على الأقل — رسمياً إلى الكنيسة
الإبليكانية . . . ولا أعتقد أنها تضم أي عضو يهودي . وهي أبعد منا لا
بالنسبة للكاثوليك . وعلى الرغم من أن عدد الأعضاء اليهود في مجلس
العموم يبلغ ٢٢ عضواً (من بين العدد الإجمالي البالغ ٦٣٠) .

فإن عضوين فقط منهم من المحافظين . . . ويعيش في إنجلترا حوالي خمسة ملايين من الكاثوليك ، ولكن لا يمثلهم في مجلس العموم سوى خمسة وعشرون عضواً من بينهم ١٤ عضواً محافظاً ، ١١ من حزب العمال .

ولا تتوقف العضوية في « الهيئة الجامدة » هذه على الطبقات أو حتى المال ، لأن الطبقات ليست بالأهمية التي قد يظنها المرء ، فلو ارتفع طفل فقير من الأحرار وأصبح خطيباً في مجلس العموم أو سكرتيراً لمجلس الوزراء ، فإنه يصبح عضواً ، مهما كان أصله وضعياً وعلى العكس من ذلك فقد لا يدخل أغنى الأفراد من ذوى الدماء الزرقاء في المدينة . وقد يعتبر أحد الشعراء مثل جون بتجامين عضواً هاماً في « الهيئة الجامدة » التي ترحب أيضاً بالأساتذة والمدرسين الذي يشتغلون في إحدى كليات جامعتي أكسفورد أو كامبردج ، فالمعاهد العليا أكثر أهمية من الأشخاص . . . ولكن بعض الأشخاص يظلون أعضاء في « الهيئة الجامدة » لمدة الحياة إذا فقدوا ساطعتهم السياسية مثل سالزبوري الحالي .

وثمة نقطة أخرى هامة وهي أن كل من يدخل « الهيئة الجامدة » لا بد من أن يكون قد نجح في مجاله بغض النظر عن نوع هذا المجال حتى وإن لم يكن ثرياً . وهي في الحقيقة هيئة تضم أولئك الأشخاص الذين وصلوا .

والواقع أنني رغم مدى عدم ذكرى الأسماء ، فإنني أدفع نفسي إلى

مخاطرة التعرض لمجادلات عنيفة واللوم عند ذكرى الأشخاص الذين يصبحون أعضاء في هذه الهيئة المقدسة بحكم وظائفهم . أولاً : رئيس الوزارة . وثانياً : وكيل وزارة الخزانة الدائم ، الذي يعتبر رئيساً للموظفين الحكوميين .

وقد لا يصبح عضواً فيها وزير الخارجية العصبي أو وزير الخزانة غير المعروف ولكن من المستحيل أن يستبعد منها رئيس الموظفين الحكوميين . ثالثاً : كبير أساقفة كانتربري ، وكبير أساقفة يورك أيضاً ، ورابعاً محافظ بنك إنجلترا .

وبعد هذه المناصب تصبح العضوية فيها أوسع نطاقاً . . وعادة ما يدرك معظم الناس فيها رئيس تحرير صحيفة « التايمز » ، ومدير هيئة الإذاعة البريطانية والسكرتير الخاص للملك أو للملكة وبعض رجال الدين و ٥٠ من جريجي أكسفورد ذوى العلم ، وعادة ما يكون لكبار رجال الاقتصاد أهلية الانضمام إليها على الرغم من أنه ليس هناك أى اقتصادى الآن في مرتبة السير جرزيأ ستامب قبل الحرب .

ولكن يجب أن يكون الشخص على حذر لأن هذه الشخصيات الرفيعة لا تجتمع معا في حجرة واحدة ولا تحتسى بعض المشروبات أو ترسم السياسة سوياً ، فمن المحال أن يحدث هذا ، فكثير من أجنحة الهيئة الجامدة لا تحب الأجنحة الأخرى ، وهي لا تتصل بغيرها من الأجنحة . إن جو الغموض يشوبها جميعاً في إنجلترا التي أصبحت لغزاً غريباً . ولقد دهشت عندما قال لي أحد الدتات : إن الانتخابات التي أجريت

أخيراً لتعيين مستشار لجامعة أكسفورد والتي فاز فيها مستر ماكيلان على السير أوليفر فرانكس السفير البريطاني السابق في واشنطن كانت تعتبر هزيمة « للهيئة الجامدة » ، لا انتصاراً ، ولكن مستر ماكيلان نفسه هو طبعاً رئيس « الهيئة الجامدة » ، وقلها ، فكيف يمكن أن يعتبر فوزه في الانتخاب بإحرازه لعدد أكبر بتليل من الأصوات التي حصل عليها منافسه هزيمة ؟ . . .

ولكن يبدو أن الرد على هذا الـؤال هو أن المدرسين والأساتذة في أكسفورد يمثلون عنصراً نادراً في « الهيئة الجامدة » ، وأنهم كانوا يريدون أن يحصل فرانكس — وهو أحدهم — على هذا المنصب دون أى شخص غريب عليهم مثل ماكيلان .

وهناك أحداث معينة هامة تصبح ذات أهمية كبرى في تطور « الهيئة الجامدة » ، وهي تقوم بدورها على هذه الأحداث ومن هذه الأحداث أزمة التنازل عن العرش في عام ١٩٣٦ فقد كانت « الهيئة الجامدة » — الممثلة في شخص مستر بولدوين ، وكبير أساقفه كاتربوري تفضل تنازل إدوارد الثامن عن «عرش على تقبلهم لمسز سمبسون ملكة عليهم . وهكذا تنازل إدوارد عن العرش .

وثمة حادث هام آخر هو أزمة السويس ، فقد تعرضت « الهيئة الجامدة » لهزات عنيفة في ذلك الوقت ، ولكنها صمدت أمام جميع الأحداث وقد التقيت ببعض الأعضاء البارزين في « الهيئة الجامدة » الذين يميلون إلى الجدل ويرحبون بالهزيمة في بعض الأحيان على الطريقة البريطانية

الغريبة . . والنظرية التي يقيمون عليها حجتهم هي أنه من صالح الهيئة الجامعة أن تدرك أنها لا تهيمن تماماً على السلطة حتى وإن كانت تحكم البلاد .

« باقة » من المحافظين

لا شك في أن ر. ا. بتلر هو الشخصية الثانية في الأهمية بعد ماكميلان ، ويميل الكثيرون إلى ماكلويد الذي تعرضنا له في فصل سابق . وهناك وزراء آخرون ذوو مكانة هامة عند الناس مثل بيتر ثورنيكروفت الذي كان في يوم من الأيام وزيراً للبالية وأصبح وزيراً للطيران ، وربما كان أكثر الشخصيات جاذبية ودنكان ساندير (وزير الدفاع السابق وزير علاقات الكومنولث حالياً وهو أكثرهم عناداً وصلابة وسلوین لويد وزير الخارجية السابق ووزير الخزانة حالياً وهو أكثرهم نشاطاً وأحدهم ذكاء وأير أوف هوم ، في وزارة الشؤون وعضو مجلس اللوردات وهو أكثرهم أدباً ودافيد أكليس وزير التعليم وهو أقلهم شعبية ولورد ميلز الصراف العام وهو أقربهم إلى رئيس الوزراء ، وجون هير وزير العمال وهو ذو مستقبل باهر وهارولد واتكنسون وزير الدفاع وهو أقلهم نشاطاً ولورد هاليتام وزير العلم وسوف نتحدث عنه فيما بعد ولكنه في الحقيقة رجل المعنى واينون باول « وزير الصحة ، وهو أشد الوزراء إخلاصاً في العمل وأكثرهم شجاعة وكريستوفر سومرز وزير الزراعة وهو من أطف الوزراء ، وارنست مارلنز وزير المواصلات وهو أكثرهم استعراضاً

وريجنالد مولنج ، وزير التجارة ، وهو أكثر الوزراء انشغالا .
ولد ريتشارد أوستن بتلر المعروف للجميع باسم « راب » ، في
الهند في عام ١٩٠٢ .

كان أبوه المرحوم سير مومتا جيوسى « د » ، بنكر حاكم الولايات
الوسطى في ذلك الوقت كما كان استاذا في كلية بمبرول بجامعة كامبردج
وعنده لكامبردج . وكان بتلر الابن متفوقا في الدراسة في كامبردج
وقد بدأ حياته معيدا بالجامعة ، كان خجولا ومثقفا ولذلك فإنه ظل دائم
الدرس والتحصيل ، ويشغل مستر بتلر اليوم ثلاثة مناصب خطيرة فهو
وزير للشئون الداخلية وزعيم مجلس العموم ورئيس حزب العمال .
وعندما أفلت منه منصب رئيس الوزارة الذى آل إلى ماكميلان
أصيب بصدمة شديدة ، وهو يميل إلى الناحية اليسارية من حزب
المحافظين مثله في ذلك مثل ماكميلان وماكلويد .

والواقع أن الفضل يرجع إليه أكثر من أى شخص آخر في وضع
سياسة المحافظين الجديدة ، وهو يعتقد اعتقادا راسخا أن التخطيط والملكية
العامة إلى حد ما وبعض مظاهر دولة الخدمات من الصفات التى يجب
أن تتميز بها المجتمعات الحديثة . . وكان بتلر هو الذى يزود ماكميلان
بالافكار التقدمية ولذلك أطلق عليه « الاشتراكية الخفى » .

وهو يعيش في ايسكس ويهوى الزراعة إلى حد كبير ، كما أنه ظل يمثل
دائرة ريفية باستمرار منذ عام ١٩٢٩ . وقد ركز معظم اهتمامه على الهند
والشئون الخارجية . وكان الساعده الإيمى ليفلى تشامبرلين في فترة

مخادثات ميونيخ . وكان دافيد لويد جورج يسميه « بالماكر الذكي » ، ولم يكن هذا التعليق في غير موضعه إذ أتى أذكر أتى أجريت مع مستر بتلر حديثاً صحفياً طويلاً في الأسبوع السابق لإعلان الحرب في عام ١٩١٤ . عندما كان يشغل منصب نائب وزير الدولة للشؤون الخارجية ولم أنس أبداً براعته في الإجابة على الأسئلة ووضوح أفكاره وعمقها ويحب بتلر التخطيط ويولع به ففي وزارة تشرشل أصبح رئيساً لمجلس التعليم في عام ١٩٤١ ومعنى ذلك أنه لم يكن من الشخصيات التي لعبت دوراً رئيسياً أثناء الحرب العالمية ويقال إن بتلر شكر تشرشل عندما أسند إليه هذا المنصب فاجبه تشرشل قائلاً : « أشكرني على ذلك ! أنتي كنت اقصد بها ان تكون اهانة » ، غير أن هذه القصة غير مؤكدة . ولكن بتلر أبدى نشاطاً كبيراً في منصبه التعليمي هذا وأصبح بعد ذلك وزيراً للعمل ثم وزيراً للمالية وأصبح في يناير من عام ١٩٥٧ وزيراً للداخلية . وقال أخيراً إنه يريد أن يطبق سياسة « محافظة وموحدة وإنشائية » . وعندما رأته في العام الماضي وسألته عن التغيرات الكبرى التي حدثت في بريطانيا في ربع القرن الماضي ذكر لي تغيرين وهما الانضاء على البطالة تماماً واختفاء الخلافات الرئيسية بين حزبي العمال والمحافظين إلى حد كبير .

هناك عقاية أخرى راجحة في مجلس الوزراء وهي عقلية لورد هيلشام فقد ولد كوينتين ما بكاريل هوج في عام ١٩٠٧ وكان أبوه من المحكمين البريطانيين المشهورين وأمه أمريكية . وقد خلف أباه في مجلس اللوردات في عام ١٩٥٠ ومنذ ذلك الوقت لم يعد عضواً في مجلس العموم . وكان

يقاوم بشدة انضمامه إلى مجلس اللوردات بل إنه طلب السماح له رسمياً بالاستمرار في عضوية مجلس العموم رغم أنه أصبح لورداً دون أن يكون له الاختيار... ولو تمكن هيلشام من أن يظل عضواً في مجلس العموم لأصبح بالتأكيد مرشحاً قوياً لرياسة الوزارة وإن كان لا يزال يرشح لها. وقد وقع في أواخر عام ١٩١٦ حادث نمائل لأحد النواب الأعضاء في حزب العمال وهو أنتوني ويدجوود بن الذي خلف أباه في مجلس اللوردات وأصبح الفايكونت ستاننجيت. وقد بذل بن مقاومة شديدة لتعيينه عضواً في مجلس اللوردات على أساس الوراثة وقام بحملة عنيفة باحتفاظه بحق رفض هذا اللقب. ولكن ذهبت جهوده عبثاً. إن السياسة البريطانية يضطرون في بعض المناسبات إلى دفع ثمن التقاليد التي بدونها تغيروا وتغيرت حياتهم.

وكان لورد هيلشام متفوقاً في «ايفون»، و«كرايست تشيرش» بجامعة أكسفورد واشتغل بالسلك القضائي مثل والده ثم أصبح مستشاراً للملكة في عام ١٩٥٣. وعندما تولى ذلك المنصب كان قد دخل فعلاً مجال السياسة. وبعد أن خدم في الجيش أثناء الحرب الأخيرة وأبلى فيها بلاءً حسناً عين اللورد الأول في الامبريالية ثم عين وزيراً للتعليم ورئيساً للمجلس التعليمي وعين أخيراً وزيراً للعلم. والواقع أن هذا المنصب الجديد الذي لا يوجد في معظم الحكومات الكورية يعتبر تجربة له ولا يتبع هيلشام سوى عدد قليل جداً من الموظفين... وفي رواية أن الموظفين في وزارته يمكن أن يوضعوا في سيارة أتوبيس عادية — ولكن رغم ذلك فإن هذه الوزارة مسئولة عن وضع

وتنسق سياسة العلم الحكومية . . ويعتبر العلم اليوم في غاية الأهمية لبريطانيا، مثله في ذلك مثل الدفاع، لأن كل موضوع من هذين الموضوعين يرتبط ارتباطا وثيقا بالموضوع الآخر .

وعندما تحدثت إلى هيلشام ذكر لي أنه يعتمد أن التغيرين الهامين في إنجلترا اليوم اللذين يميزانها عن إنجلترا في السنوات السابقة هو أولا عدم احتياجها إلى المساعدات الخارجية التي كانت تحتاج إليها في الفترة السابقة على الحرب مباشرة وثانيا انخفاض الفوارق الطبقية إلى درجة كبيرة .

ويتميز كل من بتلر وهيلشام بالشعور بالفشل وإن اختلفت أسباب ذلك بالنسبة لكل منهما، ولكن كلاهما يتسم بالصلابة البريطانية العتيقة وإن كانا لا يظهران هذه الصفة .

جيتسكيل والمعارضة

ذكرت جيتسكيل مرارا في الفصول الثلاثة السابقة، وأنه لما يسرنا أن نتعرض لوصفه ثانية ، فلم يكن سوى القليل من زعماء حزب العمال البريطاني في موقف أصعب من موقف جيتسكيل ولاخطاء لم يقعوا فيها . . وربما كنا على حق إذا قلنا إن أيام جيتسكيل كزعيم للحزب أصبحت معدودة، غير أن هذا الوضع سيصيب حزبه وبلاده بخسارة فادحة قد لا يمكن معالجتها . والواقع أن الذي أضربه فعلا هو فشل حزب العمال في الانتخابات العامة ثلاث مرات متتالية على

الرغم من أنه لم يكن هو زعيم الحزب في المرات الثلاث ولكن على الأقل ليس من اليسير على زعيم الحزب أن يظل في منصبه بعد الفشل مرتين ، والمثال على ذلك أدلاى ستيفنسون . ونضيف إلى هذا العامل الانقسامات الخطيرة التي حدثت داخل الحزب نفسه . والواقع أن حزب العمال يتعرض للخطر سريعاً لأنه يفتقر إلى أية سياسة قوية وحيوية .

ولد هيو نيلور جيتسكيل في عام ١٩٠٦ وهو ينتمى إلى أسرة متوسطة الحال فقد كان أبوه موظفاً في الهند والتحق هو بونشستر مثله في ذلك مثل الكثير من الأعضاء البارزين في حزب العمال . ومن بينهم مثلاً ريتشارد كروسمان ثم التحق بنيو كوليدج باكسفورد حيث تخرج بمرتبة الشرف الأولى .

وقد أصبح اشتراكياً أثناء الاضراب العام الذي حدث في عام ١٩٢٦ ثم انخرط في سلك التدريس ثم أصبح في خلال فترة نصيرة رئيساً لقسم الاقتصاد السياسى في جامعة لندن وقد لعبت زوجته الصغيرة السن والتي تتميز بالحيوية الشديدة والنشاط المستمر والولع الشديد بالسياسة - لعبت دوراً كبيراً في حياته العملية ، ويعيش هو وزوجته في منزل مريح وهادئ في هامستيد ولهما ابنتان . . . وتعيش أسرة جيتسكيل حياة سعيدة كما أنها تهتم بكل مظاهر الحياة وتتميز بالتعاون والاتحاد ويلتقى بها المرء في الحفلات التي يقيمها والتي يعمها المرح والبساطة والابتعاد عن الرسميات (وجدير بالذكر أن مسز جيتسكيل هي التي تطهى المأكولات) - يلقي

المرء أشخاصا مختلفين من أكثر خريجي أكسفورد تزمنا إلى الفنانين
الشبان الفقراء .

ويتميز جيتسكيل بحب الاستطلاع الشديد وباتساع الأفق الثقافي
وقد التقى به بعض الأصدقاء بعد أن ألقى سلسلة من المحاضرات في
هارفارد أثناء زيارته نيويورك وكان هؤلاء الأصدقاء يأملون في أن
يسألوه عن السياسة البريطانية . ولم يبد مستر جيتسكيل أى امتعاض من
توجيه الأسئلة إليه ولكنه أدار دفة الحديث وأخذ يسألهم أسئلة قوية
وكثيرة عن حالة القصة الطويلة الأمريكية .

ولكن يجب أن نستأنف الآن وصف حياته العملية في مجال السياسة
فعندما نشبت الحرب العالمية الأخيرة التحق بسلك الوظائف الحكومية
وأصبح السكرتير الخاص لهيودالتون وزير الرفاهية الاقتصادية . وسرعان
ما أصبح من أكثر الناس صلة بدالتون وكأنه ابنه وانتقل معه إلى وزارة
التجارة ، وفي عام ١٩٤٥ انتخب عضواً في مجلس العموم ثم تولى منصباً
ثانوياً في وزارة أنلى وأصبح وزيراً للوقود والطاقة في عام ١٩٤٧ رغم
أنه لم يكن قد مضى على عضويته في البرلمان سوى عامين فقط . وقلبا ارتفع
شخص بهذه السرعة . وأصبح لفترة قصيرة وزيراً للدولة للشئون
الاقتصادية . وفي عام ١٩٥٠ أصبح وزيراً للمالية وكان أصغر وزير للمالية
في خلال نصف قرن مضى إذ كان يبلغ الرابعة والأربعين .

وبدأ في ذلك الوقت يتعرض لهجوم عنيف إذ قامت بينه وبين
أنورين بيفان سلسلة من المنازعات كانت إحداها عندما فرض جيتسكيل

رسماً صغيراً وموقتاً على الخدمات الصحية لتعزيز سياسة التسلح . عندئذ
 ثارت اثارة بيفان وأخذ يهاجمه بعنف فرد عليه جيتسكيل بالمثل . وقد
 تولى جيتسكيل بعدئذ منصباً متوسطاً في الحزب، وكان بمثابة القنطرة بين
 الجناحين الأيمن والأيسر . وأصبح في عام ١٩٥٤ أميناً لصندوق
 الحزب، ثم انتخب زعيماً للحزب بعد اعتزال مستر أتلي في عام ١٩٥٥ ،
 ومن أهم الصفات التي تميز شخصيته وضوح أفكاره إذ أنه يتمتع
 بقدرة لا مثيل لها على تلخيص المشاغل بوضوح ودقة ، وهو يتمتع أيضاً
 بقدرة كبيرة من النشاط والحماس الشديد للقيام والتجارب وبالشجاعة
 النادرة وإلى جانب ذلك فهو من أكثر الناس كرمًا وطيبة، ولا ينكر
 أحد براعته في الجدل والمناقشة . ويظن البعض أنه جاف في مناقشاته
 ولكنه في الحقيقة جذاب للغاية . ويتوصل إلى هذا الرأي كل من استمع
 إليه في برامج إذاعة نيويورك في أن يفهم بعض المعارضين له في مناقشة
 دارت حول السياسة الخارجية .

وجيتسكيل رجل عملي . وقد أدت به هذه الصفة إلى التعرض إلى
 الأزمة المعروفة حول « البند الرابع » من دستور الحزب الذي وضع
 عام ١٩١٨ وتتناول هذه الفقرة موضوع « التأمين » ، إذ أنها تدعو إلى
 تأمين الصناعة أي إلى الملكية العامة لوسائل الإنتاج والتوزيع
 والتبادل . ويعتقد جيتسكيل أن هذا التغيير لا يتمشى مع الظروف
 السائدة في مجتمع ما بعد الحرب الأخيرة وأنه عبء ضخم يأخذه
 الحزب على عاتقه دون داع ، وكان موقفه حسناً ومعتدلاً إذ أنه يعتمد
 أن « المشروعات العامة والخاصة لها مكانها في الاقتصاد » . وكان

معارضو جيتسكيل — الذين كانوا يمثلون قوى مختلفة ومتشابهة داخل الحزب — كانوا يعتقدون أن هذه خيانة، وأن الحزب يجب أن يلتزم سياسته القديمة، ويحافظ على المفهوم المذهبي للاشتراكية المتزمتة والملاكية العامة، حتى وإن أدى هذا إلى عدم فوزه ثانية في الانتخابات ووصفوا سياسة جيتسكيل العامة — نحو صبغ الحزب بالروح الحديثة — « خيانة » . وقد أثرت هذه المناقشة على الجانبين إلى حد كبير لأنها أثارت الموضوع الحيوى الهام وهو تحديد معنى الاشتراكية الحديثة . وقد عقب شخص ما على موقف جيتسكيل قائلاً فى تهكم « ان هيو لا يدرك مدى محافظة حزب العمال » .

والآن نعود إلى الحديث عن قصة انقسام حزب العمال من النقطة التى وقفنا عندها فى الفصل الخامس عشر . فالموضوع الهام والمؤلم حقاً هو طبعاً مشكلة نزع الأسلحة الذرية ووقف التسليح من جانب واحد . وينشب النزاع على مستويات متعددة، ولكننا نبسط الموقف قليلاً ونقول إن أساسه هو النزاع الناشب بين عناصر مؤتمر نقابات العمال وحزب العمال البرلمانى . ولكى نفهم ذلك النزاع يجب أن نذكر كلمة تمهيدية عن حزب العمال بصفة عامة ويخلف هذا الحزب عن حزب المحافظين فى أنه لا يؤلف كيانا موحداً بل إنه أشبه إلى الحركة منه إلى الحزب أو أنه بالأحرى مجموعة تتألف من وحدات ترتبط ببعضها ارتباطاً غير وثيق فهى تضم مؤتمر نقابات العمال الذى يتألف من ١٨٥ نقابة مستقلة وأحزاب العمال فى الدوائر الانتخابية — وهى عبارة عن حزب واحد عن كل دائرة ممثلة فى البرلمان — والجمعيات التعاونية وأخيراً حزب العمال

البرلمان نفسه الذي يضم ٢٥٨ عضوا عماليا في مجلس العموم .

ويتبع نقابات العمال حوالي ٩٧ مليون عضو — وليسوا جميعاً أعضاء في مؤتمر نقابات العمال — ويبلغ رصيدها حوالي ٨٠ مليون جنيه وهي في غاية الأهمية لأنها كانت من الناحية التاريخية الأساس الذي قامت عليه الحركة العمالية كلها . وكان الحزب بمثابة السلاح السياسي . . . وهو مصدر الأموال في الدوائر الانتخابية والبرلمان . وتخصص نسبة معينة من أموال معظم النقابات — من واقع اشتراكات الأعضاء للحزب لينفقها في الأغراض السياسية . وبعض النقابات تسمى نقابات «دكتاتورية» . وبعضها نقابات «ديمقراطية» وتعتبر «نقابة عمال النقل والعمال العموميين» من أكبر النقابات ويسيطر عليها الآن فرانك كزينس وكان يسيطر عليها أرنست بيفان في وقت من الأوقات ويبلغ عدد أعضائها ١٢٢ مليون عضو ،

ومن النقابات الهامة أيضاً نقابة المهنوسين المتحدة التي تغلغل الشيوعيون في لجناتها الوطنية ونقابة عمال المناجم والنقابة الوطنية للعمال العموميين وعمال الشؤون البلدية . ونقابات عمال السكك الحديدية الثلاث ونقابة عمال المحال التجارية والتوزيع المتحدين . وتعقد كل نقابة اجتماعاً سنوياً في الربيع أو الصيف على أن يعقبه مؤتمر عام سنوي للحركة العمالية كلها في الخريف وتؤخذ الأصوات في هذا المؤتمر بالكتلات أي أن زعيم كل نقابة يدلي بصوت نقابته دون حاجة إلى إجراء استفتاء بين أعضاء هذه النقابات . وقد تعرض هذا النظام للهجوم الشديد بأنه غير ديمقراطي غير أن المتمسكين به يقولون: إن رئيس نقابة قد انتخب بطريقة

ديمقراطية وهو يدلى بصوته ممثلاً للنقابة كلها وان هذا النظام اشبه بنظام انتخابات رئاسة الجمهورية الامريكى الذى تؤخذ فيه أصوات الولايات .

وبدأت النقابات الواحدة تلو الأخرى . تتبع سياسة عدم التسلح من جانب واحد ونزع الأسلحة الذرية ، وقد سبق أن حاولت إيضاح أسباب ذلك من قبل . ولكن هناك نقطة غريبة حقاً وهى أنه على الرغم من اتباع عدد كبير من النقابات لهذه السياسة منفردة فإن المجلس العام أو التنفيذى لم يوافق على هذه السياسة فتقد وافق عليها سبعة أعضاء فقط من مجموع عدد الأعضاء البالغ ٣٧ عضواً وهناك نقطة أخرى وهى النفوذ الشيوعى الذى يلعب دوره وراء هذه الحركة . فمن الناحية السياسية لا يقوم الشيوعيون بأى دور فى بريطانيا كما أن الحزب الشيوعى لم يحصل على أكثر من ٣٠ ألف صوت فى الانتخابات العامة التى أجريت فى أكتوبر من عام ١٩٥٩ . ولا شك فى أن هذا عدد ضئيل جداً، هذا فضلاً عن أنه لم يفز أى مرشح شيوعى فى الانتخابات بعضوية البرلمان ولكن رغم كل ذلك فإن نفوذه كبير فى عدد من النقابات مثل نقابة المهندسين والعمال الكهربائيين . والغريب أن بعض رجال الصناعة المحافظين يميلون إلى تشغيل الشيوعيين فى مصانعهم إذ أن عمال المحال الشيوعيين أكفاء ونشيطون .

وقد اجتمع المؤتمر السنوى لنقابات العمال فى جزيرة « مان » ، فى سبتمبر عام ١٩٦٠ وعرض كينز مشروع قرار طالب فيه « برفض أية سياسة دفاعية تقوم على أساس تهديد الأسلحة الذرية ، ونزع الأسلحة

أى أنه طالب بنهاية حلف شمال الاطلنطى والقواعد الأمريكية . وأكد فى خطابه ثورته ضد زعماء جيتسكيل للحزب قد تعقد الموقف بعد ذلك وقد أدلت دقابة المهندسين المتحدة ، وهى ثانى نقابة فى انجلترا بصوتها فى الجانبين أى انقسم الاعضاء وحدث نفس الشئ فى المؤتمر بصفة عامة وقد حصل مؤيد جيتسكيل للحزب وقد تعتمد ١٥٠٠٠ ر ١٥٠٠٠ صوت متابل ٣٤٠٠٠ ر ٣٤٠٠٠ صوت للإبقاء على الرادع الذرى والسماح للقوات الأمريكية بالبقاء فى بريطانيا كلها اقتضت الضرورة ذلك غير أنهم فشلوا عندما أخذت الاصوات ثانية بأغلبية ساحقة وكان القرار هو بداية سياسة تقوم على أساس التهديد باستخدام الاسلحة الذرية واسفر ذلك الموقف عن باملة عامة .

انعقد المؤتمر السنوى لحزب العمال فى سكاربورو فى شهر أكتوبر وبعد أن انقسم حزب العمال البريطانى أستمر الرأى على اتباع برنامج تم فيه الموافقة على امتناع بريطانيا عن اتباع سياسة رادعة مستقلة مع التعهد بالوفاء بالتزامات بريطانيا ازاء حلف شمال الاطلنطى مع الضغط من أجل تقايل الاعتماد على الاسلحة الذرية ، ولم يكن هذا الوضع يرضى المتطرفين فى مؤتمر نقابات العمال وهكذا كسب كزيتس المعركة فى سكاربورو وقد اتخذت عدة قرارات دلت على الموقف تماماً .

فقد اتخذ المهندسون قراراً طالبوا فيه صراحة بالامتناع عن إجراء التجارب وصناعة الاسلحة الذرية وتسكديسها فى بريطانيا وبناء قواعد لها بها ، وقد تمت الموافقة على هذا القرار بأغلبية ضئيلة أى بأغلبية ٣٤٠٠٠ ر ٣٤٠٠٠

صوت من مجموعة عدد الأصوات البالغ عددها حوالى ستة ملايين صوت
واتخذ قرار آخر قدمته نقابة العمال العموميين وعمال النقل وقد ذهب
هذا القرار إلى أبعد من ذلك وتمت الموافقة عليه بأغلبية ٤٠٠٠٠
صوت ..

ونتيجة لذلك أصبح جيتسكيل يواجه حلين أو بالاحرى سبيلين
إما أن يقدم استقالته من الحزب ويصبح من المحافظين أو أن يستميت
فى القتال . وقد قرر القتال حتى النهاية من أجل حماية الحزب الذى يحبه
وقال إنه سىكرس بقية حياته العملية ليعمل على تغيير قرارات سكاربورو
وقلبها إن تطلب الأمر ذلك . وعندئذ حاول معارضوه فى حزب العمال
البرلمانى منعه من رئاسة الحزب وكانوا يبررون تصرفهم هذا بأن مؤتمر
سكاربورو قد تحدى زعامته هذه وأنه لم يعد يمثل وجهات نظر الحزب
باجمعه، وكان رده عليهم أنه خادم حزب العمال البرلمانى الذى انتخب جميع
أعضائه ولا يخضع لرؤساء مؤتمر نقابات العمال وأن هؤلاء الأعضاء
انتخبوا عندما كان برنامجهم يتضمن التأييد التام لحاف شمال الاطلنطى
والشخص الذى كان يريد انتزاع زعامة الحزب من جيتسكيل والذى
كان يتعداه فى اجتماعات حزب العمال البرلمانى هو هارولد ويلسون
العضو فى الوزارة البرلمانية الاسمية الذى كان من المقرر أن يتولى منصب
وزير المالية لو عاد حزب العمال إلى الحكم . وفاز جيتسكيل بأغلبية
١٦٦ صوتاً مقابل ٨١ صوتاً . ويبدو أنه فاز بعدد كبير من الأصوات
ولكن من الناحية الأخرى كان عدد الأصوات يدل على أن ثلث عدد
أعضاء حزب جيتسكيل تقريباً لا يؤيدونه .

ولا شك أن هذا كان أصعب موقف واجهه جيتسكيل . والغريب في الأمر حقاً أن ويلسون السياسي الماهر ليس من بين الذين ينادون بوقف بريطانيا عن إنتاج الأسلحة الذرية وخروجها من حلف شمال الأطلسي .

وقد تعرض هذا النزاع لعدد كبير من التيارات الشخصية المتعارضة فقد عارض بعض الأعضاء جيتسكيل في موضوع النزاع الأساسي السابق الذكر ، بينما عارضه البعض على البند الرابع من دستور الحزب وعارضه بعضهم لا لى سبب من الأسباب ولكن لمضايقته فقط ، فايماويل شويل الذى كان متفوقاً على جيتسكيل فى وزارة الوقود والطاقة وهربرت موريسون الذى تغلب عليه جيتسكيل فى زعامة الحزب فى عام ١٩٥٥ يكرهانه لأسباب شخصية . ويضم حزب العمال هيئات مختلفة أحدها المجلس التنفيذى الوطنى الذى ينتخب أعضاؤه بإجراء معقد والذى يرأسه ريتشارد كروسمان وغالبية أعضائه تؤيد جيتسكيل .

وهناك هيئة أخرى وهى التى تسمى بالوزارة خارج الحكم والتى اختارها أعضاء البرلمان من بين الأعضاء وبها على الأقل عضوان يعارضان جيتسكيل ، هما : ويلسون وفريدلى غير أن بقية الأعضاء يؤيدونه ويؤيده تأييداً تاماً كل من جورج براون نائب رئيس الحزب ودنيس هيلى المرشح لمنصب وزير الخارجية فى الحكومة الحالية وجيمس كالاجهان المتحدث الرسمى فى شئون المستعمرات وباتريك جوردون ووكر الوزير السابق لعلاقات الكومنولث .

ومن بين الأعضاء عضو يدعو بشدة إلى سياسة نزع السلاح من

بريطانيا وهو انتوني جرينوود ابن المرحوم ارثر جرينوود الذى كان من الوزراء البارزين أثناء الحرب الأخيرة . وقد ظل عضواً فى البرلمان منذ عام ١٩٤٩ كما ظل عضواً فى المجلس التنفيذى العمومى منذ عام ١٩٥٤ وهناك عضو آخر يؤيد هذا الاتجاه وهو مايكل فوت الذى فاز بمقعد انورين بيفان القديم عن دائرة «ابوفيل» الذى بلغنى أنه «أكبر مشاكس فى إنجلترا» وهو ينتمى إلى أسرة بارزة فى ديفون وهو حر «تقليدياً» ويبلغ عمره سبعة وأربعين عاماً وهو يميل إلى الجناح الأيسر المتطرف وهو أحد أبناء سير ايزاك فوت المحامى والعضو الحرفى فى البرلمان. وأخوه هو سير هيو فوت وهو من حكام المستعمرات الأقوياء وكان الحاكم الأخير لقبرس، أما الآخر فيدعى دينجل وهو عضو عمالى فى البرلمان. ويقوم مايكل فوت بإدارة صحيفة (تريون) لسان حال سياسة وقف إنتاج الأسلحة الذرية وهو شاب المعنى .

وقد كان من أشد الناس اتصالاً ببيفان ولكنه إنشق عليه عندما اتفق بيفان مع جيبتسكيل واتجه إلى الجناح الأيمن من الحزب، وهناك عضو آخر يؤمن بعنجه هذه السياسة وهو «ميكاردوا» الذى فقد مقعده فى مجلس العموم عام ١٩٥٩ .

ويحق لنا أن نتساءل عن شخصية كزينس وحياته فقد ولد فى نوتنجامشير فى عام ١٩٠٤ وهو الابن الأكبر فى أسرة التى تضم عشرة أبناء وكان أبوه يعمل عاملاً فى إحدى المناجم وقد اشتغل عاملاً فى طفولته ثم تمكن من أن يحصل على قدر من التعليم ، ثم برز بعدئذ مثله

حتى ذلك مثل أنورين ييفان ، وقد اشتغل سائقاً لإحدى عربات النقل فترة من الزمن ثم اندمج في النشاط النقابي في منتصف ثلاثينيات هذا القرن وقد ظل كزينس إشترا كيا يؤمن بمبدئه وهو من المتمسكين بالبند الرابع من دستور الحزب والمتعصبين له ، ولم يهتم بالشئون الدولية إلا أخيراً وهو من المتعصبين لسياسة الحياد ، ويتميز كزينس بمهارته في التنظيم وبمقدرته الفائقة وهو من المتحدثين البارعين في التليفزيون . ولم يكن أبداً عضواً في البرلمان وهو السكرتير العام لعمال النقل وعضو المجلس العام في مجلس النقابات منذ عام ١٩٥٦ .

والعمل القوي الذي حققه كزينس هو أنه حول أعمال النقل من نقابة يمينية كان يسيطر عليها أرنست ييفن وخليفته أرثر ديكن إلى منظمة يسارية ويعتبر هذا أكبر تطور في الحركة العمالية في بريطانيا منذ الحرب الأخيرة وقد وصف بأنه أحدث الزعماء النقابيين وأكثرهم سفسطة . ولكن لو تولت الحكم في بريطانيا حكومة تخضع لنفوذه فقد يؤدي هذا إلى انفصال بريطانيا عن الولايات المتحدة ويكون ذلك بمثابة كارثة هائلة تصيب العالم الغربي .

وعلى عكس كزينز فان جورج براون نائب زعيم الحزب الذي حل محل أنورين ييفان في الجناح الايمن وعلى الرغم من أنه كان عضواً في نقابات العمال من قبل وأنه مازال عضواً في نقابة عمال النقل فإنه يتخذ موقفاً مماثلاً لجيتسكيل في معظم المسائل . وقد ولد براون الذي يبلغ عمره الآن ستة وأربعين عاماً - في ساوثورك ، وكان أبوه يعمل سائقاً

لسيارة نقل وترك المدرسة وكان عمره خمسة عشر عاماً . وهو رجل عصامي يتميز بشخصية قوية وحيوية متدفقة . وهو على علاقة طيبة مع كزيفس، كما أنه يعجب كثيراً بجيتسكيل على الرغم من أنه يعتقد أن جيتسكيل يبدو متكلفاً في بعض المناسبات ، وجدير بالذكر أنه اشتبك مع خروشوف عندما زار الزعيم الروسي لندن في عام ١٩٥٦ في حفل عشاء أقامه حزب العمال في قصر كلاريدج، وقد وجد خروشوف أخيراً رجلاً في العالم الحر يستطيع أن يرد عليه بالعبارات التي يفهمها . وقد اتهم خروشوف البريطانيين باللين مع هتلر غير أن براون عارضه ودحض حججه .

أما هارولد ويلسون الذي نافس جيتسكيل في زعامة الحزب في أواخر عام ١٩٦٠ والذي مازال رغم ذلك عضواً في الوزارة العمالية الاسمية فهو من يوركشير وكان أبوه يعمل كيميائياً ، وقد ولد في عام ١٩١٦ . وقد ذهب إلى أكسفورد وظل مهتماً بالأعمال التجارية . وقد شغل منصب وزير الوقود والطاقة في عام ١٩٤٣ ودخل البرلمان في عام ١٩٤٥ ثم أصبح رئيساً للفرقة التجارية في عام ١٩٤٧ وكان على صلة وثيقة بانورين ييفان لبضعة سنوات وهو يوصف أحياناً بأنه عضو محايد ولكنه يميل إلى الجناح اليساري المعتدل في معظم المسائل . وقد زار مستر ويلسون موسكو عدة مرات لقضاء بعض الأعمال التجارية وهو يتحدث لبق وجذاب ، ولديه قصص مسلية ورائعة عن اجتماعاته بمستر ميكويان .

الأحرار

يردد البعض فكاهة طريفة مؤداها أن أى شخص يستطيع أن يكون حراً من أى لون من الألوان بشرط أن يكون لونه بنفسجياً (فيوليت) . وتشير هذه الفكاهة إلى الحقيقة المعروفة وهى أن ليدى فيوليت بونهام كارتر الابنة الكبرى لايرن اكسفورد واسكوييت الزعيم الحر ورئيس مجلس الوزراء فى أثناء الحرب العالمية الأولى . . . وليدى فيوليت زوجة المرحوم سير موريس بونهام كارتر وهى

عظيمة الشأن . وجدير بالذكر أن الزعيم الحالى للحزب ويدعى جو جريموند قد تزوج فى عام ١٩٣٨ لورا ميراندا ابنة بونهام كارتر والواقع أن حزب الأحرار يسكاد يتمتصر اليوم على أفراد أسرة بونهام كارتر .

ويدعى مستر جريموند باسم جوزيف ، ولكنه يطلق على نفسه اسم جو وهو من أصل اسكتلندى وقد ولد فى عام ١٩١٣ وهو يمثل اوركنى وثلاند منذ عام ١٩٥٠ واصبح زعيما لحزب الأحرار البرلمانى فى عام ١٩٥٦ ولا يتفوق عليه فى الجاذبية سوى عدد قليل من الأشخاص البارزين فى الحياة العامة فى بريطانيا اذ انه ينعم بالجاذبية والسحر والمظهر الحسن والعملية الحيوية . وقد التحق باتيون وبالبول وله سجل حافل فى الحرب . وقد اشتغل بالمحاماة . وهو يكتب كثيراً فى الشؤون السياسية كما ان كتاباته

رائعة . ويشبهه له ايضا مارك بونهام كارتر الشاب الذى تلى كلمته فى الجلسة

شيكاغو تزوج ابنة الناشر الامريكى كوندى فاست . وقد كتب عدة مقالات فى مجلة « انكوارتر » .

وللاحرار اليوم ستة مقاعد فقط فى مجلس العموم بعد ان بلغ حزبهم الذروة فى أيام جلادستون. ولكنهم على أى حال حصلوا على ١٠٠٠.٠٠٠ ١٦٤٠٠٠ صوت أى ٥٠٪ من مجموع اصوات الناخبين فى عام ١٩٥٩ . وكان حزبهم هو الحزب الوحيد الذى حصل فى عام ١٩٠٩ على عدد من الاصوات اكثر من العدد الذى حصل عليه فى الانتخابات العامة السابقة . وجدير بالذكر ان الاحرار قد حققوا لأنفسهم المركز الثانى فيما لا يقل عن ٢٧ دائرة انتخابية إلى جانب الدوائر التى فازوا فيها ، رغم أنهم لم يرشحوا سوى ٢٢١ شخصاً فقط فى الانتخابات . وهناك شك كبير فيما إذا كان فى الإمكان انعاش الحزب ثانية حتى يصبح قوة حقيقية . ولكن معظم الاحرار يعتقدون — عن حق — أنه لا بد من وجود مكان لحزب وسط بين المحافظين المتطرفين والجناح الأيسر العمالى والشيء الذى يريد أن يحققه جريموند هو اقامة « حزب تقدمى على أساس كبير مع وضع الملكية الاشتراكية بدلا من التأمين ويعارض الحزب بشدة مبدأ الحياد، والتوقف عن إنتاج الأسلحة الذرية .

حلف شمال الاطلنطى

نعود الآن إلى الحديث عن حلف شمال الاطلنطى ، أى « ناتو » . والفكرة السائدة اليوم هى الشك فى فعالية هذا الحلف والاعتقاد

بالعبارات التي قالها الجنرال ديجول في وقت من الأوقات أي «أنه بنيان كان يقصد به مواجهة ظروف لم يعد لها وجود اليوم» ، أي أنه قام في عام ١٩٤٩ ، قبل أن يدرك أي شخص الأشياء التي ينطوي عليها عصر الذرة . ولم يتوقع الا القليلون أن يمتلك الاتحاد السوفيتي القنبلة الذرية وأن يمضي في انتاج الصواريخ العابرة للقارات التي تستطيع أن تعبر المحيطات بسرعة هائلة والصواريخ التي تستطيع الوصول إلى القمر .

ولم يفكر الكثيرون في أن تتمكن القوات البرية من حمل الأسلحة الذرية ، أي أن الاعتبار الذرية قد غيرت تماما الدظم الاستراتيجية والنظم التكتيكية في نفس الوقت .

وقد كتب ليبان في يونيو من عام ١٩٦٠ : يقول . «إننا رفضنا ان ننظر إلى الحقيقة التوية الدامغة ، وهي أنه بمجرد أن يصبح لدى الاتحاد السوفيتي قوة ذرية ، فإن الدول المحيطة به لن تتمكن من الدفاع عن نفسها .»

وكان المقصود من قيام منظمة حلف شمال الاطلنطي ايجاد قوة عسكرية دولية تستطيع في حال الطوارئ وقف الروس برأ ، أو على الأقل تعطيلهم ، ان هم حاولوا الزحف نحو أوروبا في حال الطوارئ .

والواقع أن حلف شمال الاطلنطي مازال يعد ذا قيمة هامة في الوقوف أمام روسيا كدرع حام لأوروبا ، وسيف مسلط أيضاً لم يبلغ أبداً القوة التي كان المفروض أن يبلغها ، ولا شك في أن الجيش السوفيتي الذي يتألف من ست وتسعين فرقة ، والمجهز بالأسلحة الذرية والصواريخ

والذى يضم قوات سهلة التحرك ، يستطيع أن يصل إلى المحيط الاطلنطى فى خلال أسابيع . ولكن رغم ذلك ، فإن حلف شمال الاطلنطى قوى ، اذ رغم أن قوته قليلة العدد ، إلا أنها مجهزة تجهيزاً تاماً ، أى أنها قد تقلل من سرعة الزحف السوفيتى إلى حد ما ، وقد تتمكن من اجبار الروس على استخدام قوات احتياطية ومن حرمان الروس من الاراضى التى يأمل الجيش الأحمر فى احتلالها سريعاً بناء على النظرية القائلة : بأننا — نحن الأمريكيين — فى هذه الحال لن نجزو على القاء القنابل الذرية على السكان المدنيين الذين على علاقة طيبة مع أمريكا مثل ألمانيا الغربية أو دول الاراضى الواطئة ، أو فرنسا .

وما زال حلف شمال الاطلنطى على جانب كبير من الأهمية من الناحيتين النفسية والسياسية . وعلى أية حال فقد ظل هذا التحالف قائماً مدة اثنى عشر عاماً أمام الصعوبات العنيفة التى واجهته . ولم تقم فى فرص السلم أية قوة دولية مماثلة له وتضم خمس عشرة دولة منتشرة فى رقعة تمتد فى نصف مساحة الكرة الأرضية .

ومن نقاط الضعف فيه بيان القيادة المعقدة والبطء ، ويتهم البعض عليه بأنه لم يحدث فى التاريخ أن قامت القيادة الضخمة بتوجيه مثل هذه القوات القليلة العدد .

وثمة نقطة ثانية وهى أن المنظمة لا تعمل باعتبارها منظمة عسكرية إيجابية إلا أثناء المناورات ، ونقطة الضعف الثالثة هى أن كثيراً من الدول لم تبرع بالكثير لهذه المنظمة باعتبارها قوة عسكرية جديدة ، ويستخدم البعض عبارة التبرع وكأنهم يتحدثون عن إحدى الجمعيات الخيرية .

وأخيراً يجدر بنا أن نذكر أنه قد ظهرت صعوبات سياسية شديدة حول طول أوروبا وعرضها . وأحدها النزاع الذى نشب بين اليونان وتركيا حول قبرص والذى جعل قيام التعاون الفعال فى شرقى البحر الأبيض المتوسط مستحيلاً على أى مستوى من المستويات

وثمة سبب آخر للنزاع وهو السماح لأسبانيا بالانضمام اليه . وثمة نزاع طويل الأجل حول اتخاذ المياه البرتغالية متراً لقيادته ، ونزاع آخر ، وهو الأهم ، وهو دور فرنسا فى هذا الحلف . إذ أن ديجول يعمل على اتخاذ سياسية للرادع الذرى مستقلة عن الحلف ، وعندما استاء من تصرف بريطانيا والولايات المتحدة ، الذى اعتبره مشيناً بالنسبة لفرنسا . . فانه لم يخرج المقاتلات الأمريكية من الاراضى الفرنسية فحسب ، بل أنه سحب أسطول البحر الأبيض المتوسط من حلف شمال الاطلنطى .

والواقع أن متاعب ديجول كثيرة ، فهو يعتقد أن الولايات المتحدة تميل الى بريطانيا وتستعزى بفرنسا فى تبادل المعلومات السرية . وترد أمريكا على ذلك بأنها لا تثق فى فرنسا وهو يشعر أيضاً بأن فرنسا لم يكن لها سوى نصيب ضئيل فى مسئوليات القيادة العليا للقوات فى أوروبا تخضع لرجل أمريكى هو الجنرال لويس نورستاد .

ورغم أن القيادة العليا للقوات فى أوروبا تتبعها ثلاث قيادات أخرى ، الشمالية ومقرها أوسلو وهى بريطانية ، والجنوبية فى نابولى وهى أمريكية . وعلى الرغم من أن الفرنسيين يحتلون مركزاً حيويًا

في الحلف فان القيادة الثالثة التي مقرها مالطة في البحر الأبيض المتوسط تخضع لبريطانيا. هذا كما أن القائد الأعلى لحلف شمال الاطلسنطى (وهو الاميرال روبرت دنيسون الذي يتخذ من نورث فولك بولاية فرجينيا مقراً له) فهو أمريكي، أما القائد العام للقوات المتحالفة في القناة البريطانية فبريطاني الجنسية وهو الاميرال سير ستانلي باور ويتخذ مقره في بورتسهاوث بإنجلترا. أما السبب الثالث لغضب ديجول فهو أن جزءاً كبيراً من الجيش الفرنسي يقاتل باستماتة في الجزائر، رغم أنه مخصص من الناحية الفنية لحلف شمال الاطلسنطى بينما تقضى معظم القوات الأمريكية والبريطانية والأوربية الأخرى في حلف شمال الاطلسنطى وقتها على ضفاف الراين.

وفي أوائل عام ١٩٦١ كان يتبع حلف شمال الاطلسنطى إحدى وعشرين فرقة ونصف الفرقة في غرب أوروبا مقابل قوة روسيا التي قد لا تقل عن مائة فرقة عند قيام أية عمليات عدوانية. وتتألف فرق حلف شمال الاطلسنطى بما يأتي :

خمس فرق أمريكية وثلاث فرق بريطانية (وكان لبريطانيا أربع فرق منذ وقت قريب) وسبع فرق ألمانية وفرنقتان من كل من فرنسا وبلجيكا وهولندا . أما نصف الفرقة فهي من كندا

وهناك أمل في أن تنضم إلى قوات الحلف قريباً خمس فرق ألمانية في أواخر عام ١٩٦١ . وهذا هو الحلم الذي يتوق اليه فرانز جوزيف سترافوس وزير الدفاع الألماني .

وجدير بنا أيضاً أن نذكر القوات الأخرى التابعة للحلف غير القوات التي ترابط في جبهة ألمانيا الغربية . وهي عبارة عن اثنتي عشرة فرقة في تركيا وسبع في إيطاليا وخمس فرق في اليونان وفرقة واحدة في كل من الدانمرك والنرويج وبعض القوات في البرتغال . ويضاف إلى ذلك أيضاً الاسطول السادس الذي يتخذ من نابلي مقراً له والقواعد الجوية الكثيرة والضخمة في جميع أنحاء ألمانيا الغربية وقواعد الصواريخ « جوبيتر » في إيطاليا وتركيا .

وهناك بعض التفاصيل الجديرة بالاهتمام وهي احتلال كثير من الخبراء العسكريين الألمان لمناصب هامة في حلف شمال الأطلسي . ومنهم الجنرال أدولف هويزنجر الذي كان رئيساً للعمليات في أثناء الحرب العالمية الثانية والذي يتولى منصب المفتش العام في « بوندسفير » . وفي شهر ديسمبر عام ١٩٦٠ أصبح هويزنجر رئيساً لمجموعة التخطيط العسكري ومنظمي السياسة العسكرية في منظمة حلف شمال الأطلسي ومقره واشنطن وقد حل محل جنرال هولندي .

وعلى الرغم من أن هويزنجر لم يكن نازياً في أي وقت من الأوقات فقد كان الرجل الثاني بعد هتلر في يوم ٢٠ من يولية عام ١٩٤٤ عندما حاول المناهرون العسكريون اغتيال الفوهرر بالقاء قنبلة عليه ولم يسترسل هويزنجر في هذه المؤامرة ولكنه أصيب فيها بجراح شديدة ولكنه بعد مضي عدة سنوات أعلن عن تأييده العام لها . ومن كبار القادة الألمان أيضاً الجنرال « هانز شبايدل » الذي يتولى قيادة القوات

البرية المتحالفة في وسط أوروبا وهو ضابط رائع ولامع .. وكان رئيس أركان حرب الجيش الألماني في عهد المارشال روميل وقد لعب دوراً كبيراً في محاولة صد القوات المتحالفة عند غزوها لنورماندى .

وكان من الضباط الذين رفضوا إطاعة أوامر هتلر بتدمير باريس . و «شبايدل» ، حاصل على إجازة الدكتوراه في الفلسفة وقد كان من قبل أستاذاً للتاريخ العسكرى وهو من القادة الذين يقومون بجولاتهم في طائرات الهليكوبتر . وقد لا يكون هناك أى داعٍ لنذكر أن الجنرال «شبايدل» الذى كان يقاتل القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية في معارك عنيفة منذ ستة عشر عاماً قد أصبح اليوم رئيساً لقوة دولية تضم قوات أمريكية وبريطانية وفرنسية . وقد يكون غريباً أن يكون أحد الألمان قائداً على شبان من «مين» بفرنسا أو «كانساس» بالولايات المتحدة .

ولكن يجب علينا الآن أن نعود إلى قصة حلف شمال الاطلنطى الجديدة أى تطور أسلحته العسكرية بجهزة بالاسلحة النووية . وقد غير هذا الوضع الصورة بأكملها بين ليلة وضحاها كما أنه يسيطر على كل اعتبار معاصر .

وهناك نقط هامة يجب التعرض لها :

١ - القوات الألمانية وغيرها من قوات حلف شمال الاطلنطى بغرب أوروبا قد أصبحت بجهزة بأسلحة قادرة على اطلاق الصواريخ ولكنها لا تملك أية رهوس ذرية في الوقت الحاضر، فكل هذه رهوس

الذرية .. طبقا للقانون الامريكى - ملك للولايات المتحدة . وهى ممنوعة من التصدير . ولدى القوات الامريكية فى الاراضى الالمانية أسلحة ذات رموس ذرية ، بينما لا تمتلك القوات الالمانية مثل هذه الاسلحة .

وقد يبدو لنا أن هذه الحقيقة تسبب متاعب استراتيجية كبيرة لأننا على استعداد لأن نفترض أن العدو - فى حال الهجوم - سيهاجم فرق حلف شمال الاطلسى التى لا تملك أسلحة ذرية تستطيع أن تنتقم بها من أى هجوم ، غير أن هذا التفكير غير عملى ، فالفرق الامريكية مترابطة مع الفرق الأخرى ومتشابكة معها ، فكل فرقة ألمانية لديها بعض القوات المدربة على استخدام الصواريخ الذرية المتنقلة القصيرة المدى التى تستخدم فى الأغراض التكتيكية فى الحروب البرية ، ولكن من الممكن تحويلها إلى صواريخ ذرية فى غاية السرعة بمجرد تثبيت رموس ذرية عليها .

ولدى فرنسا الآن أسلحتها الذرية الخاصة التى لا تخضع لسلطة أمرييتكا التى بدأت فى تخزينها منذ أن بدأ ديجول فى اتباع السياسة « الرادعة » المستقلة . ويبدو أن الألمان يشعرون بالسعادة فى الوقت لأنهم غير مضطرين إلى الاحتفاظ بأسلحة ذرية فى مخازنهم غير أنهم لا يريدون الآن الحصول على الأسلحة الذرية بقدر حاجتهم إلى وسيلة مستقلة لاستخدام هذه الاسلحة أى المقاتلات الحديثة والقوات الجوية الالمانية ما زالت صغيرة .. كما أن البلاد قد تعهدت - فى حرية -

بعدم إنتاج المتاتلات الطويلة المدى أو الأسلحة الذرية . ولكن قد تطلب ألمانيا — وفي المستقبل القريب — التخلص من هذا التعهد وتنسحب بأنها مضطرة إلى إنتاج الأسلحة الذرية . على الرغم من أن هذا الإجراء سيثير معارضة شديدة في بريطانيا والدول الاسكندنافية ودول الأراضى المنخفضة وبعض الدوائر في ألمانيا الغربية نفسها .

٢ — ظهرت بعض الصعوبات الجديدة والضخمة في بعض النواحي مثل مسئولية القيادة .. ولنفترض مثلاً عن طريق الصدفة عملاً عدوانياً بدأ على أساس محلي ومحدود بالأسلحة التقليدية فقط . فهل يجب على قوات حلف شمال الاطلنطى أن ترد على هذا العدوان باستخدام الأسلحة الذرية وبإطلاق القنابل الذرية أو حتى الهيدروجينية على نطاق صغير ولاهداف محدودة .

ولكن لو لم نقيم بهذا التصرف الرهيب كما هو واضح . . . أفلا نتعرض (نحن الأمريكين) للخطر الناجم عن تحول العدو من استخدام الأسلحة التقليدية إلى الأسلحة الذرية ، ويقضى علينا في أية لحظة من اللحظات .

إن السياسة الموضوعة تقضى بأن ترد قوات حلف شمال الاطلنطى — على مستوى تكتيكي — على أى هجوم بالأسلحة التقليدية ولاستخدام أية أسلحة غير تقليدية . ولا يمكن استخدام الأسلحة الذرية أبداً دون صدور أوامر صريحة من رئيس جمهورية الولايات المتحدة .

٣ — يبدو أن معظم الخبراء يوافقون على أنه : نشبت الحرب

فإنها ستكون قصيرة للغاية إما لأنها ستكون في منطقة محدودة في البداية أو لأنها ستتسع وتصبح حرباً ذرية على نطاق واسع بحيث تؤدي إلى إفناء الجميع .

ومن بين خطط حلف شمال الاطلنطي خطة تعرف باسم MCTO وقد وضعت هذه الخطة على أساس أن الحرب الأوروبية لن تستمر أكثر من ثلاثين يوماً وأنه من العبث تخزين المعدات والمهمات اللازمة للقوات لمدة أطول من ثلاثة أشهر .

٤ — ترى من الذى يضغط على الزر . . ؟ من الذى له سلطة على أن يصدر القرار النهائى والاخير باستخدام الاسلحة الذرية لـ انتشار هيب الحرب المحاية . . ؟ هل هو ضابط فى ميدان القتال . . ؟ وهل هو جنرال نورستاد بحكم اختصاصه كقائد عام للقوات الأمريكية فى أوروبا وقائداً عاماً للهيئة العليا للقوات فى أوروبا . . ؟

ومن الذى ينصح رئيس الجمهورية الأمريكية باتخاذ إجراء حاسم فى هذا الموضوع ؟

وهل سيستشار رئيس الوزارة البريطانية . . ؟ وهل يمكن أن يتخذ هذا القرار مجلس حلف شمال الاطلنطي وهو المتخصص فى الشؤون السياسية ، أم السكرتير العام المدنى . . ؟

وقد دار حديث ودى طويل فى باريس بينى وبين بول هنرى سباك الذى تولى هذا المنصب أخيراً ، ولكنه لم يبلغنى باسم الشخص

الذى له السلطة فى أن يضبط على الزر ولا أدرى إن كان هو يعرف هذا الشخص أم لا . .

لحقيقة اتى لم أتمكن أبداً من الحصول على إجابة مرضية لهذا السؤال . . فهل يتشاور الجميع معاً . . ؟ ولو كان هذا يحدث فعلاً فإن الذين سيحضرون هذا الاجتماع سيكونون فى عجلة .

ويقدر البريطانيون أن الصاروخ السوفيتى التصير المدى المسمى « جوليم » يمكن أن يصل إلى الأهداف البريطانية من قواعد فى ألمانيا الشرقية خلال ثلاث دقائق .

عندما استعرض الجنرال تورستاد بالتفصيل اقتراحا كان يغلى فى النفوس بضعة أشهر لتحسين بعض هذه الاضطرابات أو كلها باتخاذ خطوة حاسمة ألا وهى تحويل منظمة حلف شمال الاطلنطى إلى قوة نووية مستقلة . . فتحصل هذه المنظمة كوحدة مستقلة على أسلحتها النووية الخاصة ، وتصبح بذلك — بعد الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وروسيا وفرنسا — القوة النووية الخامسة فى العالم .

وقد كان من بين ما تضمنه الاقتراح وجوب تخصيص خمس غواصات بولاريس لمنظمة حلف شمال الاطلنطى وكانت هناك عدة دوافع لهذا التطور — من بينها أن المنظمة لا تملك قوات برية كافية وأن طرق الحرب قد تغيرت تغيراً لا سبيل إلى علاجه .

وثمة دافع آخر هو الأمل فى أن مثل هذه الخطوة سوف تمنع الفرنسيين من التماهى فى سياستهم الرادعة المستقلة (قالفرنسيون ليست

لديهم بعد القدرة على إلقاء القنابل التي ينتجونها من الناحية الاستراتيجية (كما أنها إذا نظرنا إلى المستقبل سوف تثبط همة الألمان عن الوصول إلى الإنتاج النووي الخاص بهم . فألمانيا — كما سبق أن قلنا — محظور عليها في الوقت الحاضر إنتاج أسلحتها النووية الخاصة كما حظر عليها تكوين سلاح طيران استراتيجي ولكن هذا الحظر قد لا يستمر إلى الأبد .

ويبدو من الواضح أن مشروع نورستاد لا يمكن تبنيه دون تعديل من الكونجرس لقانون الطاقة الذرية الذي يحظر على الولايات المتحدة أن تشارك أحداً في أسلحتها الذرية . كما أن هناك صعوبة أخرى تفاق بالبريطانيين على وجه الخصوص وهي أن كل عضو من أعضاء منظمة حلف شمال الاطلنطي الخمسة عشر يجب أن يؤخذ رأيه قبل اتخاذ أى قرار باستخدام الأسلحة المعدة مما قد يكون إجراء شاقاً . كما أن البريطانيين يريدون أن يميزوا تمييزاً دقيقة بين منظمة حلف شمال الاطلنطي نفسها وبين القيادة العليا للدول المتحالفة في أوروبا التي تعتبر ساعدها الأيمن من الناحية العسكرية . فهم لا يريدون أن يضعوا المسائل العليا المتعلقة بالحرب والسلام والتدمير النووي المحتمل في أيدي الرجال العسكريين وحدهم — إنهم يريدون قراراً سياسياً وعسكرياً . وعلى العموم فإن البريطانيين يميلون إلى أن يظلوا قانعين بالموقف الحالي الذي يشترط ألا تطلق أسلحة الولايات المتحدة الاستراتيجية (البعيدة المدى أو عابرة القارات) إلا بأمر من رئيس الجمهورية في واشنطن . كما أن

حزب العمال البريطانى بالذات لا يريد قيام أى احتمال يستطيع به أحد
تمثل منظمة حلف شمال الاطلنطى أن يتسبب فى حرب هيدروجينية دون
استشارة أحد .

ولكن الفرنسيين - وربما الأمم الأخرى - لا يريدون أن يضعوا
المسئولية كلها فى يد الولايات المتحدة لتخوفهم من أن رئيس الجمهورية
قد لا يصرح بإطلاق الأسلحة الذرية الأمريكية دفاعاً عن أوروبا ما لم
تهاجم أراضي الولايات المتحدة نفسها . وهذا هو أحد الأسباب التى
يريد ديجول من أجلها أن يكون لديه سلاحه الرادع . وقد سبق أن
ذكرت أسباباً أخرى فى الباب السابع .

أحد رجال أوروبا الأقوياء

لقد خلف بول هنرى سباك وهو شخصية مرحلة اجتماعية تمتاز
بذلاقة اللسان . لورد أزماى السكرتير العام لمنظمة حلف شمال الاطلنطى
فى ديسمبر ١٩٥٦ . وقد كان فى وظيفته هذه يحتاج إلى ثقله كله (فهو
يزن أكثر من مائتى رطل) وإلى خفة حركة كان القوادى فى القيادة العليا
للدول المتحالفة فى أوروبا يعرفون كيف يعاملون أزماى أما سباك فقد
كان شيئاً مختلفاً ، فقد أصبح من الصعب أن نحدد ما إذا كان سباك
أقوى سلطة من نورستاد وهو القائد العام للقوات المتحالفة ، فمن الناحية
النظرية لا يخضع أحدهما للآخر . إن سباك يشغل تقريباً نفس المركز

الذى يشغله همرشولد فى الأمم المتحدة أما نورستاد بتبعته التى تحمل شعار منظمة حلف شمال الاطلسى فهو يمثل قائداً لقوة من قوات الأمم المتحدة . ولكن نورستاد كما ذكرنا آنفا ليس قائداً عسكرياً لقوات حلف شمال الاطلسى فحسب بل أيضاً القائد العام للقوات الأمريكية فى أوروبا وهذا هو ما يعطيه مزيداً من السلطة

وذات مرة أن سمى سباك الذى يبلغ من العمر واحدا وستين عاماً « البلجيكي التمتعى » لأن والده من الفلاندرز فى غرب بلجيكا وأمه من الوالون فى جنوبها . وقد ظلت عائلة سباك مشهورة لأجيال عديدة فقد كان أحد أجداده رئيساً للوزراء أما أبوه فكان أديباً معروفاً . . كما كانت أمه وهى اشتراكية متحمسة (كابنها) أول امرأة تنتخب عضواً فى مجلس الشيوخ البلجيكي .

وقد استولت السياسة وعلى الأخص الحركة العمالية على تفكير سباك فى وقت مبكر . . وقد بدأ حياته السياسية يسارياً متطرفاً كما قاد المظاهرات فى الشوارع وقد أصيب مرة فى أحد هذه الاضطرابات . وفى سنة ١٩٢٢ دخل سباك البرلمان ثم أصبح وزيراً للخارجية فى سنة ١٩٢٦ (وقد ظل يشغل هذه الوظيفة فى فترات متقطعة لمدة عشرين سنة تقريباً) ثم أصبح فى سنة ١٩٣٩ أول رئيس وزراء اشتراكي فى تاريخ بلجيكا كما كان أصغرهم سناً .

وقد تمكن من الهرب عندما اكتسح النازيون بلاده كما قام بدور رئيسى فى المعركة التى أطاحت بليوبولد بعيداً عن عرشه .

ولكن النقطة الرئيسية التى يجب أن نعلق عليها اهتماماً فى شخصية

سباك هي نظريته العالمية الحقيقية الصادقة . وقد كان رأس الوفد البلجيكي في مؤتمر سان فرانسيسكو سنة ١٩٤٥ ثم أصبح أول رئيس لجمعية الأمم المتحدة ١٩٤٦ - ١٩٤٧ فور تأسيسها وكان أحد مؤسسي اتحاد دول البنلوكس كما ساهم في معترك التطور الذي تمخضت عنه جمعية الصلب والفحم الآور وبية والسوق المشتركة .

اتحاد الدول الست والدول السبع

ولكى نفسر تطور الجمعية الأوروبية الاقتصادية (أو السوق المشتركة) وعملها تلك الجمعية التي تسمى أحياناً « الستة الداخليين » ، يجب أن نعود إلى الوراء قليلاً لنفهم بعض الأحداث المعقدة في التاريخ الحديث وأن نعطي للاصطلاحات تعريفات موجزة .

فقد أوضح جان مونييه وهو أحد الاقتصاديين الفرنسيين وأحد رجال الأعمال الذين عرف عنهم بعد النظر وعمق التفكير في أعقاب الحرب على روبرت شومان وزير الخارجية في ذلك الوقت أن توحيد موارد الحديد والفحم والصلب في فرنسا وألمانيا سوف لا يكون خطوة منطقية نحو تحسين اقتصاد كلا البلدين فحسب بل يمكن أن يكون ذا أهمية لا تقدر في تقريب وجهات النظر السياسية وقد كان شومان الذي ولد في اللورين وحارب فعلاً مع الجيش الألماني في الحرب العالمية الأولى ذا عقلية دولية متشبث بالفكرة في الحال ..

وعلى أية حال فليس هناك فارق بين الفحم أو الحديد الفرنسي والألماني تحت القشرة الأرضية ، فعروق هذه المعادن في مناجمها المدفونة تحت

سطح الأرض لا تعرف الحدود السياسية ، وفضلا عن ذلك فإن السار واللورين والروول يكمل كل منها الآخر تماماً من ناحية الموارد الطبيعية وفي ٩ مايو سنة ١٩٥٠ اقترح شومان رسمياً تكوين سلطة مشتركة للإشراف على الفحم والصلب الفرنسيين الألمانين فبدأت عندئذ المفاوضات الصعبة التي كلفت كثيراً من الجهد .

وقد امتد المشروع فشمّل إيطاليا وبلجيكا والأرض الواطئة ولوكسمبورج ، وفي ١٨ أبريل سنة ١٩٥١ وقعت في باريس معاهدة رسمية على مستوى الحكومات تقضى بإنشاء الجمعية الأوروبية للفحم والصلب E.S.C.S. وأصبح مونييه أول رئيس لسلطانها العليا أول للهيئة الحاكمة فيها .

وفي صيف عام ١٩٥٢ بدأت الهيئة عمالها . كان مركزها الرئيسي في لوكسمبورج ، وكانت هذه الهيئة ناجحة منذ بدايتها تقريبا . . . فقد ربح جميع الشركاء . كما افتتحت في عام ١٩٥٣ سوق مشتركة في الفحم والحديد الخام والحردة ثم تبعها سوق للصلب .

والغريب في هذه المؤسسة أنها لم تكن دولية فحسب بل كانت فوق مستوى القومية بالمعنى الصحيح لأن الأمم المشتركة فيها وافقت في كثير من الميادين على التنازل عن سياستها للهيئة الجديدة كما منحتها السطة في فرض الضرائب .

وبالإضافة إلى ذلك قد تضمنت فكرة مونييه — شومان تكوين جمعية مشتركة أو برلمان قام بعقد جلسته الأولى في ستراسبورج في سبتمبر عام ١٩٥٢ تحت رئاسة بول هنري سباك أول رئيس له .

وقد شرع مونييه وزملاؤه وجميعهم من المثاليين الطموحين بعد وقت قصير في تطوير فكرتهم وفي نفس الوقت كان هناك آخرون أيضا يعملون بجهد واجتهاد على مستوى سياسى أعلى لتوحيد أوروبا مثل أديناور ورينيه بليفان رئيس وزراء فرنسا . تم تقدم بعد ذلك بوقت قصير اقتراح بتكوين ما سمي بعد ذلك بجمعية الدفاع الأوروبي وهي محاولة لإمكان إعادة تسليح ألمانيا داخل اطار أوروبى عام وجعل هذا الموضوع أكثر استساغة من طريق تكوين جيش أوروبى دولى موحد ولكن البرلمان الفرنسى قضى على فكرة تكوين جمعية الدفاع الأوروبي (فى أغسطس ١٩٥٤) وكان السبب الرئيسى فى ذلك أنه ما زال يشعر بالخوف الشديد من ألمانيا . وفكر مونييه أن التطور التالى ينبغى أن يتخذ اتجاهًا مختلفًا وأنه كان من الخطأ محاولة انشاء وحدة سياسية عسكرية بدون وضع أساس اقتصادى سليم فى البداية . وقد تضمن هو وسباك ووصلا الى فكرة امكان اتخاذ اجراء مجد فى ميدان الطاقة الذرية . وكان هذا الميدان يبشر بالمصلحة الخاصة فى الذرة فتد كان الميدان الجديد للتقدم النووى تحديا تمثيلا .

كما أن الدول الصغيرة وحدها لم تستطع تحمل نفقات انشاء مؤسسات لكبح جماح الطاقة الذرية . ولذلك فقد نجحت بسرعة فكرة تنفيذ ما سبق تنفيذه وفى نفس الوقت كان اتجاه بنلوكس الاقتصادى يقوم بعمله على خير وجه . فقد عقد وزراء خارجية الدول الست الأعضاء فى جمعية الفحم والصلب فى يونيو سنة ١٩٥٥ اجتماعا فى مسينا بصقلية ليتخذوا خطوات أخرى نحو تحقيق الوحدة الأوروبية . وقد كان نفوذ

مؤنيه الذى قدم استقالته من رئاسة السلطة العليا (أو الهيئة الحاكمة) ليتفرغ لهذه التطورات الجديدة وحدهما بالتضامن مع سباك وآخرين نفوذا عميقا عريضا . ونتيجة لهذا تكوّنت هيئتان جديدتان هما الجمعية الأوروبية الاقتصادية أو السوق المشتركة ويوراتم أو الجمعية الأوروبية للطاقة الذرية . وقد وقعت معاهدات رسمية فى روما فى ٢٥ مارس ١٩٥٧ بعد عمل شاق وقد جاء ذلك مفاجأة إلى حد ما لكل شخص . وبمقتضى هذه المعاهدة أنشئت الوكالتان الجديدتان وبدأتا عملهما حالما تم التصديق على المعاهدات .

السوق المشتركة نفسها

إن السوق المشتركة لها مظهران رئيسيان ، أولهما أن الدول الأعضاء التى تمثل عددا من السكان يبلغ ١٧٠ مليونا وتشغل مركزا من أغنى مراكز القوة الصناعية فى العالم وافقت على تخفيض الحواجز الجمركية بينها وبذلك تتحول فرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا وأمم البنلوكس فى النهاية إلى منطقة موحدة للتجارة الحرة مثل الولايات المتحدة . والفكرة من ذلك أن يتمكن مشر فى ألمانيا مثلا من شراء بضائع فرنسية بنفس الثمن الذى تباع به فى فرنسا تقريبا كما يشتري نبيذ كاليفورنيا أو فاكهتها فى نيويورك بنفس الثمن الذى تباع به فى كاليفورنيا ويستمر التخفيض فى التعريفات الجمركية تدريجيا وقد كان المعتقد أساسا أن تخفيض هذه الرسوم إلى الصفر بين الدول الأعضاء سوف يستغرق

بين عشر وأثنى عشرة سنة . وقد بدأت التجربة بتخفيض متواضع قدره ١٠ ٪ في أول يناير سنة ١٩٥٩ بعد مضي ستة من تنفيذ هذه المعاهدة . وفي صيف ١٩٦٠ حدث تخفيض آخر قدره ١٠ ٪ أخرى وكذلك حدث تخفيض ثالث في أول يناير سنة ١٩٦١ وينتظر أن تنخفض هذه الرسوم إلى الصفر في سنة ١٩٦٦ . والمظهر الثاني لهذه السوق المشتركة أن الدول الأعضاء اتفقت على توحيد التعريفات الجمركية في مواجهة الدول غير الأعضاء . وبعبارة أخرى سوف تتصرف الدول الست في مسائل التجارة الخارجية كما لو كانت دولة واحدة . ولتنفيذ هذا سوف تخفض الدول التي ظلت حتى ذلك الوقت تفرض حماية قوية على أسواقها المحلية تعريفاتها الجمركية وعلى عكس ذلك فإن الدول التي كانت تميل في الماضي إلى التجارة الحرة مثل بلجيكا وهولندا سوف تضطر إلى رفع هذه الرسوم .

كما كان للسوق المشتركة خارج هذا المجال ومع إغفال التفاصيل المتعلقة بالزراعة والحصص تأثير هام جدا . والذي يهمنا حقيقة هو أن معظم الأنصار المتحمسين للدول الست مثل مونييه واديناور يأملون أن تصبح هذه الهيئة وقد خطت فعلا السوق المشتركة خطوات واسعة كما أصبحت سكرتاريتها في بروكسل منظمة دقيقة تحت رئاسة البروفسور والتر هالشتين . كما انتعشت التجارة انتعاشا دافقا ، للنظر فتمد بلغت ٢٩ ٪ متماثل نسبتها في العام الماضي داخل حدود الدول الست كما بلغت ٨ ٪ بين الدول الست والعالم الخارجي . وكذلك فتمد ارتفاع إنتاج الصلب في إيطاليا إلى أربعة أمثاله . ويتحدث المتحمسون عن التطورات

المنتظرة في المستقبل مثل توحيد رخص السيارات للمواطنين في جميع الدول الست وتوحيد العملة بل توحيد حقوق المواطنة أيضاً وكذلك فسوف تختفي الحدود نظرياً ولكنها لن تختفي عاطفياً . فالحد الفاصل بين فرنسا وألمانيا أو بين فرنسا وإيطاليا سوف لا يعنى أكثر من الحدود التي تفصل بين فرمونت ونيوهاهامشير أو بين كنت وتيكس .

وقد دعى البريطانيون لحضور المناقشات الأولى التي أدت إلى تكوين السوق المشتركة في صيف ١٩٥٥ ولكنهم غضوا النظر عنها في إهمال واحتقار — ولكنهم أبدوا مزيداً من الاهتمام عندما أصبح من الواضح أن هذا المشروع الثوري سوف يبدأ في العمل فعلاً . وعرضوا عرضاً تجريبياً بأن يضموا لكتلتا الجمعيتين الفحم والصلب واليورانيوم . ولكن رفض هذا العرض إذ قالت دول السوق المشتركة إن بريطانيا يجب أن تنضم للدول الست دون قيد أو شرط وأن تصبح عضواً كاملاً في الجمعية الاقتصادية الأوروبية بيد أن البريطانيين أحسوا أنهم لا يستطيعون ذلك لعدة أسباب مختلفة . أولها أنهم ظلوا يلعبون بسياسة توازن القوى منذ نعومة أظفارهم فشعروا بعداء عاطفي في عتلمهم الباطن قبل هذه الكتلة الأوروبية الموحدة القوية الجديدة التي تكونت من مجموعة من الدول عبر المانش . وثمة سبب آخر وهو أنهم لا يستطيعون الانضمام إلى الدول الست دون أن ينضموا بعلاقاتهم التجارية مع الكومنولث التي تعتبر مصدراً لما يقرب من ٤٠ ٪ من مجموع التجارة البريطانية . فبريطانيا مثلاً تستورد معظم سلع الكومنولث وعلى الأخص المواد الغذائية والمواد الخام دون فرض ضرائب جمركية

في ظل نظام التمييز الاستعماري . ولكنها قد تضطر إلى وضع تعريفات
جمركية على مثل هذه الواردات بانضمامها إلى الدول الست مما سوف
يجعل من الصعب على دول الكومنولث أن تنافس الموردين
الأوروبيين .

ومع ذلك فقد اكتشف البريطانيون بعد وقت قصير أنهم أيضاً
يتكبدون خسائر فادحة ببقائهم خارج هذا الاتحاد حتى ولو كانت
عضويتهم فيه قد تكلفهم الشيء الكثير لأن السوق المشتركة في مركز
يمكنها من إلحاق الضرر الشديد بتجارة التصدير فيها وخاصة إلى أوروبا
وهو عنصر على جانب كبير من الأهمية في مركز التجارة البريطانية
وعلى الأخص في فترة تزداد فيها الواردات على الصادرات زيادة سريعة
كما ذكرنا آنفاً في باب سابق فكان عليهم أن يواجهوا بعض المشاكل
المعقدة .

فكيف يواصل البريطانيون بيع آلاتهم الأراضي الواطئة مثلاً إذا
كانت الترتيبات الجمركية المتبادلة للدول الست سبباً في حصول
الهولنديين على آلات مشابهة لها بسعر أرخص من ألمانيا أو فرنسا ؟
وكيف يمكن أن يبيعوا السيارات لبلجيكا أو إيطاليا أمام الحواجز
الجمركية في حين أنها تستطيع شراء سيارات فرنسية منافسة لها على
سبيل المثال دون رسوم جمركية .

وقد قرر البريطانيون بعد تردد طويل بغض النظر عن النتائج
سواء أكانت حسنة أم سيئة أن خير حركة يقومون بها هي إنشاء جهاز
تجاري أوروبي منافس .

ويعرف هذا الجهاز باسم جمعية التجارة الحرة الأوروبية أو الدول السبع الخارجية وهي تشمل بريطانيا وسويسرا والنمسا والبرتغال وثلاث من دول اسكنديناوة وهي السويد والنرويج والدنمارك . وقد تم التصديق على المعاهدة التي تقضى بإنشاء الدول السبع في مايو سنة ١٩٦٠ . وكما حدث بين الدول الست ، ففي نية الدول السبع إلغاء جميع الحواجز الجمركية الداخلية بينها في فترة لا تتجاوز سنوات قليلة . وقد تم التخفيض الأول على وجه السرعة في أول يونيو .

أما الحواجز الجمركية الخارجية (ضد الخارجين على هذا الاتحاد) فسوف تبقى كما هي دون تغيير والغرض من ذلك بالطبع هو تأكيد دخول سلع الكومنولث وموادها الخام إلى بريطانيا بدون رسوم جمركية أو برسوم مخفضة جداً .

وثمة نقطة عرضية وهي أنه بينما أن جميع أعضاء اتحاد الدول الست أعضاء أيضاً في منظمة حلف شمال الأطلسي نجد أن ثلاثة أعضاء في الاتحاد السباعي عايدون وهم النمسا طبقاً لشروط معاهدة الصلح والسويد تمثيلاً مع ميولها وسويسرا بناء على تصميمها .

إن الدوافع السياسية الخفية للتضامن والشعور الغريزي بتحقيق الوحدة في المستقبل في اتحاد الدول السبع ليست بالتموه التي تشعر بها الدول الست

وسرعان ما نشبت الحرب بين اتحاد الدول الست الداخلية وبين اتحاد الدول السبع الخارجية . فأطلقت الدول السبع على اتحاد الدول

الست في احتكار ظاهر اسم « منتدى الأثرياء » ، إذ يبلغ عدد السكان في هذه الدول الست ٧٠ مليوناً كما بلغ بحمل إنتاجها القومى في سنة ١٩٥٧ ، ١٤٦ بليوناً من الدولارات وقد يزيد اليوم على هذا الرقم .

أما الدول السبع فهي أقل تركيزاً من الناحية الجغرافية وأقل تصنيعاً كما أنها لا تضم أكثر من ٨٦ مليوناً من السكان وكان بحمل إنتاجها القومى في سنة ١٩٥٨ لا يتجاوز ٨٤ بليوناً من الدولارات ومن هذه الأسباب التى جعلت السوق المشتركة فى انجلترا على قدر كبير من النشاط إن جانباً قوياً من رأى العام يعتقد أنه من السخف إلى حد ما أن تكون هناك حرب تجارية تؤدي إلى تقسيم أوروبا فى هذه الفترة بالذات من تاريخ العالم التى هى أحوج ما تكون فيها إلى أقوى صورة من صور الاتحاد والتضامن .

ويرى أعضاء حزب الأحرار وبعض العماليين وعدد قليل من المحافظين أن يتخلوا عن اتحاد الدول السبع وأن ينضموا إلى الدول الست على أن ذلك ليس من السهل إذ لا تزال الكومنولث قوة عاطفية كبيرة كما أنها قوة سياسية واقتصادية لدى البريطانيين . أما الدول الست فى انضمام بريطانيا إلى صفوفها وفى نفس الوقت يظل التناقض قائماً من حيث أن حكومة انجلترا هى أكثر الحكومات تشيماً لأوروبا فى التاريخ ، ومع ذلك فإنها لا تشترك فى تلك الخطوة التقدمية التى ربما كانت تعتبر من أهم الخطوات نحو تحقيق الوحدة والرخاء والسلام فى أوروبا .

أعمال الجمعية الأوروبية

إن كلا من السوق المشتركة واليوراتيم له أدواته التنفيذية في بروكسل. فالمركز الرئيسي للسوق المشتركة يوجد في آفينيو لاجويوز انتريه . ويبدو أن الاسم في حد ذاته فآل حسن ولكن وجود هذه المؤسسة الجديدة هناك لا يبدو أن يكون مجرد مصادفة عارضة . وقد زاد عدد الموظفين في هذه المؤسسة زيادة ضخمة فبلغ عدد موظفي سكرتارية السوق المشتركة الآن حوالى ١٨٠٠ كما بلغ عدد موظفي اليوراتيم حوالى ٦٠٠ موظفاً بما في ذلك علماء الأبحاث .

وقد كان الدكتور والتر هالشتين رئيس هيئة السوق المشتركة يعمل أستاذاً في القانون عندما استدعاه الرئيس أديناور منذ بضع سنين لتولى وزارة الخارجية الألمانية وهو رجل يبلغ من العمر واحداً وخمسين عاماً ويتكلم الفرنسية والألمانية والإنجليزية بطلاقة .

وفي الواقع فإنه أحد الألمان القلائل الذين يمكنهم أن يناقشوا أخطر المسائل الفنية المتشابهة باللغة الفرنسية مع زملائهم الفرنسيين . وقد حارب هالشتين مع الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية وأسره الأمريكيون . وعندما نقل إلى الولايات المتحدة راح يعلم الأسرى اللغة الإنجليزية في مختلف معسكرات الاعتقال ثم ظهر في النهاية سنة ١٩٤٧ ، وقد التحق بكلية الحقوق في جامعة جورج تون في واشنطن . ولما كان يتصف بهدوء الطبع إلى حد ما وعدم الرغبة في العجلة والإسراع الذى

يبلغ حد التهور لذلك فإنه على جانب كبير من الدقة في التفكير ،
والسياسة في حد ذاتها لا تثير اهتمامه كثيراً ولكنه أوروبي مخلص
ذو عتلية دولية .

أما رئيس اليوراتم فهو أيتين هيرشى الذى كان النائب الأول
لمونيه في برنامج التطوير والتعمير (مشروع مونيه) ذلك المشرع
الذى شرع في وضع الاقتصاد الفرنسى على قدميه بعد الحرب .

وهيرشى مواطن فرنسى من أصل يهودى ذو شخصية محبوبة وقلب
كبير ولكنه لم يمتحن بعد امتحاناً كافياً في ميدان السياسة . كما يمتاز
بمجال واسع من الاهتمامات الفكرية وهو يستعين في عمله بمساعدين
ثلاثة رئيسيين أحدهم إيطالى والآخر هولندى والثالث ألمانى . والواقع
أن اليوراتم عملية على جانب كبير من التعقيد .

ففي فرنسا يدور العمل في أربعة مناجم لليوراتم والنوريم كما يوجد
طبقات من هذه المعادن قابلة للاستغلال في فرنسا وإيطاليا وألمانيا
الغربية . أما مراكز البحث فإنها توجد في جر نوبل وفي مكانين آخرين
في فرنسا وفي روما وثلاثة أماكن أخرى في إيطاليا وفي ثلاثة
أماكن في ألمانيا الغربية وفي مكان واحد من برلين الغربية وفي مكانين
من هولندا وفي مكان واحد من بلجيكا .

أما المفاعلات التجريبية فإن العمل يدور في ستة منها في فرنسا
 وخمسة في ألمانيا وواحد في برلين الغربية وواحد في بلجيكا وواحد
في هولندا . وفي ماركول وهى مركز لجميع التجارب العلمية الفرنسية

في الطاقة الذرية يدور العمل في مفاعلين لتوليد الطاقة . وفي اثنين آخرين في إيطاليا أحدهما في لاتينا بالغرب من روما والآخر على مقربة من تورين .

وأخيراً فهناك اثنا عشر مصنعاً أو أكثر لمعالجة الخامات من هذه المعادن وكذلك فهناك مصانع أخرى لمعالجة المواد المشعة ذات الخلايا القابلة للانقسام .

كما يوجد المركز العام لجمعية الفحم والصلب في لو كسمبورج ورئيس الهيئة الحاكمة فيه رجل إيطالي اسمه بيرو مالفستيتي كان المساعد الأول لهالشتين في السوق المشتركة ويبلغ عدد موظفي سكرتارية الجمعية الأوروبية للفحم والصلب حوالي سبعمائة موظفاً . وقد أدخلت هذه الهيئة على الحياة في لو كسمبورج كثيراً من النشاط والانتعاش . وفي الوقت الذي لا نجد فيه لدى منظمة السوق المشتركة إلا ما يسمى دستور « الاطار الخارجي » نجد أن لائحة الجمعية الأوروبية للفحم والصلب أكثر تجديداً ، إنها أول منظمة فوق مستوى القومية في التاريخ تخولها حكومات الدول الأعضاء فيها سلطة فرض ضريبة أوروبية . على ألا تتجاوز هذه الضريبة ١٪ من قيمة مجموع الانتاج السنوي ، وعلى النقيض من ذلك نجد أن السوق المشتركة واليوراتم تمويلها مخصصات من ميزانيات الحكومات الست الأعضاء ومن الناحية النظرية يشغل كل من هالشتين وهيرش ومالفستيتي مناصب متساوية لا رئيس فيها ولا مرموس . وكل منهم مجلس وزراء

وقد يجتمع معهم أيضاً وزراء الحكومات المحلية ويتوقف ذلك على الموضوع الذى تدور حوله المناقشة .

كما تكونت أيضاً محكمة تعقد جلساتها فى لوكسمبرج ويرأسها هولندى هو الدكتور أ ، م دوتر . وفى النهاية فإن جميع أعضاء الجمعية الأوروبية مسئولون من الناحية النظرية أمام برلمان واحد مشترك يعقد جلساته فى ستراسبورج ويجتمع تسع مرات فى السنة ، وقد نشأ هذا البرلمان من « المجلس المشترك » القديم لجمعية الفحم والصلب ويعرف الآن باسم البرلمان الأوروبى ويبلغ عدد أعضائه ١٤٢ عضواً يجب أن يكونوا جميعاً من بين أعضاء البرلمانات الوطنية الست الممثلة فى هذه الجمعية . ومع ذلك فإنهم لا يجلسون فى البرلمان حسب دولهم ولكنهم تماماً كما يحدث فى البرلمانات المحلية ينتمون إلى وجهات وأحزاب مختلفة فالاشتراكيون الايطاليون والفرنسون والالمان مثلاً يجلسون معاً دون النظر إلى جنسياتهم كما يفعل المحافظون .

ويجتمع البرلمان الأوروبى فى مبنى فى ستراسبورج يطلق عليه اسم « بيت أوروبا » كان قد سبق بناؤه للمجلس الأوروبى وليس لهذا البرلمان سلطات تشريعية كما ليس له أهمية سياسية كبيرة ولكنه يعتبر نقطة ابتداء . إن إجراءات المركز الرئيسى الحالية ليست على جانب كبير من البطء فقد تقدم دكتور فرانز فايرز وهو رئيس وزراء شمال الراين . وسنغاليا أخيراً باقتراح لتأسيس (عاصمة) جديدة للجمعية الأوروبية على بقعة خارج الحدود وتبلغ مساحتها مائة ميل مربع حيث تجتمع المانيا الغربية وبلجيكا وهولندا .

وهذا يذكرنا بالاقترحات الشيرة الأخيرة التي تقدمت بها المناشستر جارديان على وجه الخصوص لحل أزمة برلين وذلك بنقل جميع سكان برلين الغربية بقضهم وقضيضهم وكذلك جميع المعدات الصناعية والمعدات الأخرى إلى منطقة مشابهة خارج الحدود .

حادث الطائرة — ٢

إن المجال لا يتسع لنا لسرد قصة الطائرة ٢ — باسمها . وعلى ذلك فإننا نجريها من التفاصيل ونضع هنا أهم ملاحظاتنا . ففي يوم الأحد ، الأول من مايو ، قامت طائرة من نوع خاص يقودها طيار واحد تقدر على الطيران المستمر وعلى ارتفاع كبير جداً ، تعرف باسم ٢ — ، كانت تتخذ من أدنه في تركيا قاعدة لها ، ويقودها الطيار باورز ، قامت هذه الطائرة من قاعدة بالقرب من بيشاور في الباكستان لكي تقوم برحلة للتجسس الفوتوغرافي فوق الاتحاد السوفيتي . واسقطت هذه الطائرة بالقرب من سفرد لوفسك . وهي مدينة سوفيتية صناعية وتعدنية عظيمة في الأورال ، بعد أن طارت نحو ١٢٥٠ ميلاً .

ولسنا نعرف الارتفاع الذي أسقطت منه — وكذلك لا نعرف الكيفية التي أسقطت بها وعلى وجه التحديد وكان من المعتقد أن الطائرة ٢ — ، التي كانت تطير على ارتفاع سبعين ألف قدم أو أكثر من ذلك ، كان المعتقد أنها ستكون محصنة ضد أي هجوم . .

ويؤكد الروس أنها قذفت بنيران الصواريخ ، ومن الممكن أن تكون قد أصابها انفجار أرغمها على الهبوط إلى ارتفاع يمكن معه اصابتها وعندئذ قذفت بالنيران .

ومن البديهي أن العالم أجمع كان يجهل أن الولايات المتحدة اعتادت على إرسال طائرات ي - ٢ برحلاتها هذه منذ أربع سنوات تقريباً ، في ظروف تحيط بها السرية التامة وأنها نجحت فيما لا يقل عن ثلاثين رحلة للتجسس فوق أراضي الاتحاد السوفيتي .

وفي يوم الثلاثاء - الثالث من شهر مايو - أعلن الرسميون الأمريكيون في تركيا أن « طائرة تابعة لإدارة أبحاث الفضاء مفقودة منذ اليوم الأول من مايو ، في رحلة من قاعدة انكيرليك الجوية بالقرب من أدنة . وبدأ أن هذا إجراء روتيني ، ولم يكن له أثر يذكر . ولكن لا يزال الأمر غامضاً حول السبب الذي من أجله اختارت الولايات المتحدة أن تطلق جزءاً من الحقيقة بهذا التصريح الموجز .

ولقد أعطى ذلك الفرصة للروس لأن يعدوا كيناً بأسنان حادة . وعلاوة على ذلك كان ذلك مضللاً - فربما كانت الطائرة تابعة لإدارة أبحاث الفضاء ، ولكن إدارة المخابرات المركزية هي التي كانت تديرها ، وحتى لو كانت الطائرة قد قامت من انكيرليك فإنها لم تكن قريبة من الفضاء الجوي التابع لتركيا عندما أسقطت إلى الأرض . ثم في يوم الخميس الخامس من شهر مايو هاجت الخواطر .

فقد أعلن خروشوف رئيس الوزراء السوفيتي أن طائرة أمريكية « لا تحمل أية علامة مميزة ، ضبطت وهي تنتهك الفضاء الجوي السوفيتي وباختصار فإن الطائرة أسقطت وأعقب ذلك ضجة كبيرة .

وفي نفس الوقت أصدرت واشنطن قصة « غلاف » تفسر بها رحلة الطائرة وأعانت إدارة معدنية مكلفة بمشروعات الفضاء الأمريكية — في الخامس من مايو أيضاً — أن إحدى الطائرات ٢ — الخاصة بأبحاث الفضاء والتي تعمل منذ عام ١٩٥٦ « في برنامج مستمر في دراسة الظروف الجوية الموجودة على ارتفاع شاهق ، مفقودة منذ يوم الأحد عندما قرر طيارها أنه « يعاني من نقص في الأكسجين فوق بحيرة فان في تركيا ، — وتلك أكذوبة صارخة . كما قرر التصريح علواً على ذلك أن الطيار مدني وأن طائرته غير مسلحة ، وأنه « ربما يكون قد فقد وعيه من جراء نقص الأكسجين ، وأنه نتيجة لذلك ربما تكون الطائرة قد استمرت أوتوماتيكياً في الاتجاه نحو الحدود الروسية ، وبالطبع ، اعتبرت واشنطن أن الطيار باورز لا بد أن يكون قد لقي حتفه .

ولما كانت الولايات المتحدة لازالت تتظاهر بالبراءة، أرسلت مذكرة إلى موسكو تطلب مزيداً من التفاصيل عن الحادث . وضمناً لعدم وجود وقوع حوادث أخرى في المستقبل .

أعلنت الحكومة الأمريكية أنها أمرت جميع طائرات ٢ — الخاصة بأبحاث الفضاء ، والموجودة في القواعد الأجنبية ، أن تلزم مطاراتها لمدة خمسة عشرة يوماً ، لكي يمكن اختبار معداتها .

وبعدئذ تردت وزارة الخارجية الأمريكية في شركها أكثر من ذلك ، بأن حاولت إبطال أثر الزوبعة التي أثارها البيان الذي أصدره مستر خروشوف في العالم أجمع بأن قررت بصفة سطحية في اليوم التالي (السادس من شهر مايو) أنه « لم تسكن هناك أية محاولة متعمدة لخرق الفضاء الجوي السوفيتي . . وأن هذه المحاولة لم تحدث قط ، .

وقد لعبت يد مستر خروشوف الماكرة بذلك إلى حد كبير ، فقد عرض خروشوف ، في يوم السبت (السابع من مايو) وهو يتحدث أمام مجلس السوفيت الأعلى ، عرض تفاصيل حادثة الطائرة « . . » ، كما أعلن أن الطائرة لم تصب بكثير من العطب عندما نزلت إلى الأرض ، وعرض على المجلس بعض الصور الفوتوغرافية التي كانت الطائرة قد التقطتها ، وأعلن علاوة على ذلك أن مستر باورز لم يقتل في ضرب الطائرة ، ولم يقتل نفسه بعد ذلك كما هو مفروض دائماً عند الجواسيس المهرة ، بل هو حي يرزق — سجين في قبضة السوفيت ، وأنه أعطى الروس وصفا تفصيليا لما قام به . وعلاوة على ذلك فقد أتى خروشوف بأمثلة غريبة الشكل كان يحملها باورز ، وفيما بينها روبيات روسية ، وعملات أجنبية ، وذهب ، وأسلحة ، وجهاز للاتحار ، وكتاب لتعليم اللغة الروسية ، وبمجموعة من الساعات والخواتم ! إن إدارة أبحاث الفضاء تزود مبعوثيها بخير الأمتعة .

ومن الواضح أن كل ذلك قضى على قصة الخلاف الأمريكية ووجدت الولايات المتحدة نفسها مرتبة بدرجة مخجلة . وبمهارة

فائقة ، أخفى خروشوف إذاعة النبأ الذى يقرر أن باورز حى لم يصب بسوء ، إلى أن وقعنا نحن فى شره المثير الذى أعده لنا بدقة . وحتى ذلك اليوم كانت بعض العقد التى أعتبت ذلك لا زالت دون تفسير .

وفضح خروشوف الولايات المتحدة بشكل مثير ، وقال لتركيا ، وباكستان ، والترويج (وهى الدولة التى كان باورز فى طريقه إليها) انها ستلقى حساباً عسيراً إذا استمرت تشارك ، فى الأعمال العدوانية ضد الاتحاد السوفيتى ، . ومن ناحية أخرى - وتلك نقطة ايعازية - .. كان خروشوف حريصاً للغاية على إعطاء الرئيس ايزنهاور فرصة لكي يتبرأ من المسئولية فى ارسال الطائرة . ومن البديهي أنه كان ينوى التوسع فى استغلال حادثة الطائرة ي - ٢ من أجل كل من الأغراض السياسية والأغراض الادعائية ، ولكنه كان لا يزال يريد بصفة جادة لمؤتمر القمة أن ينعقد ، وكان يحاول المناورة لكي يتمكن الرئيس الأمريكى نفسه من الخروج عن ارتباك . غير أن رد واشنطن كان يدعو إلى الحيرة ، وتضاربت القصص التى أعلنتها مختلف مصادر الحكومة الأمريكية . وفى السابع من مايو أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أن نتيجة التحقيق الذى أمر الرئيس ايزنهاور بإجرائه « أثبتت ، أنه لم يكن هناك أى ترخيص بمثل هذه الرحلات الجوية مثل تلك التى وصفها مستر خروشوف ، .

وعلى أية حال فقد مضى البيان يقول « إن إحدى الطائرات المدنية غير المسلحة ربما تكون قد قامت برحلة فوق الاتحاد السوفيتى ، محاولة منها للوصول إلى المعلومات التى تختفى اليوم خلف الستار الحديدى ، .

أو بمعنى آخر بدا أن الولايات المتحدة تعترف بأن رحلات الطائرة
 ى - ٢ حدثت ولكن (دون ترخيص) أى أن السلطات العليا
 بالحكومة الأمريكية لم تكن تعرف ما يجرى فى هذا المجال البالغ
 الحساسية . وكان ذلك سبباً فى تأزم كل شئ وعلى ذلك ، أعلن هيرتر ،
 وزير الخارجية ، فى التاسع من شهر مايو ، أن الرئيس الأمريكى ،
 كان - مع ذلك - على علم بهذه الرحلة الجوية - وعلاوة على
 ذلك فإن هذه الرحلة سوف تستمر . وفى يوم الأربعاء الحادى عشر
 من شهر مايو ، أخذ الرئيس أيزنهاور على عاتقه مسئولية شخصية عن
 الحادثة ، وهذا ما كان خروشوف يأمل يائساً أنه لن يقدم عليه . وكان
 هذا فى نفس اللحظة التى عتد فيها مستر خروشوف مؤتمراً صحفياً غير
 رسمى فى موسكو عرض فيه على الصحفيين خطام الطائرة ى - ٢
 وبعض محتوياتها .

وفى هذه الأثناء ، ازدادت حدة التوتر العالمى . . . وبدأ أن فرنسا
 وبريطانيا لم تكونا تعلنان بالتفصيل عن عمليات طائرات ى - ٢ ،
 ومن الطبيعى أنهما كانتا تخشيان من تطور الأحداث فيما يتعلق بمؤتمر
 القمة المقرر عتده فى يوم الاثنين التالى . . . واستمر خروشوف يقذف
 حممه على تركيا وباكستان والنرويج . . . وشعر الرومانيون بضرورة
 احتجاجهم لدى الولايات المتحدة على خط السير الأصيل الذى كان معداً
 للطائرة . . . أما الباكستانيون فعتد انتابهم الفرع بوجه خاص ، وتزايد
 توتر الأعصاب فى العالم أجمع .

وتهمك بعض الناس على ملابسات هذه الحادثة ، ولكن خروشوف

كسب نقطة أخرى بأن تساءل عما يمكن أن يكون رد فعل أمريكا لو أن طائرة سوفيتية للتجسس أسقطت فوق مدينة أوماها أو مدينة كانساس في الأسبوع السابق على انعقاد مؤتمر النعمة .

وانتهى الدبر الأول من هذه النصّة المؤسفة عندما ناقض مستر هيرتر نفسه — بعد كثير من التردد والمواربة — بعد وصوله إلى باريس ، وأعلن أن رحلات الطيران الأمريكي فوق روسيا أوقفت ولن تستأنف في المستقبل . . . ولكن جاء هذا متأخراً عن ميعاده ، ولم يكن في الإمكان إتمام المؤتمر . . . ولما لم يكن خروشوف قد هدأ بعد فقد أوغر في جدله بمجرد أن وصل إلى باريس ، وطلب — ثمنا لاشتراكه في مؤتمر النعمة — أن تعتذر الولايات المتحدة عن عدوانها ، وأن تعاقب المسئولين عنه .

والشيوعيون مصرح لهم بمزاولة نشاطهم ، ولهم متعدد واحد في البرلمان . وهناك حزبان محافظان يعرف أحدهما بحزب الأحرار . ورئيس الوزراء اينار جير هاردسن ، له مكانة مرموقة ، أما وزير خارجيته فهو هيلفارد لانج ، وهو يشبه إلى حد كبير أوندن في السويد ، مع أنه يضغره سنا ، وهو ماهر ، بعيد النظر ، مرن ، كما أنه قاس في المحافظة على مصالح دولته . وعادة ما ينسب إليه الفضل في التأثير على الدانمارك وايسلندة والنرويج للانضمام لحلف شمال الاطلسنطى . وقد نال والده جائزة نوبل للسلام ، وقد عاش في بريطانيا عدة سنوات وكان عضواً في حزب العمال البريطانى ذات مرة .

ويحتمل أن تكون النرويج أكثر مقاومة لحلف شمال الاطلسي من الدنمارك ، ولكن إلى حد معتول. فقد أعلنت عن شعورها المحايد هذا برغم علاقتها العاطفية التي لا تتغير نحو الغرب. والنرويج لا تسمح بقيام قواعد أمريكية فوق أراضيها ، هذا مع أن الولايات المتحدة تتمتع « بتسهيلات ، معينة في المطارات النرويجية ، فمثلا ، كان من المقرر أن تنتهي رحلة الطائرة ٢ - ٢ في مايو ١٩٦٠ في النرويج . وعندما هدد الاتحاد السوفيتي - في أعقاب حادثة الطائرة ٢ - ٢ - بضرب جميع القواعد التي تتجه منها الأعمال العدوانية ضد الاتحاد السوفيتي بالقنابل ، عندئذ انتابت شعب النرويج نوبة من الذعر . وبعدها طلب مستر لانج -- مع أنه من أشد المؤيدين لحلف شمال الاطلسي -- طلب من حلفاء النرويج « ألا يعرضوا العلاقات بين دولته وبين الاتحاد السوفيتي للتوتر باثارة أحداث مثل حادثة الطائرة ٢ - ٢ ، وأوضح أن « احتياجات الامن المشروعة الخاصة بروسيا تستحق الاحترام ، ، تلك الاحتياجات المشروعة التي يجب أن تراعيها النرويج بدقة ، ذلك لأن النرويج تربطها بالاتحاد السوفيتي حدود مشتركة . ولقد أثارت خطة راباكي اهتماما بالغاً في النرويج ، وكثير من النرويجيين يتطلعون في يقين إلى تخفيف حدة التوتر بين الاتحاد السوفيتي والدول الغربية .

وأخيراً ننتقل إلى فنلندا ، ولا تعتبر هذه الدولة الصغيرة القوية الشكيمة (تبلغ مساحتها ١٤٨.١٣٠ ميلاً مربعاً . ويبلغ عدد سكانها ٤ مليون نسمة) لا تعتبر ، كما ذكرت آنفاً في بداية هذا الفصل ، إحدى دول اسكنديناوة بمعنى الصحيح ، ولكنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً

بدول اسكنديناوه وخاصة السويد . وفنلندة جمهورية يرأسها أور هو كيكونين ، وهو أيضاً أبرز شخصية سياسية بها وقد انتخب عام ١٩٥٦ لمدة ست سنوات . ولقد تناقلته الانباء في مناسبات هامة عندما وجه خروشوف الدعوة لنفسه — قبل انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام ١٩٦٠ مباشرة — لزيارة هيلسنكي ، للاشتراك في الاحتفال بعيد ميلاده الستين . وهناك حقيقة واقعة وهي أنه يعرف خروشوف جيداً ، ويجهله كثيراً ، ولقد قام بعدة زيارات رسمية لموسكو في الماضي ، كما أن خروشوف وبولجانين زارا فنلندة في عام ١٩٥٧ .

وحكومة فنلندة ، تحت رئاسة فاينوجوهانز سوكسيلين حكومة أقلية تمثل حزب المزارعين (وهم متحفظون معتدلون) والحكومة تسيطر على ٤٧ مقعداً من مائتي مقعد في البرلمان ذي المجلس الواحد . ولكن أكبر حزب في فنلندة — وهذه نقطة هامة — هو الاتحاد الديمقراطي لشعب فنلندة ، وهو يسيطر على خمسين مقعداً ، ويعد وجهة أمامية للشيوعيين . والاشتراكيون الديمقراطيون ، الذين يتمتعون بربع الأصوات ، منقسمون بين طائفة منتظمة يتزعمها فاينو تانر ، وهو رجل عظيم محنك ، وطائفة أخرى هم أتباع سكوج الذين انشقوا بزعامة أميل سكوج . أما عن الجبهة الشيوعية فلم تشارك في أية حكومة ائتلافية منذ عام ١٩٤٨ ، برغم قوتها الملحوظة ، ولكنها تؤثر كثيراً على معظم المناورات السرية التي تحدث .

وفنلندة تتميز ببعض الخصائص والمميزات . فلقد رزحت تحت نفوذ السويد عدة قرون ، ولكنها ضمت إلى روسيا القيصرية في عام

١٨٠٩ ، ولم تحصل على حريتها القومية الا عندما قامت الثورة البلشفية في عام ١٩١٧ ، ولا زال أهل فلندة الذين يتحدثون اللغة السويدية يؤلفون ٨/١ من شعب فنلندة . وتتخلل أراضي فنلندة ٥٠٠٠٠٠ ر.هـ بحيرة ، وهذه تبتلع ٩/١ من المساحة السككية . وتبتلع ما لا يقل عن ثلاثين ألف جزيرة في مواجهة شاطئها ، ويقع ثلث فنلندة فوق الدائرة القطبية . وتعتبر هيلسكى ، مثاها في ذلك مثل كوبنهاجن ، إحدى العواصم الصغيرة الجميلة البهيجة ولقد كان شعب فنلندة أول شعب في أوروبا يعطى النساء حق التصويت .

وفنلندة ، التي أعلنت حيادها ليست عضواً في حلف شمال الاطلنطي ، لها علاقات وثيقة مع الاتحاد السوفيتي ، والاتحاد السوفيتي هو العميل الرئيسي لها بعد المملكة المتحدة . والروس حريصون على المحافظة على الممتلكات التي تواجه فنلندة وفي الواقع يقول البعض إن الروس يحافظون على فنلندة عن عمد كشيء استعراضي ، كي يظهروا أنهم لا يكونون أية نوايا عدوانية نحو الدول الديمقراطية الصغيرة المتاخمة لهم — وفي عام ١٩٥٥ أقدمت روسيا على حركة هامة وهي إعادة قاعدة بوركالا البحرية إلى فنلندة . وهذه القاعدة ، التي كانوا قد استولوا عليها في الحرب العالمية الثانية ، تسيطر على المداخل العسكرية إلى هيلسكى ، وقد ارتاح الفنلنديون عندما عادت اليهم . ثم بعد ذلك في عام ١٩٦٠ وافق السوفييت على بدء المفاوضات لإعادة قناة سايما إلى فنلندة ، وهي قناة داخلية تهم الصناعات القائمة على الغابات في فنلندة ، وكان السوفييت قد استولوا عليها أيضاً في عام ١٩٤٠ ، وأخيراً أعلن

الاتحاد السوفيتي ، في هذه اللحظة التي أكتب فيها ، أنه لن يعارض انضمام فنلندة إلى منظمة التجارة الحرة ، — وهي التي يتوق الفنلنديون إلى الانضمام إليها . وعلى الجملة فإن خروشوف يهادن فنلندة إلى حد كبير ، ويرجع ذلك جزئياً إلى أنه يريد أن يوازن نفوذ حلف شمال الاطنطى في دول اسكنديناوه ككل . وبرغم كل ذلك فإن العلاقات مع روسيا لا زالت هي مشكلة فنلندة الرئيسية ، وفي امكان الكرملين أن يعيد قبضته على الدولة في أى وقت تقريباً .

والآن ، وقد انتهينا من جولتنا الطويلة المعقدة في أوروبا نصل إلى الاتحاد السوفيتي ، وشخصية خروشوف الشائكة ، التي تستوعب كثيراً من تفكير أوروبا .

٢١ — خروشوف في مؤتمر القمة

لقد قدر لي أن أحضر عدداً كثيراً من المؤتمرات الصحفية ، وكان بعضها هاماً ، ولكن لم يكن أحدها يشبه ذلك المؤتمر الذي عقد في قصر شايوه في باريس في عصر يوم الأربعاء ١٨ من مايو عام ١٩٦٠ ، عندما حفر نيكيتا سيرجيفتش خروشوف قبراً لمؤتمر القمة ، ودفنه في ذلك القبر ، وفي خلال ساعتين واثنين وأربعين دقيقة من الثورة والهياج ، بصق بحنق على ما تبقى من المؤتمر .

ولا يمكن لأى فرد من بين الصحفيين والرسميين الذين بلغ عددهم جميعاً ثلاثة آلاف شخص أو أكثر ، أقول لا يمكن لأى فرد أن ينسى

هذه التجربة التي تعد - تقريباً - أكثر عرض يدعو إلى الدهشة قام به رجل واحد على مسرح السياسة وهو عرض خسيس شاذ يدعو إلى الدهشة والغرابة .

تناولت طعام الغذاء أنا وزوجتي مع دافيد دوجلاس دنكان ، المصور ، في بار كرييلو ، وقمنا على عجل لكي نصل إلى قصر شايوه في الوقت المناسب .

ومن البديهي أن جمهور الحاضرين كان أكبر بكثير من أن تستوعبه أية قاعة تستخدم عادة للمؤتمرات الصحفية ، ولذا استخدم بدلاً من ذلك « الدهليز » الضخم المكشوف في قصر شايوه ، وكان المؤتمر أشبه ما يكون باجتماع أو حشد كبير .

وفي الوقت الذي وصلنا فيه كان هذا « الدهليز » ممتلئاً إلى النصف وسرعان ما امتلأ النصف الآخر من « الدهليز » وكان الجو مكهرباً مثل الجو الذي يسود جاديسون سكوير جاردن قبل نشوب صراع كبير . وكانت الأصوات المنبعثة من هذا الجمع أصوات مخيفة ، وانتمر الناس من خلفنا يصيحون : « اجلسوا ! » لأن أناساً آخرين كانوا يقفون من وقت لآخر أثناء انفعالهم .

هكذا كانت الصحافة في العصر الحديث - ولا جدال في ذلك وتناثرت عدسات التليفزيون في أرجاء الدهليز ، وامتدت الأسلاك المغطاة بالمطاط على أرض الدهليز .

وكان في إمكان الحاضرين أن يتراجعوا إلى الطرف الآخر من القاعة

ويكون بوسعهم إما أن يشاهدوا خروشوف نفسه ، أو أن يتخذوا
وضعا مريحاً وينظروا إليه على شاشة التليفزيون في نفس اللحظة .
ومبلغ علمي أن تنظيمات الأمن كانت قد تلاشت تماماً . فلم يكن
هناك من ينظر إلى أوراق اعتماد أى شخص ، وكان بوسع أى دخيل
أن يطلق طلقة نارية أو يلقي بقنبلة . ومن بين الأشياء الغريبة
عن خروشوف هي نسيانه لاحتياطات الأمن .

ومن الواضح أنه يؤمن بالقدر ، ولا بد أنه - على خلاف ستالين -
ولد بغير خوف :

وفي الوقت المحدد بالضبط دلف رئيس الوزراء السوفييتي إلى القاعة
الطويلة الحارة التي توج بالضجيج وحلقات الدخان المتصاعد من السجائر
تموج تحت الضوء المنبعث من أشعة الشمس التي تدخل من خلال النوافذ
الكبيرة ، واتخذ خروشوف مكانه على منصة وبجانبه أندريه جروميكو
وزير الخارجية، وفيتو جراداف السفير السوفييتي في باريس، والمرشال
روديون مالنوفسكي وزير الدفاع السوفييتي .

ونهض خروشوف ليةحدث - وكما سوف يتذكر كل فرد تقريباً -
كان شرساً عنيفاً صارماً واثماً من نفسه وماهراً في خبث ، وكما هي عاداته
ظهرت عليه سمته الخاصة التي تميزه وهي سماجته الريفية . وعندما قول
بالصغير وعلامات عدم الرضا قال بلهجة ملئها الاحتقار :

إن الذين صدرت عنهم هذه الحركات لا بد وأن يكونوا من دأوباش ،
المنيا الغربية فروا بطريقة أو بأخرى من ستالينجراد ، وشحنهم

دكتور أديناور إلى باريس. ولكن كان من الواضح أنه أهين من حركات
الاشتمزاز والصغير .

وكما يحدث مع الروس دائماً ، سرعان ما استغل الاهانة التي حدثت
في المجال الشخصي إلى المستوى السياسي . وكما لو كان الاتحاد السوفيتي
نفسه هو الذي قوبل بعلامات الاشتمزاز والصغير وليس مستر خروشوف
فقط ، فبدأ مباشرة يردد انتصارات « ثورة أكتوبر العظيمة » وزعامه
لينين العظيم ، وهكذا.. وهو دائماً ما يسهب في الحديث عن أى موضوع
وفي هذه المناسبة لم ينس لدقيقتين أو ثلاث دقائق أن الصغير كان
موجهاً له هو وحده ، وقال متعجباً .

إن هذا الصغير يشد عزمي . . إنه يشد عزمي ويفعم قلبي بالرضا
لأنني أحب منازلة أعداء الطبقة العاملة ، وبما يدخل السرور على قلبي
أن أسمع حنق وجنون عملاء الاستعمار هؤلاء . . .

ومن بين كل ما قاله خروشوف وردت فقرتان شهيرتان عن القطط
جاءت الأولى اجابة على سؤال ما إذا كان مستر خروشوف لا يزال
يأمل في عقد مؤتمر آخر للقمة في المستقبل .

وأجاب خروشوف على ذلك بالايجاب ولكنه أضاف : إن هناك
صعاباً من بينها « العدوان الأمريكي » ، وقال :

سيداتى وسادتى :

إن لنا جيدهاً أمهات . وأتم أيضاً لكم أمهات ، وإلا لما كان يقدر
لكم أن تجيئوا إلى هذا العالم ، لأننى أتذكر أثناء شبابى - اتنى قد ولدت

في أسرة فقيرة جداً ، ولم يكن في استطاعة أمي أن تشتري لنا شيئاً من الزبدة إلا نادراً جداً، ولكنها أحياناً عندما كانت تشتري لنا الزبدة كانت قطننا تزحف وتأكل شيئاً من الزبدة وتسرق شيئاً منها .

وعندئذ كانت أمي تمسك التطة من مؤخرة رقبتها وتهزها بعنف ثم تدس أنفها في الزبدة لكي تجعلها تفهم أن مثل هذه السرقة أمر غير مشروع . فهل كان من الأفضل سيداتي وساداتي ، أن نمسك بالمتعدين والأمريكيين من مؤخرة الرقبة أيضاً ونهزم قليلاً ونجعلهم يفهمون أنهم يجب ألا يرتكبوا مثل هذه الأعمال العدوانية ضد الاتحاد السوفيتي . وقرب النهاية أصبح خروشوف أكثر اعتدالاً ، وقال :

« أريد أن أنهى حديثي بأن أقول إن الاتحاد السوفيتي سيمضي في تمسكه بسياسة التعايش السلمي بين النظامين ، النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي .

إننا سنمضي في انتهاج سياسة السلام التي تهدف إلى حل جميع المشاكل المتنازع عليها عن طريق المفاوضات .»

وفي النهاية سمح لنفسه بنكتة لطيفة — وهي أن الوقت قد حان للكف عن الكلام ، ذلك لأن المترجمين قد أدركهم التعب ، وقال إنهم يقومون بعمل زائد طالبوا باحترام قانون العمل وبدأ الجمع ينفض ! .

وهربت من المبنى وركبت إحدى عربات التاكسي عائداً إلى الفندق الذي كنت أقيم فيه . وقال السائق ساخراً : « لن يمضي وقت طويل حتى يطلقوا على قصر شايفه (قصر خروشوف) ، » .

٤ - د ان سر غضب روسيا وحنقها من حادثة الطائرة ى - ٢
هو خوف السوفييت من الحرب . لقد سمعت هذه الملاحظة في لندن
بعد فشل مؤتمر القمة بوقت قصير ، وكان قائلها واحد من أعقل الروس
وأبعدهم نظراً - وهو ليس شيوعياً - وفي هذه العبارة معان كثيرة
فلقد كانت روسيا دائماً تشعر بحساسية مفرطة بالنسبة لآى شىء يمس
أرضها المقدسة . ويمكننا أن نأتى بالأمثلة على ذلك منذ عهد ساحقة.
وعلاوة على ذلك ، فان السرية تلعب دوراً في الإدارة الروسية لدرجة
لا يفهمها الغرب ، وعلى ذلك ، لم تكن طائرة باو ز إلا رمزاً للعدوان
وبذلك كانت تقتحم أسرار روسيا . وكذلك تنتهك أمنها الغالى . وكان
على خروشوف أن يبين لشعبه أنه لا يخشى الأمريكيين ولا يهابهم ،
بصرف النظر عن الأثر الذى أحدثته قصة الطائرة ى - ٢ فى الوهم
السائد حول عدم احتمال تعرض روسيا للهجوم .

وبطريقة عرجاء نوعاً تحدث الأمريكيون فى باريس أثناء مؤتمر
التممة عن الحقيقة بأن خروشوف قد ذكر احتياجات الاتحاد السوفيتى
السياسية الداخلية ، أثناء خطابه الذى القاه فى قصر شايوه - وهذا
شىء غير عادى - وعلاوة على ذلك فقد كان فى صحبته دائماً فى
المناسبات العامة المارشال مالىنوفسكى التوى المهيب الطلعة . وعلى ذلك
غالباً ما يقال إن البواعث الحقيقية لسلوك خروشوف كانت السخط
السياسى فى روسيا إلى جانب التبرم فى الجيش الأحمر ، ومن المعتمد
أن هذا بدوره كان نتيجة للتبرم من طريقة خروشوف العنيفة ، وهى
أنه لى يوفر المال ولكى يسد النقص فى العمال ، خفض قوة القوات

المسلحة السوفيتية ، بأن عزل حوالى ٢٥٠.٠٠٠ ضابط من ضباط الجيش الأحمر ، وخفض عدد الجيش نفسه بحوالى ١٢ مليون رجل . وكل ما يمكن أن يضيفه المرء إلى ذلك هو أنه فى تلك اللحظة لم يظهر أى دليل يؤيد هذه الافتراضات ، وقد يكون من الممكن أن يلقى خروشوف متاعب داخلية خطيرة بمرور الوقت ، ولكن يبدو من غير المفهوم تماماً أن يكون التبرم العسكرى له علاقة كبيرة ، إذا كانت له علاقة على الإطلاق بمؤتمر القمة ، هذا إذا نظرنا إلى الأحداث فى الشهور السالفة . إن مالىنوفسكى من أتباع خروشوف وهو ليس بالرجل الطموح ، كما أنه لا يتسم بكثير من الاستقلال فى الرأى ، ويحتمل أن يكون خروشوف قد اصططحبه معه إلى باريس ليكون شاهداً يؤكد للكرماين ما حدث — وكذلك كرمز يبين قوة الروس العسكرية أمام الغرب .

ماذا عن النتائج .. ؟

وأخيراً ننتقل إلى النتائج . فمن المؤكد أن خروشوف حصل على شيء واحد على الأقل — ألا وهو وقف رحلات التجسس الجوى فوق الاتحاد السوفيتى . ومن الجانب الآخر ، من الواضح تماماً أنه منذ عام ١٩٥٦ هيمنت إدارة أبحاث الفضاء على عمل من أعجب أعمال التجسس فى التاريخ — ولا بد أن يكون هذا العمل قد جمع فوراً معلومات بالغة الأهمية عن المنشآت الصناعية والعسكرية فى الاتحاد السوفيتى . وربما عن المنشآت المائلة لذلك فى البلدان الشيوعية الأخرى كذلك .

وهناك احتمال آخر في متبادل ذلك ، وهو أن الروس قد تغيروا إلى حد كبير من فشل حادثة الطائرة ٢٠٠٢ وقد إنشغلوا منذ ذلك الحين في تغيير مواقع مثل هذه المنشآت التي يمكن نقلها ، ولما كانت رحلات طائرات التجسس لم تستأنف فليست لدينا أية وسيلة للتحقق من هذه التغيرات .

أما في الحقل السياسي ، فليس هناك من شك في أن الولايات المتحدة بصفة خاصة ، والحلفاء الغربيين بصفة عامة ، قد واجهوا هزيمة مخجلة . وأن مجرد الإعلان بأن الولايات المتحدة لديها النية على قذف الأكاذيب الصارخة في مسألة تهمة الرأي العام كان حقيقة قاسية وزوالاً للوهم . ولكن التجسس عمل قدر ، وهكذا كان دائماً . ومن المؤكد أنه لم يحدث على مر التاريخ مثل هذا المثل اللاذع على التناقض . فالاتحاد السوفيتي الذي اعتاد التجسس وأدمن عليه أكثر من أية دولة في العالم ، يقف في حالة طائرة باورز - من دون الدول أجمع - موقف الشخص البريء الفاضل .

وقد تحدثت إحدى صحف لندن « صنداي اكسبريس » عن رحلة الطائرة بأنها « عمل غير ضروري على الإطلاق ، كما أنه مشير ، وحذرت زعماء بريطانيا بأن مصير العالم ، معلق بين الأصابع الناعمة لحفنة من الجنرالات الأمريكيين . . وفي مجال آخر أشد خطراً ، يجب حساب الانزعاج والارتباك الذي شعر به كثير من حلفاء أمريكا . وكذلك هبطت هيئة أمريكا إلى حد كبير في كثير من أرجاء العالم . وقد أعلن المارشال مالمينوفسكي عند عودته إلى موسكو أنه أعطى الأوامر إلى

قوات الصواريخ السوفيتية بأن تضرب مباشرة أى قاعدة تنطلق منها الطائرات الأجنبية وتنتهك الفضاء الجوي الروسى أو الفضاء الجوى للدول حليفة السوفييت . وبذلك ثارت قضية القواعد الأمريكية فى كل مكان من العالم ، وازداد الميل نحو الحياد ، وأدى ذلك ، من بين أشياء أخرى إلى إلغاء زيارة الرئيس ايزنهاور التى كان مقرراً له أن يقوم بها إلى اليابان ، بشغل مهين .

ومن الجانب الآخر لم يكن الارتباك الشامل عنيفاً كما كان متوقفاً له ، فقد اعتقد المراقبون بعد انهيار مؤتمر القمة مباشرة أن الروس سيتحركون إلى برلين ، ولكن خروشوف — كما سبق لى أن قلت — ألقى خطاباً عند وصوله إلى برلين الشرقية وكانت لهجة الخطاب على العموم معتدلة . كما أن المفاوضات بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة أصبحت بطيئة التقدم ، ولكنها لم تقطع . ولم يقل النشاط فى مجال التبادل الثقافى أو توالى وصول السياح الأمريكين إلى موسكو وكانت الحرب الباردة لا تزال مستمرة ولكن شدتها لم تعظم . وأخيراً ، ربما يكون لانهيار مؤتمر القمة بعض القيمة بالنسبة للغرب فى أنه أوضح بصفة نهائية — إذا كنا لا نزال فى حاجة إلى معرفة — أوضح طبيعة زعامة خروشوف .

تشبيه وفلوف . .

وفى الثامن عشر من شهر مايو عام ١٩٦٠ ، نشرت جريدة «التايمز» اللندنية خطاباً هاماً من دكتور وليم سارجانت ، وهو أحد أساتذة بريطانيا المبرزين فى الطب النفسانى ، عبر فيه بطريقة لاذعة عن رأى

القائل بأن سلوك خروشوف في باريس، وكذلك سلوكه المشابه في أماكن أخرى، كان يقوم على نظريات دكتور إيفان بيتروفتش بافلوف، أحد مشاهير علماء النفس في روسيا، الذي مات في عام ١٩٣٦، ولقد حصل بافلوف على جائزة نوبل في عام ١٩٠٤، وهو صاحب نظرية التصرف العكسي حسب الظروف المحيطة — فمثلاً يسيل لعاب الكلاب أو يعترهم رد فعل جسماني استجابة لحافز خارجي مثل رنين الأجراس، أو تعرضهم لصدمات كهربائية خفيفة.

ومع أن بافلوف لم يكن شيوعياً إلا أنه عمل في ظل النظام الشيوعي سنوات عدة، وأصبح بطلاً سوفيتياً عظيماً منذ وفاته. ومن المؤكد أنه ليس هناك جديد في أن الروس غالباً ما يستخدمون مبدأ التصرف العكسي حسب تهيئة الظروف في أساليبهم التعليمية والدعائية. اضغطوا على الزر وسوف يعمل الإنسان الآلي. وهذا تبسيط كبير لمفهوم بافلوف. ولكن ليس هناك أي شك في أن أساليب بافلوف كانت لفترة طويلة نوعاً من الدعامة السيكولوجية لكثير مما لا يطبق في النظام السوفيتي مثل غسيل المخ مثلاً.

وتنادى دكتور سارجانت بعيداً. فافترض أن الساسة السوفييت في الوقت الحاضر يستخدمون أساليب بافلوف عن عمد للقضاء على «التوازن العصبي»، عند دول الغرب البورجوازية كما تعلموا بالضبط كيف يقضون على التوازن العصبي عند الكلاب والحيوانات الأخرى، وبذلك يخلقون فيهم حالة من الهياج العصبي الذي يصعب

السيطرة عليه ، وربما يؤدي ذلك فيما بعد إلى سلوك هستيرى ويتسم بالإذعان والخنوع ، وربما يؤدي أخيراً إلى التراخي الذي يأتي نزولاً على إرادة الغير .

وهذه النظرية تطوير لأسلوب « ضربة ساخنة ، وضربة باردة » ، وما عمله الروس هو أن يعطوا « إشارات إيجابية وإشارات سلبية » ، ومن شأنها مجتمعة أن تجعل الصحافة والرأى العام في أمريكا وبريطانيا « في حالة اضطراب ، وتشويش وقابل للتوجيه ... مثل كلاب بافلوف » . واستطرد بروفيسور سارجانت يقول : يبدو أن السياسة الروسية « تسبب ارتباكاً شديداً للذين يعتادون على أسلوب بافلوف » ، ولكن بافلوف يمدنا بمفتاح يحسن بنا أن نأخذه مأخذ الجد ، فالروس يرسمون تغيير الإشارات بشكل سريع جداً باعتبارها تمريناً في الحرب النفسية مدبراً عن عمد لكي يبعث الأعداء وبهضى على المقاومة ، ولكي يتأكد الروس أننا — ونحن نشبه الكلاب التعسة في ليننجراد — قد تأثرنا بالتنويم المغناطيسى . ولم يصبح لنا أثر كما فقدنا تمسكنا .

وقد كان خطاب سارجانت سيداً في إثارة مجموعة من الردود المثيرة فتوالت الخطابات على جريدة « التايمز » ، من عشرات الخبراء بما في ذلك العلماء الآخرون والدبلوماسيون والعسكريون ، وكان أحد الاقتراحات التي تقدم بها سارجانت رداً على الأسلوب السوفيتي هو تجاهل هذا الأسلوب . ولكن عدداً من المعلقين قالوا إن هذا ليس بالدفاع الكافي أو بمعنى آخر إن الحرب لا يعد حلاً للوقف .

وقال آخرون من المراسلين إن قول سارجانت خيالى ومتطرف بعض الشيء ، قائلين إن شعوب الغرب لم تخضع بأية وسيلة لسلسلة متشابهة من الحوافز المؤثرة . وتمادى أحد الكتاب الذين انضموا إلى هذا الجدل فقالوا إن سلوك الغرب الخاطيء هو الذى يمثل دكتور بافلوف بشكل أوقع ؛ وأن الاتحاد السوفيتى هو الضحية الحقيقية ، وأنه على وشك أن يسقط فريسة « للاضطراب العقلى والانهيار الكامل » وهذه الخطابات التى وردت إلى جريدة « التايمز » تعكس اختلافاً فى الرأى . وقد جاء فى أحد هذه الخطابات :

« من المؤكد أن تحليل دكتور سارجانت للأساليب الروسية ، يحمل درساً للمواطنين فى كل البلدان التى تخلصت من البيروقراطية ، بما فى ذلك المملكة المتحدة . وتخرج من ذلك بأن الكلب الذى يتسم بالتعاون ويشعر بصوت الضمير يلقى أسوأ معاملة » .

وجاء فى خطاب آخر :

« أعتقد أن الجاسوس موظف عمومى له قيمته ، مع أنه غير معترف به . ويجب علينا أن نمتدحه لأنه يساعد على تجنب الحروب المفاجئة ، وأحياناً يساعد على منع وقوع الحروب . . . وقديماً كان الجاسوس يسير على قدميه ، ثم استخدم الحصان ، ثم ركب السيارة ، وهو اليوم يستخدم الطائرة .. فلم كل هذه الضجة حول واحدة من أقدم وأفيد المهن فى العالم ؟ »

وربما ترجع الكلمة الأخيرة لأحد المراسلين ، وهو أ. د. انجرام

الذى كتب فى ٢٤ من مايو يقول : « لى أعتقد أنه يجب أن نلاحظ أن تصرف مستر خروشوف الأخير يعتبر فى الواقع أقل شهاً لبافلوف عن كلب بافلوف » .

وبعد أن قلنا كل ذلك ، يجب أن نردد ، على مستوى خطير ، إن السياسة السوفيتية تميزت منذ عدة سنوات بظاهرة ، وهى تقلب تكتيكها السياسى ، سواء أكان بافلوف مسئولاً عن ذلك أو العكس فهم يمارسون الضغط ، ثم التراخى الظاهرى الواحد بعد الآخر . ويمكننا أن نأتى بالأدلة على ذلك من أسلوب الروس فى لاوس ، وكوبا ، والمفاوضات الجارية لتحريم التجارب الذرية .

وكان رد الفعل من جانب أمريكا عنيفاً . وكتب جيمس رىستون فى جريدة « نيويورك تايمز » فى ٢١ مايو ، وقد شق سحابة من الدعاية قامت لتحفى الرئيس الأمريكى — وقال بطريقة سطحية : « لقد كان مستر ايزنهاور مسئولاً بشكل مباشر أو غير مباشر ، عن أكبر سلسلة من الأخطاء المخزية التى تعرضت لها الولايات المتحدة فى حقبة من الزمن وقال السيناتور فولبرايت أمام مجلس الشيوخ الأمريكى : « لىنا أرغنا خروشوف على تحطيم المؤتمر بغبائنا » ، واستشهد بخطأين فاحشين من بين الأخطاء الأخرى . (أ) أصدر الأمر لطائرة ٢٠ للقيام برحلتها فى اليوم الأول من شهر مايو وهو موعد قريب جداً من اعتماد مؤتمر القمة ، (ب) القرار السى الذى أخذ بمقتضاه الرئيس الأمريكى على عاتقه المسئولية الشخصية عن رحلة الطائرة . وفى العادة أن الحكومات

— وخصوصاً رؤساء الدول — ينكرون عليهم بأية عملية للتجسس إذا فرض وكشفت هذه العملية .

وكتب والتر ليبمان في جريدة « نيويورك هيرالد تريبيون » ، يقول :
 « يجب أن نتذكر أن الطائرة عندما أسقطت ، فتح خروشوف الباب أمام الرئيس أيزنهاور لكي يهيء له مخرجاً دبلوماسياً من ورطته ، فقد قال مستر خروشوف : إنه لا يعتقد أن مستر أيزنهاور كان مسئولاً عن إصدار الأمر إلى الطائرة . . . وكان الرد الدبلوماسي هو ألا يقال شيء في ذلك الوقت ، أو على الأكثر أن يتعهد الرئيس الأمريكي بإجراء تحقيق دقيق في المسألة بأكملها . وبدلاً من ذلك ، أجاب مستر أيزنهاور أنه كان مسئولاً عن ذلك ، وأن مثل هذه الرحلات الجوية كان أمراً ضرورياً . وبعد ذلك ترك العالم يعتقد — وإن لم يكن قد قال ذلك في كلمات محددة — أن هذه الرحلات الجوية سوف تستمر ، وبذلك أقفل الباب الذي كان خروشوف قد فتحه . وهكذا تحول الارتباك الذي نشأ عن كشف عملية التجسس هذه إلى تحد مباشر لسيادة الاتحاد السوفيتي . »

وقال ادلاي ستيفنسون في حفل عشاء دعى إليه الحزب الديمقراطي في شيكاغو ، قال : إنه برغم أن خروشوف هو الذي حطم المؤتمر « فنحن الذين وضعنا بين يديه الأدوات التي تحطم بها المؤتمر ، واستطرد مستر ستيفنسون في تحليله يقول :

« لقد أرسلنا طائرة تجسس في أعماق الاتحاد السوفيتي قبل انعقاد مؤتمر القمة بوقت قصير ، ثم أنكرنا ذلك . ثم عدنا فأعترفنا به . »

وعندئذ عندما أعطى مستر خروشوف للرئيس أيزنهاور مخرجاً بأن افترض أن أيزنهاور لم يكن مسئولاً عن إعطاء الأوامر للطائرة ، أكد الرئيس الأمريكي في أنفة وكبرياء أنه كان مسئولاً عن ذلك .. ثم بعدها أعدنا النظر في ذلك وأمرنا بمنع الرحلات الجوية للتجسس . ولكننا لكي نزيد الموقف تعقيداً ، أرجأنا إعلان أن هذه الرحلات قد انتهت مدة طويلة ، مما جعلت الأمر يبدو كما لو كنا قد خضعنا أمام الضغط ، وكاننا نكون أطويلاً لدرجة جعلت خروشوف يصل إلى درجة الغليان .

ومرة أخرى عاد أحد كبار الأمريكيين فوصف ذلك قاتلاً :

« أولاً أصدرت وزارة الخارجية أكذوبة ، ثم أصدرت مجموعة من البيانات المتناقضة ، وثالثاً أصدرت اعترافاً صريحاً جداً بخطئنا وتورطنا ، وأخيراً ، وبعد تباطؤ طويل أعلنت أن رحلات التجسس الجوي قد أوقفت .

من قال ذلك ؟ .. إنه واحد من أعضاء مجلس الشيوخ الصغار في ماساشوتس - هو - « جون كيندي ، الرئيس الحالي .

ونعود الآن إلى السؤال الذي طرحناه فيما سبق :

— لماذا استغل خروشوف حادثة الطائرة ي - ٢ إلى الحد الذي وصل إليه ؟ ..

إن هذا الأمر يدعو إلى الحيرة بوجه خاص ، ذلك أن القيادة العليا السوفيتية كانت تعلم بالرحلات السابقة التي حدثت . وفي الواقع ، ذكر خروشوف إحدى رحلات التجسس الجوي هذه التي حدثت

في التاسع من شهر أبريل ، ومن الواضح أن طائرة باورز كان لا يمكن تتبعها بهذه الكيفية وإسقاطها بهذه الدقة لو لم يكن الروس قد استعدوا لها . . . وقد سأل رئيس الوزراء السوفيتي في المؤتمر الصحفي الذي عقده في ١٨ من مايو ، على السبب الذي من أجله لم يحتج لدى الرئيس أيزنهاور عن رحلات التجسس الجوي هذه — لما كان يعلم بها — وهو يزور الولايات المتحدة . وكان رد خروشوف ممتعاً . إذ قال :

سوف أجيب على هذا السؤال بكل سرور .. فعندما كنت أتحدث في كامب دافيد مع الرئيس أيزنهاور ، فتحت في تقريباً لكي أدلي بذلك التصريح . وكنت على وشك التصريح به لأن الجو كانت تسوده البهجة ، وفي هذه اللحظة كان الرئيس أيزنهاور يناديني ويطلب مني أن أناديه مستعملاً كلمة : د يا صديقي ، باللغة الانجليزية ، وهو يدعوني بنفس هذه الكلمة باللغة الروسية . وفي ذلك الحين فكرت ، لماذا لا أثير المسألة مع صديقي هذا ؟ .. ولكنني عدت نخشيت ذلك . فقد كنت أعتقد أن هناك شيئاً د له رائحة السمك ، عند صديقي هذا ، ولم أتطرق إلى الموضوع ، وقد ظهر أنني كنت على حق في ذلك ، لأننا عندما أمسكنا بهم وأيديهم مخضبة بالدماء ، قالوا إنهم ليسوا باللصوص . إنها مجرد سياستهم التي تشبه اللصوصية ، وهذا كل ما في الأمر . .

وعند هذه النقطة جاءت إشارة مسترخوشوف الثانية إلى القطة :
« وهذا يذكرني بما اعتدنا أن نفعله عندما كنا في دونباس ، وكنت

فى ذلك الحين غلاما صغيراً . فعندما كنا نملك بالقطة فى قفص الحمام ،
فإننا كنا نملك بالقطة من ذيلها ونضرب رأسها فى الحائط .

وهذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن بها أن نعلم شيئاً من الأدب ،
وبعدها عندما بدأ خروشوف يتحدث عن أيزنهاور باحتقار
مكشوف — عندما قال مثلاً : إنه لاعب جولف لا يصلح لإدارة
بيت للأطفال — سأله أحد الصحفيين : لماذا لم تحتج روسيا عن رحلات
التجسس الجوى ؟ . . فأجاب خروشوف قائلاً :

« لم تكن لدينا أدلة مادية لإثبات هذه الإعتداءات ، وعلى ذلك
اعتبرت الحكومة السوفيتية أن إصدار أية احتجاجات يعتبر مضىعة
لوقت . . »

وفى الواقع ، هنا نجد اللغز الذى يكتنف أحد جوانب المسألة . . .
فبعد رحلة الطيار باورز أصبح لدى خروشوف أهم أجزاء الجريمة —
الدليل عليها ، البضاعة التى سيعرضها .

وعلاوة على ذلك ، فإن الروس رغم أنهم كانوا على علم برحلات
الطيار فوق أراضيهم ، فإنهم لم يكونوا على علم بنتائج هذه الرحلات
إلى أن حصلوا على الأفلام التى كانت مع الطيار باورز وطبعوا
ما بها من صور . ويبدو أنه لم يكن يخطر ببالهم أن أراضى الاتحاد
السوفيتى يمكن التماط خرائط لها بكل هذا الوضوح والدقة
التفصيلية المذهلة .

واكتشف خروشوف — على حين غرة — أن الولايات المتحدة

كانت تعرف — بكل تأكيد — عن منشآت روسيا "عسكرية والنزيرة وغيرها أكثر مما يعتقد أى فرد فى الاتحاد السوفيتى ، وكان من الطبيعى أنه لما كان جزء كبير من تهوئش روسيا وضجتها يقوم على الضعف والخوف ، فقد كان ذلك باعثاً آخر على إثارة غضبهم وحنقهم .

ولكن إذا سلمنا بما سبق ، لماذا تكبد مشقة المجيء إلى باريس ؟.. وإذا كانت موسكو قد اتخذت قرارها صريحاً — قبل يوم السبت ، الرابع عشر من شهر مايو — والذى يقضى بعدم الاشتراك فى المؤتمر، فلماذا لم يعلن ذلك من الكرمين. ويبقى فى روسيا ؟ ولدينا على ذلك إجابتان تصلح كل منهما للرد على ذلك ، فأولاً ، لقد توفرت له فى باريس منصة عظيمة يلقي من فوقها دعاية فعالة ، ثانياً ، كان يأمل فى أن يحدث شقاقاً بين الحلفاء الغربيين ، وذلك بأن يجعل من هذه الحادثة قضية عامة . ولكن دييجول وما كميلان حافظا على اتزانها . وهناك احتمال ثالث أيضاً -- مع أن من الصعب دعمه بالأسانيد -- وهو أن خروشوف لم يكن يفهم على الإطلاق المزاج الأمريكى والشخصية الأمريكية ، وربما يكون قد اعتقد أن الرئيس ايزنهاور سوف يقبل انذاره ، ويعتذر ، ويبقى بشروطه المستحيلة ، على أن قبول هذه الشروط تماماً كان يعنى أن ايزنهاور كان يجب عليه أن ينزل العقاب بنفسه ، أو على الأقل ، يرمى بمستر ألن دالاس ، رئيس إدارة أبحاث الفضاء ، فى السجن .

وننتقل الآن إلى العوامل الأخرى .

كان خروشوف قد أفصح علناً عن إعجابه بايزنهاور فى ألقاظ فياضة وكان يعد له — كما سبق أن ذكرت — استقبالا لم يسبق له مثيل فى التاريخ

السياسى بكل تأكيد ولم يحدث أن تحدث أى رئيس لدولة شيوعية عن أى رئيس لدولة رأسمالية بالفاظ حارة أو حتى بالفاظ يكتنفها الود ، كما تحدث خورشوف عن إيرنهور حتى مساء يوم انعقاد مؤتمر القمة . لقد كان يتكلم بكل تأكيد بروح كامب ديفيد وعلاوة على ذلك فقد سبق أن سجلت له بيانات لا حصر لها عن الآمال البراقة التى تتعلق بالتعايش السلمى . وعلى ذلك فعندما أخذ إيرنهور على عاتقه مسئولية الطائرة ى — ٢ دخلت عوامل إضافية عديدة فى المسرحية .

أولا — شعر خرووشوف بالخيانة وآلمته — بكل تأكيد — خيبة الأمل الشخصية التى أحس بها .

ثانيا — اهتزت هيبة إلى درجة خطيرة فبرغم المعارضة الكبيرة كان يعلق الشئ الكثير على صداقة مع إيرنهور وثقته به والآن ذهبت آماله سدى ، وأصبح بإمكان زملائه فى الكرملين أن يعنفوه ويعيروه على سذاجته وعلى خروجه عن الاتجاه المعتاد للحزب وعلى ذلك . كان عليه أن يضاعف قبجه ، ويضاعف عنفه ، فى سلوكه فى مؤتمر القمة ، لكى يفصل ما بينه وبين إيرنهور ، وكان موقفه ، عاملى كفلاح روسى أبكم ، وسوف أريك كيف يمكن للفلاح الروسى أن يتصرف ! .

٢ — يحتمل أن تكون الصين قد لعبت دورا ، فبعد أن عاد خرووشوف توا من واشنطن ذهب إلى بكين حيث يعتقد أن ماوتسى تونج

قد إستقبله ببرود ملحوظ ليس ذلك فحسب . بل أن الزعيم الصيني تحدث عن « أناس معينين خدعوا بأن وضعوا ثقتهم بإيزنهاور ولذا شعر مستر خروشوف بإضطرابه الى أن يثبت للزعيم ماو مثله في ذلك من إلتباع ستالين في الكرملين ، أن قد عاد الى الطريق الصحيح وأن كل تخطيط يرجع إلى خطأ إيزنهاور .

٣ — ليس هناك أى فرد — حتى هذا اليوم — يعرف على وجه التحديد ما حدث فيما يتعلق ببرلين في كامب ديفيد . فقد أراد إيزنهاور وهو الرجل الظريف ، أن يكون ظريفاً ، وما من شك في أن خروشوف فسر معنى ما قاله إيزنهاور أو الطريقة التي تحدث بها كدلالة على أن الغرب ربما يكون مستعداً للنزول عن إمتيازات كبيرة فيما يتعلق ببرلين وغالباً ما يكون سوء الفهم من هذا النوع نتيجة للاتصالات الشخصية غير الرسمية بين الزعماء ، فالدبلوماسيّة . كما كتب هارولد ينكلسون ذات مرة بحكمة بالغة « يجب أن يكون فن التفاوض باتفاقيات مكتوبة » ومن هنا فعندما أصبح واضحاً قبل إنعقاد مؤتمر الاقطاب أن الولايات المتحدة ليست لديها أدنى ميل لتغيير موقفها من برلين ، ثارت ثائرة خروشوف فقد فشلت سياسته في الإعتماد على إيزنهاور كما استنتج رفاقه في موسكو دون شك . ولكن برلين وحدها لا يمكن أن تكون سبباً لهذا التدهور .

حكم الارهاب الأسود روسيا وعندما بدأت الحرب الباردة وذلك في الفترة من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٣ .

بيد أن الكرملين يحسن تكتم أسرارهِ فعندما مات ستالين في الخامس من شهر مارس سنة ١٩٥٣ بعد ثلاثين عاماً من الحكم العنيف لم يكن معظم الناس خارج روسيا يعرفون شيئاً عن خروشوف أما في الداخل فلم يكن يعرفه إلا الأقلون ، وقد جاءت نقطة التحول في حياته فور وفاة ستالين . أما تفاصيل هذه القصة فما زالت في طي الكتمان ، على أن المقربين لستالين اتخذوا قراراً فيما بينهم وربما كان ذلك على مشهد من جثة ستالين وهي لما نزل بين أيديهم بانها حكم الفرد وإقامة زعامة جماعية وإعادة تنظيم الحزب باعتباره الجهاز الرئيسي القوة السوفيتية ،

ولقد كان الدافع لذلك هو حماية أنفسهم فلم يكن ستالين يحكم روسيا من خلال الحزب مطلقاً لسنوات عدة بل كان يحكم بواسطة البوليس وسكرتاريته الخاصة المشثومة .

وقد شكلت لجنة ثلاثية كان الغرض منها إعادة تنظيم نظام الحكم في الدولة وكانت تتألف من مولوتوف رئيس الوزراء السابق وجورجي مالينكوف الذي كان يعمل سكرتيراً رئيساً لستالين مدة طويلة ولافرينتي « برياً » ذي السمعة السيئة والذي كان رئيساً للبوليس السري ، ولم يكن خروشوف نفسه في بادئ الأمر عضواً في هذه اللجنة الثلاثية ، بيد أن كان رئيساً للحزب في موسكو وأوكرانيا وقد كلف بالإشراف على ترتيبات دفن ستالين وأصبح مالينكوف رئيساً للحزب ورئيساً للوزارة في ٩ مارس . واستمر يشغل هذا المنصب المزدوج مدة ثمانية أيام فقط واطروف لم تفسر بعد تفسيراً كاملاً قرر مالينكوف أن يتخلى عن سكرتارية الحزب ويحتفظ برئاسة الوزراء ، ولا بد أن

مالينكوف كان يعرف جد المعرفة ، أن سكرتارية الحزب 'أهم بكثير من رئاسة الوزارة ولذا لا يسعنا إلا أن نفترض أنه اضطر إلى تقسيم وظائفه فن الذي أجبره على ذلك ؟ هذا هو ما لا نعرفه ، بيد أننا نعرف جيداً أن خروشوف هو الذي حل محله في المنصب الحزبي وبعد مرور أشهر قليلة عين خروشوف بصفة رسمية سكرتيراً أول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي ذلك المنصب الذي لا يزال يشغله حتى الآن وهو أخطر وأهم منصب في الاتحاد السوفيتي وقد كان هذا المنصب بمثابة النيج الذي استمد منه خروشوف حياته بعد ذلك .

وقد ضعف مركز مالينكوف كرئيس للوزراء وتحولت اللجنة الثلاثية إلى لجنة رباعية ، وسرعان ما انقلب مالينكوف ومولوتوف وخروشوف نموراً شرسة على بريافقبض عليه وحكم عليه بالاعدام وأطلق عليه الرصاص في ليلة رأس السنة عام ١٩٥٢ .

وبذلك انتهى عهد حكم البوليس المطلق وأصبح الطريق الآن ممهداً أمام خروشوف الذي يمتاز بمرونته حتى سمي في موسكو «باسم كرة القدم» كما يمتاز بقوة لا تجارى في المناورة والاحساس السياسى ، وذلك لى يدعم مركزه ، وأقيل مالينكوف من رئاسة الوزراء في فبراير سنة ١٩٥٥ وحل محله المارشال نيكولاى بولجانين المعروف وأحد زملاء خروشوف المقربين، وأنزل مالينكوف فأصبح وزيراً للقوى الكهربائية ثم حدثت أزمة يونيو سنة ١٩٥٧ عندما انقض خروشوف في هجمته المشهورة وتخلص من مولوتوف وكاجانوفتش وشبيلوف وغيرهم من أنصاف العمالة في نفس الوقت الذى هم فيه يعدون العدة للتخلص منه .

فبنى مالمينكوف إلى منطقة نائية في شرق روسيا وعين مشرفاً على مصنع هناك أما مولوتوف فقد أصبح في النهاية سفيراً لمنغوليا الخارجية وهي تبعد أيضاً مسافة كبيرة عن موسكو وما يسترعى انتباهنا في هذا المجال أن أولئك الذين أبعدهم خروشوف لم يحكم على واحد منهم بالسجن أو الإعدام ، وقد تمكن خروشوف من القضاء على خطة مولوتوف ومالمينكوف وهي لا تزال في المهد بسيطرته الكاملة على جهاز الحزب ، وذلك بالرغم من أن الاستالينيين الندماء قد عارضوا اتجاهات خروشوف وسياسته ومازالوا يعارضونها ، وقد تمت الخطوة التالية عندما أعفى الماريشال زوكوف وزير الدفاع وقائد الجيش الأحمر من منصبه في أكتوبر عام ١٩٥٧ وكان لهذا الخبر دوى هائل في الدوائر السياسية ، وما يذكر أن كثيراً من يطلق عليهم خبراء في السياسة السوفيتية كانوا يعتقدون لمدة طويلة أن زوكوف كان يوجه خروشوف ولكن تبين أنهم كانوا مخطئين ، وأصبح الميدان الآن خالياً لخروشوف وحده فحل محل بولجانين الوديع في رئاسة الوزارة ، ومع أن خروشوف كان يبلغ من العمر إذ ذاك ٦٤ عاماً فإنه لم يسبق أن شغل حتى تلك اللحظة أي منصب آخر خلافاً للمنصب الحزبي ، فلم يحدث أن صار وزيراً أو رئيساً لأحدى إدارات الحكومة ، ومع ذلك فقد كان واضحاً لكل ذي عينين أن خروشوف هو الذي كان يسيطر على روسيا كلها مدة سنوات عديدة ، ولم يحدث في تعديل سنة ١٩٥٨ أكثر من إبعاد بولجانين عن ميدان السياسة وتدعيم كيان الدولة .

شخصية خروشوف :

ومنذ سنين طويلة خلت كتبت أقول « إن ستالين جامد العواطف مثل كتلة من البازلت ، وإذا كانت لديه ثمة أعصاب فإنها كالشرايين التي تمتد في الصخر . أما خروشوف إذا ما قورن بـ ستالين فهو قنديل سميك ضخيم هلامي الملمس يهتز ويرتعش في كل خلجة من خلجاته مثله في ذلك مثل قرن الاستعمار . وليس معنى هذا إنه لين العريكة فما من أحد منا في العالم الغربي إلا ولديه من الحجج القوية ما يجعله يعلم مدى صلابته .

ويمكننا أن نقبل بوضوح جانباً من جوانب شخصية خروشوف إذا وضعنا في اعتبارنا دائماً إنه فلاح قبل كل شيء ولذا فهو ما كر متمسك برأيه لبق فظ يسرف في كبرياته دائماً كما أنه موهوب في ردوده الجافة .

ويحذر بنا أن نذكر أيضاً سرعة غضبه فعندما كان ما كيلاان يزور موسكو في الرحلة الذي مهدت السبيل لانعقاد مؤتمر الأقطاب حدث أن قال في صبيحة أحد الأيام أنه يكن احتراماً عميقاً للمستشار أديناور فاستشاط خروشوف غضباً إلى حد أن الزيارة أوشكت على الانتهاء في التو واللحظة — كما يجب أن تنوء مرة أخرى بسلوكه الشائن فهل كان يجرؤ أحد سوى خروشوف عند سفره إلى يوغوسلافيا على أن يوقع السلطات اليوغوسلافية في الارتباك . وذلك بدعوة جميع رجال البوليس السري الذين كلّفوا بحراسته ولم يكتشفوا عن حقيقة أمرهم له إلى

الجنّاح الذى يقيم فيه لتناول كأس من الشراب المنعش ، ومن سوى خروشوف كان يمكن أن يفكر فى تقديم دب حى صغير كهدية للملكة فى رحلة إلى إنجلترا ؟ ومن من الزعماء الشيوعيين كان يستطيع أن يقول فى أول خطبة عامة له فى نيويورك : « إذا كنتم تحبون الرأسمالية . وهذا هو ما أعلم فسيروا على هذا المنوال وليبارككم الله ! » .

وعندما بدأ خروشوف فى الظهور على مسرح السياسة العامة وقام بحملاته الأولى فى الخارج يصحبه فى العادة بولجانين الذى كان يبدو كمالك أرض منبوذ من فرجينيا يدمن تناول شراب النعناع المسكر كان الناس يميلون إلى الاعتقاد بأن خروشوف مهرج سكير أبله .

والواقع أنه مغرم بشرب الخمر وقد شوهد مخموراً فعلاً فى بعض المناسبات . ولكنه فى نفس الوقت بالطبع ليس سكيراً . يخالف هذا المظهر الخداع يمكنك أن تستشف بوضوح صلابته لإيمانه ورسوخ هدفه كما لا يمكن لأحد أن يغفل ذكاه . ويحسن بنا فى هذا الصدد أن نذكر قصة صغيرة لها دلالتها قد أوردها كرانك شو فى كتابه « روسيا فى عهد خروشوف » ، فقد حدث مرة أن كان خروشوف مشتبكاً فى نقاش مع جماعة من الدبلوماسيين الغربيين فى حفل استقبال أقيم فى موسكو وكان واضحاً أنه قد أغمهم فى هذه المناقشة فصاح قائلاً :

أنظروا إلى ! هاأنذا شيوعى بسيط قد اشتغلت يدي ولم أتلق العلم فى المدارس على الإطلاق :

أما أنتم أيها السادة العظماء فقد تلقيتم تعليمكم فى أحسن المدارس

وأصبحتم محترفين مدربين . ومع ذلك فقد استطعت أن أحكم الحصار حولكم في هذه المناقشة . فما السبب في ذلك ؟ ! . .

وهناك على ما أعتقد خمسة مصادر رئيسية لقوة خروشوف وهى :

١ — قوة شخصيته المجردة إلى جانب قيادته الشاقة الواعية القاسية لجهاز الحزب .

٢ — إن معظم المواطنين السوفيت الآن أحسن حالا من الناحية المادية عما كانوا فى أى وقت مضى .

٣ — إنه يرمز إلى انتهاء عهد الإرهاب — كما يرمز إلى التخلص من فساد بوليس ستالين .

٤ — إنه يمثل السلام الذى يريده كل فرد فى روسيا .

٥ — إنه يمثل فى وضوح وجللاء حيوية الهدف من النظام السوفيتى ووحدته التى لا مرأى فيها .

لقد كانت صورة خروشوف تعلوها طبقة سميكة من القار غطتها به فرشاة ستالين الشريرة ولكن على أثر التطور الذى خل فيه خروشوف محل مالنكوف فى منصب السكرتير الأول للحزب سنة ١٩٤٣ كانت علامة الطريق الرئيسية فى حياته هى بلا شك تلك الخطبة الرنانة النفاها فى المؤتمر العشرين للحزب فى فبراير ١٩٥٦ والتى دامت ست ساعات كاملة .

وقد ندد فى هذه الخطبة بالسياسة الاستالينية فى عبادة الفرد وإعادة التعبير عن الرغبة فى سياسة القيادة الجماعية كما كشف بطريقة مشيرة

عن بعض أعمال ستالين الإرهابية كما جذب الفئاع عن بعض جرائم
سلفة الشنعاء المقتوة .

ويشعر خروشوف قبل منظمة حلف شمال الأطلسي والتواعد
الأمريكية عبر البحار بالكراهية الشديدة لأنه يواجه في وجودها
احتمال اتخاذ إجراء انتقامي من جانبها في حالة الحرب ، وكما يشعر
بالخوف الشديد من إعادة تسليح ألمانيا الغربية هذا إذا وضعنا جانباً
قوة أمريكا الرئيسية .

وهو أشد ما يكون رغبة في نزع السلاح الذي يأتي في الدرجة
التالية لتقدم السوفيت . وأشد ما يبعث القلق في نفسه هي مشكلة برلين
وتليها مباشرة سكرتارية الأمم المتحدة .

ولنتحدث في النهاية عن أعمال وأهمها كما سبق أن بينا هي تلك
العملية التي يطلق عليها الروس « الشرعية الاشتراكية » . التي حلت محل
الحكم الفردي الاستبدادي . وقد ألغيت معسكرات الدمال إلى حد كبير
كما عدل نظام القضاء ولم يعد للبوليس السرى تلك السلطة الشاملة والتي
لا يمكن التنبؤ بنزواتها كما انتهى الحكم الإرهابي الصريح رغم أن
الكثيرين من المواطنين السوفيت لا يزالون يرتعدون خوفاً عند ذكر
رجل البوليس .

وقد وعد خروشوف الشعب السوفيتي أنهم بعد سنوات قلائل
سوف يفوقون الولايات المتحدة فيما يخص كل فرد من إنتاج الزبد
واللبن واللحم وهو ما قد يحدث أو لا يحدث . وقد عمل خروشوف

إلى حد ما على تمكين المواطنين من الحصول على المزيد من السلع الاستهلاكية بسعر معقول ولكن جهوده ما زالت قاصرة . فقد زاد إنتاج السوفيت لمصنوعات معينة مثل الدراجات والأحذية والساعات والراديو وآلات التصوير إلى آخر ذلك .

ثم بدأ خروشوف أيضاً في تنفيذ نظام دقيق للتخلص من تركيز الصناعة كما افتتح ٨٧٥٥ مليوناً من الأفدنة في كازا كستان وذلك في مشروع التنمية الطموحية المجازفة للأراضي البكر . وكذلك فقد اتجه بالنظرية السوفيتية اتجاهات جديدة بالتخلي إلى حد ما عن مبدأين ماركسيين أساسيين وهما ..

إن الحكومة البرلمانية لا تعدو أن تكون أغحوة يهزأ منها الناس وإن العنف عامل جوهري في تغيير المجتمع ، . وأخيراً فقد هدم نظرية لينين كما هو معروف لدى الجميع بأن الحرب بين الدول الشيوعية والرأسمالية لا مناص منها ويتبنى قضية التعايش السلمي في ظل المنافسة الحرة ..

خروشوف في الأمم المتحدة

وبعد مؤتمر القمة في باريس كانت حركة مستر خروشوف المسرحية التالية هي الاستعراض الذي استمر خمسة وعشرين يوماً في الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك في شهرى سبتمبر و أكتوبر ١٩٦٠ . وبذلك تميزت زيارته الثانية إلى الولايات المتحدة وقد جاء إلى الولايات

المتحدة (في سفينة صغيرة) دون دعوى ، بل عين نفسه رئيساً لوفد الاتحاد السوفيتي إلى الدورة الخامسة عشرة للجمعية العامة . وهكذا لم يكن باستطاعته أن يبتعد عنها . وقد قصرت السلطات الأمريكية حركاته على مانهاتان وأملاك روسيا الخاصة فوق لونغ ايلاند . وان كان ذلك قد ضايقه إلا أنه لم يرهبه . ومن الشرفه التي تطل على بارك افنيو كان يلقي بالسخریات الصغيرة الماكرة حول « تحديد اقامته » .

ولم يحدث في التاريخ ان قام مثل هذا الاشتباك بين أسماء غريبة ولم يحدث أن تجمع مثل هذا العدد من مشاهير الشخصيات الدولية في مدينة واحدة في وقت واحد — فقد كان هناك كاسترو وناصر ، ونهرو ، وسوكارنو ، ونكروما ، وتيتو ، وجومولكا . وما كيلان ، وهمرشولد ، وايزنهاور — ولكن خروشوف كان النجم وقد راقبته عن كثب في كثير من حفلات الاستقبال ، من بينها حفلة اقامها الوفد الهندي وأخرى اقامها الوفد الاندونييسي . وكانت الصورة واحدة دائماً . ولا يهمنا أى شخص آخر وجد في هذه الحفلات . وكان الضيوف — ماعدا النليل منهم — لاهم لهم الا خروشوف . وكان يتفرد في الحجرة بجسمه المكثف ووجهه الباسم ويسير على أطراف أصابع قدميه ، ويميل إلى الأمام في جد وحزم ثم تبدو عليه اليقظة والانتباه ، ثم يختفي ذلك في لحظة في ثورة من الهجوم . وكان يشق حشود الصحفيين والضيوف الآخرين — وغيرهم من المندسين . ومن بين السمات الهامة التي تميز خروشوف — كما تميز جميع النجوم الحقيقتين . هي مغناطيسيته والناس يتدافعون ويعرضون رقابهم للكسر لكي يشاهدوه عن كثب او لكي

ينصتوا على احدى الكلمات السرية التي تصدر عنه - وليس ذلك من أجل شخص خروشوف فحسب بل من أجل ما يمثله خروشوف .

وفي نيويورك كان مستر خروشوف مكروها ، شديد الصياح والضجة ، وعنيفا في غضبه - كان وغدا . كما كان خروشوف جلفا . ولكنه مرح سريع النكته في المناسبات ، مرن لا يروى ظمأه ، سفيه صلب ومتمسك ، رجل يتمتع بعبقرية ايحـ اية تلهمه بقول الكلمة الأخيرة . وقد كانت حيويته تحديا . وفي بعض الاحيان كان يبدو وقد نسي كل شيء عن مؤتمر القمة منذ عدة أشهر . ولم يخطر بباله ان هناك أسبابا حقيقية تجعل الرئيس ايزنهاور ، وهو الشخص الذي أهانه خروشوف متعمداً لن يكون سعيداً لاستقباله . وبعد أن بذل ماوسعه الجهد ليحطم همرشولد ، عانقه بود في احدى حفلات الكوكتيل في اليوم التالي ولم يسبق ان كانت علاقتة بالأمم المتحدة أكثر توتراً من ذلك ولكنه بذل جهده لكي يحطم مستر جيمس وارسورث مبعوث أمريكا في الأمم المتحدة . واحتضنه في مرح احتضان الدب - ولكن وارسورث الذي وزن ٢٤٠ رطلا كان أكبر من أن يحتضنه خروشوف - عندما التقيا في إحدى الحفلات .

وفي إحدى الامسيات عندما سأل أحد الصحفيين مستر خروشوف أن يقول شيئاً عن نزع السلاح ، كتب محرر جريدة « هيرالد تريبيون » ، يقول إن خروشوف انبرى مباشرة في برائة وجعل يفتش في جيوبه ، لكي يبين للحاضرين أن جيوبه لا تحوى شيئاً من البنادق ، أو القنابل أو الصواريخ . وعلى أية حال فقد أخرج من جيبه مبراة . وقال وهو

يفتح المبراة ، كيف يتسنى لاي شخص أن يحدث ثقباً في زكية مثل
 وارسورث بشيء صغير مثل هذا ؟ وبعد ذلك بعدة أيام وصف
 مبعوث القيايين البرى بأنه « شخص تافه » ، ووصف مجلس الأمن بأنه
 « مكان للبصق » ، وخلع حذاءه أثناء القاء خطاب له في الجمعية العامة .
 ولوح به ثم هوى به على المكتب .

وكان خروشوف يعتمد المؤتمرات الصحفية ليلاً من شرفة السفارة
 السوفيتية ، وهو يرتدى قميصه ، ويصيح إلى الصحفيين الذين يتقفون
 في الشارع الذى ينخفض عن الشرفة مسافة عشرين قدماً . وفى إحدى
 الليالى غنى عدة أبيات من النشيد الشيوعى « الدورية » ، وتظاهر باحترام
 أنه يقود أوكسترا فى عزف فقرة أو فقرتين فى إحدى المقطوعات
 الموسيقية التى سمعها عبر الشارع .

وقال إن خطاب أيزنهاور فى الجمعية العامة كان « موسيقى هادئة
 ولكنها لا تحتوى على أى معنى » ، واقترح أن يتول أحد مراسلى
 جريدة « نيويورك تايمز » المشهورين يصلح لأن يكون رئيساً للولايات
 المتحدة . وسأل مارجريت هينجز — وهى إحدى المحررات فى جريدة
 نيويورك هيرالد تريبيون — سألها متوسلاً ما إذا كان الطفل الذى
 وضعته أخيراً ولداً أو بنتاً . وتبادل النكات مع أرموند ستيفنز ،
 مراسل مجلة « النايمز » فى موسكو ، عن لحيته وقارن بعض المتظاهرين
 المعادين له الذين كانوا يسرون فى الشارع بالمواد التى يمكن أن يجدها
 الإنسان تحت الحصان .

ولجأة ذهب إلى حى هارلم لى يزور كاسترو ، وهاجم مبدأ مونرى ، ووعد بإطلاق الصواريخ إذا هاجمت الولايات المتحدة كوبا ، وقال إن المصانع فى الاتحاد السوفيتى تنتج صواريخ الفضاء مثلما تنتج « السجق » . واعترف بأن بوليس نيويورك تصرف تصرفاً سليماً بالطريقة التى تصدر عن أية سياسة سليمة فى أى مكان ، وقال إنه يشعر بحاجة إلى البقاء فى أمريكا مدة أطول لى يبرر النفقات التى تكبدها . وأعلن بعد حديث خاص له مع مستر ماكيلان . « أن أنوفنا وأيدينا لا زالت فى نفس المكان ، وقال للصحفيين أنه لا يتوقع أن يبدأ حرباً فى تلك الليلة ، ولذا يمكنهم أن يعودوا إلى منازلهم ويناموا فى سلام ، وأنكر أنه قضى على روح كامب ديفيد ، وقال إن الأمر لا يهم إذا كان هو لا يزال فى الولايات المتحدة أثناء إجراء الانتخابات طالما أنه لن يدلى بصوته .

وعندما سأله أحد المحررين عما إذا كانت الحكومة السوفيتية قد جاءت إلى الحكم بطريق الانتخاب ، أجاب : « ألا تعرف أننا فى بلدنا لا نملك بنطلونات طويلة لنلبسها ؟ . . هذه حقيقة ، اذهب سريعاً واكتشف بنفسك .

وصاح فى مرح « يسقط جروميكو ، ! عندما تأخر وزير خارجيته دون سبب عن إحدى المهام ، وضايقه عدد من رفاقه الشيوعيين لكونهم يدينون ، وقال إنه إذا حاولت الولايات المتحدة أن ترهبه أو « تغرق سفينته ، فإنه سيعرق إلى القاع ويسحبنا معه ، وجعل الجمعية العامة تشعر بالملل من طول خطابه الذى دام ساعتين ونصف رهيلتين

عن نزع السلاح، وقبل غليوننا هنديا رمزاً للسلام من أحد الأمريكيين الذين يتمنون له حسن الحظ ، وأعلن أنه يؤيد كلا من القراصنة واليانكيز ، وقال إنه على استعداد لأن يجلس في حجرة مقفلة مع أيزنهاور ، لأطول مدة ضرورية ، للوصول إلى اتفاق حول نزع السلاح ، وعند ما سئل ذات صباح ما إذا كان قد نام جيداً . أجاب بتوكيد « كما هي العادة ! »

وخلف هذه الجلبة الغربية . كانت هناك باطبع حقائق خطيرة فلم يأت خروشوف إلى الأمم المتحدة لكي يكون متقدماً للمسرقيات الاستعراضية والأناشيد الهزلية ، ولكنه جاء ليحصل على أهداف سياسية محددة . فأولاً ، فقد أراد استغلال الأمم المتحدة كنصّة للأغراض الدعائية وثانياً أراد أن يتبعض على زعامة الكتلة الأفريقية الآسيوية ، إذا أمكن ، ولكنه لم ينجح في ذلك . وأن يرغم الأمم المتحدة على إعادة تنظيم سكرتارية الأمم المتحدة ولكنه فشل في تحقيق ذلك . وثالثاً ، وفوق كل شيء كانت مسرحياته الهزلية مسهبة وأن ثمة سبباً لذلك فلأنه أراد أن يظهر لنا — وكذلك للصينيين — أنه لا يزال هو قائد العالم الشيوعي اليوم .

نبذة أخرى عن خروشوف

ولد نيكيتا خروشوف أبرز الشخصيات السياسية في العالم بعد جون كينيدي في ١٧ أبريل سنة ١٨٩٤ في قرية كاليونوفكا بالقرب من كورسك المجاورة لأوكرانيا بيد أن خروشوف روسي الأصل وليس من أوكرانيا كما يعتقد البعض . ويشغل ثلاث وظائف الآن وهي :

- ١ - السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي .
- ٢ - رئيس مجلس وزراء اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية .
- ٣ - رئيس مكتب الحزب الشيوعي في الجمهورية الروسية لاشتراكية السوفيتية المتحدة .

من ذلك يتضح أن خروشوف يدير الحزب والدولة كما أنه زعيم الأكبر منظمة سياسية في العالم بلا منازع . ويغطي الحزب الشيوعي سدس مساحة العالم .

ولم يحدث من قبل أن اختلفت اللغات في هجاء اسم شخص واحد كما حدث في اسم خروشوف ، وكان والد خروشوف من عمال المناجم وقد استطاع أن يكسب قوته برعى قطعان الماشية غير أن أسرته تعيش في فقر مدقع .

ولم ينل خروشوف أي قدر من التعليم تقريباً في صغره بل لقد ذكر كرانك شو أحد ثقاة البريطانيين المطلعين في كتابه

« روسيا في عهد خروشوف ، أن خروشوف كان يجهل القراءة والكتابة حتى سن الثالثة والعشرين .

وكتب خبير انجليزى آخر موثوق به في جريدة لندن أوبزرفر في ١٥ مايو سنة ١٩٦٠ يقول إن خروشوف بدأ يتعلم القراءة في سن السادسة والعشرين فإما أن يكون كل ما نسمعه عن ضرورة التعلم في الصغر مبالغة ليس لها نصيب كبير من الصحة وأما أن متمدنة خروشوف على استيعاب العلم وهو في سن الرجولة كانت عجيبة فائقة . وقد تكون هناك بعض المآخذ على ثقافته ومعلوماته ولكنه على درجة فائقة من العلم بمواضيع شتى .

ورغم أنه يتحدث بلغة يشتم منها التعاليم بيد أن فصاحته في التعبير عن نفسه ولغته الرصينة . وفكره الثاقب يعجز عنها معظم السياسيين . ومن خصائصه التي تدل على أن تعليمه في الصغر كان يعتمد على السمع لا على الكتب هوايته لحكايات الفلاحين وثروته الكبيرة من الأغاني الشعبية والأمثال التي يستشهد بها كثيراً .

لقد قامت الثورة الروسية عام ١٩١٧ عندما كان عمر خروشوف ٢٣ سنة . وكان يعمل وقتذاك صانع أقفال كما كان يعمل راعياً للماشية ، ثم انضم للتوات البلشفية وأبلى فيها بلاء حسناً وأرسل بعد الحرب الأهلية مباشرة إلى مدرسة الحزب في منطقة دوبناس وهناك تشرب بعض مبادئ التعليم ثم أرسل بعد ذلك إلى مدرسة للعمال في معهد دونيتز الصناعي .

وفي عام ١٩٢٩ عندما كان عمره ٢٥ سنة التحق بأكاديمية ستالين الصناعية التي تقع في موسكو والتي تسمى الآن «أكاديمية موسكو الصناعية» .

وكما سبق أن بينت في كتابي «داخل روسيا اليوم» ، إنه من المميزات التي تدعو للاعجاب في الاتحاد السوفيتي عادة انتقاء الشبان الموهوبين ومنحهم الفرصة للحصول على تعليم عال متخصص .

وفي سنة ١٩٣٠ ظهر خروشوف في ميدان السياسة الروسية كالصاروخ الذي انطلق فجأة . فقد أصبح عضواً قوياً في الحزب وأخذ يرتقى في مناصبه حتى أصبح وهو لم يبلغ الأربعين بعد من عمره سكرتيراً للجنة الحزب الإقليمي في موسكو وهو منصب حيوي وكان من بين أنصاره شخص أقاله بعد ذلك هو لازار كاجانوفيتش وهو أحد الشخصيات التاريخية الأولى في الثورة .

وفي سنة ١٩٢٩ أصبح خروشوف عضواً يتمتع بكامل حقوق العضوية في المجلس الأعلى للحزب الشيوعي وهو الهيئة الحاكمة للحزب وقد أصبح عضواً في هذه الهيئة التي تعتبر أهم هيئة في الاتحاد السوفيتي منذ ذلك التاريخ كما كان خروشوف أول عضو يسمح له بعضوية هذا المجلس الذي يعد من أهم مقدسات هناك والذي نما بعد الثورة مباشرة . وأصبح رمزاً للجيل الصاعد من الزعماء الجدد .

ولم يكن لخروشوف أي نشاط يذكر قبل قيام الثورة فهو كما قرر البعض «من صنع عصر الثورة السوفيتية كلية» .

وعندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية كان خروشوف رئيساً للحزب في أوكرانيا وقد أصبح ضابطاً في القوات المسلحة برتبة عميد واشترك مع الجيش في الدفاع عن ستالينجراد كما اشترك في حرب العصابات التي قام بها الروس في المناطق المجاورة . وقد ظل محتفظاً بمنصبه في أوكرانيا إلى جانب احتفاظه برئاسة منظمة الحزب في موسكو وفي الفترة التي أعقبت الحرب مباشرة كان يقسم وقته بين موسكو وكيف عاصمة أوكرانيا .

كما أنه مسئول عن حركة التطهير المقنونة المضادة لسياسة ستالين التي عانت منها أوكرانيا بعد الحرب .

وقد استطاع أن ينجو من تطهير ستالين له هو نفسه بل تمكن من أن يصبح أحد زعماء الكرماين الستة المقربين لستالين في الفترة المظلمة ويخافه في غيابه وأن نظام الحكم يخضع لنظام ثابت حتى أن رفاقه يستطيعون أن يتخذوا قرارات روتينية هامة أينما كان .

والواقع أن الدكتاتورية لم تتحرر فحسب بل إن رئيس الوزارة قد أصبح يواجه معارضة شديدة في بعض المناسبات وبالنسبة لستالين فإن خروشوف ليس متعصباً غير أن اليمينيين لا يتقبلون تغييره السريع وإستعداده للارتجال وتفاوضه مع الخارجين على الشيوعية مثل تيتو . وهو بالنسبة لبعض المتطرفين أقرب ما يكون إلى تروتسكي .

وهناك نقاط خطيرة تتطلب الحل في روسيا أولها الصين فالشيوعيون الصينيون - وهم من المذهبين المتشددين - لا يزالون يتمسكون بمبادئ

ماركس ولينين ولكن خرشوف لا يفعل ذلك لأنه امتنع عن تأييد المذهب التقليدى .

وثانياً الزراعة ، فقد أصيبت الأراضى الحديثة بكارثتين نتيجة لانخفاض مستوى المحصول . والزراعة فى الاتحاد السوفيتى هى أكبر نقطة ضعف ولو نقص المحصول مرة أخرى فى كازافستان أو فى غيرها فإن خرشوف سيواجه متاعب جسيمة .

. وثالثاً ، إن هناك موضوعات أخرى تتصل بالسياسة الداخلية إذ أن هناك الكثيرين من الأشخاص الذين يريدون دخول معترك السياسة . ولكن رغم كل ذلك فإن خرشوف فى غاية الحذر وهو يسيطر على الحزب فى حزم كما أنه يسيطر على معظم زملائه وكأنه عملاق بين مجموعة من الأقزام .

تغيرات فى النظام السوفيتى

لا شك أنى كتبت ما فيه الكفاية فى هذا الفصل والفصل السابق كما أشرت إلى هذا الموضوع فى أماكن أخرى وأشارت إلى عمق التغيرات التى طرأت على الاتحاد السوفيتى ومداهما منذ أن ألفت كتابى داخل وأرباباً ، منذ ربع قرن مضى تقريباً ، فقد مات ستالين وتحطمت سلطة البوليس السرى الذى كان عبارة عن دولة أخرى داخل الدولة وإزداد حجم الاتحاد السوفيتى على حساب جيرانه المختلفين ، وأضحى تناخه فى الشرق بمجموعه من التوابع التى تدور فى فلكه ونتج عن ذلك إتساع السلطة السوفيتية حتى نهر الدانوب .

وقد قام خروشوف بدور كبير في سبيل إحياء الاقتصاد السوفيتي والاهتمام بالتعليم وتشجيع الأساليب الفنية الإنتاجية وتحسين مستوى المعيشة وتشجيع الإتصال بالعالم الخارجى إلى حد ما . وقد أسفرت عملية القضاء على الاتجاهات الستالينية عن إصلاحات قضائية هائلة ومن ثم أصبح دالجو أخف حتى وإن كان النظام لم يتغير ، كما قيل في أحد الأيام .

والفرق بين موسكو في عام ١٩٣٥ عندما هُتفت بزيارتها في بداية أسوأ فترات دكتاتورية ستالين وروسيا عندما زرتها في عام ١٩٥٦ أشبه للفرق بين الليل والنهار في بعض المجالات وأقول باختصار إن روسيا تقدمت بحيث أصبحت الدولة الثانية صناعيا وعسكريا في العالم أما عن الأقمار الصناعية فهي (على الأقل حتى كتابة هذا الكتاب) الدولة الأولى في غزو الفضاء الخارجى وازتياده .

ومن الناحية الأخرى فلم تتغير روسيا في عدة نواح . ولكن مازال العار يلحق بالحكومة لقمعها ثورة المجر ولإجبار شخص مثل بوريس باسترناك على رفض جائزة نوبل وتعذيب صديقه مدام ايفنسكايا وابنتها وربما تؤدي عملية القضاء على الاتجاهات الستالينية إلى صبح البلاد بالصيغة الديمقراطية . وحتى أن كان الروس يأملون في الاتفاق على نزع السلاح وتحسين العلاقات مع الغرب فإن أساليبهم في التفاوض مطلقة وغير مستقيمة وتنسم بالعناد .

كلية أخرى عن خروشوف والصينيين

إن الصين خارجة عن نطاق هذا الكتاب ولكن لا يمكن أن يبحث أحد المسائل الأساسية المتعلقة بروسيا دون الإشارة إلى الصين . وقد اتسمت العلاقات بين الاتحاد السوفيتي والصين الشيوعية بعدم الاتفاق والشعور السيء بل والتوتر لعدة سنوات ويرجع ذلك لأسباب عاطفية ، فالصين أكبر دولة في العالم من حيث عدد السكان إذ يبلغ عدد سكانها حوالي ٦٥٠ مليون نسمة ويزيد عدد سكانها كل عام بحوالي ٢٥ مليون نسمة ولذلك فمن المقدر أن يبلغ عدد سكانها ١٠٠٠ مليون نسمة في عام ١٩٨٠ .

أما روسيا فعلى الرغم من أن مساحتها أكبر مباحة في العالم فإن عدد سكانها يبلغون حوالي ٢١٠ مليون نسمة كما أن معدل المواليد فيها غير مرتفع . ولما كان الاتحاد السوفيتي قد فقد كثيراً من الشبان أثناء الحرب ولذلك فإن الاطفال الذين أصبحوا في فترة الشباب اليوم هم قليلون .

وما زال الاتحاد السوفيتي يعتبر نفسه أكبر من الصين غير أن ارتفاع معدل المواليد في الصين يعتبر خطراً يهدده .

تري ، أين تذهب الأعداد المتزايدة من الصينيين ما دامت الصين لا تكاد تطعم نفسها حالياً ؟ هناك احتمال واحد أمامهم وهو سيبيريا المتاخمة لهم إن لم يكن كازاخستان .

أما الخطر السانى فهو التصنيع والواقع أن مدى التصنيع فى الصين لا يبلغ مداه فى الاتحاد السوفيتى ولكنه يتقدم بسرعة ، ويتنبأ البعض بأن انتاج الصلب فى الصين سيبلى فى خلال عشرين عاما مثل انتاج غرب أوروبا من الصلب. أما الخطر الثالث فهو المنافسة بين العملاقين لمباشرة النفوذ على أوروبا وآسيا .

أما من الناحية الايدىولوجية فإن الخلاف بين روسيا والصين هو خلاف خاص وقد أشرنا إليه فى مكان آخر . ويعتق الصينيون رأى لينين القديم القائل بأن الحرب بين الدول الرأسمالية والدول الشيوعية أمر لا بد منه وأن سياسة خروشوف بشأن التعايش السلمى لا معنى لها . ولا شك فى أننى أعمل فى هذا المجال على ضغط موضوع على جانب كبير من التعقيد المذهبى الذى يتطلب كثيرا من الاهتمام غير أن الاتجاه الرئيسى فى سياسة الصين هو أنه لا يمكن التغلب على القوى الاستعمارية إلا بالصراع الثورى المكشوف .

أما الروس فإن رأيهم يختلف عن ذلك إذ أن خروشوف لم يعد يعتقد أنه لا بد من الحرب لأن قوة الشيوعية فى روسيا والدول التابعة لها وفى غيرها من الدول قد تقدمت بسرعة . وهو يعتقد أن الرأسمالية ستتهار من تلقائها عندما يكتشف الناس فى جميع أنحاء العالم أن النظام الشيوعى أفضل من النظام الرأسمالى وأنه يحقق لهم فوائد أكثر ولذلك فإن نشر الأفكار الشيوعية عن طريق الأعمال الثورية المكشوفة لا تساوى المغامرة التى تنطوى عليها إثارة الحرب الانتقامية التى تستخدم فيها الأسلحة الذرية . وهذا طبعا لا يستبعد احتمال انتفاع

الروس من فرصة إستغلال المواقف المحلية في بعض البلدان مثل العراق ولاوس والكونغو .

إن خروشوف يريد السلام بلا شك حتى يحسن من مستوى المعيشة في الاتحاد السوفيتي وحتى يقوى حكومته ولكنه يلعب في الجانبين .

ومن الأسباب التي تجعل الصينيين على إستعداد للمخاطرة هي أنهم سيتعرضون لخسارة أبسط بكثير من التي قد تتعرض لها روسيا في حال قيام حرب ذرية .

إن زيادة عدد سكان الصين سيجعلها قادرة نظرية على تحمل أكبر خسارة في الأرواح فلو فقد الاتحاد السوفيتي ٢٠٠ مليون نسمة فإنه سوف يزول ولو فقدت الصين نفس هذا العدد فإن عدد سكانها سيصير ٤٥٠ مليوناً ، وفضلاً عن ذلك فإن الأهداف الصناعية في الصين مبعثرة ومنتشرة بينما قد تخسر روسيا - نظرياً - أكبر قدر من التقدم الصناعي بها .

ويشكو الصينيون كثيراً من الاتحاد السوفيتي من المسائل التالية.

١ - القنابل : فقد رفضت روسيا إعطاء الصين أسلحة ذرية أو معدات نووية اللهم إلا مفاعل ذري صغير للتجارب ..

٢ - إن الهند رسم للاتحاد السوفيتي صورة قائمة لتوغل الصين في التبت والتحركات التي قامت بها الصين بمحاذاة جبال هملايا بينما كان الصينيون يحقدون على عدم تأييد الروس لهم .

٣ - تقدم الروس إلى الصين مساعدات فنية كثيرة غير أن الصين تعتقد أنها في حاجة شديدة إلى المزيد .

٤ - يريد الصينيون التعبير عن تأييد إيجابي أكثر للحزب الشيوعية الضعيفة في العالم الغربي ولا يرضون عن مساعدات روسيا الاقتصادية للدول البورجوازية .

نود أن نقول كلمة أخرى عن القنابل الذرية إذ يعتقد كثير من المراقبين أن الصين قد أنتجت فعلا قنبلاتها الذرية الأولى أو بالأحرى على وشك إنتاجها بدون مساعدة روسيا لها . ولدى الصين الآن علماء وفنيون وأيس من العسير عليهم أن ينتجوا القنبلة اليوم .

وجدير بالذكر أن الصينيين هم الذين اخترعوا البارود . ومن الأسباب التي تجعل روسيا على استعداد لمناقشة موضوع التجارب الذرية والعمل على وقف التجارب (بشروطها الخاصة طبعاً) أن القرار الذي قد يتخذ سيحرم الصين من الانضمام إلى الدول المنتجة للقنابل الذرية بحيث لا تبدأ في إجراء تجاربها . ولما كانت الظروف كذلك فلماذا لا يعجل الروس من تدهور علاقتهم بالصين :

إن السبب الرئيسي طبعاً هو أن الانقسام المكشوف سيضرب بالنفوذ الشيوعي وقد يجعل من الصين جارا أخطر مما هي الآن ولماذا إذن يعمل الصينيون على تقويض علاقتهم بالروس ؟

إن الإجابة على هذا السؤال لا يمكن أن تكون أسهل في الإجابة على السؤال السابق لأن الصين تعتمد كلية على روسيا في الحصول على الآلات والمعدات ، إذ لا يمكن أن تحصل الصين من أى مكان آخر على السلع الضرورية لبرامجها العسكرية والصناعية ابتداء من الآلات الميكانيكية إلى البنزين ، غير أن الروس لا يقدمون للصين إلا الحد الأدنى اللازم أى ما يكفى لاعالة أنفسهم بحيث لا يتفوقون على الاتحاد السوفيتى .

وثمة نقطة أخرى جديرة بالذكر وهى أن ملاطفة خروشوف للغرب قد ترجع إلى خوفه من الصين فهو لا يستطيع أن يكون تحت رحمة ماوتسى تونج فى يوم من الأيام لذلك فإن علاقته الطيبة مع الغرب ستحفظ له خط الرجعة . وهذا الأمر هو ما يدعو إلى المطالبة بعقد مؤتمر للأقطاب .

وفى معظم الأحيان يعمل خروشوف على تذليل صعوباته مع الصين الشيوعية ويذكر أن الاختلافات فى رأى لا قيمة لها . وقد قال أخيراً من المستحيل قيادة جميع الدول الاشتراكية والأحزاب الشيوعية من مركز واحد . وأهم من ذلك إن هذا العمل غير ضرورى ، وهو يرفض أن يقيد نفسه بأى نقد يوجه إلى الصين من جانب يوغوسلافيا مثلاً ، وفى نفس الوقت يحذر ماوتسى تونج من أن « الصين لا يمكن أن تقف وحدها أمام العالم الرأسمالى » .

حدث ذلك كله فى مؤتمر حزب العمال برومانيا فى بوخارست

في شهر يونية من عام ١٩٦٠ الذي حضره بينج تشين عمدة بكين وعضو المكتب السياسي في جمهورية الصين الشعبية كما حضره كثير من الزعماء الأوربيين أمثال كادار وألبريخت وجومولكا . وقد أيد الثلاثة الآخرون خروشوف تأييداً كاملاً في سياسته التعايش السلمي واتفقوا معه على أن الحرب العالمية الجديدة ستكون ضرباً من الجنون بل إنهم رحبوا به عندما قال إن بعض مبادئ لينين قد أصبحت عتيقة ويجب تفسيرها على ضوء ظروف العالم الحديث . .

وقد أنصت إليه الصينيون بامعان ولم يتحدثوا طويلاً . . . عندئذ ظهرت علامات التوتر ، ورددت الأنباء أن الخبراء الفنيين الروس على وشك مغادرة الصين وانبرت الصحف الصينية الهامة تقول إنه يجب عدم الخروج عن مبادئ لينين الأساسية في جميع الظروف وأن الحروب ضد الاستعمار لها ما يبررها وإنه لا يمكن أن يقوم السلام إلا بالقضاء على النظام الرأسمالي في كل مكان من العالم . وتراجع الصينيون بعد ذلك وكأنهم شعروا بالتمادي في الهجوم .

وفي يوم ٢٢ من أكتوبر أرسل زعماء الصين الأربعة — ماوتسي تونج وليوتشاوتشي رئيس الجمهورية وشواين لاي رئيس الوزراء والمارشال تشوتيه — أرسلوا برقية جماعية إلى خروشوف وصفوا فيها الاتحاد السوفيتي بأنه « زعيم العالم الشيوعي ومصدر الوحي » وأكدوا تضامن الدولتين الشيوعيتين أي روسيا والصين .

وانعقد بعد ذلك مؤتمراً لاقطاب الشيوعية في موسكو في شهر

نوفمبر عام ١٩٦٠ ، وقد حصره ممثلوا الأحزاب الشيوعية وكان عددهم لا يقل عن ٨١ عضوا . وقد عقدت الجلسات في سرية تامة ودامت ثلاثة أسابيع . وقد حضر ١٢ ممثلا من ممثلي الدول الشيوعية في العالم عددها ١٣ وكان المفروض أنهم تحدثوا نيابة عن أعضاء الحزب الشيوعي في جميع أنحاء العالم والبالغ عددهم ٣٦ مليون عضو . وكان ليوتشاوتش رئيس جمهورية الصين هو ممثل الصين . وكانت النتيجة هي التراجع .

رأي دييجول في خروشوف

عندما قام الرئيس شارل دييجول بزيارة نيويورك في أبريل سنة ١٩٦٠ جرى الحديث التالي في مؤتمر صحفي :

س - سيدي الرئيس هناك سؤال جوهرى وهو هل تعتبرون خروشوف رجلا حسن النية أم أن ذلك لا أهمية له ؟

ج - لقد سنحت لى أخيراً فرصة الاتصال الشخصى مرات عديدة بالرئيس خروشوف عندما كان فى فرنسا . ولقد تحدثنا كثيراً على نطاق واسع فى جميع الموضوعات التى تهم العالم فى الصميم فى الوقت الحاضر . وإذا أردت أن تعرف الفكرة التى كوتتها من هذه الاتصالات فقد بدا لى أن مستر خروشوف شخصية قوية . إنه رجل حارب طيلة حياته من أجل أفكاره وقد كان لهذا الكفاح أثره عليه .

والواقع أنى أعتقد أنه وهو فى المستوى الذى وصل اليه يدرك تماماً

أن مشاكل العالم ربما كانت أقل بساطة مما يظن الانسان عندما يفكر فيها الانسان من وجهة نظر واحدة . وفضلا عن ذلك فهو رجل واسع الخبرة بالمشاكل الجارية مطلع تماما على أحوال الناس وشؤونها . وباختصار . . فاني لا أظن أن الاتحاد السوفيتي يمكن أن يمثله رجل يستطيع أن يفضل خروشوف في التعبير عن روسيا اليوم التي تختلف في رأيي — وهذا هو رأي أنا عن روسيا بالأمس أو حتى عن روسيا منذ عشر سنين .

الحزب الشيوعي والقيادة الجماعية والخلافة

من بين الحكام والاتباع الذين أحاطوا بستاين منذ خمس وعشرين سنة هناك شخص واحد لا يزال يحتل مركزا هاما اليوم هو أناستاس ميكويان ذلك الرجل العنيد الذي لا يحيد عن مبدئه وهو لا يزال نائبا أول لرئيس الحكومة . وهو أرمني ولد في سنة ١٨٩٥ وقد زار الولايات المتحدة ١٩٥٩ ليمهد الطريق لرحلة خروشوف . وهو يحتل مكانة عالية في كل من مجلسي الحكومة والحزب ولكنه في نظر معظم الناس لا يمكن أن يخلف خروشوف مهما كان حب خروشوف له وإعجابه به للأسباب الآتية :

أولا : أنه طاعن في السن .

ثانياً : إن اهتماماته على جانب كبير من التخصص .

ثالثاً : وقبل كل شيء فهو أرمني . فالاتحاد السوفيتي اليوم لا يقبل

أن يكون رئيس وزرائه أرمنياً تماماً كما يأبى الاسرائيليون أن يكون رئيس وزراءهم عربياً وكما يأبى أهالي جنوب أفريقيا أن يكون رئيس وزراءهم من الزولو والعراة . هذا بالرغم من أن ستالين نفسه كان من ولاية جورجيا ورغم أن الحكومة تتظاهر دائماً بفكرة المساواة بين جميع الجمهوريات المكونة للاتحاد السوفيتي .

وهناك ثلاثة آخرون من المحاربين القدماء ولكنهم ليسوا على جانب كبير من الأهمية وهم كليمنت فوروشيلوف وزير الدفاع السابق وقد جاوز الثمانين من عمره ولا يتمتع بصحة جيدة وقد حل محله أخيراً في رئاسة مجلس السوفييت الأعلى (وهو الرئيس الاسمي للبلاد) في يونية سنة ١٩٦٠ ليونيد برزنيف ذلك النجم الصاعد في سرعة لاتعرف التدرج . أما ثاني هؤلاء الندامى فهو أوتوكوزينين وقد ولد في سنة ١٨٨١ وهو شيوعي فنلندي يضع النظريات الجديدة في الشيوعية كما يتمتع بمكانة عالية مهيمنة رغم شيخوخته . وثالثهم هو نيكولاى شفرنيك وقد كان رئيساً للمجلس السوفيتي الأعلى قبل فوروشيلوف وقد بنيت حياته تقريباً على نشاط النقابات وقد ولد في سنة ١٨٨٨ وقد انضم للبلشفيين عندما كان في السابعة عشرة من عمره وكان يشتغل عاملاً في مصنع لاستخلاص المعادن من خاماتها واعدادها للاستعمال . ثم أصبح بعد سنوات عديدة العضو الوحيد المهم في الاتحاد العام لمجلس النقابات العمالية الذي نجا من حركات التطهير التي قام بها ستالين . أما جميع أنصاف الآلهة الآخرين المعاصرين لستالين فقد ماتوا أو جردوا تماماً من السلطة باستثناء مولوتوف الذي يبلغ السبعين

من عمره وقد نقل أخيراً من منصبه ن منغوليا الخارجية إلى فينا حيث يعمل كممثل للسوفيت في المنظمة الدولية للطاقة الذرية. أما كاجانوفيتش الذى كان اليهودى الوحيد فى المكتب السياسى للحزب طوال سنوات عديدة فهو يعيش الآن « متقاعدًا » فى مكان ما كما يفعل زوكوف . ويعمل مالنكوف مديراً لحدى محطات توليد الكهرباء فى أوست كامنجورسك بكازاكستان التى تبعد عن موسكو بآلاف عديدة من الأميال ، ولو أعدت قائمة بالزعماء البلشفيين منذ ربع قرن لشمات تروتسكى وزينوفيف وكاميف وسميرنوف وأوردزنيكيزى وزدانوف الذى كان يعد نفسه لينخاف ستالين ، كما كان هناك رجال عسكريون مثل الماريشال توكاشفسكى المشهور .

ولم يمت من بين هؤلاء جميعاً ميتة طبيعية إلا زدانوف وربما كانت وفاته ليست طبيعية تماماً .

أما الباقون جميعاً فقد اعدموا على أثر محاكمات الحياة المعروفة عامى ٩٣٦ . و ١٩٣٧ أو استبعدوا فى حركات التطهير أو اغتيلوا بطريقة أخرى كما حدث لتروتسكى .

وربما كان من أهم الزعماء اليوم وأكثرهم اثارة للاهتمام فرول كوزلوف وأليكس كوزيجين وليونيد بريزنيف وفى قائمة أخرى ميخائيل سوسلوف ، أما الثلاثة الأول فهم من رجال خروشوف قلباً وقالباً وكوزلوف رجل قد جاوز الخمسين من عمره بقليل ، وكان يشتغل عامل نسيج كما كان - بالإضافة إلى أعماله الأخرى - رئيس للحزب فى ليننجراد

ووزيراً لمزارع الدولة ورئيساً لمكتب الحزب في الجمهورية الروسية الاشتراكية المتحدة .

وهو يمتاز بنشاطه ورقته وتفكيره العملي وقد أخرجه خروشوف من دائرة الحكومة في حركة التنظيم الحزبية التي حدثت في شهر يونية الماضي وأعطاه منصباً قيادياً في الحزب وربما كان ذلك ليزيد من خبرته وهو يعمل الآن سكرتيراً للجنة المركزية في الحزب الشيوعي السوفييتي وقد قام كوزلوف بزيارة الولايات المتحدة سنة ١٩٥٩ كما فعل ميكويان وكانت زيارة نيكسون نائب رئيس الولايات المتحدة لموسكو رداً على زيارة كوزلوف ، وقد أخبر خروشوف أفريل هاريمان أخيراً بأنه قد اختار كوزلوف خليفة له.

وقد ولد كوزيجين عام ١٩٠٥ وهو رجل عملي ومواطن كفء وأصبح عضواً في مجلس الوزراء في عهد ستالين وهو لم يبلغ بعد الواحد والأربعين من عمره ، وقد اشتغل عمدة لليننجراد فترة من الزمن كما كان في وقت ما وزيراً للنسوجات والصناعة الخفيفة والمالية - كما كان أيضاً مثل كوزلوف رئيساً لمكتب الحزب في الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية المتحدة ، وكان التخطيط دائماً مثار اهتمامه الرئيسي فقد كان من أهم الأعضاء التنفيذيين في لجنة التخطيط التابعة للدولة التي تتولى إدارة مشروع جوسيلان ، وفي عام ١٩٦٠ نقل كوزيجين ليحل محل كوزلوف في منصب النائب الأول لرئيس الوزراء . وهناك نظرية تقول أنه حدث شيء لخروشوف فسوف يحاول هذان الرجلان أن يحل محله في إدارة دفة الحكم وذلك بأن يكون كوزلوف مسئولاً عن شئون الحزب وكوزيجين رئيساً للوزراء .

وثمة شخص آخر جدير بالذكر وهو أيوسف كوزمين أحد أعضاء «الارستقراطية الفتية» ، أيضاً مثل كوزيجين وهو بيروقراطي نشأ من طبقة المديرين الجديدة ، ولد هذا الرجل عام ١٩١٠ واشتغل ميكانيكياً ثم أصبح مهندساً ، ثم رقى فصار مديراً لمشروع جوسبلان وكان أول رجل في تاريخ السوفييت يعين نائباً لرئيس الوزراء قبل أن يصبح عضواً في المجلس الأعلى للحزب الشيوعي .

كما أن هناك نجماً آخر صاعداً وهو الشاب ديمتري بوليافسكى الذى ولد عام ١٩١٧ وقد أصبح الرئيس الجديد لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، وقد حدثت تنقلات عديدة مثيرة للاهتمام في التعديلات التى تمت عامى ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ فقد استبعد اثنان كانا يساعدان خروشوف مدة طويلة من المجلس الأعلى للحزب وهما نيكولاى بيايف واليكس كيريشنكو الذى ظل حاكماً لأكراينا مدة طويلة .

كما نقلت صديقة أخرى لخروشوف وهى «يكاترينا فورتسيفا» من سكرتيرية الحزب إلى الحكومة كوزيرة للثقافة . وهى أهم الأعضاء من النساء فى الحكومة . وكذلك فهناك سكرتير آخر للحزب وهو آفركى آريستوف نقل إلى الخارج سفيراً فى بولندا وقد أنزل آخرون ممن كانوا يشغلون مناصب عالية مثل نيكولاى اجتافوف ويوتربوسيلوف ذلك المشرع العنيف ذو المكانة المحترمة . أما الآن فهناك خمسة سكرتيرون فقط للحزب هم كوزينين وكوزلوف وبرزنيف وموسلوف ونوريتوين موكتدينوف ، وهو أذربكستانى ومن المثالين

القلائل للقوميات « الجديدة » الذين يتمتعون بحقوق العضوية الكاملة في المجلس الأعلى للحزب .

وكان بريزنيف رئيس الجمهورية السوفيتي الحالي رئيساً لجمهورية كازافستان بضع سنوات على الرغم من أنه ولد في عام (١٩٠٤) في « مولدوفيا » ، بالقرب من الحدود الرومانية في الطرف الأقصى للاتحاد السوفيتي وظل طيلة حياته من اخصائي الحرب كما ظل عضواً في المجلس السوفيتي الأعلى منذ شهر يونية عام ١٩٥٧ . وهو رجل صلب قدير ومن المتصلين بمستر خروشوف .

وجدير بنا أن نذكر أيضاً أسماء بعض الشخصيات التي تقوم بدورها في الدائرة الداخلية مثل جورج أ . وكزوف المراسل السابق لصحيفة « البرافدا » ، الذي أصبح يتولى قسم العلاقات الثقافية في الخارج وهو في مرتبة وزير (والواقع أن مجلس الوزراء السوفيتي معقد إذ أنه يفهم ما لا يقل عن ٦٥ عضواً) ، و أ . ن . شبلاين الرئيس السابق رئيس لجنة أمن الدولة الحالي أي أنه رئيس جيل جديد من ضباط البوليس ، وأليكسي أدزوبي رئيس تحرير صحيفة أزفستيا وزوج ابنة خروشوف وهو لا يكاد يفارق حماه .

وأخيراً نذكر سوسلوف الذي يختلف عن أي شخص آخر في هذه القائمة فهو أولاً من أصحاب النظريات القديمة الذين لم يتولوا أية وظيفة حكومية وثانياً أنه آخر المخلصين لستالين على قيد الحياة من بين الأشخاص الذين يتولون مناصب هامة وكان أبوه فلاحاً ونشأ هو بالأسلوب التقليدي عن طريق الكومسموك ثم انضم إلى الحزب منذ

عام ١٩٢١ (ويتميز سوسلوف بصلافة عقلية وتعبه وعناده وبأنه من المثقفين وظل دائماً من المتخصصين في الدعاية فقد كان منذ عهد قريب مديراً لجهاز الدعاية السوفيتي وكان رئيساً لتحرير صحيفة «البرافدا» وهو يمثل الجناح الأيمن . وعلى الرغم من عدم شعبيته وعدم تمتعه بأية جاذبية سياسية وعدم خبرته في المناورات الحكومية فالمعتقد أنه مرشح قوى لسكرتيرية الحزب (وربما كان خروشوف لا يزال يحتفظ به لأنه يقوم بدور كبير مع أعضاء الحزب القدامى والبيروقراطيين الذين كانوا يؤيدون ستالين والذين ما زالوا على قيد الحياة رغم أنه يختلف معه في كثير من المسائل .

وعندما يوجه أى سؤال إلى خروشوف عن رجاله فإنه يتجنب الإجابة عن الأسئلة . وقد سأله أحد الصحفيين خلال زيارته لنيويورك « من الذى يدير المتجر ، أثناء غيابه عن روسيا ، فأجاب قائلاً : « أحفادى — نيكيتا واليكسى وحفيدى الثالث الذى هو نيكيتا أيضاً ، . لا شك فى أن خروشوف هو الذى يحكم الاتحاد السوفيتى اليوم ولكن جدير بنا أن نشير إلى أن الحكومة ما زالت تضم أعضاء متساوين فى المرتبة . فخروشوف هو المسيطر ولكنه يسيطر بعد الاستشارة فلا شك فى أنه — فى التحليل الأخير — مسئول أمام هيئة تتمتع بالسلطة أى أمام أعضاء اللجنة المركزية للحزب البالغ عددهم ١٣٥ عضواً ومجلسها الأعلى (ويضم ١٤ عضواً ثابتاً و ٧ أعضاء بالتناوب) وهو يستطيع أن يخدع الحزب ويسخر منه ويدفعه إلى عمل أشياء لا يريد كما أنه يقوم بمناورات دقيقة قوية داخل الحزب

ولكنه لا يستطيع أن يتجاهله ، إن المستبدين لا يتركون عرشهم أبداً
ولذلك فإن ستالين لم يغادر روسيا إلا مرة واحدة أو مرتين في خلال
حكمه الذي دام ثلاثين عاماً ، أما خروشوف فإنه يسافر إلى أبعد
الأماكن دون خوف ولا يمكن تفسير ذلك إلا على أنه لا يخشى على
منصبه .

وقد وافق الصينيون على موقف خروشوف من التعايش السلمي
ومبدئه القائل بأن الحرب بين الشيوعية والغرب أمر لا بد منه ومقابل
ذلك فقد أصدر الروس بياناً تتوقف أهميته على تفسيره في المستقبل .
وجاء في هذا البيان أنهم سيمضون بقوة ودون تردد في اصرارهم على
القيام بكل ما في وسعهم - باستثناء الحرب - لتعجيل من سرعة الثورة
وقد فسرت موسكو ذلك بأنه انتصار لخروشوف . ولكنه على أية
حال فقد تجنب تدهور علاقات روسيا مع الصين ولا يزال الموقف
حالياً كما كان في ذلك الوقت .

يوغوسلافيا

ودولة يوغوسلافيا التي تضم ١٨ مليون نسمة وتقل مساحتها عن
كولورادو أطلق عليها ثلاثة أسماء منذ تأسيسها في عام ١٩١٩ . ومن
بين مؤسسيها دودرو وياسون . وكان يطلق على يوغوسلافيا في أول
الأمم مملكة الصرب والكردانيين والسلاف ، وفي عام ١٩٢٩
استبدل هذا الاسم بـ « مملكة يوغوسلافيا » ، وفي عام ١٩٤٥ أسست
في عهد تيتو جمهورية يوغوسلافيا الشعبية الاتحادية ، والجهاز

الحكوى فى يوغوسلافيا — كما هو الحال فى الاتحاد السوفيتى —
 فيدرالى يتألف من ستة جمهوريات شعبية — الصرب ، وكرواتيا ،
 والسلاف ، وبشنة ، وهيرزجوفينا ، ومقدونيا ، ومونتيجرو .
 وحقيقة الأمر هو أن يوغوسلافيا على الرغم من مقاطعتها الشهيرة
 للكرملين فإنها تشبه إلى حد كبير روسيا نفسها أكثر من أى دولة
 تابعة أخرى . ويعتبر السلاف عنصراً أساسياً فى يوغوسلافيا وهى
 تشترك فى سماتها مع الألبان والمجر والأتراك . ويمتاز شعبها بالنشاط
 وشدة العضلات والرغبة الجارحة . وقام اليوغوسلافيون بمقاومتهم
 الحرية فى الحرب العالمية الثانية ولم يحصلوا إلا على مساعدة قليلة من
 السوفيت . ومن الغريب أن جيش يوغوسلافية . القوى يضم عدداً
 كبيراً من النساء ، وهو الجيش الوحيد فى العالم الذى يفعل ذلك فيما
 عدا إسرائيل حيث أن جيشها يحتوى على بعض القوات النسائية .

والمارشال تيتو بالطبع هو الرئيس الكبير . ومنذ أن رأته فى عام
 ١٩٦٠ لأول مرة بعد مضى اثنى عشر عاماً على اجتماعى به فى زغرب
 بدالى وكأنه أصغر سناً — عيانان براقتان ، ووجه ينم عن الصحة
 والقوة ، ومرح وشباب وأسنان ناصعة البياض ، وشعره لم يتخلله
 إلا قليل من الشيب . ومنذ أن أنشئت الدولة كان رئيساً لكل من
 الجمهورية والمجلس التنفيذى الفيدرالى ، وكان سكرتيراً عاماً (لاتحاد
 يوغوسلافيا الشيوعية) لعدة أعوام وعلى هذا فإنه يعتبر رئيس الدولة،
 والحكومة والحزب والآخر هو أقوى الهيئات نفوذاً . وقد يكون
 تيتو قد اختلف مع الكرملين حول مسائل معينة ، ولكن علينا

ألا ننسى أنه كان شيوعياً أولاً وأخيراً ولكنه يعتبر شيوعياً « أفضل » ، من خروشوف . فقد حقق أهدافاً ضخمة من بينها إنهاء النزاع بين الصرب وكرواتيا الذى كان يسبب متاعب كثيرة في يوغوسلافيا خلال الأربعين عاماً الأولى وكذلك قضى الرئيس تيتو على الميول الانفصالية القديمة من جانب المقدونيين واللبلاشين والبوشنيين (ومعظمهم من المسلمين) والجبليين الثائرين في مونتيجرو .

أنا جميعاً نعرف — جيداً — تاريخ حياة الرئيس تيتو ، وعلى ذلك يمكننا أن نتحدث عنها باختصار . فهو من أصل « كراواني » ولد بالقرب من « زغرب » ، في ٢٥ من مايو عام ١٨٩٢ وسمى جوزيف بروزوفيك ثم اختصرت الكلمة الثانية فيما بعد إلى بروز فقط . وبعد ذلك بعدة أعوام أطلق على نفسه « اسم الثورة » ، تيتو ، وليس هناك شك في أنه قد اختار هذا الاسم عن طريق الصدفة ، أو لأنه اسم بسيط وقوى ومن السهل على الفرد أن يتذكره .

وهناك نظريات كثيرة تفسر اختيار هذا الاسم . ومن بينها أنه أطلق على نفسه هذا الاسم تيمناً باسم تيتوس الامبراطور الرومانى أو تيمنا باسم القديس تيتوس وهو راهب بلقانى .

وهناك نظرية أخرى تقول أن حروف الاسم ترمز إلى « المنظمة الارهابية الدولية السرية » ، وأخرى تقول إن رنين كلمة « تيتو » ، تشبه رنين الكلمات اليوغوسلافية « أنت » ، و « بفعل » ، وقد ظهرت أسطورة تقول أنه عند ما أعطى تيتو الأوامر في العهود القديمة ، تعود أتباعه على مناداته بعبارة مشابهة .

وكان تيتو واحداً من بين أربعة عشر أخاً وأختاً ، وقد مات منهم ثمانية في سن الطفولة ، وكان هذا دافعاً قوياً للقيام بثورة وكان يعمل صديقاً في مصنع لصنع الأقفال . وبعد فترة قصيرة حاول السفر إلى فيينا حيث درس في الجامعة . وتطوع في الجيش المجري النمساوي أثناء الحرب العالمية الأولى لمدة طويلة وبعد ذلك اعتقله الروس ، وكان تيتو شيعياً قبل ذلك ، إلا أن إقامته في الاتحاد السوفيتي قد أكدت معتقداته وتعلم نظريات الحزب الشيوعي ووسائله في موسكو ، ولم يعد إلى يوغوسلافيا إلا في عام ١٩٢٣ .

وعندما أصبح سكرتيراً لنقابة العمال في بلغراد ، حكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات بسبب ممارسته نشاطاً سرياً ، وبعد ذلك أصبح قائداً كبيراً في إحدى فرق العصابات أثناء الحرب العالمية الثانية ، ونظم تيتو حركة لتحرير وطنه تولى هو رئاستها وتخلص تدريجياً من خصومه مثل الجنرال «دراجا ميلهيلوفيك» الذي وجهت إليه تهمة التعاون مع النازيين .

ولم يكن تيتو ليصل إلى هذا المنصب لولا ونستون تشرشل الذي أرسل ابنه راندولف وبعض العملاء البريطانيين ليقوموا باتصالات سرية مع تيتو خلال أعنف مرحلة من مراحل المقاومة ضد الألمان الغزاة .

وفي مخاطرة جسيمة أنزل راندولف بالبراشوت في إقليم تيتو . وأدرك تشرشل الأكبر - على الفور - أن تيتو هو الشخص الوحيد

له أهمية كبيرة في يوغوسلافيا واجتمع به في نابلي في ظروف حاسمة .
وقد أعجب به وأيده إلى أقصى حد .

وبعد الحرب أدى نفوذ تشرشل الكبير إلى اعتراف الحلفاء بحكومة
تيتو حتى إذا كان هذا سيعنى نهاية الملك بيتر الثاني ، ولم يتخذ تشرشل
موقفاً معادياً للملك من قبل ، ولكن هذه الظروف تعد ظرفاً خاصة
إلى حد كبير .

ومن بين صفات تيتو البارزة — منذ أن قوى نفوذه — هو أنه
يبدو دائماً أنيقاً ، وفي بعض الأحيان يرتدى زياً رسمياً مزركشاً وليس
هناك شك في أنه يعوض أيام الفقر المدقع الذي كان يقاسيه في صغره
حتى لا يقول شيئاً عن أيامه المؤلمة عندما كان يزاول نشاطه سرّاً .

ولم تتغير شخصيته كثيراً بمرور الزمن ، وأنه ما زال رجلاً غوراً ،
صلياً له تصرفاته الصيانية ، صبوراً ، وقبل كل شيء فهو رجل مقدم
شجاع .

وقد أعلن عن الشقاق اليوغوسلافي مع الكرملين يوم ٢٨ من يونية
عام ١٩٤٨ ، وبعد مضي شهور مريرة من التوتر — وكان ستالين بالطبع
لا يزال حياً — حدث الانفصال . واهتمت موسكو تيتو وأتباعه بمختلف
صفات الإهمال ، وبعد تبادل الرسائل الجافة والشديدة اللهجة طردوا
من الكومنفورم .

ومن المهم أن نتذكر في هذه الأيام أن اليوغوسلافين بذلوا قصارى
جهودهم حتى لا يطردون من الكومنفورم ، وأن الرسائل التي كانت

تبعث إلى موسكو بعيدة كل البعد عن الإصرار والعناد ، وفي أول الأمر كانت تنقسم بالهدوء . وحاول اليوغوسلافيين عدة مرات إظهار ولائهم القوى المتحدة من الشيوعية والاتحاد السوفيتي . ولكنهم رفضوا التراجع عن « كفرهم » ، وأعلن تيتو عن وجهة نظره — بصراحة .

إن احتياجات دولية وقومية قد أرغمت اليوغوسلافيين على تطوير الاشتراكية في بلادهم إلى « نوع مختلف بعض الشيء » عن الاشتراكية المتبعة في الاتحاد السوفيتي .

والشيء الجدير بالاهتمام هو أن خروشوف بعد مضي اثني عشر عاما — وهو يواجه الصينيين وجها لوجه — قد وافق على هذا المبدأ وتبناه بحماس بالغ . وقد أصبح خروشوف نفسه من « مقتنعي مذهب تيتو إلى حد بعيد ، مهما أدى إلى غضب بكين الشديد إزاء خروشوف .

وحقيقة الأمر ، فإن خروشوف كان يقف دائماً إلى جانب تيتو على الرغم من أنه لم يصرح بذلك في عهد ستالين . . .

ولكن بمجرد أن أعتلى السلطة ، ودعم مركزه بدأ في مفاوضات الصلح مع يوغوسلافيا التي تعرضت في ذلك الوقت لاهانات بالغة من جانب السوفييت . وسافر خروشوف وبولجانين وميكويان إلى بلغراد عام ١٩٥٥ ، ووقعت هناك معاهدة هدنة .

وقام ديكتاتور يوغوسلافيا بزيارة إلى موسكو في يونيو عام ١٩٥٦ ، وأصدر تيتو وخروشوف بلاغا مشتركا ، يوضح أنه من الممكن لمختلف الدول أن تسلك « طرقا مختلفة للاشتراكية » . . . ومنذ ذلك الوقت

كانت العلاقات السوفيتية اليوغوسلافية « متارجحة » كما يتضح من الوثائق الرسمية . وبطريقة أخرى بسيطة يمكننا أن نعبر عن هذا بأن نقول . مستر تيتو ومستر خروشوف قد تعانقا ، وانفصلا ثم عادا إلى نفس الوضع عدة مرات .

وبعد ثورة المجر وانقلاب جومولكا في أكتوبر عام ١٩٥٦ تدهورت علاقاتهما . ففي الحقيقة اتهمت روسيا اليوغوسلافين بأنهم مسئولون عما حدث من اضطرابات في المجر . ومنع الكرملين القروض عن يوغوسلافيا ، وبمعنى آخر حاول الكرملين معاقبة اليوغوسلافين . وبعد ذلك اجتمع خروشوف وتيتو مرة أخرى في رومانيا عام ١٩٥٧ واستأنفا تعاونهما . . ثم حدث شقاق آخر ، ورفض تيتو حضور الاحتفال بالذكرى السنوية للثورة البلشفية في موسكو . . وانتقاما لهذا قاطعت روسيا وادول التابعة المخلصة ، يوغوسلافيا واستؤنفت من جديد الإهانات والشتائم .

وفي أكتوبر عام ١٩٦٠ أجرى خروشوف وتيتو محادثات ودية في دورة الأمم المتحدة بنيويورك ونتيجة لهذا أعلن تيتو أن بلغراد وموسكو لهما آراء متقاربة بالنسبة لمعظم المشكلات الهامة في الوقت الحاضر . وصرح خروشوف لأحد الصحفيين بقوله : « ان يوغوسلافيا دولة محايدة ولكنني أعتقد أنها ستعارب إلى جانب السوفييت إذا ما هوجم الاتحاد السوفيتي ،

ونتيجة لهذه العلاقات المستمرة أخذ تيتو يتقرب إلى الدول المحايدة الأخرى ، فانام علاقات وثيقة مع ناصر ونهرو وسوكارنوف و قام

برحلتين طويلتين إلى دول أفريقية وآسيا غير المنحازة ، فزار بورما وأثيوبيا وسيلان والهند والجمهورية العربية المتحدة وأندونيسيا . ويعتقد أن المعونات للدول غير المنحازة ضرورية ، ويتفق مع مستر نهرو في أن التطور المنظم للدول المتخلفة يشكل أعظم مشكلة فردية في العالم اليوم بعد نزع السلاح .

ويبدو أن الولايات المتحدة لا تنظر إلى تيتو نظرة جدية وأنها استغلت موقفه الحيادي لمصلحتها أو أنها انتهجت سياسة تجاه اليوغوسلافيين تنسم بالحرص أو المهارة . وكان المفهوم — بصفة عامة — أن الماريشال سوف يدعى لزيارة الولايات المتحدة بعد تسوية النزاع حول تريستا مع إيطاليا ولكن لم توجه له أية دعوة . وفي أكتوبر عام ١٩٦٠ مكث تيتو عدة أسابيع في نيويورك ، ولكن الرئيس أيزنهاور لم يوجه إليه الدعوة لزيارة واشنطن .

ومن ناحية أخرى يجب أن نشير إلى أن الولايات المتحدة قد منحت يوغوسلافيا أكثر من بليون دولار في صورة معونات اقتصادية منذ أن انشقت على الكومنغورم ، وسوف يبدأ عهد من العلاقات السياسية المثمرة ، نتيجة لتعيين جورج كينان كسفير للولايات المتحدة في يوغوسلافيا من قبل حكومة كنيدي .



ويبلغ تيتو الآن من العمر ٦٨ عاماً ، ومع أن صحته لا يمكن أن تكون أحسن مما هي عليه الآن ، إلا أن المسألة الخاصة بمن يخلفه في الحكم يجب مواجهتها . والشخص المرشح لأن يخلف تيتو هو ديفارد كارديلج وهو من « السلاف » ، ويبلغ من العمر خمسين عاماً . وقد ظل عدة سنوات المشرع الأول للحزب الشيوعي اليوغوسلافي ، وهو ليس محبوباً بصفة خاصة ، ولكن كفاءته تلقى احتراماً عاماً .

وكارديلج في الوقت الحاضر يتولى منصب نائب رئيس المجلس التنفيذي الفيدرالي ، وهو عضو في اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي اليوغوسلافي ، وسكرتير عام التحالف الاشتراكي - كما تسمى منظمة الجبهة الجماعية للحزب . وظل عدة سنوات وزيراً للخارجية . وكارديلج « يعرج » ، في مشيته .

وهناك شخص آخر يتمتع بنفوز كبير وهو الجنرال الكسندر رانكوفيل ويبلغ من العمر ٥٥ عاماً . وكان من الانتصار السابقين الذين حاربوا إلى جانب تيتو (مثل كارديلج) . وقد تولى منصب وزير الداخلية لعدة سنوات . وقد قتل أبوه وأمه على يد الجستابو خلال الاحتلال الألماني .

والشخص الثالث المعروف هو ميلوفان جيلاس . وقد حارب إلى جانب الماسكين في الحرب الأهلية الإسبانية ونتيجة لذلك أصبح أحد الأشخاص المقربين إلى تيتو .

ولكن جيلاس - وهو شخص متحمس - ظل يعرض نفسه

للتعاب بسبب انحرافات المذهبية . وفي عام ١٩٥٩ ألقى القبض عليه
وقدم للمحاكمة . وأرسل إلى السجن . وأثناء سجنه ألف كتابا بعنوان
« الطبقة الجديدة » الذي وصف فيه الحكومة اليوغوسلافية بأنها
حكومة استبدادية جماعية . ونتيجة لهذا زادت مدة سجنه ثم أطلق
سراحه في عام ١٩٦١ .

الخاتمة ...

وأخيراً لكي نختتم هذا الفصل الطويل يجب أن نعود إلى الاتحاد السوفيتي نفسه . وبجمل القول فإن جوهر السياسة الخارجية السوفيتية في عهد خروشوف بسيطة للغاية . ومن المؤكد أن الروس لا يريدون الحرب لأنهم قد يخسرونها ، وبالطبع فإنه في حالة حدوث حرب ذرية سيعاني الروس خسارة جسيمة و كارثة كبرى ، وأن التصنيع الذي يعتبر من بين الأهداف الرئيسية التي حققها الروس سوف تتدهور عدة أعوام إلى الوراء .

أما الذي يريده الروس بالفعل هو « كسب العالم بدون حرب » . وعلى هذا الأساس نشأت سياسة التعايش « السلمي » ولم تقم هذه النظرية على أساس الرغبة الصادقة في السلام من أجل السلام نفسه فحسب بل أنها تعتمد أيضاً على أن العالم يعطى لهم الفرصة الطيبة من أجل متابعة أهدافهم البعيدة المدى .. ولا يعنى التعايش السلمى — كما جاء في الكلمات الرسمية للبيان الذي صدر في ديسمبر عام ١٩٦٠ بعد مؤتمر الدول الشيوعية في موسكو — لا يعنى التوفيق بين النظريات الفلسفية ، بل على العكس فإن كلمات هذا البيان تتضمن مضاعفة الكفاح الذي تقوم به الطبقة العاملة من أجل انتصار الأفكار الاشتراكية حيث أنها تقوم على أساس التنافس .

وحتى مستر خروشوف نفسه قد قال : إن التعايش السلمي
يحول للاتحاد السوفيتي « الحق في أن يجعل الدول الرأسمالية تتلوى
مثل السمكة في القلاة » ، ومع أن هذه الملاحظة ربما لا تعدو تعبيراً
عن شجاعة مظهرية واسرافاً في المبالغة

وليس من البساطة تلخيص السياسة الأمريكية — كما هي عليه الآن
أو كما ينبغي أن تكون — لاشك أننا نريد السلام كما يريده الروس ،
وفضلاً عن ذلك فإننا مستعدون لاتخاذ الإجراءات المعقولة للوصول
إلى حل وسط .. ومع ذلك فإن الولايات المتحدة ، تجد نفسها غالباً —
وكذلك العالم الغربي — أيضاً — في موقف شديد الحرج .

وقد تقدمنا بسياسات عدة . فقد طبقنا سياسة الاحتواء ولكن
يتعذر علينا أن نقول بأنها نجحت نظراً للتوسع المنتظم لسلطان روسيا
ونفوذها مثلما هو حادث في أفريقيا وآسيا .

أما التجربة الثانية فكانت سياسة « الانتقام على نطاق واسع » .
فإن أمريكا لا تزال تملك قوة ضخمة مذهلة ، وقدرة على الانتقام
إذا لزم الأمر ، ولكن هذه السياسة كان يجب أن تتبخر عندما أصبح
واضحاً أن الاتحاد السوفيتي على قدم المساواة ، معنا في قوته النووية —
إن لم يكن أقوى منا — فهل يعنى هذا أننا مضطرون الآن لملاقاة
الروس في الميدان الذي يختارونه ، والدخول في المباراة طبقاً لقواعدهم ؟
هل نكون مجرد سمكة في مقلاة ؟ .. بالطبع لا ..

إن المشكلة الحاسمة بالنسبة للعالم الغربي هي كيفية إمكان التعايش

مع الاتحاد السوفييتى دون تخاذل أو مهادنة ، وعتدا اتفاق دون تسليم ..
 إذ يجب أن نعمل وتنافسهم ثم نتصر ، وهذا معناه أن نحافظ على عالمنا
 من التسقوط فى أيدي الاتحاد السوفييتى . كما يجب علينا أن ننظم
 هذا العالم نظاماً حسناً ، وأن نكون أكثر إخلاصاً له ، وهو ليس
 بالامر السهل نظراً لحيل الروس فى إثارة الاضطرابات والمراوغة
 والاستفزاز .

لا شك أن السلام أفضل من الحرب ، والانسجام أفضل
 من الشقاق ، والاتفاق خير من الفوضى ، والهدوء خير من الاضطراب .
 ولكن ليست هذه هى كل الأسباب التى يجب من أجلها على الولايات
 المتحدة أن تقبل تحدى الروس أيا كان مجال هذا التحدى ، ونحاول
 فى الوقت نفسه أن نحفظ بعلاقات سليمة إلى حد معقول . وإذا
 لم تتمكن من ذلك فسوف يعنى هذا أننا كنا نعلم — بهزيمتنا —
 وهذا ليس صحيحاً .

الختام

إننا نقرب من النهاية . وقد ناقشنا باختصار الاختلافات القائمة بين أوروبا اليوم وبين أوروبا منذ ربع قرن مضى ، وأمعنا النظر في الموقف السياسي المعاصر في جميع دول القارة .

إنني أشبه هذا الكتاب بالثوب ، ولذلك أقول : إنه بقي على الآن أن أشذب أطراف هذا الثوب وأجمع أجزائه لتكون وحدة واحدة .

أولا — أن معظم الزعماء الأوروبيين حالياً طاعنون في السن ، فأديناور يبلغ ٨٥ عاماً ، وديجول يبلغ ٧٠ عاماً ، وماكيلان يبلغ ٦٦ عاماً ، وجرونكي يبلغ ٧٣ عاماً ، وخروشوف ٦٦ عاماً .

والواقع أن هناك أسئلة قليلة أكثر أهمية من مجرد التساؤل عما يمكن أن يحدث في فرنسا إذا خرج ديغول من الحكم .

أما في بريطانيا والاتحاد السوفيتي فإن الموضوع قد لا يكون حيويًا إلى هذا الحد لأن النظام في كل من هاتين الدولتين سيسير دون حدوث أية اضطرابات أو حتى تغيير النظام المتبع .

والحقيقة الثابتة هي أن تغيير الزعماء في كل دولة من الدول الأوروبية الهامة شيء لا بد منه في خلال السنوات العشر القادمة أو ربما قريباً .

ثانياً — أن المشكلة الصعبة والعسيرة حقاً في أوروبا بعد مشكلة نزاع السلاح هي مشكلة برلين ومستقبل ألمانيا ، فلا بد للغرب من البقاء

في برلين لأسباب سبق توضيحها في الصفحات السابقة ، ولكن الشرق يريد أن يبعدنا عنها .

والواقع أن انقسام برلين إلى شطرين يرمز إلى انقسام أوروبا نفسها إلى شطرين . وتعكس برلين صورة مصغرة للحرب الكبرى كلها كما أنها أشبه بوضع تبلورت فيه حقيقة انقسام العالم بين الكتلتين .

ثالثا - أن التحالف الغربي يصاب بضربات قوية ولكنه يعود مرة أخرى كما كان من قبل ، والدليل على ذلك أزمة قناة السويس .

فديجول يريد تحقيق المزيد من النفوذ والقوة والمجد لفرنسا بينما يخاف أديناور من احتمال تغيير الولايات المتحدة وبريطانيا لموقفهما بالنسبة لألمانيا الغربية في ظروف معينة - من أجل تحقيق تسوية أوروبية عامة . ولكن لماذا يظل التحالف الغربي قائما ومتينا على الرغم من كل عوامل الانقسام هذه وغيرها أيضا ؟ . . .

وأساب ذلك تكمل بعضها البعض :

١ - أن غرب أوروبا لا يمكن أن يعيش في حال التعرض لهجوم سوفيتي - بدون مساعدة أمريكا له - وهذه المساعدة مازالت تقدم لأوروبا الآن .

٢ - سوف ينهار موقف أمريكا في صراعها أمام الاتحاد السوفيتي لو أنها فقدت غرب أوروبا ومن ثم فإنه من صالح دول الأطلنطي جميعا أن تتناسك وتراطل .

رابعاً — ما زالت الكتلتان تنتظمان كما يلي :

الولايات المتحدة وكندا والمملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا الغربية وأسبانيا والبرتغال وإيطاليا واليونان وتركيا وبنيلوكس والنرويج والدانمرك ضد الاتحاد السوفيتي والصين وبولندا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا وألبانيا .

وقد لا يفيد كثيراً تحليل القوة النسبية لدى كل من الكتلتين من حيث السكان والمساحة وموارد الثروة الطبيعية . وإجمالى الناتج القومى والقوة العسكرية إلى غير ذلك من العوامل .

وهناك خمس دول محايدة : النمسا وإيرلندا وسويسرا والسويد وفنلندا .. أما يوغوسلافيا فلا يمكن إدراجها تحت أى قسم من الأقسام الثلاثة السابقة .

وجدير بالذكر أيضاً أن أسبانيا ليست عضواً فى حلف شمال الأطلسى وأن أهمية البرتغال بسيطة كدولة متحالفة . وأخيراً هناك اتجاهات محايدة فى كثير من دول حلف شمال الأطلسى على الرغم من أن هذه الاتجاهات غير حاسمة فى الوقت الحاضر .. وهذه الدول هى : الدانمرك والنرويج وإيسلندا وبريطانيا أيضاً . أما اليونان فموقفها غامض وسيظل كذلك لفترة طويلة .. أما تركيا فهى فى حال تغير ثورى أو بالآخرى تغير ثورى مضاد ..

ولما كنا قد أوضحنا جميع النقاط السابقة ، فجدير بنا أن نتحدث عن النقطة الخامسة وهى أن مستقبل أوروبا قد يعتمد كلية على الأحداث

التي تقع خارج أوروبا نفسها . ويرجع ذلك إلى أن انجلترا وفرنسا وباجيكا وهولندا قد تنازلت جميعها عن الكثير من (أن لم يكن جميع) عناصر مركزها الاستعماري في المناطق التابعة لها . وعلى ذلك فقد أصبحت دول كثيرة محايدة أو غير مرتبطة في فترة قصيرة جداً كما أن الحكومات في لدل العديدة الحديثة المتحررة لم تتحمل بعد مسئوليتها كاملة .

وأى طريق سوف تتبع هذه الدول ؟
وما الذى يطرأ على توازن القوى في العالم لو أصبح مثلاً جزء من أفريقيا شيوعياً أو اندفع إلى القوضى ؟
وما مستقبل لاوس أو الكونغو ؟ وماذا عسى أن يحدث في كوبا أو غيرها من دول أمريكا اللاتينية ؟

وعلى أية حال فإن الدول الأفريقية والآسيوية الجديدة لا تريد أن تنحاز إلى أى من الجانبين لو ترتب على هذا الانحياز خطر على حريتها التي نالتها حديثاً . . ولا بد من الاعتراف بأن نصف الدول الأعضاء في الأمم المتحدة اليوم — أو ربما أكثر من النصف — هي دول محايدة وهي تأمل في أن تظل على هذا الوضع بغض النظر عن الضغط الذى تتعرض له نتيجة للصراع الشديد الناشب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي

خامساً — أن القوى المتعددة التي تميل إلى المساهمة في سبيل تحقيق الوحدة الأوروبية وتشجع عليها مثل اتحاد الفحم والصلاب الأوروبي والسوق الأوروبية المشتركة . ولكن في نفس الوقت توجد قوى

تعرقل الوحدة مثل ابتعاد بريطانيا عن السوق الأوروبية المشتركة وكبرياء الجنرال شارل ديغول الوطني .

إن القومية لا تزال تعتبر بلا شك قوة هامة وخطيرة في كل مكان بأوروبا ، غير أن غرب أوروبا قد قطع خطوات إلى الأمام نحو الوحدة الاقتصادية في خلال الخمسة والعشرين عاما الماضية أكثر مما قطعها في خلال القرون الخمسة الماضية ومن المؤكد أن يتبع ذلك بؤادر التكامل في المستوى السياسى ، والحقيقة التى لا خلاف فيها هى أن حدود السوق المشتركة تكاد تكون بدقة نفس حدود إمبراطورية شارلمان باستثناء الحذاء الإيطالى .

سادساً — إن البواعث الديمقراطية تزداد قوة في غرب أوروبا بشكل يبعث على الارتياح ، ففي بريطانيا وجمهورية ألمانيا الاتحادية يتوفر نظام الحزبين السليم أما فرنسا وإيطاليا فهما تخضعان لحكومات ائتلافية ، وديغول على رأس فرنسا ويقابلة أديناور في ألمانيا الغربية ولكن لا يمكن أن نطلق على أيهما لفظ الديكتاتور ، فنذ ربع قرن مضى كانت أوروبا كلها - فيما عدا المملكة المتحدة وفرنسا والدول المحايدة - تخضع لحكام ديكتاتوريين .

أما اليوم فما زال يوجد في غرب أوروبا ديكتاتوران هما ، فرانكو وسالازار وكلاهما في عزلة عن تيارات التطور الأوروبي الرئيسى .

وأخيراً أكرر ما سبق أن ذكرته في بداية هذا الكتاب وهو أنه محاولة تجريبية لمقارنة أوروبا منذ خمسة وعشرين عاما وأوروبا في عام ١٩٦١ ..

أما الحرب العامة فهي بعيدة الاحتمال لأن مهاجمة الغرب ليست من مصلحة روسيا أو من مصلحة الشيوعية ، ويستطيع خروشوف أن يعترض ويمتنع عن الموافقة وهو ينصرف في بعض المناسبات مثل الفلاحين دون لياقة أو بجمالة كما حدث في الأمم المتحدة عام ١٩٦٠ .

ومن الواضح أن سياسته في المدى الطويل تعتبر تهديداً للأسلوب الديمقراطي في جميع أنحاء العالم ولكنه ليس كهتلر الذي كان يريد الحرب وهو غير متعطش إلى الدماء أو يميل إلى الاجرام مثل هتلر ، ولكن الحرب العالمية نتيجة لخطأ أو لسوء التقدير - علي الرغم من كل المحاولات التي تبذل للحيلولة دون وقوعها - فان العالم سيواجه احتمالاً لم يعرفه التاريخ من قبل أبداً وهو القضاء التام .. وقد سئل البروفيسور أنشتين يوماً عن نوع الاسلحة التي ستستخدم في الحرب العالمية الثالثة فأجاب قائلاً : « إتنى لا أعرف .. ولكنني أعرف أن أسلحة الحرب العالمية الرابعة ستكون من الأحجار .. »

من أنباء القناة

توقف تحصيل الرسوم الإضافية على السفن العابرة

أعلنت الأمم المتحدة أنه تقرر وقف تحصيل الرسوم الإضافية على مرور السفن بقناة السويس ، اعتباراً من يوم ١٥ مارس سنة ١٩٦١ .
والمعروف أن هذه المبالغ الإضافية . كانت تحصل بواقع ٣ في المائة من رسوم العبور لسداد النفقات التي تحملتها الأمم المتحدة في سبيل تطهير القناة من آثار العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ .

وجدير بالذكر أن هذه النفقات التي بلغت ٨٤٠٠٠٠٠٠ دولار ، كان قد تقرر تحصيلها في مدى ثلاث سنوات ، ابتداء من ١٥ سبتمبر ١٩٥٨ ، إلا أنه أمكن تغطيتها في سنتين ونصف سنة فقط .

وقد وصفت بعض الصحف العالمية هذا النبأ بأنه كان مفاجأة لها .

ولسكننا ، في هيئة قناة السويس ، لم نفاجأ به على الإطلاق ، إذ أن زيادة حركة الملاحة ، وبالتالي زيادة الرسوم المحصلة ، إنما هي نتيجة طبيعية لأعمال التحسين التي قامت الهيئة بتنفيذها ، دون هوادة منذ التأميم .



من أنباء القناة

استقبل السيد رئيس هيئة قناة السويس ، بمكتبه بالإسماعيلية ، صباح ٦ مارس ، السيد أزهرهوسكو ، وزير التجارة الخارجية الروماني ، وكان برفقته ، كل من السادة رئيس اتحاد الغرف التجارية ومدير اتحاد المصدرين ، ورئيس فرع الشرق الأوسط بمجلس التصدير الروماني . وتحدث إليهم المهندس محمود يونس عن الجهود التي تبذلها الهيئة في سبيل خدمة التجارة العالمية .

مجموعة اخترنا لك تصدر

نصنف شهرية باللغات العالمية
يشارك في تحريرها وإعدادها
لجنة "اخترنا لك"

المراسلات : الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ - شارع عبيد - روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٢١٦٢٥

Bibliotheca Alexandrina



0395827

الثن ٥

عدد ممتاز